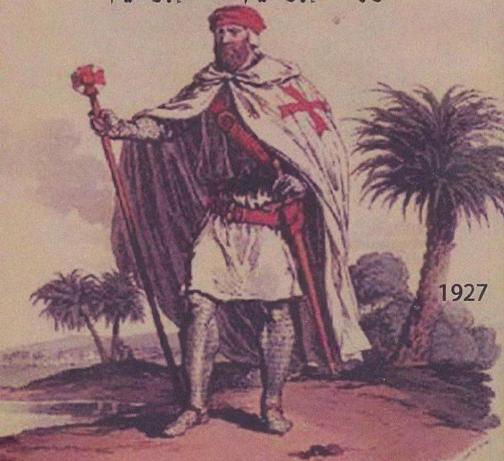
ستيفين هوارث فرسان الهيكل

القصة الأساسية

ترجمة؛ إبراهيم محمد إبراهيم



فرسان الهيكل

القصةالأساسية

تاريف: ستيفين هوارث

ترجمة: إبراهيم محمد إبراهيم



المركز القومى الترجمة إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1927

- فرسان الهيكل: القصمة الأساسية

– ستيفين هوارث

- إبراهيم محمد إبراهيم

- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:

THE KNIGHTS TEMPLAR: The Essential History
By: Stephen Howarth

Copyright © 1985 by Stephen Howarth Arabic Translation © 2012, National Center for Translation

Published by arrangement with The Continuum International Publishing Group

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محقوظة للمركز القومى للترجمة شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٥٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشئون الفنية

هوارث، ستيفين ،

فرسان الهيكل: القمية الأساسية تأليف: ستيفين هوارث،

ترجمة : إبراهيم محمد إبراهيم

ط ١- القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣

۲۹٦ هن، ۲۶ سم

(ب) العنوان

١- القصص الإنجليزية.

(أ) إبراهيم، إبراهيم محمد (مترجم).

ATT

رقم الإيداع ٢٠١٢/١٠٥٦٣

الترقيم الدولى 7 - 131 - 216 - 977 - 978 - 1.S.B.N. والترقيم الدولى 1.S.B.N. 978 - 977 - 216

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

الفهرس

قائمة الصورقائمة الصور	7
تصدير	11
القدمة	13
الجزء الأول: الحرب الصليبية الأولى، وميلاد الهيكل ١٠٩٥– ١١١٨	21
الفصل الأول: الجنود المباركون	23
الجزء الثاني: المبد في أوريا ١١٢٨ – ١١٥٣	51
النصل الثاني: غرباء وحجاجا	53
الغصل الثالث: أوربا والأراضى المقدسة، ١١٢٦-١١٢٨	71
القصل الرابع: كل موهبة تامة هي من فوق	89
الجزء الثالث: الملكة فيما وراء البحر ١١٣١ – ١٣٠٣	107
القصل القامس: مياه حية	109
القصل السأدس: المسلم العربي المثالي	137

القصل السابع: قرون حطين، الأراضى المقدسة	169
القصل الثامن: قلب الأسد	183
القصل التاسع: مذهب الشيطان	211
القصل العاشر: قلعة الحاج	227
الفصل العادى عشر: مياه ميتة	251
الجزء الرابع: الهيكل في أوريا ١١٥٣–١٣٠٣	273
القصل الثاني عشر: ضباط الإمدادات لجيش الحروب الصليبية	275
الجِزْء المُامس: مؤامرة واعتقال ١٣٠٧ – ١٣٠٧	295
القصل الثالث عشر: فيليب الأشقر	297
القصل الرابع عشر: احتفال الغدر	313
الجزء السادس: المحاكمات ١٣٠٧ – ١٣١٤	327
القصل الخامس عشر: ابتداع البراءة	329
القصل السادس عثير: التضحية الجهنمية	349
ملحق الصور	371
شت الداجع	387

قائمة الصور

- ١- قلعة مونتفورت، الجليل الأعلى.
 - ۲- وادى تكوا.
 - ٢- الهيكل في القدس ،
 - ٤ جبل الهيكل .
 - ه- قلعة الحاج، عتليت،
- ٦- الخندق والأسوار في قيسارية.
 - ٧- الأسوار البحرية في عكا.
- ٨- الكتدرائية الكبرى في فيزيلي.
- ٩- فرسان الهيكل عند آلة الحرق،
- ١٠ عملية سجن فرسان الهيكل.
 - ١١- قلعة جروس.
 - ١٢ قرية كورتواراد .
 - ١٣- أسوار إيج مورت.
 - ١٤- البابا كليمينت الخامس.
 - ١٥- القديس لوبس، ملك فرنسا.
 - ١٦- فيليب الأشقر.
- ١٧ رأس حجري محقور لأحد قرسان الهيكل .

زخرفة الجماعة.

تم اختيار بيجاسوس (الجواد المجنح) شعارا الفرسان الهيكل. تذهب الرواية إلى أن رجلين امتطيا جوادا واحدا على سبيل الاقتصاد؛ فأعطى هذا الجواد، من على بعد، انطباعا بأن الجواد له جناحان مرفوعان. والآن فإن بيجاسوس جواد بجناحين ممتدين هما ذراعا الهيكل الداخلي، لندن.

معلمو جماعة الهيكل في القدس.

هیو دی بیان

1117-1111

روبير دي كرون (البيرجندي) يناير ١١٣٦ - ١١٤٥

افار دی بار، ۱۱٤۹

بیرنار دی ترمبلی، ۱۹ اغسطس ۱۱۵۲ – ۱۱۵۲

أندري دي مونبار، ۱۷ يناير ۱۱۵۳ - ۱۱۵٦

بیرتراند دی بلانکفورت، ۲ بنایر ۱۱۵۱ – ۱۱۲۹

فیلیب دی میلی من نبلس، ۱۱۲۹

ودو دی سیان-امان، ۸ اکتوبر ۱۱۷۱- ۱۱۷۹

أرنولد دي توروج، ۳۰ سبتمبر ۱۱۸۰ -- ۱۱۸۶

جیرار دی ریدفور، ٤ أکتوبر ۱۱۸۶ - ۱۱۸۹

روبیر دی سابل ۲۸ أکتوبر ۱۱۹۱ – ۱۱۹۶

خىلىس ايرىل، ۲۱ دىسمبر ۱۱۹۶ – ۱۲۰۱ فىلىپ دى بليزى، ۱۲ فيراير ۱۲۰۱ – ۱۲۰۹ ویلیام دی شارتر، ۲۵ أغسطس ۱۲۱۰ – ۱۲۱۹ بیدرو دی مونتاجیو، ۲۸ بنایر ۱۲۱۹ - ۱۲۲۲ ارمان دی بیراجور، ۱۷ أکتوبر ۱۲۲۲ - ۱۲٤٤ ریشار دی بور، ۹ مایو ۱۲٤۶ – ۱۲٤۷ ویلیام دی سوتاج، ۱۱ فیرایر ۱۲٤۷ – ۱۲۵۰ رینو دی فیشیی، ۲۰ بنایر ۱۲۵۰ – ۱۲۵۹ توماس بیرار ، ۲۵ مارس ۲۵۲۱ – ۱۲۷۳ ویلیام دی بوجی، ۱۸ مایو ۱۲۷۳ – ۱۲۹۱ تيبالد جودان، ١٦ إبريل ١٢٩١ – ١٢٩٣ جاك دي مولي، ۱۸ مارس ۱۲۹۳ – ۱۳۱۶

تصدير

لقد مرت نحو سبعمائة سنة منذ أن حل البابا كليمينت الخامس جمعية فرسان هيكل سليمان. ومنذ ذلك الوقت رويت قصتهم عدة مرات، ومن المحتمل أنها سوف تروى مرات أكثر، ذلك لأنها حكاية تضم جميع عناصر التاريخ الرومانسية؛ إذ إنها وقعت في أماكن غريبة، وأزمنة عجيبة، وبها شخصيات تملك أسمى المثل، كما أن بها أعمق أمثلة الفساد، وتتفشى فيها الأسرار.

وينبع الكثير من الغموض الذي يحيط بغرسان الهيكل من نقص المعلومات، ومن الكثير من الكتاب الذين أطلقوا العنان لخيالهم بالتصرف في الحقائق المعلومة، وبذلك قدموا افتراضا تحت قناع التاريخ، ذلك أن جمعيات النخبة الغامضة السرية – كما كانت فرسان الهيكل – دائما ما كانت تفتن عقول أولئك الأشخاص الذين لم يكونوا من أعضائها: فالمرء يتخيل ما يحبه، دونما خوف من أن يعارضه أحد. وهذا شيء طيب عند كتابة الروايات، أما في التاريخ فهو، في أحسن الفروض، يعد مضيعة للوقت، وفي أسوأ الفروض يعد شيئًا مضللا على طول الخط. ولكن، لأن فرسان الهيكل كانوا ظاهرة تاريخية وليسوا ظاهرة أسطورية، فإن معلومات حقيقية تظهر في دائرة الضوء باستمرار مبددة بعض الألغاز والأشياء غير المؤكدة، وإن لم تبددها جميعا. ومع البزوغ البطيء للمعلومات من غبار المحفوظات والمكتبات، تصبح دوافع فرسان الهيكل أولئك الرجال الغرباء، الذين كانوا في وقت من الأوقات فرسانًا ورهبانًا، أمورا أكثر قابلية للفهم وتصبح القصة غير عادية أكثر من ذي قبل.

لقد مر جيل منذ أن كُتب آخر سرد كامل لتاريخ فرسان الهيكل. أما الموجز الذي فرضته على نفسى، فهو أن أقدم، في حدود المساحة المتاحة، صورة تتسم بأكبر قدر

من الدقة لميلاد وحياة هذه الجماعة غير المسبوقة وموتها المفاجئ، إزاء قرنين من التغيرات في مجتمع العصور الوسطى. وإذا ما استمر البحث في فرسان الهيكل، فإن الجيل القادم سوف يجد أن الأشياء التي أعتقد أنها حقيقية مضللة. اذا فإني أعد هذا الكتاب مرحلة انتقالية وهو يعبر عن حالة ما يعرف عن فرسان الهيكل في الوقت الراهن. ذلك أن تاريخ الجمعية على درجة من التعقيد – وأحيانا من الغموض حتى أنك لا تكاد تجد مؤرخين يتفقان في كل نقطة تتعلق بهم. أذا فحين كنت أقوم بالبحث من أجل كتابة هذا الكتاب شعرت بتعاطف عميق مع توماس فوار، ففي عام ١٦٣٩ نشر كتاب تاريخ الحرب المقدسة، وفي مرحلة معينة قال بياس، "يجب أن أقر بأنه ليس في مقدوري أن أخلص بأي اتفاق من تضارب الكتاب.".

أما أنا فقد خرجت بأكبر قدر ممكن من الاتفاق من الكتاب والدارسين الآخرين في هذا المجال؛ وسوف يظهر مقدار ما أدين لهم به في ثبت المراجع، وعلى أن أقدم الشكر لهم جميعا.

كما يجب أن أعبر عن شكر خاص للأنسة مادئين كينسيلا وهيئة العاملين في معهد دراسات العصور الوسطى بجامعة فيليب في ماربورج، بثلاثيا الغربية على مساعدتهم وتعاونهم في تأليف هذا الكتاب؛ وأقدم الشكر لأصدقائي، بوب وهانا وأندرو موتز على ترجماتها وأيضًا على ما تحلت به من صبر وما قدمته من حب ومساندة.

والآن، كما كتب القديس بيرنارد، من حق قرائي أن يكون لهم الحكم على ما قدمت بما أنه من المستحيل على أن أنال رضا الجميع، وأتمنى أن يجده القراء قصة جيدة، تمت روايتها بدقة لأن هذا هو كل ما حاولت عمله.

ستيفين هوارث

المقدمة

رماد إلى رماد باريس ۱۸ مارس ۱۳۱٤

هكذا كانوا يسيرون، ويتحدثون في كل شيء بجدية لكنهم لم يكرنوا يجنون أملا في أي شيء سوى الله.

الإخسوة

كان مزاج المدينة متقلبا غير ثابت. وكان الناس يتكهنون بهدوء وحدة في الشوارع والنزل، أو في أأمن منازلهم فيما يأتي به الأصيل من أحداث. وكان في الإمكان سماع صوب هنا أو هناك يرتفع للثناء على فضائل الملك، والقليلون يجادلون؛ ذلك أن كلمة تقال دون حذر تعد خيانة. كان فيليب شابا وسيما - يقول الناس إنه في جمال التمثال، ولم يكن في مقدور أحد أن يسبر كوامن ما يفكر فيه. لقد كان جده لويس التاسع قديسا وقد علق بعض من الرهبة والتوقير الذين كانا للويس بفيليب؛ ولكن حين كانت الرعية تفكر في فيليب، كان الخوف يختلط بالرهبة، ذلك أن قبضته على شعب فرنسا لم تكن تلين، وفي عصر كان الترحال فيه بطيئا، ووسائل الانتقال ضعيفة، كان رجال شرطته ينبثون في كل مكان ويتحلون بدرجة عالية من الكفاءة. فعن طريق عملائه، تم اختطاف أحد البابوات، وتم التنديد به في فرنسا باعتباره يمارس السحر الأسود، وتم انتخاب بابا أخر كي يحكم ليس في روما بل في مدينة أفينيون، وقبل ما لا يزيد على ثمان

سنوات - وكانت الذاكرة ما زالت حية - تم القيض على كل يهودى في فرنسا بأمر الملك في ليلة واحدة. لقد كان فيليب صديقًا بارد المشاعر، وعنوا خبيثًا يتسم بالشر ولا يهدأ.

ولم يكن سكان باريس على ثقة إلا من شيء واحد: في ذلك الأصيل من مارس، حيث لم يكن الشتاء قد ولي، ولم يكن الربيع قد حل، إن حربا سوف يتم حسمها -وهي حرب امتدت معاركها عبر سنوات سبع من التعذيب والمحاكمات والمكائد. ولم يكن القبض على اليهود وطردهم سوى تدريب (بروفة) للاستعداد لحركة أكبر، ففي فرنسا في بداية القرن الرابع عشر، كانت هناك جماعة تضاهي قوتها قوة الملك؛ جنود يسوع المسيح الرفاق الفقراء، فرمسان هيكل سليمان. فعلى ما يقرب من مائتي عام كان فرسان الهيكل، يستراتهم البيضاء المربوطة بالأهزمة ويزينها صليب الاستشهاد، يمثلون أسمى مثل المسيحية؛ فكانوا أول جماعة مسيحية، وهي إخوة من الرهبان والغرسان المقاتلين الذين كرسوا حياتهم من أجل المسيح والإيمان بالمبادئ الثلاثة وهي الفقر، والعفة، والطاعة، فيعد أن أسست الجمعية في القدس عام ١١١٨ (أو ١١١٩؛ فالتاريخ الدقيق غير مؤكد، أقسموا باسم الله أن يدافعوا عن الأراضي المقدسة ويحموا الحجاج في رحالاتهم الطويلة. وقاتلوا باسم الرب في كل جزء من أجزاء الأراضي المقدسة؛ وتحت قيادة القديس لويس، جد فيليب، حاربوا الهراطقة (يقترح المترجم استخدام اصطلاح المبتدعين، حيث إن ما يقول به الهراطقة هو الابتداع الذي يقال إنه ضلالة وكل ضلالة في النار) في فرنسا، والعرب المسلمون في جنوب وشرق البحر المتوسط؛ وفي إسبانيا كانوا يدحرون المغاربة بتؤدة ويعيدون الأراضي لاسم المسيحية. وكانت منازلهم وقلاعهم من أقوى وأسلم المباني التي عرفها ذلك الزمان؛ وكانت جيوشهم هي الوحدات الوحيدة المقاتلة التي تنعم بالانضباط والتنظيم في العالم الغربي. وكثيرا ما عمل فرسان الهيكل بوصفهم مبعوثين يوثق بهم من جانب لويس نفسه؛ فكان أمين خزانة الفرسان هو المتلقى والوصى على العوائد الفرنسية الملكية؛ بل إنه في إحدى المرات لجأ لويس إلى أحد معابدهم هربا من دهماء متمردة

وقضى ثلاثة أيام فى باريس، غير أن ذاكرة الملك يمكن أن تكون ضعيفة متى شاء. وبعد خمسة عشر شهرا من القبض على اليهود، كان كل فرد من فرسان الهيكل فى فرنسا قد تم القبض عليه، ومرة أخرى فى ليلة واحدة. واتهم فرسان الهيكل، أتباع الفروسية المسيحية أفراداً وجماعة، بارتكاب جرائم فظيعة؛ فندد فيليب بهم، باعتبارهم مبتدعين وكفاراً وخونة ومرابين ولوطيين، ووثنيين. لقد حدث القبض الجماعى عليهم فى عام ١٣٠٧، واستمرت المحاكمات لمدة سبع سنوات. وأخيرا بدا أن النهاية قريبة ذلك أنه قبيل عيد الميلاد لعام ١٣١٧، كان البابا كليمينت الضامس قد خول ثلاثة من الكرادلة الفرنسيين بالذهاب إلى باريس نيابة عنه، لقبول الاعترافات الأخيرة لأكبر مستولى الهيكل. وكان الكرادلة هم أرنولد نوفيلى، الذي كان في وقت من الأوقات راهبا في دير سيتو، ونيكولا دى فرينفى، وكان سابقا متلقى اعترافات الملك، ويعد أحد مستشاريه؛ وأرنولد دى فارج، ابن أخى الملك. إذن فقد كانت محسوبية كليمينت فاضحة.

ومع مقدم مارس من عام ١٣١٤ كان كل شيء جاهزًا، وفي صباح اليوم الثامن عشر، كان النجارون منشغلين بعملهم بجانب نوتر دام. وفي ظل الكندرائية نفسه كان هناك مكان رهيب مرعب قد بني من أجل ما سوف يجري في الأصيل: هناك منصة عالية المقصلة؛ وبجانبها منبر أكثر ارتفاعًا؛ وعن كثب، هناك مجموعة من العربات المتلئة بأعواد الحطب، وأفرع الأشجار.

وعند الظهر، كان الصعت يخيم على الجزيرة، وكان مسرح الأحداث خاليا، واكن في المدينة كان الجو معبأ بالتوجس، وبدا أن الجرائم التي نسبها الملك إلى فرسان الهيكل شيء لا يكاد يصدق. ويعلم الرب أن الملك من القسوة والرغبة في الانتقام مما يجعله يتوسل بأي وسيلة كي يصل إلى غاياته؛ ولا يعلم إلا الله ماذا كان داخل عقله من تدابير. ومع ذاك، فقد أطلق عليه وزراؤه اسم المدافع عن العقيدة؛ ذلك أنه عن طريق نفوذه تم انتخاب بابا فرنسي، وأدلى القرسان باعترافاتهم. كان كل شخص قد سمع من مصدر أو آخر، أما في هذا المساء، فلفوف يسمعون عن هذا الأمر بأنفسهم؛

من شفتي المعلم جاك دي مولى. وبعد الظهيرة بوقت قصير، حضر أعضاء الجمهور على الجسور إلى الجزيرة ينظرون بحذر إلى الحرس المستفين حول المقصلة. وجاء المزيد والمزيد إلى أن امتلأت الجزيرة الصغيرة. واضبطر الحرس إلى أن يبعدوا الناس كي ، يفسحوا ممراً. وخيم الصمت على الجماهير في هواء قارس البرودة، ثم حضر الكرادلة الثلاثة في موكب مهيب، يتبعهم أسقف سان، وعدد من الأساقفة وعدد من رجال الدين من مراتب أدني. واتخذوا جميعا مقاعدهم واثقين من السلطة التي يسبغها عليهم ما يرتدونه من مسوح، وواجه رجال الكنيسة ورجال المدينة بعضهم بعضاء كانت إحدى الجماعتين تجلس هادئة واثقة من نفسهاء أما الأخرى، فكانت تقف متعبة تشعر بالبرد ويداخلها الشك وعدم اليقين. ثم سرت رعدة تكاد تكون مسموعة بين المشاهدين. إذ كان الموكب الثاني يقترب: كان مصاطا بصرس من الخلف ومن الأمام، أما في منتصف الموكب، فكان هناك أربعة أشخاص ملتحون في ملابس بالبة، مجرد أجسناد هزيلة وضبعت في الأصفاد. هؤلاء هم: هيو دي بيررو، أمين خزانة الهيكل، وزائر دار فرنسا الدينية؛ وجيفري دي جونفيل، معلم أكيتان؛ وجيفري دي شارني، معلم نورماندي؛ وجاك دي مولى، المعلم الأكبر للهيكل. قبل ذلك بسبع سنوات، وبأوامر من البابا كان دي مولى قد وصل إلى باريس يصحبه ستون من الفرسان. ولم يكن شخصنا بارزا يمكن التعرف إليه بالنسبة لم رأوه. فجلجات غمغمة سريعة من الصدمة والتعاطف بين المتجمعين من أهل باريس وهم يسألون بعضهم بعضا عما إذا كان أولئك هم الفرسان القدسيون الذين يتذكرونهم. وانطلقت أصوات أولئك الذين هم أكثر صلابة من غيرهم وصاحوا – خوبة، مبتدعون، كفرة – ولكن حتى أولئك قد أسكتهم الصمت الرهيب الذي خيم على الجماهير التي تشاهد الحدث، وصعد السجناء سلالم المقصلة ببطء وألم وهم يحملون أصفادهم ووقفوا جنبا إلى جنب. وصعد المنبر واعظ ينطق باسم الوفد البابوي وبدأ خطبته. وتحدث أولا عن حماس البابا في الدفاع عن الكنيسة في مواجهة التدنيس الذي يمارسه المبتدعون؛ وذكر سامعيه بنزاهة بل وغيرية الملك؛ ثم أخذ يسرد القائمة البائسة من الجريمة والخطيئة. وبينما كانت القائمة البشعة تقرأ، كان العمال بجانب المقصلة يعنون أربعة خوازيق للحرق ويكدسون الحطب حولها، فإذا عاد السجناء عن اعترافاتهم، فهم يعرفون ثمن ذلك، واستمع هيو دى بيرو وجيفرو جونفيل بفتور وهما يشاهدان الركام المتزايد من الحطب، أما دى شارنى، فوقف بثبات تحت نير أغلاله، ومولى فقط هو الذى سدد نظرة ازدراء إلى الكرادلة والمتحدث باسمهم.

وأخيرا بلغ خطاب المتحدث ذروته. وأعلن أن السجناء اعترفوا بأنهم مبتدعون. إذ إنهم دنسوا الصليب المقدس ونكصوا عن يمينهم المقدس؛ وبدلاً من أن يقاتلوا من أجل المسيح، عملوا بكل طريقة خبيثة ماكرة يمكن تخيلها من أجل عدو المسيح. غير أن رحمة البابا كانت عظيمة وإذا ما أكد المخطئون فقط اعترافاتهم، فلسوف يتلقاهم أبونا المقدس في الكنيسة مرة أخرى، وسوف يتعهد خادمه فيليب بأن يبقى الفرسان في سجن دائم بقية حياتهم على الأرض. وختم الواعظ قوله، أما بالنسبة للمبتدعين المرتدين فلا يوجد سوى عقاب مناسب؛ وأشار إلى الخوازيق الموجودة أسفل.

واتجه كل انتباه الناس إلى المقصلة بينما كان السجناء يطلب منهم الاعتراف العلنى، وأكد دى بيرو ودى جينفيل على ذنبهما؛ ولما كانا يتحدثان بصوت خفيض فلم يكد أحد يسمعهما، ثم تقدم جيفرى دى شارنى وجاك دى مولى إلى الإمام نحو مقدمة المقصلة، وتكلم مولى، وقال: "صحيح إنه في يوم فظيع كهذا وفي لحظات حياتي الأخيرة، أنى سوف أكشف عما في الأكاذيب من شر، وسوف أنصر المقيقة، أذا أعلن أمام السماء والأرض وأقسم حتى لو أدى ذلك إلى عارى الأبدى، أنى ارتكبت أكبر الجرائم".

فاشرأبت الأعناق كي يسمع الناس ما يقول، وحملق الكرادلة بدهشة وقلق، إلى بعضهم بعضا - فهذا أكثر من التأكيد البسيط الذي كانوا ينتظرونه، واستمر مولى في الحديث بقوة وصوت مرتفع:

ولكن ُ هذه هي جريمتي: أنني وافقت على الاتهامات التي ألصقت بكل الشر على جماعة يجبرني الحق اليوم أن أعلن أنها بريئة. ولم أقر بالتصريح الذي طلب مني إلا

كى أنجو من التعذيب والمعاناة وكى أثير شفقة من جعلونى أعانى. ذلك أنى أعلم منوف العذاب التى كابدها أولئك الذين واتتهم الشجاعة كى يتراجعوا عن مثل هذه الاعترافات، غير أن المنظر البشع الذى أراه أمامى لا يمكن أن يجعلنى أؤكد كذبة أولى بكذبة أخرى. لذا ففى هذه الحالة البائسة أتخلى عن الحياة عن طيب خاطر؛ فهى مدارت بالفعل كريهة لدى. فما جدوى هذه الأبام الحزينة بالنسبة لى، إذا كان الكذب هو ما جعلنى أفوذ بها ".

فاندفع زحام الناس نحو المقصلة بصبيحة عظيمة؛ وقفز الحراس كي يصدوهم إلى المُلف، وقَـفرُ الكرادلة إلى أعلى في فـرْع وأضطراب وأمسك مندين السنجن ورجاله بالسجناء المعطمين البائسين ودفعوا بهم إلى أسفل درجات المقصلة كأنهم كوم من الأجسياد. وتشكلت جماعة جديدة من السجناء ورجال الكنيسة داخل دائرة من الحراس، واندفعت من خلال الدهماء التي تزاّر وعانوا إلى الجسر ثم إلى المدينة. وكان رد الملك مباشرا: أحرقوهم، ولم يكن في سلملة أحد التصديق على حرق المبتدعين سوى البابا. أما مندوبوه فلم تكن لديهم السلطة، لكن البابا كان بعيدا في أفينيون، وفي كل الأحوال، فإن فيليب لم يكن خادمه - بل إن البابا هو الذي كان ألعوبة الملك. فانتجى الكرادلة وهم يشعرون بالمهانة. وفي ذلك المساء نفسه تم جر دي مولى ودي شارني مرة أخرى إلى نهر السين. وأحاط زحام شديد بكل خطوة من خطوات الطريق؛ وبدأ أن باريس جات عن بكرة أبيها كي تشهد المشهد الأخير. وعلى جزيرة في السين بالقرب من نوتر دام، نصبت محرقتان على عجل. وتم تقييد السجينين بالخوازيق، وهما يصرخان ببراءتهما وبراءة الجماعة بأكملها. ولم يكن شيء معهم، إذ لم تستطع توسلات أصدقائهم أو تهديدات رجال الملك زحزحتهما عن موقفهما، بل هما الذان طلبا الإسراع بالنهاية. ولكن حتى أخر لحظة، ظل وزراء الملك يحاولون الحصول على اعتراف: وقبل إيقاد النار في الخشب، تم تكديس الفحم الحي حول الرجلين، وأمام الآلاف من المتفرجين تم سلقهما وهما على قيد الحياة – ومع ذلك ثابرا وهما يهتفان ويصرخان ضد الظلم، ويعلنان براعتهما ويلعنان البابا والملك باعتبارهما أدوات وحين لف الدخان الخانق فيليب، حملق بلا مبالاة في الجسدين اللذين كانا يتلويان وأصفى إليهما وهما يصبان كراهيتهما له، ويزاران بمحبة المسيح ومحبة الصدق. وأخذ يتقرج، وهو ثابت لا يتغير كالحجر، حين كان الخشب يشتعل واللهب يتجمع؛ وبقى إلى أن لم يبق شيء سوى كومين من الفحم المحترق المتزايد مع هبوط الليل على باريس. عندئذ فقط، غادر المكان؛، عائدا إلى قصدره، ربما كي ينام. ووضع الحراس على الجسر المؤدى إلى الجزيرة.

ولكن إذا كان فيليب قد نام، فإن آخرين كانوا يقظين. ذلك أنه في أثناء الليل، انسل بعض الرهبان إلى النهر، وسبحوا حتى الجزيرة، وهناك تحت جنح الظلام فتشوا في الرماد والقحم الساخن، وعادوا سباحة وهم يمسكون في أفواههم العظام المرة اللاذعة لمعلم نورماندي ومعلم أخر أكبر.

الجزءالأول

الحرب الصليبية الأولى وميلاد الهيكل ١٠٩٥-١١١٨

الفصل الأول

الجنود المباركون

هل ستكافح من أجل الرب سفر أيوب ٨١٣

فى الأسبوع الأخير من توفمبر عام ١٠٩٥ بدأ عصر جديد فى أوربا: عصر الحروب الصليبية. فلمدة سبع سنوات منذ انتخاب البابا إيربان الثانى على الكرسى المقدس عام ١٠٨٨ عمل بصبر من أجل إعادة توحيد المسيحية الغربية. ولم يكن الصبر وحده هو الأمر الضرورى، بل اللباقة أيضًا، لأن جريجورى السابع – ألمع أسلاف إيربان المباشرين – ادعى مرارا السيادة الزمنية على جميع ملوك المسيحية، واعترض الكثيرون منهم على ذلك. كما لم تكن وراثة إيربان أكثر سهولة بوجود منافس – هو جليبيرت، المعادى للبابا، الذي كان يحكم في روما، حكما غير شرعى منتخبا من جانب أعداء جريجورى الميت. لكن نفوذ جيلبيرت كان محدودا؛ وتمكن إيربان ببطء عن طريق المثابرة والدبلوماسية والجهد والتنظيم والاستخدام المستمر للحكمة من الفوز بالولاء الروحي لجميع مسيحيي الغرب تقريبا. وبعد أن فاز بهذا الولاء كان له أن يستخدمه الدولاء كان له أن يستخدمه لقد كانت المسيحية الغربية لقرون، منفصلة عن مصدرها أي مدينة القدس المقدسة. لقد كانت المسيحية الغربية القرون، منفصلة عن مصدرها أي مدينة القدس المقدسة. للإسلام. وقوق ذلك، لم يكن مسيحيو الشرق الأرثوذكس يتطلعون إلى البابا للزعامة الروحية وإنما لإمبراطور بيزنطة في القسطنطينية؛ بل حتى قبل فتع القدس، كانت طوائف غير أرثوذكسية مختلفة مبتدعة قد نشئت لم تعترف بالبابا أو الإمبراطور. وكان طوائف غير أرثوذكسية مختلفة مبتدعة قد نشئت لم تعترف بالبابا أو الإمبراطور. وكان

من أهمها النسطوريون، واليعاقبة والأقباط. والنسطوريون كان مقرهم سوريا، ولديهم بعثات تبشيرية امتدت شرقا حتى الهند، والصين وفصلوا طبيعة المسيح الروحية عن الإنسانية؛ أما اليعاقبة والأقباط، فقد أكنوا على طبيعتها الروحية إلى الحد الذي أنكروا معه إنسانيته تقريبا. وقد نشأ كل من اليعاقبة والأقباط عن طائفة مبتدعة، هي التوحيديون التي أسست في القرن الخامس؛ وكان الفرق الرئيسي بين الاثنين هو أن اليعاقبة، مثلهم مثل النسطوريين، مقرهم سوريا، أما الأقباط فكان مقرهم مصر. وكان هناك أخرون، المانويون، والغنوصية، والأرمن، – فمع مريج الكنيسة الشرقية، وجماعات المبتدعين والأعداد الغفيرة من المسلمين، لم يكن هناك أي جزء في شرق المترسط يمكن البابا فيه أن يزعم السلطة لنقسه.

ووجد معظم المسيحيين الشرقيين هذا الترتيب ترتيبًا مرضيًا تمامًا. ذلك أن الأرثوذكس كان لهم مدافع من غير رجال الدين متمثل في الإمبراطور البيزنطي؛ الذي كان يمثل بالنسبة لهم رمز الوحدة المسيحية؛ وبعد سقوط القدس وجدوا هم والمبتدعون مما كان مبعث دهشتهم إلى حد ما، أن الحكام المسلمين الكفار يتصفون بالعدل والتعقل. إذ كانت الضرائب أخف بكثير مما كانت عليه تحت السيطرة المسيحية، وطبقا لشريعة النبي محمد أعطى أهل الكتاب – المسيحيين واليهود – حرية العبادة. ولمدة ثلاثة قرون ونصف قرن، على الرغم من نوبات من الحرب وأحيانا الاضطهاد المتبادل، وجدت الشعوب التي تتبع الديانات المختلفة أسلوب حياة محتمل؛ ثم بدأت الإمبراطورية البيزنطية تنمو مع فتح جيوش الأباطرة لتالماتيا، وجنوب إيطاليا، وسوريا، بل ووصلت جنوبًا حتى قيسارية.

ولم تكن مثل هذه التطورات لتبعنى الكثير لمعظم الناس في أوربا. إذ كانت المواسم هي التي تتحكم في الحياة، وكانت الحياة بالنسبة لغالبية الناس كفاحًا دائمًا مريرًا. ذلك أن العبودية كانت ما تزال موجودة في عام ١٠٠٠ وكان الفلاحون، أي الأحرار، حالهم أفضل قليلا من عبيد الأرض؛ وحتى الأغنياء، الذين لم تكن ثروتهم مالا وإنما أشياء عينية تقريبا كانت حياتهم بالنسبة لنا، حياة صعبة قاسية خشنة غير

مستقرة. فكانت المستوطنات صغيرة تفصلها مساحات شاسعة من الفابات؛ وكان السفر خطرا بالغ البطء شديد الصعوبة. فكان الشخص يعيش ويموت في القرية التي ولد فيها. وكانت ثلاث قوى كبرى هي التي تتحكم في حياته: الحاجة إلى الطعام، الذي عَتَلَ فِي الفَابِة، أو يجلب بطريقة غير كفأة وخشنة من التربة؛ وواجبه نمو السيد المحلى مالك الأرض؛ والحاجة إلى سلامة نفسه. ذلك أن المسيحية بالنسبة الكثيرين من الناس، قبل الألفية كانت ديانة تتعلق بالذنب، والإله المسيحي كان إله غاضب رهيب. وكان هناك أناس أمثال القديس أوغسطين يفهمون جمال محبة المسيح؛ ولكن في عام . . . \ كانت غالبية الناس من البسطاء القساة يعتقدون أن المسيح في لحظة يمكن أن منزل وينتقم من هذا العالم الخاطئ، ولكن حين مرت الألفية دون أية كوارث واضعة، جلب القرن الحادي عشر المزيد من الشعور بالراحة. ففي النصف الأول من القرن جاء التنظيم الاجتماعي أكثر رسمية وأقل ارتكازا على الجهل، والغريزة والحاجة المباشرة. ومنذ إنشاء بلدة كلوني عام ٩١٠ ميلادية، حاول الرجال في الكنائس والأديرة تحرير أنفسهم من تدخل العلمانيين وعرف المجتمع الإقطاعي في القرن الحادي عشر على أقل من ثلاثة نظم أو طبقات اجتماعية متمايزة – الفلاحين والنبلاء ورجال الدين. ومع مقدم ١٠٥٠ تقريبا كان من المكن إشباع وأحدة من الاحتياجات الأساسية: ذلك أن كل شخص تقريبًا كان لديه ما يكفى كي يأكل. لكن السلام كان ما يزال وضعا لا يمكن تخيله. فكلما زاد الطعام زاد الناس، وبينما كان الفلاحون يعملون ورجال الدين يصلون، كان النبلاء والفرسان يتقاتلون.

وبعد دخول الفارس بشكل رسمى وطقسى إلى طور الرجولة والانتماء إلى طبقة الفرسان كان الواجب الوحيد الذى يعترف به هو الصراع والقتال. وكان معنى ذلك، نظريا، أن يحمى السكان العزل ويدافع عنهم في مواجهة أي جيش أجنبي معاد، أما من الناحية العملية فبما أن الغزوات لم تكن حدثًا يوميا يكون معنى ذلك عمليا مقاتلة أي شخص يطاله السيف. فالفارس لم يكن يتدرب إلا من أجل الحرب، وكان في كل خطوة يتعلم أن كل شيء دون مستواه. إذ إن السلاح والدرع والجواد وضعته بشكل

باد للعيان فوق الناس العاديين، وتدريبه يتطلب متنفساً. ومع أن الصبيد أو القنص مكن أن يوفر ظروف المعركة فإنه مجرد محاكاة؛ ومن الضروري وجود مناوئين من البشر. وفوق ذلك، فإن نمو توريث الابن الأول أعطى كل جيل من الأجيال المتعاقبة من نبلاء القرن الحادي عشر عددًا متزايدًا من الأبناء الأصغر سنًا، المعدمين، وبالتالي المفلسين، الذين لا يملكون سوى حرفة واحدة: الحرب. وفي محاولة الكنيسة الحفاظ على قدر وإن ضبئيل من النظام، أنخلت "سلام الرب" الذي أعطى حصانة من الهجوم للفلاحين، ورجال الدين، والأماكن المقدسة؛ و "معاهدة الرب" التي منعت أي قتال في أمام العطلات الدينية (يوم الأحد) وفي أثناء الصوم الذي يسبق عيد القيامة. ولكن، للأسف لم يكن كل شخص مستعدًا القتال حسب جنول، فسقطت نظرية السلام أمام ممارسة العنف. فوجد الكثير من الناس من جميع الطبقات مهريا من أسلوب الحياة المقيد بأن يصبحوا حجاجا ويزوروا واحدًا أو أكثر من المراكز الخنسة التي توجد بها أضرحة مسيحية – القديس جيمن في كومبوستيلا، والقديس ميكل في مونتي جارجانو، وروما والقدس، والقسطنطينية. وكانت الرحلة إلى أي من هذه الأماكن تستغرق أشهرا، أما الجولة إلى جميع هذه الأماكن من المكن أن تستغرق سنوات؛ ولهذا السبب جزئيا أصبح القيام بحج طويل حكما مقبولا على الأشرار الخارجين على القانون. إذ لم يكن الخارج على القانون يكفر عن خطيئته فحسب، وإنما أيضا يتخلص المجتمع الذي حكم عليه منه لمدة طويلة. بل كانت هناك فرصة جيدة بالاً يعود مطلقا على قيد الحياة. وكانت الكنيسة تبارك وتشجم على رحلات الحج سواء منها الطوعية أو الإجبارية؛ لكن هذه الرحالات كانت أيضًا تقوم بمهمة التذكير بمشكلتين غير سارتين. أولا، كان السبب في قداسة القسطنطينية هو أن بهذه المدينة، وهي أكبر من أي عاصمة أوربية عشر مرات، الآثار الرئيسية للمسيح من تاج الأشواك وقطعة قماش يقال إنها تحمل أثار وجه المسيح. ولا بد أن الكثيرين من البابوات علموا باليوم الذي تأتى فيه هذه الآثار إلى روما، لأن وجودها في القسطنطينية يؤكد على الخلاف بين الكنائس الشرقية والكنائس الغربية. وفي منتصف القرن المادي عشر أصبح الشجار بين الاثنين أكثر سوءًا من المعتاد، وحرمت كل من روما والقسطنطينية هي الأخرى من الكنيسة.

وكانت المشكلة الثانية توجد خلف القسطنطينية. إذ كان في وسم الصجاح المسيحيين النين يصلون إلى القدس زيارة الأضرحة المقدسة، لكن ذلك يتم بعد دفع خبريبة المسلمين. لقد كان السفر النولي في القرن الحادي عشر مسألة سهلة محددة مقاييس الماضي. وفي عام ١٠٨٨، حين انتخب البابا إيربان الثاني كان الإسلام قد حكم القدس لأربعمائة وخمسين سنة، وأولئك المسيحيون الغربيون الذين كان هذا الأمر يهمهم تحملوا ذلك الانفصال لأنهم لم يكن في إمكانهم فعل الكثير. لكن، مم اقتراب القرن من نهايته، بدا أنهم يمكنهم فعل شيء ما؛ واستعد إيربان كي يعلن خطته ولم تكن الفكرة القائلة بأن القدس يجب أن تخص المسيحية دون غيرها فكرة حييدة. ففي عام ٦١٤ استولى جيش فارسى على الدينة، كي يطردهم الإمبراطور البيزنطي هرقل الأول بعد ذلك بخمس عشرة سنة، وفي النصف الثاني من ذلك القرن، حاول إميراطوران أخران، هما نيسفوراس فوكاس، عام ١٦٤ وجون تزيمسيس عام ٩٧٤ تكرار ما أنجزه هرقل، واستخدم كلاهما خطا دقيقًا من الكلام الرنان: إذ قال نيسفوراس: "احذروا يا من تعيشون في رمال الصحراء! سوف أتحرك ضد مكة وأقود جماعات هائلة من المحاربين كظلام الليل. وسوف استولى على هذه المدينة كي أشيد هناك عرش الرب. ثم سناتجه إلى القدس، وسوف أفتح الشرق والغرب وسوف أشيد في كل مكان رمز الصليب". وبعد ذلك بعشر سنوات قال جون تزيمسيس: "إن رغبتنا هي تحرير الضريع المقدس من فظاعات السلمين." ولكن على الرغم من أن كليهما حققا نجامًا كبيرًا - إذ كان نسيفوراس قائدا بارزا - لم يحقق أيهما الهدف النهائي، وظلت القدس في يد السلمين. وبعد ذلك بأقل من خمسين سنة في عام ١٠١٨، بدأت المسيحية الغربية استعراض عضالاتهاء حين ضم النبلاء والمغامرون الفرنسيون والإسبان قواتهم ضد المسلمين في إسبانيا. وسرعان ما اكتسب المسراع مكانة الحرب المقدسة، وشعر الجنود بالإغراء في الاتجاه جنوبًا أملًا في أراضي جديدة والوعد بصكوك غفران من البابا.

واستمرت الحرب في إسبانيا على مدى القرن العادى عشر، ومع نهاية القرن لم تكن الجيوش المسيحية أبعد من بلدتي خويسكا وبارباسترو في أرجون على بعد ما

يقرب من خمسين ميلا من حدود فرنسا الحالية. ولم يكن ذلك مسافة كبيرة لكنها كانت تكفى كى تجعل المزيد من التقدم يبدو أمراً ممكنًا؛ وتظهر أن المسلمين يمكن أن يهزموا. ويمجيء عام ١٠٧٥ كان البابا جريجورى السابع يحلم بالسيادة المتامة على الشرق والفرب. وداخل عقله نهضت روما جديدة، كى يحكم العالم من خلال الدين. عندها ستعود القسطنطينية إلى الحظيرة؛ وتصبح القدس مسيحية مرة أخرى؛ وينحنى كل ملك من ملوك البلاد المسيحية للحبر الأعظم فى روما. غير أن جريجورى لم يكن دكتاتوراً محتملا؛ لم يكن طموحه حكم الجسم السياسى - وكان دائما يقول هذا عمل الملوك والوزراء. وكان يمتلك اعتقادا لا يتزعزع بأن الأمور الروحية يجب أن ترشد حياة كل إنسان، وأن وحدة المسيحية يجب أن تكون واقعا، وليس مجرد مثال، لقد أظهر بهذا نزاهة تامة، نزاهة اعترف بها أعداؤه. ولكن حين توفى عام ١٠٨٥، كان له أعداء كثيرون، لأن الحماس الحار والبساطة اللذين كانا يتحلى بهما جعلا منه سياسياً سبنًا.

وربما كان من حسن حظ الكرسى المقدس أن من خلف جريج ورى شخص ضعيف لا لون له، هو فيكتور الثالث، ولم تدم مدة فيكتور أكثر من عامين – فقد مات في سبتمبر عام ١٠٨٧ – لكنها أتاحت وقتا الكثير من الغضب والحنق اللذين نجما عن التجاهات جريجورى التي لا تلين كي تخبو، ومع ذلك، ظل أعداء جريجورى يؤيدون "البابا" الخاص بهم، وكان على من خلف فيكتور أن يواجه الكثير من المشاكل.

لم ينعقد مجمع خاص فى شتاء عام ١٠٨٧، ولم ينتخب إيربان الثانى إلا فى مارس من عام ١٠٨٨ فى البداية لم تكن لديه أية فكرة فى أن يحقق حلم جريجورى؛ إذ كانت الأولوية بجب أن تولى للمسيحية الفربية، التى ما زالت تمزقها ردود الفعل المضطربة على مطالب جريجورى بأن يخضع الجميع للبابا. وكان إيربان، مثل جريجورى، بعيد النظر، لكن التشابه بينهما يقف عند هذا الحد.

كانت طبيعة إيربان تتسم بالتأمل والصبر؛ ولم يكن يسعى إلى تحقيق أهدافه عن طريق الإجبار الروحى وإنما عن طريق الإقناع، كان طويلا وسيما مهذبا، ولطيفا، مع

أنه كان قاسيًا ولا يتزعزع بطريقته الخاصة، وكان يوحى بالاحترام ولا يطلب الإخلاص، وهكذا، فحسب الطبيعة البشرية، فاذ أخيرا بإخلاص الكثيرين واحترام الجميع.

إن تاريخ مواده غير مؤكد لكنه حوالي عام ١٠٤٢ وهو ينصدر من عائلة دي الجيري النبيلة في شاتيون— سير— مارن وتلقى تعليمه في سان برونو. وبعد أن وصل إلى منصب مساعد الأسقف في كاتدرائية ريمز وهو بعد شاب انضم إلى الدير في كلوني. في ذلك الوقت، كان هذا الدير قد أصبح أحد أعظم الأديرة في الغرب، إذ كان يدعم ويشجع على رحلات الحج إلى جميع الأماكن المقدسة ويعارض أي تدخل من السلطة الزمنية في الحياة الدينية. وظل كلا هذين التأثيرين مع إيربان، وكلاهما ظهرا بشكل درامي مثير عام ١٠٩٥، كان الأول في مارس، في بياتشينزا في شمال إيطاليا. تماما بعد سبع سنوات من انتخابه كان هذا أول مجلس كبير دعا إليه إيربان. وقد شكل هذا التأخير قدرًا من الصعوبات التي كان عليه أن يواجهها؛ وكان تصرفه يعبر عن قدر من القوة التي كان يستشعرها لأنه في ذلك المجلس حرم هو ورجال يعبر عن قدر من القوة التي كان يستشعرها لأنه في ذلك المجلس حرم هو ورجال الدين المجتمعون رسميا البابا المزعوم وأتباعه من الكنيسة، عدا عن المنافسة والانقسام في البلدان المسيحية كان هنري الرابع في ألمانيا يتبني انتخاب جيلبيرت وكان غيابيرت أكبر أعداء جريجوري؛ ولم يكن لأي أحد من كلوني ليقبل مثل هذا التدخل فترة أطول مما ينبغي.

فى أثناء مجلس بياتشينزا، تم وضع الأساس لثانى إنجازات إيربان العظيمة - وما كان سيقوم به سيكون له أثر مباشر فى حياة الملايين من البشر لما لا يقل عن مائتى عام.

لقد حضر مبعوثون من الشرق، إلى المجلس – ممثلون للإمبراطور البيزنطى إليكسيوس كومنوس. ذلك أن أحد أعمال إيربان الأولى في منصبه كبابا هو أن يحل الإمبراطور من الصرمان الذي فرضه عليه جريجوري؛ والآن يمكن للبلاد المسيحية جميعا أن تستفيد من العلاقة الناتجة عن ذلك، قبل ذلك بعقد، في عام ١٠٨٥، كان إليكسيوس قد شن حربا على السلاجقة الأتراك، وكانت تسير بشكل جيد وإن كان بطيئا، فكانت هناك حاجة إلى سزيد من الدعم إذا كان لجيوش الكنيسة الشرقية أن تنجح. لذا تحدث مبعوث الإمبراطور بطريقة مؤثرة عن الإخطار والصعوبات التي يواجهها المسيحيون في الشرق، وطلبوا المساعدة من الغرب باسم الوحدة المسيحية.

كان إيربان وإليكسيوس يزن كل منهما الآخر من حيث البراعة الروحية، وكان كل منهما على وعى بقدرة الآخر، وكل منهما يدرك قيمة التعاون، واستطاع إيربان على وجه الخصوص أن يرى ميزة عملية مباشرة تتحقق من وراء الدعم العسكرى، أو السلام، أو درجة من السلام الأوربا، وبدلا من محاولة كبح جماح الفرسان الفربيين الميالين للحرب، يمكنه تشجيعهم بنشاط ويتخلص منهم وبدلا من تمزيق الغرب، يمكنهم القتال – في الشرق، – من أجل الغرب؛ من أجل وحدة المسيحية؛ من أجل خلاص أرواحهم؛ كما توجد فرص الكسب المادى،

لقد كانت فكرة ذكية. وبعد مجلس بياتشينزا، في صيف ١٠٩٥، كان من المقرر أن يذهب إلى فرنسا؛ وهناك قرر في مسقط رأسه، أن يوجه دعوته العظيمة إلى المؤمنين. ومن بداية أغسطس حتى نهاية أكتوبر، قام بجولة في جنوب وغرب فرنسا، فانتقل من فالين إلى لي بوي إلى افينيون وسان جيل، ثم شمالا إلى ليون وبرجاندي، وحين كان في بوي أعلن أن مجلسا كبيرا آخر سوف ينعقد في كليرمون في الجبل الأوسط الكبير ابتداء من منتصف نوفمبر، ومع تقدم الجولة، أخذت شائعات غريبة تسرى – لقد رأى الناس ألوانا متلألئة في السماء، أعدادًا هائلة من النجوم بل النيازك، وحتى ذلك الوقت، لم يكن أحد يعلم ماذا سوف يخرج من المجلس؛ ولكن في كل أنحاء فرنسا في ذلك الصيف أخذت حالة الترقب تنمو أكثر فاكثر.

وفى الأسبوع الأخير من أكتوبر زار إيربان كلوني مرة أخرى كي يرى مرة أخرى رئيس الدير المسن هيو، – لقد كان رئيسا للدير منذ عام ١٠٤٩ – ولكي يجمع المزيد من المعلومات عن الأراضي المقدسة من حجاج كلوني. ثم، بعد الصلاة عند مقبرة

القديس مالو، أقدس رؤساء دير كلونى، ذهب أخيرا إلى كليرمون؛ وفى ١٨ نوفمبر بدأ المجلس. من المؤكد أن البابا إيربان كان لديه حس مسرحى. فى الأيام التسعة الأولى ناقش رجال الدين ثلاثمانة قضية مختلفة واتخذوا قرارات رسمية، وتمت تلاوة القسم العظيم ضد الإتجار فى المناصب الدينية، وزواج رجال الكنيسة، وعدم استحواز غير رجال الكنيسة على المزايا الكنسية. تجددت المهلة التى منحها الرب وامتدت، ووصلوا إلى نقطة كبيرة الأهمية، حين تم حرمان الملك فيليب الأول من الكنيسة بسبب زواجه الذى كان يعد بعثابة الزنا من كونتيسة أنجو. لكن إيربان لم يقم بحركته حتى اليوم الأخير يوم الثلاثاء ٢٨ نوفمبر، فى ذلك الوقت كانت الجموع فى كليرمون هائلة جدا حتى أنه لم يكن هناك مكان واحد يتسع لهم جميعا. فانتقل المجلس من الكتدرائية إلى كنيسة نوتر دام دى بور فى الطرف الشرقى من المدينة. فى ضارج الكنيسة، كانت هناك مساحة كبيرة مفتوحة فتجمع الجمع هناك.

وكان بين الجموع راهب يدعى روبير، وبعد ذلك ببضع سنوات، دون ما رأه وسمعه هناك في ذلك اليوم الخريفي في كليرمون بتحريض من رئيس الدير الذي يقيم فيه. وكان يكتب من الذاكرة، لذا فإن ما قاله عن حديث إيربان لم يكن ربما دقيقا دقة مطلقة، لكنه يتفق اتفاقا كبيرا مع الروايات الثلاث المعاصرة له في جميع النقاط الرئيسية. إذ يقول إن البابا حدث الناس: "بفصاحة مقتعة." ذلك أن إيربان أوضح أنه لم يكن يتحدث فقط إلى فرنسا، بل إلى جميع أم يكن يتحدث فقط إلى فرنسا، بل إلى جميع أم الغرب المسيحية، وتحدث عما لهم من قداسة خاصة، وعن التهديد الكبير الذي يتحدث من ورائه إثارة اشمئزاز وغضب حتى أكثر الناس تخليا عن المبادئ؛ إنهم يعبثون بعذابحنا ويدنسونها؛ ويختنون المسيحيين ويسكبون دم المختونين على المذابح يعبثون بعذابحنا ويدنسونها؛ ويختنون المسيحيين ويسكبون دم المختونين على المذابح أو في جرن المعمودية. إنهم يأخذون المسيحي ويبقرون معدته، ويربطون أمعاءه في خانوق؛ ثم يطعنونه برمح ويجعلونه يجرى، إلى أن تخرج أحشاؤه ويسقط على الأرض ميتا.

لقد كان هناك المزيد على هذا النحو، وأكد إيربان على أن هذه لم تكن أحداثا منعزلة. ففى كل أنحاء الشرق، من القدس حتى بيزنطة، تقع مثل هذه الأحداث، ولا يبدو أن أحدا يكترث. ووضع أمامه مثال شارلمان، ورجاهم أن يتذكروا فضائل أجدادهم. واقتبس كلمات المسيح: "إن من يتخلى باسمى عن منزله وإخوته وأبيه أو أمه وزوجته أو أبنائه وأرضه، سوف يتلقاها مضاعفة مائة مرة وسوف يحيا حياة أبدية". وتوسل إلى الناس أن يتناسوا ما بينهم من شجار – فمدينة القدس الملكية المقدسة وانتزعوا تستصرخهم طالبة الإنقاذ، وصباح قالا: "خذوا طريقكم إلى الأراضى المقدسة وانتزعوا التابوت المقدس، وانتزعوا الأراضى من هؤلاء القوم البشعين".

لم يكد ينتهى حتى صباح الجميع صبيحة رجل واحد، "هذه إرادة الرب، هذه إرادة الرب".

ويبدو من رواية رويير أن البابا نفسه أخذ مما بالاستجابة من قوة ووحدة. غير أنه كان خطيبا حقيقيا، واستخدم الإجابة على الفور، فقال: "كيف لهذا العدد الكبير أن يتحدث كشخص واحد، ما لم تكن الروح القدس حاضرة في قلوبهم" ودعا جميع الراغبين في أن ياخلوا الصليب ويتقدموا على الفور ويفعلوا ذلك. غير أن عقله النشط أمكته التنبؤ بوقوع مشكلة في هذا الحماس الشعبي الشديد فعاجل بالقول إن أصحاب الأجساد القوية يمكنهم التطوع. أما كبار السن والضعفاء فعليهم أن يحجموا ولا يجب أن تذهب النساء دون أزواجهن أو إخوتهن؛ وعلى القساوسة أن يطلبوا الإذن من أساقفتهم، أما غير رجال الدين فيجب أن يطلبوا مباركة القساوسة. وعلى الرغم من أساقفتهم، أما غير رجال الدين فيجب أن يطلبوا مباركة القساوسة. وعلى الرغم من مخزون من صلبان القماش كي تحاك في ملابس المتطوعين، وقبل الغروب كان المخزون قد استخدم بالكامل. وبدا أن الحديث جاء كالوحي؛ واستعرت كل كلمة منه في أنحاء فرنسا.

وجاء الناس من كل فج عميق كي يقاتلوا . ذلك أن نجاح نداء إيربان يعد مثالا بارزا على قوة اتفاق الأحداث في تاريخ العالم، كل شيء كان مناسبًا: حالة الناس

المزاجية، والظروف التي عاشوا في ظلها، وكذلك احتياجاتهم ومعتقداتهم. فلم يكن إيربان إلا العامل المساعد، لقد تغير التاريخ في مجرى ذاك الأصبيل الخريفي البعيد، ومع ذلك، فبعد النشوة الأولية، أصبح من الواضح أن هناك حاجة إلى قدر كبير من التنظيم. لقد تقرر أن رحيل الجيش سيكون في ١٥ أغسطس عنام ١٠٩٦، بعد الحصاد. ولكن بعد كل هذا الفوران والغليان، كان هناك الكثيرون الذين لا يرغبون في الانتظار كل هذا الوقت. كان على الفرسان واللوردات الذين أخذوا الصليب أن ينتظروا، إذا كان لهم أن ينظموا شئونهم لكن بالنسبة للفقراء والمعدمين، والجهلة فإن تاريخا ببعد بتسعة أشهر كان بعيدا كالموت - أو أبعد، لأن الموت يمكن أن يأتي في كل لحظة في حياتهم غير الأمنة ومم الموت، تضيم إلى الأبد فرصة الحج ومعها فرصة الضلاص. لذا، فحين بدأ رجل يرتدي قبعة الناسك يسافر في أنصاء أوربا يعظ بالصليب من فوق ظهر حمار، وينادي بالقيام بعمل مباشر وجد ألافا عديدة من الأتباع. وشعر عدد لا حصر له من الفلاحين الأوربيين الذين أنهكهم الكدح عيس الأجيال، مم عدم قدرتهم على تغيير حياتهم، إنه إذا كان للحرية والوفرة وجود في هذه الدنياء مَمن المؤكد أن ذلك في بلاد أخرى - وكان الجميع يعلمون أن القدس توجد في أراض يتدفق فيها المن والسلوي، وكل ما كان الناس يفتقرون إليه، وجدوه في شخص بيتر الناسك.

لقد كتب أحد أتباعه - أحد القليلين جدا جدا الذين لم يكونوا أميين كتب عن بيتر: "أن أى شيء قاله أو فعله بدا كأنه يصدر عن نصف إله" ولا غرو في ذلك؛ فحين يكون هناك وعد بالحرية، والوعد يصدق، فإن من يقدم الوعد دائمًا ما يجذب نوعًا من أنواع العبادة. وبيتر كان راهبا بحق. فهو أيضا كان يركب حمارا، كما كان يقعل المسيح مع أن تابعه غير ألامي، جيلبير دى نوجان، على قائلا، بدا إلى حد كبير أشبه بالحمار، وكانت رائحته إلى حد كبير أشد سوءا من رائحة الحمار. وعلى الرغم من هذه الأشياء، أو بسببها، جاء هذا الرجل القبيح كريه الرائحة صاحب الراية تقريبا كمسيح منتظر لجميع أولئك الذين كانوا يطلبون حياة جديدة. فتبعوه بنفاد صبر يفوق

نفاد صبر الأطفال. لا بد أن بيتر كان لديه إيمان عظيم، وإلا، فلا بد أنه كان بالغ البلاهة. في إحدى المرات، قبل ذلك بسنوات، حاول الحج إلى القدس، فأسباء إليه الأتراك (يخلط الناس في ذلك الوقت وبعده بقرنين بين كلمة مسلم وتركى حتى في المسرح: المترجم) لدرجة جعلته يقفل عائدا قبل الوصول إلى المدينة المقدسة بمسافة طويلة. فهو قد عرف صعوبات الرحلة؛ ربما يكون قد نسى، وربما كان يتصور أن خمسة عشر ألفا يمكن أن يسافروا بيسر أكثر من فرد واحد. أيا كانت أسبابه – إن كانت لديه أية أسباب – فقد جعل حماره يولى وجهه إلى الشرق، وفي نهاية مايو من عام ٢٩٠١، حين كان غيره في الوطن يرحبون بالصيف الجديد، وصلت أولى مجموعات بيترّعند حدود بيزنطة.

في ذلك الوقت ظهرت حماقة الحملة. فعند المرور من خلال ألمانيا، كان وعظ بيتر قد اجتنب الكثير من الاتباع؛ وبينما تباطأ تُقَدّم إلى الأمام جزء من الدهماء الذين يتبعونه، وحين وصل هؤلاء الزوار الثقلاء غير المتوقعين إلى بيلجراد ولما لم يجدوا أي طعام متوفر، بدأوا ينهبون الريف، ولم يكن ذلك سوى نذير بما سوف يأتي؛ لقد كانت هذه المجموعة الأولى صغيرة إلى حد مكن من إرسالها في صحبة حراسة إلى القسطنطينية، ولكن من مايو حتى أوائل يونية فبيتر وأتباعه - الذين أصبحوا الأن عشرين ألفا – تقدموا كالجراد إلى المجر، وفي نهاية يونيه كانوا قد قتلوا أربعة آلاف مجريا، وكانت بيلجراد (وهي في ذلك الحين مدينة حدودية مع الإمبراطورية البيزنطية) قد نهبت واحترقت. وحين توغلوا مسافة أبعد في الإمبراطورية، في نيك، في يوغسلافيا الحالية، وقعت معركة شديدة قتل فيها ربع مجموعة بيتر. ومع ذلك، عند الوصول إلى سوريا حيث التقي بهم ممثلون عن إليكسيوس، قوبلوا بالترجاب. وسامحهم الناس على سلوكهم المثير للغضب؛ وزودوهم بكل ما يحتاجون إليه؛ ونقلوا في صحبة مرشدين وحراس بسرعة إلى القسطنطينية. لقد كانت رأفة الإمبراطور سياسية أكثر من كونها إنسانيــة؛ إذ إنه عن طريق فـرض بعض النظام على الصحِــاج الفـوضــوبين غــيــر المنضبطين، تمكن من حماية أراضيه على الوجه الأفضل. ونصح بيتر بالا يعبر مضيق

الدردنيل قبل وصول الصليبيين الفعليين؛ لكن أي أمل في النظام كان قد تبخر منذ وقت طويل. ذلك أن الفرقة الهائلة كانت أفضل قليلا من جيش من قطاع الطرق. إذ إن سلوك أولئك المسيحيين كان بشعًا، فقد خربوا وأحرقوا قصور المدينة، وسرقوا الرصاص من أسطح الكنائس وياعوه للإغريق، مما أغضب الإمبراطور، فأمرهم بعبور الدردنيل. كاتب هذا التعليق المختصر كان واحدًا أخر من الحجاج، ربما من أبوليا في جنوب إيطاليا. إن اسمه مجهول، غير أنه ترك كتابا صغيرا يسمى أفعال الفرنجة، واصفا عن تجربة مباشرة عادة أحداث الحرب الصليبية الأولى، وكان جنديا محترفا، وإن لم يكن مرتزقًا، وكان ينظر باحتقار إلى حرب الشعب الصليبية. بعد أن عبروا لم مكفوا عن أضعالهم الشريرة؛ فحرقوا وخربوا المنازل والكنائس ... ولم يتمكن بيشر الناسك من التحكم في هذه الجماعة المختلطة إذ لم يصفوا إليه ولم يطيعوه. وبذلك، كانت حرب الشعب الصليبية تحرق نفسها. إذ كان هناك طاقة زائدة عن الحد وتوجيه أقل من المطلوب، أمل يفوق الحد ومعرفة أقل مما ينبغي وبعد أن عبر جيش الفلاحين الدردنيل فقد أي ترابط: فعسكر بعض الأتباع في مكان يعرف باسم كيفيتوس، على الساحل الجنوبي لخليج نيكوميديا؛ وأغار أخرون على منطقة نيقيا؛ وقتلوا كل من استطاعوا قتله، بما في ذلك أبناء البلاد من المسيحيين؛ وذهبت بضعة آلاف إلى ما وراء نيقيا، واستولوا على إحدى القلاع، ولم يدركوا أن إمدادها من المياه خارج الأسوار؛ وأن الأتراك يحاصرون القلعة. ويعد أسبوعين، هد العطش الفلاحين، مما جعلهم يقتلون خيولهم وحميرهم ويشربون الدم؛ وأخرون أنزلوا الأحزمة والملابس في بالوعة واعتصروا السائل في أفواههم؛ وأخرون كانوا يمررون الماء لبعضهم بعضا بالأكف، ويشتربون؛ وأخرون يحفرون الأرض اللينة ويرقدون على ظهورهم مكومين الطين على صدورهم، في اليوم الثامن لم يعودوا يطيقون، فاستسلموا ، وارتد بعضهم وأخذوا عبيدا؛ أما الباقون فقتلوا. ثم نجع الأثراك في نصب كمين ونبحوا المجموعة بالقرب من نبقيا، وأخيرا انقضوا على المعسكر في كيفيتوس، ونجت قلة من الأوربيين، حيث أنقذهم أسطول بيزنطي، وجردهم إليكسيوس من السلاح وأعادهم إلى بالادهم، ولا بد أنهم أسعدهم الرحيل،

ومع ذلك فمع أن الفلاحين كانوا قساة، لم يكونوا هم الأسوأ بين معاصريهم؛ وثمة نوع من البراءة في حماسهم الساذج يثير الشفقة، وحتى مؤلف كتاب الأفعال المجهول الذي عادة ما يحتقرهم علق قائلا: "هؤلاء الرجال كانوا أول من يتحمل الشهادة من أجل اسم سيدنا يسوع". لكن كان من الواضح أن الإيمان لم يكن وحده كافيا.

منذ أول انشقاق في ألمانيا حتى الكارثة الأخيرة في كيفيتوس، لم تستغرق حرب الشعب الصليبية أكثر من سنة أشهر. أما فرسان ولوردات الحرب الصليبية الأولى فقد عملوا ببطء، وبمزيد المثابرة. فمن شواطئ أوربا إلى أسوار القدس، استغرقت رحلتهم بالكامل ما يقرب من عامين. ولم يغادروا جميعا معا، ومرة واحدة، وإنما على أربعة جيوش كبيرة منفصلة. ذلك أن إيربان، ودون مشورة إليكسيوس أصدر مرسوما بأن يكون موعد اللقاء الأول في القسطنطينية؛ وحين وصلت أنباء هذا المرسوم وأنباء الاستجابة العظيمة لدعوة البابا، أدرك فجأة أن حركة أكبر بكثير مما رغب وتوقع قد تم إطلاقها. كان هو يرغب في بضعة آلاف من المرتزقة؛ لكنَّ جيوشا أكبر كانت قادمة، لا يقودها فرسان بل نبلاء. كلهم في حاجة إلى الطعام والإقامة، وما إن يصلوا إلى الأراضى القدسة فلا شك أنهم سوف يتوقعون دعمه. فقرر أنه سوف يقدم هذا الدعم.

ولكن بشروط معينة. وحتى ذلك الحين كان يعد لوصول المحاربين الصليبيين، إذ إن بيتر الناسك ومجموعته غير المتجانسة أخذوا إليكسيوس على حين غرة. من حسن الحظ أن المحاربين الصليبيين الفعليين التزموا ببرنامج إيربان بشكل أوثق؛ فلو أنهم جميها وصلوا في وقت مبكر هكذا، لم تكن حتى القسطنطينية بقادرة على دعمهم ومساندتهم. كانت أول مجموعة بعد بيتر عبارة عن جيش صغير يقوده هيو لى مين، وجاءوا من فرنسا إلى بارى، في جنوب إيطاليا وعبر الإدرياتيكي إلى ديراكيوم، — دور

حاليًا في ألبانيا -- ومن هناك عن طريق سالونيك، ولم يستلوا أية مشكلة بالنسبة لإليكسيوس؛ فها هو الابن الأصغر لنسب عريق وهو قليل الإمكانيات، وكان يبهجه تكريم إمبراطور بيزنطة. لكن الأخرين لم يكونوا بمثل هذه السهولة؛ ومعهم احتاج إليكسيوس إلى كل ما لديه من قوة حنكة، ذلك أن كل جيش من جيوش الفرنجة الأربعة كان من بين أفراده أشخاص مميزون. فكان الجيش الأول يقوده جودفرى دى بويون، دوق لورين السفلى، وهو على ما يبدو تجسيد الفارس في العالم المسيحى، كان طويلا قوى البنية، أشقر وملتحيًا، رجلاً تقيًا يكاد يكون زاهدا قليل المطالب، وهو دائما يسلك سلوكا رائعا، لقد عزت إليه الحكايات شخصية ومظهر الكمال المسيحى في العصور الوسطى؛ أما الحقيقة التاريخية فتظهره باعتباره أقل من المثالية إلى حد ما.

وكان جودفرى يصحبه أخوه، بولدوين. وحين غادرا أوربا عام ١٠٩٦، كان جودفرى يبلغ نحو ست وثلاثين سنة، أما بولدوين، فكان أصغر قليلا. ومع أن جودفرى كان طويلا فإن بولدوين كان أطول منه، ولا يشبه أخاه تقريبا في أي شيء. إذ إن بولدوين كان أسود الشعر، حليق اللحية، وشاحب الجلد؛ وكان رجلا صلبا قاسيا باردا، ينعم ويستمتع بما في حياة النبلاء من روعة ومع ذلك يمكنه أن يتحمل بسهولة الحرب.

وجاء الجيش الثانى بقيادة بوهيموند، الأمير النورمناندى لتارانتو فى إيطاليا، وكان معه تانكريد ابن أخيه. لقد كانت سلطة النورمنديين قد استتبت فى إيطاليا فى عام ١٠٤٠؛ وكان بوهيموند وتانكريد يتحليان بروح المغامرة التى تمتع بها أجدادهما، ويطمحان إلى ممالك منفصلة لهما أو على الأقل إمارات أكبر من اترانتو، وقبل الدعوة إلى الصروب الصليبية بما لا يزيد على ثلاث عشرة سنة، كان بوهيموند يقاتل إليكسيوس فى اليونان ومقدونيا، أما الأن قان العم وابن الأخ ينطلقان كحلفاء الإمبراطور أملا فى الثراء الدنيوى.

أما الجيش الثالث فكان له قائدان، أحدهما روحى والآخر دنيوي. وكان الرجلان ناضجين، يتمتعان باحترام الجميع. وكان القائد الروحى هو إديمار، أسقف لى بوى، وهو يبلغ من العمر بحو خمسين سنة؛ والقائد الدنوي، هو ريموند كونت تواوز، وسان جيل، وكان في حوالي الستين من عمره، وكان إديمار هو مندوب البابا إلى الحروب الصليبية، أي ممثل إيربان الرسمي. أما زعامة ريموند فقد اتخذها هو بنفسه دون إذن من أحد: إذ إنه كان أول نبيل يأخذ الصليب، تمامًا كما كان إديمار أول المتطوعين في ذلك الأصيل من نوفمبر في كليرمون.

وأخيرا على رأس الجيش الرابع كان روبيرت النورماندى، ابن ويليام الفاتح؛ وروبرت الفلاندرى، وهو حاج محارب بالوراثة وبالطبيعة، وستيفين من بلوا، زوج ابنة الفاتح. ويظل الشخصان اللذان يدعيان روبرت شخصين غامضين، أما شخصية ستيفين، على الرغم من أنه لم يلعب دورا رئيسيا في المعارك المتأخرة، فيمكن رؤية شخصيته بوضوح. لقد كان رجلا عطوفا محببا؛ وكان شديد الثراء، يمتلك عدة إقطاعيات في فرنسا، وكان يستمتع بالعناية بها. ولم يكن في الواقع لديه أية رغبة في أن يشارك في الحروب الصليبية على الإطلاق؛ غير أن زوجته، ابنة الفاتح طلبت منه أن يذهب فلم يرغب في المجادلة. فذهب.

وسافرت الجيوش منفصلة انفصالا تاما. واتخذ جودفرى وبوادوين الطريق البرى خلال المجر، على نهج بيتر الناسك. وتروى الحكايات أن شارلمان استخدم الطريق نفسه. وبعد أن غادروا اللورين فى أغسطس بعد وصول بيتر إلى القسطنطينية ببضع أسابيع، وصلا إلى العاصمة البيزنطية فى ٢٣ ديسمبر، واتخذ بوهيموند وتانكريد الممر ذاته الذى اتخذه هيو لى صين، عبر الأدرياتيك من خلال سالونيكا، مغادرين إيطاليا فى أكتوبر ٢٠٩١، واصلين إلى القسطنطينية فى ٩ أبريل، ١٠٩٧ وغادر إديمار وريموند فرنسا فى حوالى نفس الوقت، واتجها جنوب شرق إلى ساحل دالمياتا إلى ديراكيوم؛ وبعد ذلك تبعا بوهيمون، ووصلا بعده بوقت قصير فى ٢١ أبريل، وغادر الجيش الرابع مع روبيرت وستيفين فرنسا، فى أكتوبر عام ٢٠٩١، واتخذوا الطريق الجنوبى عبر إيطاليا بحرا، وكان ستيفن يفكر فى العودة، إلى وتطاعياته الفرنسية وفى حين تقدم بقية الجيش، استراح هو طيلة الشتاء فى إيطاليا.

ويبدو أنه حين فكر في زوجته قرر الاستمرار في التقدم؛ لكنه تمكن من تأخير الرحيل الفعلي من أوربا قليلا عن طريق الذهاب إلى برينديزي، وأخيرا غادرا في أوائل أبريل عام ١٠٩٧ ووصل إلى القسطنطينية بعد شهر.

كثيرا ما يتحدث مدون الأحداث في العصور الوسطى عن مئات الآلاف بل الملايين من الجنود عند تحديد حجم الجيوش، لكن أحد أبرز المؤرخين المحدثين، ستيفن رانسيمان، أعطى تقديرات محتملة للأعداد المشاركة في الحرب الصليبية الأولى، وعلى الرغم من أنها أقل بكثير من الادعاءات المبالغ فيها التي اعتدنا سماعها، فإنها تظل مع ذلك مبهرة: هناك ما إجماله أربعة آلاف وثلاثمائة فارس، وثلاثون ألفا من المشاة، هذا عدا النساء والطفيليين، قد يكون ذلك جيشا صغيرا بالمقاييس الحديثة، غير أن مجرد القيام بتنظيمه يعد عملا هائلا.

وكان شيئا جيدا بالنسبة لإليكسيوس أن الجيوش المنفصلة وصلت على فترات، ذلك أنه جعلها تمر واحدا واحدا عبر الدردنيل، وتمكن من جعل الأعداد المقيمة على أراضيه في حدود يمكن التحكم فيها. غير أن هذه لم تكن مهمة بسيطة: فجودفر، الذي كان يظهر نفسه كمسيحى أقرب إلى الكمال، قاتل قوات الإمبراطور في أثناء الأسبوع المقدس؛ وبهيموند كان يتصرف بصلاح واستقامة تثير الشك؛ ورفض ريموند مراراً أن يقسم يمين الولاء للإمبراطور؛ وكان الأوربيون، بصفة عامة، يشعرون بالرهبة من المجتمع الراقي الرائع الذي وجدوا أنفسهم فيه فأحسوا بالقلق. فجعلهم شعورهم بالحرج يبدون خشنين أجلافاً مما زاد من تعالى البيزنطيين، فجعل ذلك المحاربين الصليبين يتصرفون على نحو أكثر سوءاً.

لقد كان قسم الولاء هو الشرط الذي بموجبه أعطى إليكسيوس دعمه في الأراضى الميزنطية الأراضى الميزنطية الأراضى الميزنطية الأراضى الميزنطية التي خسرها أمام المسلمين؛ وإذا ما شكل النيلاء الصليبيون ممالكهم أو إماراتهم، فسوف يتحكمون فيها باعتبارهم أتباعًا للإمبراطور. لقد تسبب الاقتراح في بعض المدعوبات، لانه، مع علم المحميع أن مثل هذا القسم تقريبا عديم المعتى من

الناحية العملية، فهو نظريا يمكن أن يعطى إليكسيوس سلطات لا يستهان بها على اللوردات الفربيين. لقد أقسم معظمهم القسم باعتباره مسألة شكلية؛ ومع ذلك، فإن بوهيموند، بما يتمتع به من حرص وتملق، حاول استعماله كي يقوى من مكانته في الحرب الصليبية؛ وشعر ريموند بأن القسم يتعارض مع ولاءاته في الغرب، ولم يقتنع سوى بإعطاء قسم متحفظ؛ وانسل تانكريد من خلال القسطنطينية ليلا، دون أن يقسم اليمين مطلقا.

وفي الوقت الذي وصل فيه ستيفين دي بلوا، كان الجميم قد تحركوا، وأقسم ستنفن اليمين بمجرد وصوله، ويهره الاستقبال الذي أعده إليكسيوس. وشجعه بعد المسافة بينه وبين زوجته المسيطرة، فكتب لها مقارنا بين إليكسيوس وبين ويليام الفاتح - وكانت المقارنة في صالح الإمبراطور؛ "إن أباك، يا حبيبتي، قام بالكثير من الأعمال العظيمة لكنه لا يكاد يكون شيئا بالمقارنة بهذا الرجل". وواصل الصليبيون التقدم. وانضم إليهم قليل من الناجين من جيش بيتر المزق بما في ذلك بيتر نفسه. وفي نفس الوقت مم وصول ستيفن إلى القسطنطينية وصلت القوة الرئيسية إلى أسوار نيقيا، وعلى الفور حاصرت البلدة. وحدثت معركة كبرى هزم فيها الأتراك الذين كانوا مفرطي الثقة بسبب ما حققوه من انتصارات سهلة على حرب الشعب الصليبية - هزيمة ساحقة. وترك مؤلف كتاب الأفعال المجهول، وهو يتحدث عن ألاف المحاربين الصليبيين المجهولين، وصفا جافا لما حققوه من نجاح: وكتب يقول، جاءوا بروح معنوية عالية، منتشين من يقين النصر، محضرين حبالاً يقيدوننا بها ويقوبوننا في خراسان. وتقدموا فرحين وبدءوا يهبطون قليلا من قمة الجبل، غير أن رجالنا قطعوا رءوس كل من جاءوا، وألقوا برءوس من ذبموا في المدينة بواسطة أحد ألرماح، كي يسببوا مزيدا من الرعب في الحامية التركية." ومم ذلك، ظل العصار فترة طويلة؛ إذ دام سبعة أسابيم وثلاثة أيام. فقوفر وقت لستيفن دي بلوا كي يلحق بالجيوش، إذ وصل في ٣ يونية؛ وكان وصوله يعني أن الجيش بأكمله قد أصبح مجتمعاً . وابتداء من القسطنطينية، بدأ ستيفن يستمتع بالحرب الصليبية التي فرضت

عليه فرضا، وحين استسلمت نيقيا في ١٩ يونية، كان يشعر بما يشعر به الجميع من حبور. ولو أن الأمور استمرت على هذا المنوال، فمن المكن أنه سيعود إلى الوطن بأسرع مما توقع. فكتب لزوجته يقول: "سوف نكون عند القدس في خلال خمسة أسابيع؛ ما لم نحتجز عند أنطاكيا". واحتجزوا هناك. بل حتى قبل أن يصلوا إلى هناك، كان التحرك صعبا. ذلك أن الأتراك الذين أربكهم فقدهم لنيقيا، كانوا مع ذلك يتسمون بالعزم، فشنوا معركة ثانية، هذه المرة عند دوريليوم، وكانت صيحات المعركة التي أطلقوها مثيرة للأعصباب، "بدءوا جميعا على الفور يزأرون ويمسيحون ويصرخون، ويقولون بأصوات عالية بلغتهم كلمة شيطانية لم أفهمها" كان هناك أتراك عديدون يصيحون ويزأرون كالشياطين". لكن الصليبيين شجعوا أنفسهم بصلاة كانت شعارا لجميع الدوافع المختلطة التي جاءت بهم إلى هذا المكان البعيد جدا: "اصمدوا جميعا معا، واثقين في المسيح وانتصار الصليب المقدس. نرجوك يا رب، أن نفوز اليوم بالكثير من الغنائم".

وفى النهاية كان النصر فى دوريليوم من نصيب الفرنجة مع الكثير من الغنائم؛ ولكن فى هذا الوقت تعلموا احترام الكفار الأتراك. فكتب مؤلف كتاب الأفعال "أن ما مر به الإنسان وتعلمه لا يمكن أن يعبر عما يتمتع به الأتراك من شجاعة ومهارة وجسارة. ولا يمكن لأحد أن ينكر أنهم، لو صحدوا بالإيمان بالمسيح لم يكن ليوجد جنود أكثر شجاعة ومهارة. لكن رجالنا دحروهم برحمة الله "،

وبعد دوريليوم، كان لا بد من عبور صحراء الأناضول "هي أرض مهجورة لا ماء فيها ولا سكان، خرجنا ونجونا بأعجوبة لأننا عانينا معاناة كبيرة من الجوع والعطش، ولم نجد ما نأكله سوى نباتات تغطيها الأشواك جمعناها وأخننا نفركها بين أيدينا، وماتت معظم الخيول واضطر راكبوها للمشى، أو ركوب الثيران؛ وحين ماتت الدواب، تم وضع الأثقال وجر العربات بواسطة الماعز والكلاب." وبعد الصحراء كانت هناك بضعة أيام من الراحة؛ ثم جاءت عقبة جبال تورس، وكانت المحاولة الأخيرة قبل أنطاكيا، وإحدى أشق الصعاب. "جبل لعين، شديد الارتفاع والانحدار حتى أن أحدا من رجالنا لم يجر أعلى للحاق بالأخر، على المر الجبلي، وسقطت الجياد على الجرف،

وكان كل منهم يجر الأخر إلى أسفل". بالنسبة للفرسان الذين كانوا يكنون كى يصعدوا الممرات غير الآمنة كان الأمر صعبا بصغة خاصة؛ وحاول الكثيرون بيع دروعهم الثقيلة، ولما لم يجدوا من يشترى، ألقوا بأسلحتهم بعيدا للتخلص منها. ولكن أخيرا كافحوا لصعود ذلك "الجبل اللعين" ووصلوا إلى سهل أنطاكيا. كان ذلك في ٢٠ أكتوير عام ١٠٩٧؛ لقد استغرقت الرحلة من القسطنطينية بواسطة طريق ملتف طوله ثمان مائة ميل سنة أشهر.

لقد تم تحمل حرب الشعب الصليبية بإحساس يزيد قليلا على الإيمان والحماس؛ وعلى الرغم من أن الحرب الصليبية الأولى نظمت بقدر أكبر من الدقة، وقدر أكبر من الصبر والتبصر، فإنه يبدو من المحتمل جدا أن الصليبيين لو كانوا قد فهموا بوضوح المهمة التي تحملوا القيام بها ربما كانت الاستجابة لنداء إيربان أقل بكثير، ذلك أن الأتراك برهنوا على أنهم محاربون أشد من المتوقع؛ وأصبح لدى الصليبيين وعي متزايد بما يمكن أن يواجهوا من محن؛ وهي محن كانت تتزايد منذ نيقيا، حين عبر ستيفن دى بلوا المحب لوطنه عن الأمل في ألا يحتجزوا في أنطاكيا.

كان الجميع يسمعون عن أنطاكيا: فهى المكان الذى أقام فيه القديس بطرس وهو أسقفيته الأولى، وقد جعلها ذلك وحده بالنسبة للصليبيين ملكية مسيحية لا جدال فيها بحكم الحق، ولكن مع تجمعهم على السهول أمام أسوارها حولت المدينة خيالهم وجعلته مجرد خيال هزيل قزم. إذ غطت المدينة ثلاثة أميال مربعة؛ وخلف المدينة، ولكن داخل أسوارها، ارتفعت منحدرات جبل سيلبيوس، تزينه القلعة وكأنها تاج على رأسه وهي ترتفع ألف ميل على السهل. وكانت الأسوار "مرتفعة جدا، وعريضة بشكل مذهل" ويها أربعمائة وخمسون برجا. وحين حملق الصليبيون في الأسوار والأبراج توقعوا حصارا

لم تكن جميع الجيوش المسيحية موجودة في البداية. ذلك أنه قبل عبور جبال تورس كان كل من بولدوين وتانكريد قد انطلق بقواته جنوبا نحو صقلية حيث حاول كل منهما إقامة ممالك خاصة. ولم ينجع أيهما في ذلك، واستمر تانكريد حول ساحل

المترسط، يستهدف أنطاكيا. أما بوادوين فانضم مرة أخرى إلى القوة الرئيسية جنوب سلسلة جبال تورس، ثم بناء على حكايته استمر شرقا إلى أدسا، وهناك نجح بسرعة في تحقيق الحكم الشخصى الذي سعى إليه. وفي ١٠ مارس ١٠٩٨، أصبح أمير أدسا؛ وبقى هناك لما يقرب من عامين، لقد غادر أوربا وهو ابن صغير بلا أمل في سلطة حقيقية في الوطن ولكن في السنة الأولى في أدسا أصبح أعظم أمراء الفرنجة في الشرق.

فى أثناء ذلك، كان حصار أنطاكيا يمر بظروف سيئة. بل إنه لم يكن بالفعل حصارا حقيقيا، ذلك لأنه حتى حينه انضم تانكريد ورجاله مرة أخرى إلى الجيش الرئيسى لم يتمكنوا من الإحاطة بالمدينة، كما كانت أشد وأقوى من أن تأخذ بهجوم مباغت. وتمكن الأتراك من الإبقاء على خطوط إمداد مفتوحة، وشنوا هجمات متكررة على القوات المسيحية، غير أن مشاق الطقس والمجاعة كانت أشد من أبة هجمات تركية: إذ مات سبع الصليبين خارج أنطاكيا.

وامتدت المحنة واستطالت، وبدأ الرجال يفرون من الجيش، وبعد عشرة أسابيع من المحسار، وفي أوائل يناير عام ١٠٩٨، تلاشي بيتر الناسك إلى أن ألقي رجال تانكريد القبض عليه وأحضروه. لكن أنطاكيا بدت منيعة، وبدأ أن المحسار لا نهاية له. وأخيرا في مارس تمكن الفرنجة من ححسار المدينة وذلك عن طريق بناء حصون في نقاط رئيسية حول الأسوار، وتوزيع قواتهم المتناقصة حولها. وافترة من الزمن ارتفعت الروح المعنوية بسبب الاعتقاد بأنه من المكن تجويع أنطاكيا إلى حد الاستسلام؛ ولكن عندئذ بدأت الشائعات التي تقول إن جيشا تركيا ضخما يتجمع في الشمال. ففر الكثير من الممليبيين فزعا، وكان من بينهم "ذلك الجبان ستيفن دي بلوا كونت شارتر، الذي ادعى المرض الشديد". حين أطلق المؤلف المجهول لكتاب أفعال الفرنجة لقب الجبان على ستيفن إنما كان يردد صدى الرأى العام. غير أن جبن الفرنجة لقب الجبان على ستيفن إنما كان يردد صدى الرأى العام. غير أن جبن أستيفن، إن جاز أن يكون كذلك، كان أمرا مفهوما؛ فهو لم يرغب أبدا في الانضمام إلى الحرب الصليبية أصلا، ولم يكن يتمني الشهادة. وبدا له البقاء ضربا من الجنون، الحرب الصليبية أصلا، ولم يكن يتمني الشهادة. وبدا له البقاء ضربا من الجنون،

والانسحاب من حسن الفطن، وربما يقاتل مرة أخرى، ولسوء العظ بالنسبة له، لم يكد يوجد من يتفق معه، على الأخص زوجته المشاكسة. لذا حين عاد أخيرا إلى الوطن، بعد رحلة بطيئة ومخيفة كان العار والغضب يغمرانها حتى أن الرجل التعس أجبر على الانطلاق مرة أخرى. حين كان أمام ستيفن بديل القيام بمناوشات مع العرب المسلمين، أو مواجهة معركة مستمرة مع زوجته، اختار ستيفن بديل المناوشة مع المسلمين. ومما زاد الأمر سوءًا، أنه لو كان قد انتظر نصف يوم أكثر في أنطاكيا لكان قد اشترك في فتحها، ذلك لأن المدينة تم الاستيلاء عليها في صباح اليوم الذي غادر فيه، ولم يتم الاستيلاء عليها عن طريق الغدر.

لقد عقد الفرنجة صفقة مع أحد الرجال المسئولين عن الأبراج. كان صائع دروع يدعى فيروز، وقد رشوه بثروة كبيرة من المال والأراضى. كان يعمل في البرج الذي يقف في حوض النهر، حيث يتدفق النهر من المدينة إلى الوادى، "أبرم الفرنجة حلفهم مع صائع الدروع ليلعنه الله: وشقوا طريقهم إلى البوابة المائية"، هكذا كتب ابن الأثير، أحد أهم مؤرخي الإسلام، ويستمر مؤلف كتاب الأفعال، الذي كان بين المجموعة الأولى من المتسللين:

كانت البوابة مغلقة، وكان بعضنا لا يعرف أين توجد، لأن الظلام كان ما يزال مخيما . ولكن عن طريق التحسس بأيدينا، وتحريك العصى حول المكان، تمكنا من العثور عليها، واندفع الجميع نحوها، حتى أننا كسرناها ودخلنا".

ويكتب ابن الأثير: "صعدت عصبة أخرى منهم البرج بالحبال".

"صعد ما يقرب من ستين من رجالنا واحتلوا الأبراج التي كان فيروز يحرسها ... ثم بدأ عدد مذهل يصعد ثم جروا بسرعة إلى الأبراج الأخرى. وقتلوا كل من وجدوه على الفور.

"عند الفجر، حين كان أكثر من خمسمائة منهم في المدينة، وكان المدافعون قد تعبوا من الحراسة الليلية، أطلقوا البروجيات،

في هذه اللحظة ارتفعت صبرخات أعداد لا تحصي من البشر، - كل من بالمدينة كانوا يصبرخون دفعة واحدة.

واستولى الرعب على حاكم المدينة، وقر مذعورا ... لو أنه صمد لمدة ساعة لتم سحق الفرنجة. لقد دخلوا المدينة عن طريق البوابات وخربوها وذبحوا كل من وجدوه هناك من المسلمين...

كل هذا وقع فى الثالث من يونية. كانت جميع الشوارع على الجانبين تغص بالجثث، حتى أن أحدا لم يطق البقاء هناك بسبب الرائحة الكريهة كما لم يستطع أحد أن يسير فى المرات الضيقة في المدينة إلا فوق جثث الموتى".

لم يكن أحد المتخيل أنهم سوف يتعطلون كل هذا الوقت: فحصار المدينة، بذروته الدامية استغرق ثمانية أشهر ويوماً.

لقد صحب فتح المدينة رؤى ونذر؛ إذ سقط نيزك على الأتراك؛ وعثر على رأس حربة، يزعم أنه الرمح المقدس الذى اخترق جنب المسيح، مدفونا في إحدى الكتدرائيات؛ وفي المعركة الأخيرة ضد محاولة القوات التركية إنقاذ المدينة كانت الملائكة تساعد المسيحيين. وظهر القديس جورج وأخرون – يرتدون ملابس مثل فرسان الهيكل بعد ذلك ببضع سنوات – ملابس بيضاء، ويحملون رايات بيضاء ويمتطون خيولا بيضاء. وبينما صدق القليلون لمسألة الرمح، حتى في ذلك الوقت، كان جميع الحاضرين يقتنعون اقتناعا تامًا بالفرسان الملائكيين – تماما كما كان جنود مون يصدقون، بعد ذلك بتسعة قرون، بأن ملائكة هم من أنقذوهم.

واستغرقت بقية الرحلة إلى القدس أكثر قليلا من عام، ذلك أن الصليبيين أستراحوا في أنطاكيا لمدة خمسة أشهر، وبعد أن استجمعوا قوتهم؛ كان هناك لا يزال قتال طويل في انتظارهم.

فبين أنطاكيا والقدس كان هناك المزيد من المعارك، وكان الصليبيون يوشكون على الموت جوعا؛ وفي إحدى المرات، على الأقل، اضطروا إلى اللجوء إلى أكل لحوم

البشر، فأكلوا أعدامهم من الموتى. لقد وصف أحد الحجاج يدعى ريتشارد، فى جيش روبرت من فلاندر كيف أن بيتر الناسك شجع على ذلك، قائلا: "آلا توجد وفرة من جثث الأتراك؟ إذا ما طهيت وملحت ستكون صالحة للأكل". ويبدو أنها كانت كذلك، وكان طعمها إلى حد ما أشبه بلحم الخنزير.

تم الوصول إلى أسوار القدس في ٧ يونية عام ١٠٩٩، ومرة أخرى كانت تكتيكات المصار تعمل. كان أقل من ثلث القوة المقاتلة ما يزال متوفرا - نحو اثنى عشر ألفا من المشاة، وألف وثلاثمائة من الفرسان. ولكن، في ذلك الوقت، كانوا جميعا مقاتلين أشداء، وكان هدفهم أمامهم [المدينة المقدسة]؛ فلم يستطيعوا الانتظار طويلا.

وبعد ما لا يزيد على خمسة أسابيع، في يوم الجمعة ١٥ يولية، تم اختراق الأسوار – يقول التراث إن ذلك كان في منتصف النهار، ساعة الصلب. وانهمك الصليبيون في حفل شرير من التدمير – ويخبرنا مؤلف كتاب أفعال الفرنجة: "كان هناك من المذابع ما جعل جنودنا يغوصون حتى الكاطين في دماء الأعداء" ويسجل ابن الأثير موت أكثر من سبعين ألفًا من المسلمين، ونهبت المدينة، وسلبت قبة الصخرة؛ ثم ذهب الصليبيون ليصلوا عند التابوت المقدس "بعد أن فرحوا وبكوا من شدة السرور".

لم يدر إيربان قط بنجاح فكرته البشعة نجاحا لا ينازع؛ إذ مات بعد سقوط القدس بأسبوعين، بحيث لم يكن من الممكن أن تصله الأنباء. كما مات أديمار مندوب البابا، لقد قتل كغيره في أنطاكيا، وأم يقتله الأتراك بل التيغود، ونجا جميع القادة العسكريين الجيوش الأربعة. بولدوين الأمن فيما تحقق له حديثا من عظمة، أصبح أميرا على أديسا؛ وبوهيموند الذي ترك ليكون مسئولا عن أنطاكيا بعد الكثير من الدسائس، صار أميرا عليها؛ وتنكريد أصبح أميرا على الجئيل. وعاد ريموند إلى القسطنطينية، أما روبرت وروبرت فقد عادا إلى أوربا؛ وجودفرى دى بويون، بوق أورين السفلى، ذلك الزاهد الطويل الأشقر الملتمي فقد انتخب انتخابا شعبيا ليكون مدافعا عن الضريح المقدس. ورفض لقب ملك القدس، وقال لن يكون من

الصواب أن ارتدى تاجا ملكيا في المدينة التي ارتدى فيها المسبح الأشواك. لقد نبعت شعبيته من هذه التقوى؛ غير أن التقوى لا تصنع حاكما قويا بالضرورة. ذلك أن جودفرى كان زعيما عديم التأثير؛ ومن زاوية رفاهية الدولة، ربما كان من الفير أنه توفى خلال عام من تلقيه اللقب. لكن الجميع كانوا يحبونه ويحترمونه، وأقام الكثيرون الحداد عليه.

وسا إن سلمع بولدوين عن وفاة أضيه حتى انطلق من أديسنا. من الناحية السياسية، كان أبعد أمراء الفرنجة نظرا، ولم يضع الكثير من الوقت في الحزن على حودفري؛ فجاء "وهو يشعر بالقليل من الحزن، على موت أخيه، لكنه أسعد ما يكون يخلافته في إرثه". إنه هو ذاك الشخص الذي كان في وقت من الأوقات أخا أصغر لا سلطة لديه، لم يكن لديه من المبادئ ما يمنعه عن تلقى لقب ملك؛ وفي الحادي عشر من نوف مبس ١١٠٠ توج بولدوين الأول، ملك القدس. وفيه وجدت الملكة اللاتينية في الأراضي المقدسة مهندسها. وحين جلس على العرش كان معظم فلسطين تحت السيطرة اللاتينية، ومعها إمارات أنطاكيا، وأنساء والجليل، غير أن هذه السيطرة في أفضل أحوالها مهتزة. فأخذ بولدوين على مدى ما يقى من حياته يوسم ويدعم السلطة التي ورثها بكل طاقته وهمته. فدانت له صبيدة وارسوف وقيسارية وازوتوس وعكا، وكانت هذه الموانئ لا تقدر بثمن بالنسبة المسيحيين؛ فهم محصورون في تولهم المستنعة، بعيدا عن أوهانهم، مما جعل الطرق البحرية تقدم أسلم وسيلة للاتصال مع أورباً لذا كانت جوهرية؛ إذ لم يكن هناك ما يكفي من الفرنجة في الأراضي المقدسة كي يدافعوا عما فتحوه من أراضٍ فكانت هناك حاجة دائمة إلى المزيد من الرجال. كان الحجاج يأتون ومعهم المال والقوة الجسدية، كانوا كثيرين، لم يكونوا قط يكفون لسد الحاجة إلى الرجال. وإذا خدموا في جيش بولنوين، فإنما ذلك كان عادة لموسم معين، لأن غالبيتهم لم تكن ترغب في الاستقرار في الشرق؛ وهكذا لم يكن هناك مطلقا جيش دائم يعول عليه، سنواء للأحوال الطارئة أو الدفاع اليومي. غير أن الطرق البحرية كانت مكلفة، وكان معظم الحجاج يأتون برا، مع أن الطرق كانت أكثر خطرا عن تلك الأيام

التى كان فيها الإسلام يمسك بالمدينة المقدسة، كان المسلمون فى كل مكان، وهم إذ يعيشون خارج الأراضى الملاتينية، كانوا يعتبرون الفرنجة أعداء ألداء لدينهم، فكانوا يغيرون على الغزاة وينهبونهم كلما أمكن ذلك، لذاء "بسبب هذه الإهانات، وحين سمع بضعة فرسان عن قطع الطرق، وكانوا مفعمين بالشعور بالشفقة ويحدوهم الأمل في حياة كاملة، وضعوا خطة كي يكرسوا أنفسهم أساسا للدفاع عن الرحالة، ولسلامة الطرق، ولحماية الضريح المقدس".

لقد كان الفرسان جميعا من الفرنجة، فهم محاربون قدماء من الحرب الصليبية الأولى. لقد مات بوادوين في ٢ أبريل عام ١١٨٨؛ وربما كان موته هو الذي عجل بقرارهم، لأنهم اتحدوا معا في ذلك العام نفسه. وكانوا قد قضوا نصف عمرهم تقريبا في الشرق؛ فأصبح وطنهم، وشعر كاهن بوادوين الخاص، المؤرخ فواشي دي شارتر، بالانتشاء بسبب هذا التحول.

وقال: "تدبروا، وتأملوا، كيف صرنا شرقيين، نحن من كنا غربيين: إن من كانوا إيطاليين أو فرنسيين أصبحوا جليليين أو فلسطينيين؛ وأولئك الذين عاشوا في ريمز أو شارتر هم الآن مواطنون في صور أو أنطاكيا. لقد نسينا مسقط رأسنا والبعض متزوجون من سورية، أو أرمينية، أو حتى مسلمة تلقت رحمة التعميد، ولديهم أولاد وأحفاد... وهناك من يزرع كرومه، ومن يفلح حقوله؛ ومن كانوا فقراء في أوطانهم أغناهم الرب، فلم يعودوا إلى الغرب، إذا كان الشرق مواتيا إلى هذا الحد".

لقد أصبح الصليبيون يحبون الأرض التى اتخذوها لأنفسهم؛ ويريدون ويحتاجون إلى غربيين آخرين إذا كانوا سيبقون، لأن أرضهم الجديدة ودينهم في حاجة إلى الحماية. ولكن كي يأتي آخرون، يجب أن تكون الطرق سالمة. منذ عام ١٠٤٨، وجدت المستشفى في القدس، حيث يمكن للحجاج الفقراء والمرضى الإسعاف؛ ولكن لم يكن من واجب أحد حماية الحجاج المسافرين من القدس وإليها. فتحمل الفرسان الذين اتحدوا معا بعد وفاة بولدوين هذا الواجب. وكان أولهم هيو دي بيان، من

مواطنى شامبنى، كان يبلغ من العصر ثمانى وأربعين سنة، وقد عاش شرق القسطنطينية لما يقرب من اثنين وعشرين سنة. لقد كانت الجماعة التى تطلقت حوله صغيرة جدا، ربما لا تزيد على أربعة أشخاص فى البداية؛ بل إن أسماء بعض هؤلاء السبعة غير مؤكدة. كان هناك جيفرى دى سان—اومر، وهو فارس فلمنكى؛ وبيان دى مونتديفيى، وارشامبو دى سانانيان؛ وأندرى دى مونتبار؛ وبيزول أو بيزوت؛ وأخيرا رجلان لم تسجل سوى أسمائهما الأولى؛ روسال أو رولاند وجوندمار، وتقول كتب التراث إنه كان هناك تسعة فى الجماعة الأصلية، لكن هذه الكتب لا تذكر اسم الرجل التاسع.

ثمانية أو تسعة كى يقوموا بعمل الشرطة فى إمبراطورية: هذا ليس عددا كبيرا. لكن كل واحد منهم كان فارسا وزعيما وفى حين كان رجال المستشفى رهبانًا أنقياء وبسطاء، فإن هذه الحفنة من الرجال عزمت على أن تعطى نفسها للمسيح وتقاتل فى نفس الوقت.

لقد كان الملك الجديد هو بولدوين الثاني، ابن عم الأول، وأدرك على الفور قيمة المجموعة الصغيرة. ذلك أنهم أقسموا اليمين الثلاثي، الفقر، والعفة والطاعة، وأقسموا أن يدافعوا عن المملكة؛ ولا بد من مساعدتهم، وعلى الفور منح الفرسان إقامة في منزل بالقرب من قبة الصخرة، وهو الموقع المفترض الهيكل سليمان، وكانوا هم بالفعل قد أعطوا لأنفسهم اسما: جنود يسوع المسيح الفقراء، ويشير ما بهذا الاسم من ضخامة وغرابة إلى ما يتسمون به من بساطة، كما يدل على تقواهم الصادقة، ولكن قبل أن يمر وقت طويل تغير هذا اللقب الثقيل، وأصبحوا فرسان هيكل سليمان – أو أبسط من ذلك، فرسان الهيكل.

الجزء الثاني المعبد في أوربا، ١١٢٨-١١٥٣

الفصل الثانى

غرباء وحجاج

فرنسا ، ۱۹۲۸

"اسمع؛ وسوف أتكلم عن أشياء ممتازة" سفر الأمثال، الآية الثامنة، الإصحاح السادس.

فى وقت ما من عام ١٩٢١ – ربما فى أواخر الصيف أو أوائل الربيع – استقبل دير صغير فى شمال فرنسا ضيفين مهمين، ولم يكن المظهر الخارجى للرجلين اللذين اتجها إلى بوابة الدير، ولم يكن الدير نفسه، مميزاً بأى حال. إذ كان الرجلان ملتحيين، يرتديان ملابس عادية قديمة جدا؛ وكان الدير قد أنشئ منذ إحدى عشرة سنة فحسب؛ وكان بناء صفيرا من الخشب، فى أرض أزيلت عنها الغابة العذراء. غير أنه كان معروفا فى البلاد المسيحية بسبب رئيسه؛ وكذلك كان زائروه. كان الرجلان وهما أندرى دى مونتبا، ورفيقه جوندمير، اثنين من الأعضاء المؤسسين لفرسان الهيكل. اقد ارتحلا من الأراضى المقدسة عائدين إلى بلادهما وليس لديهما سوى غرض وحيد، هو زيارة هذا الدير الصغير والالتقاء برئيسه الشهير لأنه، فى السنوات غرض وحيد، هو زيارة هذا الدير الصغير والالتقاء برئيسه الشهير لأنه، فى السنوات القليلة الماضية، أصبح أكثر الزعماء الروحيين نفوذا فى العالم المسيحى؛ وتصادف أنه ابن أخ أندرى دى مونتبار. كان اسمه بيرنار دى كليرفو. وكان بيرنار رجلا ضئيل البنية، له لحية بنية قليلة الشعر، وحلاقة الشعر التى تبين مهنته. وكان حينذاك، عمره ستاً وثلاثين سنة، لكن جسده كان هزيلا كما أو كان رجلا عجوزا، لأنه كان يعانى من

اضطراب مزمن في المعدة أضعفه بشكل فظيع؛ ومع ذلك، فمن خلال الهزال الجسمي ظهر بريق من القوة الروحية أثرت في جميع من اقتربوا منه. إنه أحد أهم الرجال في تاريخ الهيكل، وهو رجل كان من المكن أن يكون غير عادى في أي عصر من العصور. وكان أحد الأبناء السبعة لعائلة نبيلة في فونتين، بالقرب من ديجون. وكان أبوه تيسلان سوريل، سينيور فونتين يشتهر بما كان يتمتع به من رقة وكرم، وكانت أمه إليت تعرف بما لها من تقوى غير عادية. غير أن شهرتهما كانت محلية؛ أما شهرة بيرنار فكان مقدر لها أن تكون دولية. قبل مواده حلمت أمه بأنها تحمل داخلها كلبا ينبح، وقال أحد الرهبان تقسيرا للطم أن ابنها سوف يشقى الأمراض وسيكون حارسا للكنيسة. وسواء كانت هذه القصة مشكوكًا في صحتها أم لم تكن كذلك، فإن بيرنار حقق ما ً جاء فيها. وقرر الانضمام إلى دير كليرفو في سن الواحدة والعشرين؛ وحين ذهب إلى هناك في العام التالي أقنم تسعًا وعشرين شخصنا آخر بالذهاب معه، من بينهم أربعة من إخوته الخمسة، أما الخامس الذي كان صغيرا جدا فالتحق بهم فيما بعد، وكانت الحياة في كليرفو من شدة التقشف حتى أن الدير توقف عن القيام بوظيفته، والكثيرين من رهبانه غادروه للالتحاق بأديرة أقل قسوة، أما بيرنار وجماعته فكانوا مستعدين لتقبل التقشف؛ فأنقذ وصولهم الدير من الانتهاء، وأطلق عصر النهضة التي قامت منها الجمعية المسيحية الراهنة. وقوت الجماعة إلى الحد الذي مكن من إنشاء دار معائلة لها بعد عام؛ وأنشئت دار أخرى في العام التالي، وثالث في العام الذي يليه، وأصبح بيرنار وهو في الخامسة والعشرين من عمره رئيسا للدار الثالثة.

لقد بدأ ديره في حالة من الفقر المدقع، وقدم كونت شامباني، هيو، أرضا كي تكون موقعا له؛ ومن كل أراضي المقاطعة الواسعة، اختار بيرنار واديًا كثيف الغابات موحشًا يسمى وادى ابسينث. لم يكن به سوى الغابات وأحد الأنهار – فأزال بيرنار ورهبانه الغابات عن الأرض وقاموا ببناء مساكنهم بأنفسهم دون أية مساعدة، وكانوا يعيشون على الحب والجذور وأوراق الشجر، في البداية، لم يكن هناك سوى مبنى واحد فكانت الكنيسة، وقاعة الطعام، والمطبخ وعنبر النوم جميعا تحت سقف واحد.

وكانت الأرضية من التربة؛ ولم تكن النوافذ سوى مجرد تقوب لا تزيد على بضعة بوصات؛ وكان الرهبان ينامون على أوراق الشجر والقش. أما صومعة بيرنار فلم تزد على خزانة تحت درجات السلم المؤدى إلى العنبر.

ومما يثير العجب أن المشروع نجح؛ لكن هذا ليس هو ما حدث بل نجح نجاها رائعًا. كان الرهبان يصلون وهم يعملون، ويقودهم في كل شيء ذلك الرئيس ضئيل المجم، وهو بدوره يقوده خضوعه التام الله. ذلك أن إيمانه كان بسيطا ومباشرا لا تقريط فيه؛ وهذه الصفات، التي عدلت وخففت منها المحبة والرحمة جعلت من بيرنار رجلا يفهم الجميع، ولا يقاومه سوى القليلين. إذ كان فصيعًا يملك رأيًا، وقد انتشرت بسرعة سمعته بصفته معلمًا ورائدًا بسبب مواعظه، وخطاباته ونصائحه وما كان يلقيه من مديح وتحذير. مما كان يغضبه إلى حد ما، لأن الخير لا ينظر كثيرا إلى ذاته. ولكن إذا كانت الرحمة منحة من الله، فقد كان بيرنار يعتقد أنها يجب أن تستخدم من أجل عمل الله، وهو لم يكن يتفلى عن العمل أبدا. وكان لا يكاد ينوق النوم، وكان يأكل أقل القليل؛ وأي شيء أقل من العبادة التامة كان في نظره مضبعة الوقت.

كانت هذه هي قوة إيمانه حتى أنه قبل أن تمر عشر سنوات من رئاسته الدير كان قد صار ضمير البلدان المسيحية يحسم الخصومات، ويؤنب الملوك، ويسدى النصح لمن يطلبه، ويلهم كل من يصغى.

فى أثناء ذلك، كانت الجيوش المسيحية تواصل القتال فى الأرض المقدسة، وازدادت شهرة فرسان الهيكل. ذلك أنه فى عام ١١٢٠، كان كونت فولك من انجو قد انضم إليهم باعتباره عضوًا مشاركًا؛ وبهذه الصفة لم يكن ملزما بالبقاء مع الجماعة طوال حياته، ولكن حتى بعد أن توقف عن العضوية الفعالة كان يعطى الهيكل هبة سنوية من ثلاثين جنيها فضة. وسار على مثاله، عدد من اللوردات الفرنسيين، كما جاحت الهبات من الشرق، من بطريارك القدس، والكنيسة السورية، وقساوسة الضريح المقدس. ولكن على الرغم من احتمال وجود أعضاء مشاركين أخرين، فلا تبين السجلات المزيد من الأعضاء كاملى العضوية حتى عام ١١٢٦، ففي ذلك العام انضم

رجل من أبرز الرجال إلى الثمانية (أو التسعة): هو هيو، كونت شامبني، الذي كان قد منح بيرنار الأرض التي شيد عليها ديره.

لقد كتب بيرنار بأسلوبه المميز، مظهرا في نفس الوقت إنسانيته وقيمته الروحية:
"إذا كنت قد غيرت نفسك، من أجل عمل الرب، من كونت إلى فارس ومن شخص ثرى
إلى شخص فقير، فإنى أهنئوك على تقدمك العادل، وأمجد الرب فيك ومع ذلك فإنى
أقسم أنه مما يؤلني أن أحرم من حضورك المبهج بسبب طرق الرب الفامضة؛ ولكن
على الأقل قد نراك من حين لآخر، إذا كان ذلك ممكنا. فكيف لنا أن ننسى الصداقة
التي أبديتها نحو دارنا؟ ومقدار الفرح الذي كنا سنحس به ونحن نعني بك، جسما
ونفسا وروحا، إذا جئت كي تعيش معنا! ولكن ما دام الأمر ليس كذلك، فنحن نصلي

ولا بد أن وصول كونت هيو قد أثار الكثير من الذكريات القديمة لدى فرسان الهيكل. فهو قادم جديد من أرض الوطن التي تركوها منذ ثلاثين سنة؛ وهو سيد بلاد هيو دى بيان؛ كما أن صديقه، رئيس الدير العظيم، ابن أحد الفرسان الآخرين. وعلى الفور كان هناك مطلبان مختلفان جعلا من الأهمية بمكان أن يتم الاعتراف الرسمي بالجماعة والموافقة عليها من جانب البابا. أولا، في العام السابق، ١١٢٥، كان الملك بولدوين ملك القدس قد منع لقب سيد الهيكل لهيو دى بيان؛ وكانت ممتلكات الهيكل المادية تنمو، فكانت هناك حاجة إلى بعض التنظيم. وثانيا، سنحت الفرصة لبوادوين لهاجمة دمشق وكان في حاجة إلى المزيد من الرجال. فإذا تمكنت الجماعة الوليدة من نيل موافقة بيرنار، فمن المؤكد أن تتبعها موافقة البابا؛ ومعها لن يكون الوليدة من نيل موافقة بيرنار، فمن المؤكد أن تتبعها موافقة البابا؛ ومعها لن يكون هارسين لتسليمها، كان الاختيار الأول واضحا: أندرى دى مونتبار، خاله، وذهب معه فارسين لتسليمها، كان الاختيار الأول واضحا: أندرى دى مونتبار، خاله، وذهب معه رفيق الرحلة، جولديمار.

ولا بد أنها كانت تجربة غريبة حين دخل أندرى مع جوندمار إلى باب كليرفو: وعلى الرغم مما بينهما من علاقة الخال وابن الأخت، فمن المحتمل أنهما كانا تقريبا

غى نفس السن، ومن المؤكد تقريبا أن أحدهما لم ير الآخر منذ عشر سنوات، وفى ذلك الوقت، كان بيرنار قد أصبح أكثر رجال الدين احتراما فى العالم المسيحى. إن حوارهما، حين التقيا مرة أخرى كرجال غير مسجل، ولكن من المؤكد أنها كانت مناسبة مفرحة. من الممكن للمرء أن يتخيلهما يتبدلان الأخبار بلهفة عن العائلة، وكونت هيو، وعن جماعة الهيكل الجديدة. ذلك أن بيرنار، شأنه شأن غيره فى أوريا، كان قد سمع شيئا عن الفرسان المقدسين؛ والآن قدر له أن يعلم بشكل مباشر عن أفعالهم وأمالهم. ثم انتقل أندرى إلى موضوع رحلته فقدم رسالة بولدوين.

"إخوة الهيكل الذين خلقهم الله للدفاع عن منطقتنا ونطاقنا والذين أسند إليهم حماية خاصة، يرغبون في تلقى موافقة رسولية وكذلك حكم الحياة.... ولما كنا نعرف معرفة جيدة توسطكم مع الرب وكذلك مع ممثله، ومع غيره من أمراء أوربا، فنحن نسند إلى عنايتكم هذه المهمة المزدوجة، التي نرحب بنجاحها، وليكن دستور الغرسان مناسبا لمن يحيون في ظل صدام الحرب وما بها من اضطراب، ومع ذلك، يكون مقبولا لدى الأمراء المسيحيين، الذين كان الفرسان عونا لهم. وقد قيض لكم، بإرادة الرب، أن تصلوا بهذا الأمر إلى نتيجة ناجحة سريعة ".

ربما لم يكن هيو دى بيان يدرك هذا الأمر، ولكن الجمع بين فضائل العبادة وفضائل الحرب كان فى العصور الوسطى ضربة خيالية من أرفع المراتب. أما بيرنار فقد أدرك ذلك على الفور. إذ إنه استشعر ذلك بفضل إرثه العسكرى الدينى، من أبيه النبيل، وأمه التقية: من خلال فرسان الهيكل – يمكن توسيع نطاق المسيحية وتقويتها، – ويمكن التعبير عن الروح القتالية لدى الأوربيين الشباب، ويمكن مباركتها. فأعطى موافقته الفورية، ووعد بأن يبذل كل ما فى وسعه المساعدة. وبالنظر إلى صعوبات التواصل عبر مسافات بعيدة، يمكن القول بأن الأحداث تحركت بسرعة، فتم صعوبات التواصل عبر مسافات بعيدة، يمكن القول بأن الأحداث تحركت بسرعة، فتم تقديم نداء للبابا أونوريوس الثانى؛ فوافق من حيث المبدأ ودعا إلى عقد مجلس لتدارس الأمر، وبينما كان بيرنار يشغل نفسه فى أوربا، أرسلت الأنباء السارة إلى القدس وإنطلق هيو، السيد نفسه، بحرًا إلى إيطاليا. ورافقه العديد من الإخوة – والسجلات

المختلفة تقدم أعدادا مختلفة، خمسة، أو سنة، أو حتى سبعة، أما كونت هيو فلم يذهب؛ إذ إنه، في حقيقة الأمر، لم يعد إلى أوربا مطلقا، ومن المؤكد أن عضوا كامل العضوية على الأقل كان يجب أن يبقى كي يدبر شئون الهيكل في غياب المعلم.

قد يكون هيو وإخوته من الغرسان قد وصلوا إلى إيطاليا في أواخر عام ١١٢٧. وأتيح لهم لقاء مع البابا، ثم في نهاية السنة، اتجهوا شمالا إلى فرنسا؛ لأنه كان من المقرر أن ينعقد المجلس في تروأ، على بعد مسافة قصيرة شمال غرب كليرفو. ولم تكن بلدة هيو بيان أو بان كما تسمى الآن تبعد سوى بضعة أميال، على الضفة الشمالية من نهر السين، قبل التقائه مع نهر أوب، وكان قد غادر البلدة الصغيرة في السادسة والعشرين من عمره،؛ وحين عاد كان عمره ثماني وخمسين سنة.

لقد كانت جمعية عظيمة مقدسة ثلك التي تجمعت في الكندرائية في تروا، في عيد القديس هيلاري في ذلك العام، أي في يناير عام ١١٢٨- كان يوما باردا، وكان البرد شديداً في الكندرائية، خاصة بالنسبة الصحاب المنزلة الأقل الذين اضنطروا إلى الملوس على الأرض.

وكان من بين الأشخاص الأكثر حظاً رجل يسمى جون ميكل، بل أنه عد نفسه أكثر الأشخاص حظا: إذ إنه لم يستطع فقط أن يجلس على مقعد بدلا من الجلوس على الأرض الباردة بل كانت أمامه منضدة كتابة - لأن بيرنار قد اختاره كى يكون الكاتب أو المدون الرسمى للجمعية وبدأ عمله فى التسجيل وهو يشعر بالابتهاج بما أسبغ عليه من تشريف.

وكتب: "أنا جون ميكل قد اعتبرت جديرا بعناية الرب أن أكتب الوثيقة الحالية بأمر المجلس وأمر بيرنار، الرئيس الموقر لكليرفو، الذي أوكل إليه هذا العمل عن استحقاق".

وكان ذلك "العمل" هو ميثاق الهيكل، موشد الفرسان الجديد السلوك. وهي وثيقة طويلة ومقصلة، تتكون من اثنين وسبعين مادة، تغطى كل جانب من جوانب المياة

البومية. وكان مثل هذا العمل يتطلب معرفة بالحياة الروحية والحياة في الشرق، وهي معرفة لا يتمكن منها رجل واحد؛ أما بيرنار فكان محرر الوثيقة وليس واضعها. فلم ي يحضر المجلس حتى اعتلت صحته بعد دعوته إلى تروا بفترة وجيزة كتب برد: "إن ما لديكم من سبب لاقتحام ما أنا فيه من سكينة يتعلق بأمور إما سبهلة أو صعبة. فإذا كانت سبهلة فلا ضبرورة لمساعدتي. وإذا كانت صبعبة فلست في حالة تسمح بالاهتمام ـها - على الأقل، لا أستطيع عمل شيء يستعصني على غيري"، حتى القديسون يمكنهم أن سنتثاروا حين يكونون مرضى؛ غير أنه في النهاية أمكن إقناعه بالمجيء ونقش حون ميكل برقعة الجلد والريشة أسماء من حضر، من بين الحشد الذي ملأ الكتدرائية كان هناك الكثيرون من المغمورين مجهولي الذكر وكان عددهم كبيرًا بحيث "يصعب التحدث عنهم جميعا" لقد رأى الكاتب المشاهير". كان هناك الكاردينال ماتيس من أولباني، والمندوب البابوي، وهو الذي يترأس المناسبة المهيبة، وكان بجانبه أساقفة ريمز، وسان، وكان هناك عشرة أساقفة وسبعة من رؤساء الأديرة يجلسون في نصف دائرة حول هؤلاء الشلائة. اثنان من رؤساء الأديرة، هما بيرنار، رئيس دير كليرفو، وستيفن هاردينج، رئيس دير سيتو سوف يعترف جهما كقديسين فيما بعد؛ وعلى الرغم من أن كاردينال ماتيو كان يترأس المجلس اسمًا، كان الجميم يعرفون أن بيرنار هو الزعيم الحقيقي للمجلس. وكان معظم أعضاء المجلس يعرفونه معرفة شخصية، أما القلة التي لم تكن تعرفه، فكانت تحترمه وتعجب به.

وكان هناك لوردات علمانيون يحضرون المجلس أيضا: "أخرون من أنصاف المتعلمين لكننا نحضرهم كشهود على هذا الشيء لأنهم يحبون الحق". – ولأنه إذا ما تم الاعتراف بهذه الجماعة الجديدة فأمثال هؤلاء الرجال هم من سيقدمون الدعم المادى، وكان أهم شخص من غير رجال الكنيسة كونت تيبو من شامبانيي، وهو صديق أخر من أصدقاء بيرنار، ومنذ البداية كان يميل إلى فرسان الهيكل، لأنه حصل على لقبه حين انضم عمه كونت هيو إلى الجماعة، ولا بد أن هيو دى بيان ورفاقه قد شعروا بأنهم خُشنون غير متحضرين في حضور هذا العدد من الرجال البارزين، كما كانوا يشعرون بالعصبية لدى التفكير في القرار الذي كانوا ينتظرونه.

لم يكن فرسان الهيكل يشبهون أي فرسان أخرين راهم أعضاء المجلس من قبل. فبدلا من الحرير والفراء المزركش الفخم الذي يحبه الفرسان العاديون كان هؤلاء الرجال يرتدون ملابس قديمة مهترئة وممزقة. ولم تكن ملابسهم مرصعة بالحلى أو الذهب أو أشكال معقدة على أسلحتهم ودروعهم: بل كانت جميعا باللون الأسود، وبدلا من قصبات الشعر الأنبقة، واللحي المهندمة كان شعرهم قصيراً بشكل صبارم، ولجاهم كثيفة تقيلة. حين كان أعضاء المجلس ينظرون بفضول إلى من يتوسلون إليهم، استمعوا إلى كاردينال ماتيو وهو يفتتح الأعمال بشكل رسمي، ثم نهض هيو دي بيان كي يتكلم بناء على دعوة من الكاردينال. فتحدث عما مضى من أيام، حين اكتسح الصليبيون الأراضي المقدسة، وأخذوا القدس من المسلمين؛ وتحدث عن الأخطار التي واجهها الحجاج، والتهديدات المتكررة على الدول اللاتينية، وشرح كيف تشكلت مجموعته الصغيرة، وكيف رحب بها ملوك القدس؛ ووصف طريقة جماعته في الحياة، بما فيها من مزيج غريب من الصلاة والقتال. ولم يستخف بالصعوبات؛ ومع ذاك قال إن أسوأها أنه يقاتل وحده هو وإخوانه، نونما عون من مسيحيي الغرب، وبدا أحيانا أنه يسمع الشيطان يهمس قائلًا: "لم تكدح بلا جدوى؟ ولم تبذل كل هذا الجهد بلا طائل؟ إنْ من تخدمونهم يمترفون بكم كشركاء في الكفاح لكنهم غير راغبين في المشاركة في الجماعة. فمتى تأتى تبرعات المؤمنين الخيرية إلى فرسان الهيكل؟ ومتى تصل الصلوات لفرسان الهيكل من المؤمنين في أنحاء العالم".

وأخيرا كرر الاحتياجات الثلاثة الماسة التي تطلبها الجماعة، إذا كان لها أن تستمر في أداء عملها: مباركة الكنيسة واعترافها، ومرشد أو ميثاق يحكم حياتهم اليومية، ومساعدة عملية على شكل مال ورجال.

ولم يكن في حاجة إلى القلق؛ لأنها قبلت جميعا بحماس هادئ مناسب. بل حتى دون توسله الحار كانت توصية بيرنار وحدها كافية بالنسبة للجميع أو للجميع تقريبا. لقد كان في تلك المجموعة من الرجال المخلصين شخص لا يحبه أحد: ذلك الشخص هو جان، أسقف أورليان، ولم يلقبه جون ميكل الكاتب بالأسقف بل لقبه بازدراء

الراقص العمومى، وقد وصفه أحد زملائه بأنه "شيطانة مسافحة ويأنه لواطئ" إذ كانت أخلاقه العامة عبارة عن فضيحة، حتى أن اسم شهرته الشائع كان "قلورا" وكان السبب الوحيد لحضوره هو أنه كان مفضلا لدى الملك، ولم يكن يحب بيرنار، كما لم يكن بيرنار يحبه؛ غير أن استبعاده كان من شأنه أغضاب الملك؛ وعلى الرغم من أن بيرنار لم يكن يخشى غضب أحد، فإنه كان إنسانا عمليا، ولم يكن يرغب في تعريض "الفرسان" للخطر، كما لم يرغب أعضاء المجلس في أن ينظر إليهم باعتبارهم أبوات الشيطان، وكان هيو قد لمس وترا حساسا مما جعلهم يسبغون عليه، بركته وكذلك على جماعته بالشكل المناسب؛ ثم أخرجوا بكل عناية وضمير ميثاق الهيكل.

وكانت الوثيقة التي أخرجوها شديدة التفصيل والتعقيد بشكل ممض، وكانت شاملة إلى أكبر حد تمكنوا من تحقيقه. ذلك أن الاثنين والسبعين مادة التي توجد في نسختها اللاتينية الأصلية غطت كل ما أمكن لأعضاء المجلس التفكير فيه، ابتداء من التحذيرات الدينية العامة إلى النظام اليومي الذي يجِب أن يتبِعه الفرسان. فكانت جوانبه الدينية مشابهة لتلك التي توجد في أي دير، وكانت عموما ذات نبرة خيرة: إذ كان على الإخوة أن يصلوا معا في أوقات معينة في كل يوم، وإذا كانوا غائبين عن الدار، عليهم ترتيل أعداد مختلفة من الصبلاة الربانية (أبانا الذي في السماء). ولا يجِبِ أن يتناولوا اللحم إلا ثلاث مرات في الأسبوع؛ ويجب أن تنعقد الوجبات في صمت، مع قراءة من الكتاب المقدس، ويجب مراعاة الصمت ليلا. ويؤمر الإخوة بالعناية بأي عضو مريض أو مسن وأن يقيموا القداس لأرواح موتاهم؛ وعليهم بعد وفاة أي أخ منهم إطعام فقير للدة أربعين يوماً، ويجب عليهم تجنب التواصل مع من حرموا من الكنيسة، مم أنهم يمكنهم قبول الصدقات والهبات من أمثال هؤلاء، وعلى الرغم من أن نصب الفخاخ مسموح به، لكن ليس مسموحًا لهم قنص أي مخلوق عدا الأسد. ذلك أن القنص وثيق الصلة بحياة الفارس العادي؛ مما جعل أعضاء المجلس يظنون، وربما عن حق، أن الإثارة والكد في المطاردة من شائه إيقاظ المسرات الخاطئة القديمة في نفوس جنود المسيح، ولكن إذا كنان القنص شيرا، فالنسباء شير لا حد له، إن رعدة الرعب

(وربما الابتهاج) تكاد تكون مسموعة في كلمات هذا الميثاق: "إن صحبة النساء شيء خطير، فمن خلالهن أنكر علينا الشيطان القديم المق في العيش في الفردوس؛ لذا لا يمكن استقبال النساء كأخوات في الجماعة، ... ونحن نعتقد أنه من الخطر على أي متدين أن ينظر أكثر مما ينبغي في وجوه النساء. "ولذا، لا يجب على أي واحد منكم أن يجترئ على تقبيل امرأة سواء كانت أرملة أو عذراء أو أمَّا أو أختًا أو عمة أو خالة، أو أي امرأة أخرى؛ لذا يجب على فرسان المسيح أن يفروا دائما من قبلات النساء،" لم يكن هذا معاداة خالصة للمرأة كما يبنو، لأن الإخوة كانوا أيضًا ممنوعين من أن يكونوا آباء روميين؛ ذلك أن أعضاء المجلس كانوا يخشون من أن هذه العلاقة قد تثير في نقوس القرسان الشوق إلى الحياة الأسرية العادية. ولهذا السبب جزئيا كان محظورا على الأطفال دخول الجماعة أو أن يوعدوا بذلك، كما كان العهد في الدور الدينية الأخرى، ذلك أن فرسان الهيكل، منذ البداية، كانوا عازمين على أن يقبلوا فقط الرجال الناضجين الذين يحضرون بناء على رغبتهم وقناعتهم. وكان ملبسهم شنأنه شأن أي شيء أخر في حياتهم ينظمه ميثاقهم. ولم يعودوا يرتدون ملابس قديمة غير مميزة ومستعملة؛ ويدلا من ذلك، وكما يليق بمحاربين تخلوا عن 'الثراء البهيج في ذلك القرن" من أجل حياة جديدة في الرب، يجب على الإخوة الفرسان أن يرتدوا زيا أبيض، شعارا على العفة والنقاء. "لكن ملابسهم لا يجب أن يكون بها بهرجة أو زهق ويحظر على أي أخ أن يرتدي أي فراء، غير جلد الأغنام... حتى لا تجد عين الحاسد المثرش ما تنتقده، ولا ينبغي أن تكون الأردية شديدة الطول أو شديدة القصر؛ وإذا ما أشتهى أي أخ، بسبب الزهو أو التكبر، رداء أفضل أو أجمل، يعطى أشر الأشياء".

وكذاك كان فراشهم محددا مصمعا: مرتبة، وملاءة، وبطانيتان؛ وعليهم النوم وهم يرتدون ملابسهم الداخلية القطنية، التي يضمها حزام، ويجب أن يشتعل ضوء في العنبر طوال الليل. وليس من حق الأخ استلاك أية ممتلكات شخصية؛ فكل شيء مساع، والهدية التي تقدم لأي من الإضوة تعد هدية للجسميم؛ بل إن الخطساب

الشخصى لا يمكن قراعه بشكل شخصى أو خاص، وإنما يقرأ بصوت مرتفع أمام المعلم.

لقد كان كل ما في الميثاق يقصد منه إقامة أو الإجبار على إقامة حياة جماعية، إن كان ذلك ضروريا – إنكار لما هو فردى في صالح ما هو جماعي، إذ كان أعضاء المجلس يرون التفاخر الشخصى باعتباره أحد الأسباب الجذرية للغيرة والصراع فسعوا إلى منع ظهوره في أي مكان في الجماعة – حتى ذلك التفاخر المقلوب الذي يتمثل في الحديث عن مدى فساد الفرد قبل التحول، فلا أعلام بطولة على الرماح، ولا حلى على الدروع ولا أحذية مدببة، ولا إفراط في الحديث، أو ضحك؛ وبدلا من ذلك، يطلب الفقر والعفة والتواضع، ولكن فوق هذه الصفات – وهي التزام مدى الحياة – طلب الميثاق الطاعة.

"على كل أخ التزم بالخدمة المقدسة، أن يطيع المعلم طاعة كلية، من خلال الخوف من لهيب الجحيم؛ لأن ما من شنىء أحب إلى يسوع المسيح مثل الطاعة، وإذا أمر المعلم بأى شيء، أو أى شخص أسند إليه هذه السلطة، يجب عمله دونما تردد وكأنه أمر من الرب... لأنك يجب أن تتخلى عن إرادتك الحرة ".

قد يأتى مثل هذا الإنكار الذات بيسر القديسين؛ ولكن فرسان الهيكل أيسوا بقديسين مهما بلغ إقتناعهم؛ وقد تبصر أعضاء المجلس الأكثر دنيوية الأوقات التى لن يستطيع فيها حتى التهديد بالحرق الأبدى، أو التفكير في المسيح كنوع من الدكتاتور الروحي، يمكن أن تمنع خرق الميثاق. لذا تم وضع نظام من العقوبات العملية، تتراوح من أعمال الكفارة الصغيرة من خلال الأعمال المذلة كان يأكل الشخص طعامه من على الأرض، استمرارا إلى حد الطرد من الجماعة مع السجن الدائم أو دونه: كانت المخالفات تؤخذ على محمل الجد في الجماعة، منذ بدايتها حتى نهايتها الشنيعة؛ هناك فارس، على الأقل، تم سجنه في هيكل لندن بعد ذاك استوات عدة قد مات حوعا.

هكذا أقر ميثاق الهيكل - أنه صارم، ومتقشف، وعلى ما يبدو لا تنازل فيه. ولكن توجد جملة واحدة في نهاية الوثيقة:

جميم الوصبايا والأوامر التي قيلت وكتبت أعلاه تخضع لحصافة وحكمة المعلم. معبارة أخرى، لا يوجد شيء في الميثاق نهائي؛ إذ يمكن إضافة أو تغيير أية مادة، ويمكن إضافة مواد جديدة. حين انتهى مجلس تروا، قد يكون أعضاء المجلس قد دهبوا وهم يشعرون بأنهم قد أنجزوا عملا طيباء وأن اثنين وسبعين من القواعد تكفي تمامًا لأي شخص. غير أن فرسان الهيكل كان رأيهم خلاف ذلك. فعلى الرغم من أن البيثاق الأصلى كان يشتمل على مواد عسكرية دقيقة، مثل عدد الجياد التي يمتلكها الفارس، فإنه من الناحية الجوهرية مرشد للواجبات الدينية، فلم يعر كثير اهتمام للتنظيم والإدارة والتدرج الهرمي الذي يمكن أن يكون ضروريا؛ إذ لم يستغرق دخول إخوة جدد سوى فقرة واحدة؛ ولم يذكر أي شيء على الإطلاق عن تعيين معلم جديد بعد وفاة هيو. تلقى الميثاق بحالته هذه موافقة البابا؛ ثم بدأ الفرسان على الفور إضافة أشياء إليه. وحين رضوا عنه، بعد ذلك بمائة وتسم وثلاثين سنة، كانوا قد أضافوا ما يزيد على ستمائة مادة إضافية. لقد كان الكثير من هذه القائمة الضخمة أمررا تافهة أي مواد وضعت - أحيانا على عجل - لمعالجة ظروف عابرة، ولكن كل مادة من هذه المواد كانت تؤثر في كل فارس، وكانت للكثير منها أهمية عظيمة. وأول هذه المواد، كانت مسئلة التدرج الهرمي، وتوصيف وأجبات كل رجل ومسئولياته، ذلك أنه على الرغم من أن المبدأ الذي يكمن وراء الجماعة وهو فكرة عدم وجود جيش دائم مرتزق كانت فكرة غريبة على الإقطاع وكانت إشارة إلى نهايته، فإن الجماعة كانت منظمة على خطوط مماثلة للمجتمع الإقطاعي، الذي نبعت منه.

فعلى رأس الجماعة كان هناك المعلم؛ ولم يعرف قط فى أثناء حياة الجماعة بالمعلم الأكبر: وبدلا من ذلك، يسمى "معلم الهيكل فى القدس". وكان رجلا قويًا جدًا، لكنه لم يكن دكتاتورا، ولكن فى حين كان كل أخ مسئولا أمامه، كان هو بدوره مسئولا أمام الجماعة ككل. لقد كان منصبه، الذى يقارن بمنصب رئيس الدير، يعطيه سلطات معينة

واستبازات، ولكنها جميعًا كانت محدودة. إذ يمكنه توزيع أو الاستغناء عن بعض ممتلكات الجماعة؛ ويمكنه منح الهبات باسم الجماعة؛ ويمكنه اختيار خيله ودرعه؛ وكان هن الحارس على خزانة مغلقة من المجوهرات تخمس الجماعة. ومع ذلك، في جمعم القرارات المهمة، مثلاً، في إعطاء أو التخلي عن إحدى ممتلكات الجماعة، أو في التخطيط لحملة أو تنظيم هجوم خاص، أو في تغيير أي جزء من الميثاق أو الإضافة اليه أو الفائه، أو في استقبال أخ جديد، أو في إعلان الحرب أو عقد السلام – في جميم هذه القرارات، عليه أن يستشير جماعة من الفرسان، وعلى الرغم من أن صوته قد يكون مؤثراً، فهو لا يملك سبوي صبوت واحد. ومع نمو الجماعة، كان المحيط به شخصيا يشتمل على أحد عشر رجالا: رفيقان من الفرسان؛ مستشاراه؛ وكاهن خاص، وكاتب، ومترجم، وطاه، وحداد، وهارس شخصيي، وهادمان، ورقيب، وكان لديه أربعة جياد للاستخدام العادي؛ أما في الحملات فكان لديه ما يقرب من عشرة، أكثر من الأخرين؛ وكانت رأية الجماعة في المعركة تسير في ركابه، وهي عبارة عن صليب أسود على أرضية بيضاء؛ لقد أصبح هذا، أي الجونفالون بوسينت، مصدر بلبلة معهودة بين المؤررخين حين كانوا يكتبون عن الهيكل في بدايته، وكلمة بوسينت تعني تقريبا ذا مظهر حسن، لكنها كانت اسما للراية. في واقع الأمر فإن كلمة بوسينت كما تظهر في الميثاق، كلمة شائعة جدا في حكايات العصور الوسطي، ولها معنيان: بيبالد، شبيه الحصان، أو بصورة أكثر بساطة راية. وفكذا فإن الاسم لم يكن أصلا قاصرا على فرسان الهيكل؛ ذلك أن الكثير من الجيوش كان يمكنها أن تشير إلى راياتها باعتبارها بوسينت، والكثير من تلك الجيوش فعلت ذلك. كما لم يكن الصليب الأسود والأرضية البيضاء الجونفالون "الرمز الأصلى لفرسان الهيكل، فقد صودق عليه عام ١١٤٥، وفي ذلك الوقت كان هيو دي بيان قد مات. ولكن المعنى المزبوج كان غربيا على فرسان الهيكل، لأن الراية التي ركبها هيو ورفاقه في تلك الأيام الأول كانت أسود وأبيض: من خَيِث الشِّعار، كان ذلك ملحا مع اللون الأسود الداكن أو الأدهم - أنَّ يكون هناك أبيض ناصع، يعلوه شريط أسود عريض. وكان عدد قليل من فرسان الهيكل الحق راكبين مباشرة بجانب الراية: وهم ناظر الإقطاعية، والمرشال، وأمراء مدينة القدس ومدن طرابلس وأنطاكيا، وأخيرا معلمو الأقاليم، مثل إنجلترا والبرتغال، وأرجون، والمجر وفرنسا. كان هؤلاء هم جميعا أهم المسئولين في الجماعة.

وكان ناظر الإقطاعية هو من يلى المعلم في القيادة، وكان لديه، بالإضافة إلى الراية، خيمة وختم مطابق لختم المعلم، وينوب عن المعلم في غيابه. أما المرشال، فلم يكن الثالث في القيادة فحسب لكنه كان أيضًا قائدًا عسكريا أعلى، ويتحكم في تخصيص الأسلمة، والغيول، ويقرر التكتيكات والاستراتيجية، ويقود الهجمات ضد العدو. وكان قائد مدينة القدس مسئولا عن صحة الإخوان ورعايتهم، وكان يصحبه عشرة فرسان دائمين، ويمرور الوقت، ومع نمو النشاط العسكري للهيكل، أسند إليه واجبان إضافيان: الواجب الأول المتعلق بحماية الصجاج، وتأمين ونقل أحد أقدس الآثار المسيحية، وهو عبارة عن قطعة من الخشب يعتقد أنها قطعة من الصليب الحقيقي، وأخيرا قيادة مقاطعات طرابلس وأنطاكيا، ومعلمي الأقاليم: كان هؤلاء الرجال في أراضيهم يتمتعون بسلطات مكافئة اسلطات المعلم، ولم يكونوا يتخلون عنها إلا إذا كان المعلم معهم، وتُمنة رجل آخر يمكن إدراجيه مم هؤلاء المستواين الأكثر عظمة: مسئول الأقمشة والملابس. واجباته لم تكن عسكرية، لكنه كان شديد الأهمية بالنسبة الجماعة، لأنه هو من كان مسئولا عن كل ما يتعلق بملبس الإخوان وفراشهم. ويمكن قياس حجم أهميته من حقه - المطابق لحق القائد في امتلاك أربعة من الخيول وثالث خيام، للمالزمين له، وهم يتكونون من ثالثة سكوير (أفندي) وحارس شخصي، ومجموعة من الحائكين بطبيعة الحال. وجميع المتلكات الخاصة بالجماعة، سواء كانت قالاعًا أو مزارع، كانت تسمى "بالنور". ومن بين المستولين الأقل درجة كان هناك مجموعتان مهمتان هما قادة الدور، المسئولون أمام قائد الإقليم؛ وقادة الفرسان الذين كانوا يقومون مقام المرشال.

ثم يأتي الفرسان، فدونهم لم تكن الجماعة لتوجد؛ وعلى الرغم من أن سادتهم كانوا أشخاصا مميزين، يمكن معرفة حياتهم وشخصياتهم بوضوح، فمن المناسب أن تظل صورة الفارس على صهوة الجواد، مرتديا درع الزرد والجلباب الأبيض القصير اللغوف حول الغصر هي الصورة المبيزة الغرسان؛ لأن الإخوان الفرسان، بصحيتهم "روسينت" هم الطليعة والإخرة لكل قوة من قوى فرسان الهيكل، ومع ذلك حتى هم لم يكونوا أكثر المجموعات عددا في الجماعة - كانوا يجندون من بين طبقة النبلاء، وكانوا رأس حرية الجماعة والدفاع عنه، وعن الأراضي المقدسة، غير أنهم كانوا في جاجة إلى نظام دعم كبير كي يتمكنوا من العمل بشكل فعال، فقدم هذا الدعم الإخوة الرقباء. وكانوا أعضاء من البرجوازية الثرية؛ وكان زيهم أسود أو بني اللون، وكانت واجباتهم تتراوح من الطهي إلى القتال. وعادة ما كان عددهم يفوق عدد الفرسان بنحو تسعة إلى وأحد، وإذا كان الفارس هو العمود الفقرى للجماعة، فإن هؤلاء الرقباء يشكلون الجسد. لم يكن الرقيب يملك سنوى حصنان واحد، في حين أن الفارس يملك ثلاثة جياد، ولكن ثمة امتيازات مفتوحة أمام الرقيب لم يكن للفارس أن يصبو إليها. على سبيل المثال، كان قائد ميناء عكا دائما من الرقباء؛ وكان هؤلاء الرقباء هم الحرس الشخصى للمسئولين الأكبر درجة؛ كما كان حامل الرابة أيضًا من بينهم.

فى البداية، لم يكن للجماعة رجال دين خاصون بها؛ وكان يقوم بخدمة أعضائها من الناحية الدينية كهنة وقساوسة خاصون من كنيسة روما، وكانوا يتلقون الإقامة والطعام؛ ولا شيء أكثر من ذلك، ويرتدون ملابسهم العادية. وقبل مرور وقت طويل، كل هذا سوف يتفير؛ كذلك كانت طريقة استقبال أعضاء جدد تتغير، وكذلك القبول في الجماعة، ذلك أن الميثاق الأصلى قفز بخفة على ما كان مقدر له أن يشكل مشكلة رئسية:

لم تكن مؤهلات الدخول أقل تعقيدا. "إذا رغب أي فارس علماني، أو أي رجل أخر أن يترك جماعة الضياع ويتخلي عن هذا القرن، لا تنكروا دخوله، لأن القديس بولس قال: "وافقوا على الروح إذا أتت من الرب". حين يكون أمام الإخوة، ضعوا

الميثاق أمسامه، وإذا رغب في أن يطيع أوامره بكل دقة، وكان المعلم والإخوة راضين عن استقباله، اجمعوا الإخوة في اجتماع، ودعوه يبين رغبته وإرادته أمام الجميع".

كان أعضاء المجلس في تروا رجال كنيسة لديهم تجربة وخبرة، ولا بد أنهم شعروا أن هذا يكفى، غير أن فرسان الهيكل، لم يكونوا كذلك؛ فهم بوصفهم عسكريين، لم يكونوا معتادين على مفهوم السلطة الروحية. وكانوا يريدون أن يكونوا على صواب، لذا فهم في حاجة إلى المزيد من التفاصيل، فوضعوا مراسم طويلة، وسجلوها؛ وكانت مصممة بحيث تردع أي شخص غير ملتزم التزاما تاما، وتبدأ بأن يقف المرشح للعضوية أمام الفرسان المجتمعين، يستمع إلى حديث يذكر بالعرس بشكل غريب:

"أيها الإخوة الطيبون، ها أنتم ترون جيدا أن معظمكم وافق على جعل هذا (الرجل) أضا؛ فإذا كان منكم من يعرف سببا يمنعه من أن يكون أخا بحكم القانون، فليقل ذلك، لأن مثل هذا الشيء يحسن أن يقال قبل أن يصير هذا الرجل بيننا وليس بعد ذلك".

وإذا لم يقل أحد أى شيء يؤخذ المرشع للعضوية إلى حجرة ملحقة، ويساله أكبر أعضاء الجماعة، إنهم يسالونه رسميًا إذا كان يرغب في أن ينضم إلى الجماعة، وإذا رد بالإيجاب، أظهروه على "الوصايا الخيرة والصعوبة الكبيرة في الدار". إذ عليه أن يفهم بوضوح ويوافق على أنه لدى دخوله الجماعة، "سوف يتحمل عن طيب خاطر كل شيء من أجل الله، وأن يكون خادم الدار وعبده للأبد وجميع أيام حياته". ثم يتم سؤاله عن وضعه: هل هو متزوج أو خطب كي يتزوج؟ هل أقسم أو قدم وعدا قبل ذلك لأية جماعة أخرى؟ هل عليه أية ديون لم يستطع دفعها؟ (إذا كان الأمر كذلك، فسيكون هذا مانعا مطلقا للدخول) هل صحته جيدة؟ هل يعاني من أي مرض خفي؟ هل هو عبد في أرض أي مرض خفي؟ هل هو عبد في أرض أي مرض خفي؟ هل هو عبد

إذا قنع الكبار بإجاباته، يوصنون الاجتماع بقبول المرشح، وتعاد أجوبته على المجتمعين. ثم يطلب المعلم، أو الشخص المسئول، المجتمعين إذا كانوا يرغبون، باسم الله أن ينضم هذا الرجل، فكانوا يجيبون: "باسم الله، فلينضم". عندها فقط يتم إحضار المرشح، ويقدم طلبه الرسمي وهو جاث وواضع يديه في اتجاه المنصة:

"سيدى، لقد أتيت أمام الله، وأمامكم وأمام الإخوة، وأتوسل إليكم وأطلب منكم باسم الرب وباسم سيدتنا أن تهبونى صحبتكم وفوائد الدار باعتبارى شخصًا سيكون من الأن قصاعدا خادمه وعبده".

ثم يأتى نصح وتحذير المعلم للمرشح:

"أيها الأغ الطيب، إنك تطلب شيمًا كبيرا، لأنك لا ترى سوى القشرة الخارجية لديانتنا؛ وترى أن لدينا جيادًا جيدة وأجمة جيدة وطعامًا وشرابًا، وقد يبدو لك أنك سوف تكون في راحة هنا. غير أنك لا تدرى الأوامر والمتطلبات القوية بالداخل؛ لأنه من الصحب عليك، أنت يا من كنت سيدا لنفسك، أن تجعل من نفسك خادمًا لآخر، إنك بالكاد ستفعل أى شيء تريده: إذا أردت أن تكون في أوربا، ربما يتم إرسالك إلى ما وراء البحار، وإذا ما رغبت في أن تكون في عكا؛ قد يتم إرسالك إلى طرابلس، أو أنطاكيا أو أرمينيا، وإذا أردت أن تنام، قد يتم إيقاظك، وإذا كنت يقظا فقد تؤمر بأن ترقد. أيها الأخ الطيب، هل يمكنك تحمل كل هذه المشاق".

وعلى المرشح العضوية أن يجيب قائلا: "نعم، سوف أتحمل كل ما يرضى الرب" فيجيب المعلم: "أيها الأخ الطيب، في صحبتنا لا يجب أن تسعى إلى سيادة أو ثروة، لا ولا راحة جسدية. وعليك أن تسعى إلى أشياء ثلاثة: أن تنبذ وترفض آثام هذا العالم؛ وأن تقوم بخدمة سيدنا؛ وأن تكون فقيرا تائبا. فهل تعد إلهنا وسيدتنا أنك من الآن فصاعدا في جميع أيام حياتك، سوف تطيع معلم الهيكل، وأي قائد أعلى منك؟ وأنك ستعيش حياة العفة بلا أية ملكية شخصية؟ وأنك ستلتزم بالعادات في دارنا؟ وأنك سوف تساعد بكل ما تستطيع على فتح أرض القدس المقدسة؟ وأنك ان تغادر هذه الجماعة أبدا، لا في القوة ولا في الضعف، ولا في الضراء ولا في السراء".

فإذا كان المرشح للعضوية مصرا على الانضمام، وإذا كان المجتمعون لا يزالون موافقين، إذن ينطق السيد بكلمات القبول:

"باسم إلهنا وسيدتنا، والقديس بطرس وأبينا البابا، نمنحهك ونمنح أباك وأمك وكل من تشاء من سلالتك، فوائد الدار، كما كانت منذ بدايته وستكون حتى النهاية. وأنت ستمنحنا جميع ما لديك من فوائد وسيكون لديك منها! ونعدك بالخبز والماء، والعمل، ورداء الدار الفقير".

الفصل الثالث

أوربا والأراضي المقدسة، ١١٢٦- ١١٢٨

يأتى الحلم من كثرة الشغل....

سفر الجامعة، الإصحاح الخامس، الآية ٣

كان عام ١١٢٧ عاما يخلو من الأحداث في الدول اللاتينية في الأراضي المقدسة،

إذ لم يقم بولدوين الثانى، ملك القدس، سوى بحملة صغيرة، ولم يقم بها حتى شهر أغسطس. وكانت علاقته ببطريارك القدس، جومبارد، علاقة طيبة؛ إذ أدار الرجلان الدينة المقدسة بينهما بيسر؛ أما فيما وراء الحدود المسيحية، في عسقلان، ودمشق وحوران، وحلب، والموصل، فكان المسلمون هادئين. وكذلك تمكن بولدوين من الإقلال من مسئولياته الشخصية: ففي العام السابق، تخلي عن وصايته على عرش أنطاكيا حين بلغ بوهيموند الثاني سن الرشد. كان الأمير الجديد قد وصل بحرا، في أكتوير عام ١٩٢٦؛ كان طويلا، أنيقا أشقر، يبلغ من العمر شماني عشرة سنة. كما كان أحد أبناء أخي ملك صبقلية، وحفيد ملك فرنسا، وما إن وصل إلى أنطاكيا حتى تزوج ابنة بولدوين الثانية، أليس. فابتهج بولدوين؛ فعدا أي شيء آخر، كانت أليس فتاة متعبة معلية الإدادة، وكانت أنطاكيا تبعد عن القدس ثلاثمائة ميل.

ومنغ منا سباد من سبلام غير معتاد عنام ١١٢٧، - سبلام في داره، وسبلام في المدينة، وسيلام في البلاد، - تمكن بولدوين من التأمل في المستقبل، اقد كان فرسان

الهيكل أناسبًا ميشترين، جديرين بالثقة ومطيعين، ولم يكن هناك من يشبههم في الأراضى المقدسة بأكملها. فإذا كانوا أكثر عددا، فإن مشروعاته الأثيرة إلى قلبه -فتح دمشق وعسقلان تصبح ممكنة، وبدا أن بيرنار دي كليرفو يحمل مشاعر جيدة نمو الفرسان؛ وبدا أن الوقت مناسب الخطة التالية. لذا، فحين سافر هيو دي بيان وإخوته إلى أوربا، في ذلك الخريف، سافروا على خلفية من الاستقرار النسبي، ولكن في حوالي الوقت الذي كانوا يقفون فيه أمام مجلس تروا، بدأت الأمور تتغير في القدس. إذ منات البطريارك جومبنارد، وهل منجله سنتيفن، رئيس أحند الأديرة في شارتر، وتصادف أنه أحد أقارب بولدوين. غير أن هذه القرابة لم تكن تعنى الكثير لدى ستيفن، الذي كانت لديه أفكار محددة تتعلق بمنصبه في القدس، وحيث كان جرمبارد سهلا لينا، كان ستيفن متشددا متصلبا، ويشعر أن السيادة على المدينة المقدسة يجب أن تكون للبطريارك وليس للملك. لذا فسند ميزان السبلام الدقيق، وقبل وقت طويل بدأ صراع طويل بين الرجلين. ذلك أن بولدوين كان عازما على الاحتفاظ بسلطته؛ وكان يدرك أن مناك سببًا وجيهًا يجعل أحد رجال الله يحكم مدينة الرب، غير أن القدس أصبحت دولة زمنية بقدر ما هي دولة روحية، وكان سياسيا؛ لذا حين كان ستيفن يجادل، كان بولدوين يضم الخطط.

كانت الملكية على القدس ملكية انتخابية بشكل صيارم: إذ يختار الملك القرسان والبارونات، كرجل أول بين متساوين، وليس ملكا. وكانت لهذا النظام ميزة عظيمة والبارونات، كرجل أول بين متساوين، وليس ملكا. وكانت لهذا النظام ميزة عظيمة هي أن الملك المنتخب بحرية تتم خدمته بحرية. ومع ذلك، فهي عملية تتسم بالمجازفة؛ ذلك أنه إذا لم يتفق المنتخبون، يكون الملك ضعيفا وتتعرض المملكة للخطر. لذا كان بولدوين مقتنعا بأن الملكية الوراثية يمكن أن تكون أكثر استقرارا من الناصية السياسية، وكانت هناك سوابق بالفعل في القدس المسيحية - فجوبفري دي بويون، عاكمها الأول، كان منتخبا، لكن بولدوين الأول كان أخاه، وكان بولدوين الثاني ابن أخي كليهما. وكانت لديه، للأسف، إعاقة واحدة كبيرة: إذا أراد تأسيس أسرة حاكمة مالكة فليس لديه سوى بنات، وكانت أليس الثانية متزوجة؛ أما الاثنتان الصغريان،

فكانتا طفلتين؛ لكن ميليساند الأخت الكبرى، كانت شابة جميلة، فقرر بولدوين أن الوقت قد حان كى تمنح زوجًا، فتم إرسال وقد ثان إلى فرنسا فى أعقاب فرسان الهيكل، وفي ذلك الوقت كان المجلس فى تروا قد انتهى، وبعد أن نال وقد الفرسان الصدفير بالموافقة الروحية، بدأ المرحلة الثانية من عمله، وكانوا يسعون لنيل المساعدة المادية، ولم تتأخر فى المجيء،

فى الواقع، لقد تم أول تبرع قبل أن يبدأ المجلس: إذ إنه فى أواخر عام ١١٢٧ قدم كونت تيبو دى شامبانى للجماعة ملكية فى باربون – فييل، على بعد خمسة وخمسين كيلومتراً شمال غرب تروا. كانت تحتوى على مزرعة ما زالت موجودة، وما تزال تسمى لا كوماندرى.

ومنحت على الأقل ثلاث ملكيات أخرى زمن انعقاد المجلس، وضرب هيو دى بيان المثل بأن تبرع بأرضه في بيان؛ وقدم عضوا المجلس اللذان حذيا حذوه أراضى ومبانى في بويسيى، ولانو، في شمال شرق وشمال غرب باريس.

ثم افترق الفرسان، مرتحلين بمباركات البابا والقديس بيرنار لجمع المساعدة في أنحاء فرنسا، وما زالت هناك بعض الملحوظات عن جولة هيو؛ إنها موجزة وكانت محل تجاذبات من حين لآخر بين العلماء، ولكن إذا ما أخذنا الأكثر تأكيدا من بينها، يمكن تتبع صورة عامة عن الرحلة.

يبدو أنه اتجه إلى الغرب أولا، وفي إبريل ومايو من عام ١١٢٨ كان ضيفا على أحد رفاق السلاح القدامي، فواك، كونت أنجو، الذي كان قد انضم إلى الجماعة باعتباره عضواً مشاركًا عام ١١٢٠، وكان بلاط فواك، شأنه شأن غيره في العصور الوسطى، متنقلا، وتم جمعه في هذين الشهرين في تور ولامان. ومن هناك اتجه هيو شمالا إلى القنال، مارا بأراض تخص هنرى الأول ملك إنجلترا. فالتقي هيو وهنرى في نورماتدى، وحسب ما جاء في السجل الأنجلوساكسون، "استقبله الملك بحفاوة كبيرة، وإعطاه كنوزا كبيرة، تتكون من الذهب والفضة؛ ثم أرسله إلى إنجلترا، وهناك

استقبله جميع الرجال الأخيار وقدم له الجميع الثروات – وفي سكوتلاندا أيضا – وأرسلت بواسطته إلى القدس وبها ممتلكات كلها من الذهب والقضة ولا توجد تفاصيل عن عبور هيو للقنال، ولا عن رحلته في بريطانيا، ولكن من المؤكد أنه وجد دعما في بريطانيا – وتقول السجلات إنه دعا الناس للخروج إلى القدس، وذهب معه وتبعه عدد كبير من الناس لم يذهب متله منذ أيام البابا إيربان، – ومن المحتمل أن يكون هيكل لندن الأصلي في تشانسري لين، قد تأسس حينئذ. وكانت جولة في بريطانيا جولة طويلة، إذ يبدو أنها شغلت هيو طوال يونية، ويولية، وأغسطس من عام ١٩٢٨ وعاد في سبتمبر عبر القنال، هذه المرة في فلاندر، في منزل أخيه في الهيكل جوفري دي سان أومر، إذ كان جوفري قد أعطى ممتلكاته هناك للجماعة، بما في ذلك دار كبيرة في أيبر، وتلقى باسم الجماعة من كونت ويليام الفلاندري مخالصة في ذلك دار كبيرة في أيبر، وتلقى باسم الجماعة من كونت ويليام الفلاندري مخالصة في ذلك دار كبيرة في أيبر، وتلقى باسم الجماعة من كونت ويليام الفلاندري مخالصة في ذلك دار كبيرة في أيبر، وتلقى باسم الجماعة من كونت ويليام الفلاندري مخالصة في ذلك دار كبيرة في أيبر، وتلقى باسم الجماعة من كونت ويليام الفلاندري مخالصة في ذلك دار كبيرة في أيبر، وتلقى باسم المماعة من كونت ويليام الفلاندري مخالصة مناكات في مقاطعته.

ولسوء الحظ أن الكونت كان قد مات بعد أن قدم الهبة بوقت قصير، غير أن خلفه جددها في ١٣ سبتمبر مع توقيع هيو؛ وبعد ذلك بيومين، في ١٥ سبتمبر أعطى والد جوفرى الجماعة مخالصة أرضه في سان أومر.

بعد ذلك، يختفى أثر هيو، واكن من المؤكد أنه كان ما يزال مشغولا. إذ توجد على الأقل أربع ملكيات أخرى يعتقد أن تاريخها يرجع إلى عام ١١٧٨: كواوميى شرق باريس – وهى هبة أخرى من كونت تيبو دى شامبنى؛ وانسينى، وشالان، فى شرق وشمال غرب روان. وتكتسب فال – دى – وشمال غرب روان. وتكتسب فال – دى – هى، أهمية خاصة لأنه يقال إنها منحت من قبل هنرى الأول ملك إنجلترا؛ وكان فى كنيستها زجاج نافذة مبقع يصور أحد فرسان الهيكل وهو يصلى، بعد ذلك تم نقل هذه النافذة، أولا إلى سان دنى، ثم إلى الإنكور، على بعد ثلاثة وعشرين كيلومتراً جنوب شرق باريس، حيث ما زالت توجد ويظهر هيو بعد ذلك فى تروا، بعد عام من التقاء شرق باريس، حيث ما زالت توجد ويظهر هيو بعد ذلك فى تروا، بعد عام من التقاء المجلس هناك. وفى الأشهر الواقعة بين زيارته إلى فلاندر وعودته إلى تروا، وقعت

حادثة لا بد أنها قد جلبت السرور إلى قلبه، شخصيا وباعتباره معلم الهيكل. ذلك أن وفد بولدوين، الذي يطلب صبهرا مناسبا من ملك فرنسا، قد أنجز مهمته، ولم يكن الخطيب المومني به سوى فولك دى أنجو.

من الواضع أنه كان مناسبا، فهو بالفعل يعرف الأرض المقدسة وفرسان الهيكل؛ وهو إنسان ناضع، ومحارب مجرب، وواسع الثراء، ولديه صلات جيدة، – ابنه هو صبهر هنري الأول. أما كونه قصبيراً، ولا يتمتع بحسن المنظر بشكل خاص، ومتصلب الرأى فهذه لم يبد أنها ذات صلة؛ فقبله بولدوين نيابة عن ميليساند، وقبل فواك ميليساند.

وغادر فرنسا على ما يبدو مم هيو، في ربيم ١١٢٩، عندئذ كان فرسان الهيكل قد أقاموا حصنا جيدا قويا في أوربا - ليس في فرنسا، وإنجلترا، وإسكوتالاندا واكن في البرتغال أيضا، حيث منحتهم الملكة تريزا قلعة وفوائد مدينة صور، على نهر موندييجو، وكانت هذه إحدى أوائل الهبات في ١٩ مارس عام ١٩٢٨، وفي ما يزيد قليلا على عام، وجدت شبكة من النور والقلاع في معظم غرب أوربا، ووهب عدد غير معروف من الرجال للجماعة، وذهب الكثير منهم مع هيو وفولك إلى الأرض القدسة مباشرة والحروب مم العرب المسلمين، لكن بعضهم اضطروا للبقاء لإدارة المتلكات الجديدة، وجمع حاصلاتها وعشورها، والاستمرار في الترويج للجماعة في أوريا، ولإرسال المزيد من الدعم إلى القدس، لقد كان هؤلاء هم الأبطال الهادون المسيحية، لأنه إذا كان فرسان الهيكل هم المدافعون الرئيسيون عن القدس، فإن الفرسان عواوا بدورهم بشكل رئيسي على الأعضاء الأوربيين كي يزودوهم بأفضل ما لديهم من خيول ودروع ورجال والكثير مما يملكون من مال. لقد أمسيح خدم الهيكل في أوربا، من رجال أم يحملوا سيفا قط في حرب مقدسة، ولم يروا قط عربيا مسلما في حياتهم، جنود الإمداد للحروب الصليبية ولا يجب نسيانهم. وفي عام ١١٢٩، أصبحوا قوة متناثرة في غرب أوريا من اسكوتلاندا إلى البرتغال؛ وكانت جماعة الهيكل تتغير بالفعل. فمن جمعية من تسعة أشخاص أخذت تُنمو إلى أن صارت إمبراطورية

مصغرة، عاصمتها في القدس، ومستعمراتها في أوربا، وكان ينبغي تنظيم المتلكات النابتة، التي بذرت ونثرت في العالم القديم، وفوق هذه جميعا، عين رجل واحد معلما للهيكل في فرنسا، وكان هذا الرجل هو بيان دي مونتفيي، أحد الأعضاء المؤسسين للجماعة، وفجأة كان التنظيم السليم يبدأ،

بعد نجاحات هيم الهائلة في الوطن غادر أوربا لأخر مرة. وبقي مونتفيي في فرنسا، حيث بفترض أنه قضى بقية حياته في الإدارة الوليدة، يتلقى هبات للجماعة، ويقوم بتدريب إخوة جدد على القيام بواجباتهم، وزار إنجلترا مرة على الأقل. إذ ذهب إلى هناك عام ١١٣٩ أو نحو ذلك، حيث تسلم هبة من ٤٠ سـوليدي من ويليام، إيرل وارين، وأراضي في هوك نورتون في أوكسفوردشير من مالكها، رويرت دويل. وأبحر هنو دي بيان وفولك، وفي صحبتهما أتباعهما من علمانيين (الدنيويين) والإخوة الجدد إلى عكا، ووصلوا إلى هناك في مايو من عام ١١٢٩، وتقدموا نحو القدس، حيث تزوج فولك وميليساند في نهاية مايو. وكان هناك اتفاق عام على أن فولك هو أفضل اختيار، ذلك أنه رجل يمكن أن يخدم تحت لوائه البارونات الصليبيون عن طيب خاطر، ويبدو أن الشخص الوحيد الذي كان معترضا هي ميليساند، التي على ما يبدو كانت الشخص الوحيد الذي لم يستشر؛ غير أن بولدوين الذي سره عدد الفرسان الجدد، وصبهره الجديد، وجميع التحصينات الأخرى، تجاهل ابنته بكل سرور، وجلس مع فواك ليناقش فتح دمشق، وكانت نتيجة المعركة في أكتوبر هزيمة واضحة الفرنجة. ذلك أن أي معركة، وحتى اليوم، هي إلى حد ما، مسألة مصابفة؛ وفي القرن الثاني عشر، ودون جيش دائم، يتشكل بالتدريب والانضباط كان الأمر هكذا بدرجة أكبر. بل أن قرار القيام بمعركة كان على نفس أهمية المعركة ذاتها إذ ما إن تشن المعركة، تكون إلى حد كبير خارج سيطرة القائد، طالما كان من المستحيل عليه إعادة ترتيب قواته تقريباً. وما لم يتمتع الجيش المهاجم بميزة المفاجأة، فإن القتال كان يتوقف تقريباً على الروح المعنوية، لدى الأفراد المتحاربين وما يتمتعون به من شجاعة ومهارة وحظ؛ ولم يشكل وجود بولدوين أية مفاجأة على الإطلاق للدمشقيين. وكان أكثر الأجزاء تنظيمًا

فى الفشل الزريع بأكمله هو الانسحاب إلى بنياس، إذ ربما كان بولدوين يأمل فى البداية أن يقدم فرسان الهيكل الجوهر الضرورى للانضباط، ولا يوجد أى سجل عن أداء فرسان الهيكل فى دمشق، على الرغم من أنهم كانوا هناك بالتأكيد؛ ولكن إذا كان بولدوين قد وضع أماله فيهم، فذلك ليس من الواقعية، ذلك أنه مع ما لدى هيو وغيره من مؤسسى الإخوة من معرفة ومقدرة، فإن مفهوم المعركة المنظمة الموحدة كان غريبا بالنسبة لهم، فهم تدربوا بوصفهم فرسانًا أوربيين؛ ولم يصبحوا فريقا مقاتلا بعد.

أضف إلى ذلك، أنهم كانوا في بلاد غريبة، يقاتلون على أرض غير مالوفة، وفي مناخ وظروف منا زالت جديدة بالنسبة لهم؛ فكان فرسان الهيكل الجدد يرغبون في قطع رقاب العرب المسلمين، بأسرع ما يمكن، غير أن الهجوم على دمشق كان أمرا متسرعا جدا.

ولكن على الرغم مما حدث فى دمشق، فقد بهر فرسان الهيكل مواطنيهم فى الأراضى المقدسة، إذ وصف أحد أوائل المؤرخين، جاك دى فيرى كيف كانوا دائما مستعدين ومسلحين "فى أى وقت من النهار أو الليل، قد يطلبون فيه، سواء للقتال أو لمساحبة المسافرين؛ وحين يطاردون العدو، لا يسائون "كم عددهم" ولكن فقط "أين هم".

مثل هذه الأغبار وجدت طريقها إلى أوربا، عن طريق الصجاج والغرسان الدنيويين. فاستحوذت على خيال الناس، مما أضاف إضافة كبيرة إلى نجاح فرسان الهيكل الذين بقوا في أوربا؛ وفي عام ١٩٣٠ انعقد مؤتمر في تواوز كان غرضه الوحيد المحدد هو إعطاء الهبات لجماعة الهيكل. وما يزال المخطوط في تواوز اليوم، وهو عبارة عن وثيقة طويلة بها أسماء خمسة وأربعين متبرعا سجلت بها، وتراوحت هباتهم من كميات صغيرة من المال – بنس الأن وسنة بنسات حين أموت، إلى ذهب وفوائد للكنائس، وبين ذلك بعض التبرعات العملية والحيوية: مثل أفضل حصان لدى هذا الشخص، ودرع وحصان ودرع من ذاك، "حين أموت، لو كانت لديّ، أما إذا لم يكن، إذن فعشرون قطعة ذهبا" وأفضل ملاءة لدى هذه المرأة، وكثيرات من النساء كن

يتبرعن بقميص كل عام، وينطلون قصير (سروال)، وأفضل ما لديهن من عباءات، حين يتوفين.

ثم يكن هذا هو كل ما تلقاء فرسان الهيكل، إذ كان الإخوة في أوربا يطلبون؛ والناس في أوربا بداومــون العطاء. فــفي إنجلتــرا كــانت هناك ممتلكات في كنحهامشير، ولينكولنشير، وهيرتفوردشير، واسيكس؛ وفي فرنسا أراض ومبان، في دول، ويوديمون، وكارلا، وسواسون، واون، ونيس، وقوا، وريشيرش، ولا روشيل؛ وقي ألمانيا قلعة سوبلينجبورج؛ وفي قطلونيا، قلعتا جرانيريا، وبربيرا؛ وفي أرجون ونافار، الملكتين التوامين، سمى فرسان الهيكل ورثة نلث الملكتين، وكذلك تقاطر الناس في كل مكان للانضمام إلى الجماعة. حتى أنه من غير المتصور اليوم أن تجذب جمعية دينية مثل هذه الاستجابة الشعبية الواسعة؛ غير أن أسباب جاذبيتها في ذلك الوقت واضحة. أحيانًا كانت أسبابًا خاصة معينة كما هو الحال في مثال الفارس الذي توفيت زوجته وأبناؤه الثلاثة في تعاقب سريم، أو الفارس الذي دهم الجذام زوجته بعد أن حملت له ابنة، واضطرت إلى أن تعيش بعيدا عنه إلى الأبد. وأحيانا كان هناك رجال سنموا حياة الانغماس في الملذات والعبودية للحرية، والحاجة المستمرة للتفكير في الغد؛ بالنسبة لهؤلاء وبالنسبة للكثيرين غيرهم، في ذلك الوقت والآن، لم تكن حرية الإرادة الشخصية هي أكبر الحريات، وإنما هي أثقل المسئوليات. ولكن يصفة عامة، فإن الجاذبية الفريدة التي تمتم بها الفرسان كانت الجمع بين الحرب والعبادة، فهما غرام ذلك العصر. إذ كان نفوذ الكنيسة في المجتمع أكبر مما هو اليوم؛ إذ لم يكن سوى الشخص الاستثنائي هو الذي يسير عكس تعاليم الكنيسة بون أن يحس إحسباسنا صنادقنا بأنه يعرض روحه للخطر. بالطبع، كان هناك الكثير من الناس الذين تحدوا كاهنهم أو أسقفهم وانحدروا في إدمان الضمر ولعب القمار، والزناء ولكن حين كانوا يفعلون ذلك، كان ضميرهم يعذبهم. ذلك أنه كان هناك تمييز بين أثر المسيح على عقل الإنسان الواعي وقلبه غير الواعي، وبين واجباته ورغباته؛ إذ كانت الكنيسة تـقول للناس ماذا يفعلون، وكثيرا ما كان ذلك يخبتلف عما يريدون.

ووجد الفرسان الدنيويون أنه من الصعب حسم هذه الفجوة؛ فكانت طريقتهم في الحياة موضع شك في أعين الكنيسة. بالنسبة لهؤلاء الناس جميعا – لمن فقدوا أراضيهم أو أسرهم، أو من كانوا يتطلعون إلى هدف صالح في الحياة، أو من أرادوا القيام بواجبهم المسيحي دون التخلي عن مهاراتهم الحربية – قدم الفرسان فرصة مثالية. لقد كانت هناك الكثير من جماعات الرهبنة التي تقدم الخلاص عن طريق الصلاة، أو الأعمال الخيرية؛ ولكن في ذلك الوقت، كان فرسان الهيكل وحدهم هم من وعدوا بالحياة الأبدية عن طريق القتال.

أما بالنسبة لأولئك الذين لا قبل لهم بالقتال - النساء، والعجائز، والمرضى، أو من لم يستطيعوا ترك منازلهم لسبب أو آخر - يمكن للخلاص أن يأتى عن طريق الهيكل أيضاً. وكثيرا ما كانت تمنح الهبات "لمو خطاياى" "لصحة نفسى" الفداء نفسى ونفس أخى" بل كان من الممكن ضمم الموتى: "أنا وإخوتى وأضواتى وأزواجهن، نعطى هذا لفرسان هيكل سليمان الفقراء للعفو عن ننوبنا جميعا وخطايا والدينا..." وحين كان الفرسان يسمحون بدخول أخ جديد ويطالبون بجميع ما يملك، كانوا يعقدون صفقة صعبة؛ لكن الفوائد كانت جمة.

وبالنسبة لبعض من لم يكن مسموحاً لهم الانضمام، قد تكون حياة الهيكل بدت لهم بالغة التقشف، لما بها من انضباط وإنكار للذات، وطبيعتها المنظمة تنظيما تاما، لا شك في قسوتها. ولكن كانت هناك أقسام لهؤلاء الناس أيضا: فيمكن أن يكونوا إخوة مشاركين مثل فولك من أنجو، أو من المكن أن ينضموا لغترة معينة. وكثير من هؤلاء كانوا أسريين لا يرغبون في ترك أسرهم للأبد؛ وأخرون كان أيناؤهم كبارا. عموماً، فإنه مهما كانت لدى المرء من وشائج مع الحياة الدنيوية، يمكن العثور على طريق لجزء من الجماعة. فهيو دى بيان نفسه كان متزوجا – وهذه إحدى التفاصيل القليلة التي تعرف عن حياته، وكانت زوجته قد توفيت، وإن لم يكن من المعروف متى كان ذلك؛ وربما كانت وفاتها هي التي دفعته إلى أن يذهب ليكون محاربا صليبيا، وكان لديهما ابن، أصبح فيما بعد رئيس دير سان كولومب في سان، وكان، مثل أبيه، عضوا في

المرتبة الوسطى من النبلاء. لقد كانت هذه الطبقة هى السبب الأخير وإن لم يكن أقل أسباب شعبية الجماعة، لأن الناس كانوا عندئذ متعجرفين كما هم الأن. أما مصداقية هيو فكانت متأصلة في مرتبته الاجتماعية تقريبا كما كانت راجعة إلى توصية القديس بيرنار وحين تكون فكرة من الأفكار مقبولة اجتماعيا وتلقى إعجابا روحيا وتكون مرغوبة من الداخل، فلا حد لما يمكن أن تحققه من نجاح.

وصار النبع شلالا. يقال إن هيو أعاد معه مائة أخ جديد إلى الأرض المقدسة، والمزيد من الرجال، والمال، والخيول والدروع تبعوه بلا انقطاع. وبقدر ما كان الأمر يتعلق ببولدوين، كلما زادت هذه الأشياء كلما كان أفضل؛ فالدفاع عن الأرض المقدسة بحتاج إلى كل ما يمكن لأوربا أن تقدمه. ففى القدس فى عام ١١٣٠ كان سلام عام ١١٣٧ قد طواه النسيان منذ وقت طويل؛ إذ رفض ستيفن البطريارك المساومة؛ وفى الشمال كان المسلمون قد وجدوا قائدا جديدا. كان اسمه زنكي؛ وكان قد وصل إلى السلطة بهدوء حين عين حاكما على حلب فى ٢٨ يونيه ١١٢٨، وأكن على الرغم من بدايته الهادئة، كان عازما عن رد الغزاة الفرنجة عن الأراضى المقدسة، ومع مقدم عام ١١٣٠ كان قد صار سيدا على شمال سوريا.

وفي فبراير عام ١١٣٠ قتل الأمير الشاب، بوهيموند الثاني أمير أنطاكيا.

صبهر بولدوين عن طريق أليس أبنته الثانية، في ميدان القتال وهو في الثانية والعشرين من عمره. وخلف أبنة، لكنه لم ينجب أبنا، وسرعان ما أعلنت أليس، تلك الفتاة صلبة الإرادة الطموحة كثيرة الجدل نفسها وصبية على العرش – وأعلنت ولاحها لزنكي. فكانت هذه خيانة بكل المعانى: خيانة لدينها، وثقافتها، ومجتمعها، ومليكها الذي هو أبوها أيضا. في هذه الإيماءة فضامة معينة؛ لكن لم تكن لتنجح. إذ ذهب بولدوين وفولك إلى أنطاكيا على عجل، حيث أغلقت أليس البوابات دونهما؛ غير أن بارونات المدينة اتضنوا جانب الملك، كما حتمت عليهم طبيعتهم. اقد كانت أليس محظوظة؛ إذ كان مصيرها في يد بولدوين، لكنها أبنته، قلم تعدم بل نفيت.

ومرة أخرى أصبح بولدوين وصيا على أنطاكيا، وهو منصب كان يسره لو تصاف، ومع ذلك، ففى ذلك العام كان هناك شيء واحد أراحه: لقد مات ستيفن البطريارك، البعض يقولون بالسم. من الممكن أن يكون ذلك هو ما حدث؛ وفى كل الأحوال، لم تكن تخامر ستيفن أية أوهام تتعلق بمشاعر الملك نحوه، ذلك أنه حين زاره بولدوين للاستفسار عن صحته، رد ستيفن: "سيدى، إنى أسير كما ترغب".

وفى أوربا أيضا لم تكن الكنيسة فى صحة جيدة. ففى ليلة ١٣ فبراير عام ١٢٣ مات البابا هورونيوس؛ وحسب السجلات الأنجلوسكسونية: "لقد نما ابتداع كما لم يوجد من قبل. ليرشد المسيح شعبه البائس!" انشقاق فى الكنيسة، واثنان يطالبان بالعرش البابوى؛ فكان ذلك أسوأ ما يمكن أن يقع بالنسبة للإمبراطورية المسيحية المترهلة وهى تحاول أن تتحد.

ومع ذلك، فإن أثرها المباشر على البلاد المسيحية في الشرق، كان مكتوما؛ إذ كانت هناك كمية هائلة من المشاكل الضاغطة التي يجب التعامل معها. بالنسبة لبولدوين على وجه الخصوص، كانت أوربا تقع على مسافة بعيدة، وتنتمي إلى زمن بعيد. فإذا لم يستطع المسيحيون في الغرب تنظيم بيتهم من الداخل، فهذا ليس شأنه، بشرط الاستمرار في تقديم الدعم. إذ إنه في ذلك الوقت كان يتقدم في السن إذ كان في قرابة السنتين حين توج في عام ١١١٨، – وكان قد تعب من الصراع، ولم يكن يريد سوى تأمين السلام في مملكته بعد موته، لذا ففي صيف عام ١١٢١، حين شعر بدنو الأجل، جمع نبلاءه معا واقترح أن يكون فولك وميليساند ملكين معا. فوافق اللوردات والنبلاء عن طيب خاطر؛ وكان ويليام، البطريارك الجديد على عكس ستيفن، رجلا مسائل فجعل من بولدوين راهبا، وعينه مسئولا دينيا عن الضريح المقدس. بعد ذلك مباشرة تقريبا، مات الملك. كان ذلك في يوم الجمعة، ٢١، أغسطس ١٩٢١.

وبعد ذلك بثلاثة أسابيع، تم تتويج فولك وميليساند، في ١٤ سبتمبر. وكان لديهما أبن، يدعى بولدوين، على اسم جده، وكانا محبوبين. وبدأ زواجهما زواجا مثاليا،

إلى الحد الذى يمكن أن تكون به مثل هذه الأشياء. غير أن عهد قولك بدأ بالمتاعب: تمثلت في أليس. ذلك أنها عند وفاة أبيها أعادت تأكيد موقعها كوصية على عرش أنطاكيا، وفي هذه المرة كانت المسألة أقل وضوحا، إذ إن أوردات الأراضى المقدسة الشمالية لم يكونوا قد أقسموا قسم الولاء لفولك؛ كما لم تفعل هي، والأكثر من ذلك، كانت هناك سوابق كثيرة في أوربا كانت فيها الملكة وصية على العرش نيابة عن ابنها، وفتحت مسألة السيادة الأوتوماتيكية على أنطاكيا، تمكن فواك من قمع التمرد، بشيء من المعموبة؛ وطالب لنفسه بالوصاية على العرش، فتراجعت أليس، وأسندت السلطة إلى قائد شرطة أنطاكيا، غير أن هذا العل لم يكن مرضيا ولا نهائيا؛ وكشف عن ضعف في شخصية فولك: فهو يفتقر إلى قسوة بولدوين، إذ كان يحب أن يحبه الناس، وفي الأرض المقدسة العسكرية يعد هذا ضعفا، خاصة حين يتسم به ملك.

لقد كان الانشقاق البابوى في الغرب ما يزال دون حسم، وكأنه انعكاس لمتاعب السلطة الزمنية في الشرق. ولكن في الغرب تم العثور على محكم، إنه رجل يحترمه الجميع لذا يمكن لقراره أن يكون نهائيا: لقد طلب من بيرنار من كليرفو أن يحكم في الأمر: إنه رجل واحد، رجل صغير هزيل، رجل غير عادى: أمسك بالبلاد المسيحية شرقا وغربا، في كفه، وصبار رسول الوحدة الدولي.

لقد كان كل بابا من المتنافسين لديه مزاعم تتعلق بالبابوية (فالأول الذى اتخذ لنفسه اسم أنرسينت الثانى، أوصى الكرادلة به البابا المحتضر هونوريوس وقبله أربعة؛ أما الثانى، الذى أطلق على نفسه اسم أناكليتوس الثانى، فلم يقبله سوى اثنين. وكان معلوما قبل وفاة هونوريوس بوقت طويل أن أناكليتوس يريد أن يكون بابا؛ إذ كان رومانيا ثريا طموحا، يتمتع بنفوذ فى أجزاء من المدينة عن طريق ماله، ومكانته الاجتماعية. وقد اتهمه الكثيرون بالجشع، وتدنيس المقدسات، والمتاجرة فى المناصب الكنيسية وشهادة الزور؛ وكانت هذه الاتهامات واسعة الانتشار، ومن الواضح أن هذه السمات لا تليق بمنصب البابا. ولكن من كانوا يخشون أناكليتوس كانوا أيضا يخشون نفوذه فحاولوا عرقلة انتخابه بحيلة غير متوافقة مم القواعد على الإطلاق، لم

يكن من المكن انتخاب بابا جديد إلا بعد ثلاثة أيام من وفاة البابا القديم؛ وأنصار أنوسينت قد انتخبوه حين كان هونوريوس ما يزال على قيد الحياة. غير أن هذا الم يؤثر في أناكليتوس بأي حال، وواصل عملية انتخابه، ثم قرر شن حرب أهلية، في روما كي يوضح موقفه. فهاجم المبنى الذي كان أنوسينت يقيم فيه، غير أنه رد على أعقابه؛ ثم استولى بالقوة وبمساعدة مؤيديه على كنيسة القديس بطرس، وسرق ما في الكنيسة من كنوز، بما في ذلك الصليب الذهبي، وبعد أن كرر هذه العملية في كنائس أخرى مختلفة، تمكن من شراء دعم معظم بقية روما.

ويعد ذلك بأيام قليلة، تم تعيين الرجلين في أجزاء مختلفة من المدينة. ولم يقبل أيهما التخلى عن موقعه للأخر، وفر أنوسينت إلى فرنسا حين وجد أن روما ليست أمنة. والتقى هناك بلويس السادس – لويس السمين، – وهنرى ملك إنجلترا وطلب منهما المساعدة، وبعد بعض الوقت، قرر لويس مساعدة أنوسينت، واستدعى بيرنار من كليرفو كى يقدم المساعدة، ولكن لم يتمكن أيهم، سواء الملك السمين، أو الطامع إلى البابوية أو قديس المستقبل من التنبؤ بعواقب تصرفهم لأنه فتح الطريق أمام أكبر جائزة منفردة يفوز بها فرسان الهيكل.

فى عام ١١٣٠، تقريبا بمجرد أن بدأ الانشقاق، كتب أناكليتوس رسالة إلى شخص مجهول زاعما "أن الكنيسة الشرقية بأكملها، كنائس القدس وأنطاكيا والقسطنطينية معنا، وتزورنا، وتقيم علاقات ودية معنا" وفي عام ١١٣٧، بعد أن طلب من بيرنار التدخل، كتب أنوسينت للملك لويس يقول: "تلقينا خطابات تعبر عن الطاعة والخضوع من أخينا، ويليام، بطريارك القدس." وواقع الأمر، أن المسيحيين في الشرق لم يكونوا مهتمين بالمشكلة، ومن المحتمل أن فواك كان أقلهم اهتماما: ذلك أن أزمة داخلية فظيعة أقحمت نفسها عليه.

كانت ميليساند في نصف عمره تقريبا، وكانت جميلة؛ وعلى الرغم من شعبية فواك بين نبلاء القدس، كانت هي قليلة الاهتمام به، فهو قصبير القامة عادى المنظر أحمر الشعر، ولكن كان هناك من تهتم به؛ وهذا الشخص، هو ابن عمها، هيو دى لا

بويسيت، لورد أو سبيد يافا. ذلك أنه قد نشأ في بلاط بولدوين، وكان تقريبا في نفس ميليساند. وشأنه شأن ميليساند كأن قد تزوج؛ ومثله مثل ميليساند كانت شريكة حياته تكبره كثيرا؛ وظل الشابان بعد زواجهما على صلة وثيقة كما كانا من قبل. فانتشرت الأقواويل الفاضحة؛ وشعر فوك، الذي كان يحب زوجته حبا كبيرا بالفيرة؛ وانقسم البلاط إلى فريقين، هؤلاء مع الملك، وأولئك مع الكونت؛ ثم اتهم هيو بالخيانة، إذ قيل إنه تأمر على حياة الملك. ولم يظهر في يوم محاكمته، وتم الحكم بأنه مذنب، فطلبت ميليساند والبطريارك له الرأفة من الملك، الذي كان دائما يسعى إلى إسعاد زوجته، فاكتفى بنفى هيو لمدة ثلاث سنوات، ولكن قبيل ذهاب هيو المنفى، تلقى طعنة وكاد أن يقتل. وعلى الفور، كما هو واضح شك الجميع في فولك. وتم القبض على المهاجم؛ واعترف بأن الهجوم كان فكرته هو، وحكم عليه بالموت بقطع أعضائه، وكرر اعترافه، مبرئا الملك، بعد قضع ساقيه ويديه، وعموما، فقد مات هيو بعد ذلك بوقت قصير؛ ولم تغفر ميليساند لفواك أبدا مع أن الأمر لم يكن خطأه.

إن سجلات فرسان الهيكل صامتة تقريبا في هذه السنوات، ولكن يمكن استنتاج بعض الأشياء مما تبقى، إذ كان هيو دى بيان، معلم الهيكل يجرى مراسلات مع بيرنار من كليرفو. وما زالت هناك إحدى رسائل بيرنار إليه، لقد كتبت تقريبا في نفس وقت انشغال بيرنار في الانشقاق البابوى – لا بد أن الراهب الصغير كان منشغلا الغاية. إنها رسالة طويلة موجهة إلى هيو دى بيان، ولكن كان المقصود منها أن تكون معلنة للجميع، وتعرف باسم ثناء على الفروسية الجديدة. قال فيها بيرنار "مرة ومرتين وثلاث مرات، طلبت منى، أيها العزيز هيو، أن أكتب مذكرة تشجيع لك ولإخوتك، وبما إنى ممنوع من كتابة أى شيء ضد الطغاة المعادين؛ وأنت أكدت لى أني سأكون مفيدا جدا لك ... انتظرت لوقت معين، قبل أن أجيبك، وليس هذا لأني لا أقدر طلبك، وأكن كي أكون أكثر قدرة على الوفاء به. وحقيقة الأمر أنى جعلتك تنتظر وقتا طويلا." وفعلت الرسالة ما هو أكثر من التعويض عن الانتظار: إذ كان بها ثلاثة عشر فصلا من الثناء على فرسان الهيكل ممزوجة بنقد لاذع للفرسان الدنيويين.

"لقد ظهرت فروسية جديدة في أرض التجسيد، إنها فروسية تقاتل معركة مزدوجة، ضد أعداء اللحم والدم، وضد روح الشر. ولا أظن أنه شيء مدهش أن هؤلاء الفرسان يقاومون الأعداء المجسدين بقوة الجسد، لأني أعلم أن ذلك ليس بالشيء النادر. لكنهم يرفعون السلاح مع قوى الروح في مواجهة الرذائل والشياطين، وهذا لا أسميه رائعا فحسب، ولكنه جدير بكل ثناء يعطى لرجال الرب... فالفارس الذي يحمى نفسه بدرع الإيمان، كما يدثر جسده بالدرع، هو حقا لا يخاف، ويسمو على التوبيخ. فيدرعه المزدوج، لا يخشى البشر أو الشياطين ".

كان من بين من عرفوا عن فرسان الهيكل، أناس لم يستطيعوا التوفيق بين أفكار الرجل المتدين والحرب؛ فالاثنان لا يتفقان في قانون الكهنوت ولا في الشعور العادي. فالقتل، حتى في ميدان المعركة، هو من المؤكد قتل للبشر؛ لكن بيرنار، عن طريق السفسطة أو المغالطة الدبلوماسية، أمكنه التمييز بين قتل البشر الذي يقوم به الفرسان الدنيويون، وما أطلق عليه قتل الشر الذي يقوم به فارس مقدس، الذي اضطر إلى قتل البشر كي يقتل الشر. إن رؤية العدو باعتباره تجسيداً للشر – كان إرهاصا بجميع الدعاية العسكرية منذ ذلك الوقت، وكان هذا مؤثرا وفعالا في القرن الذي عاش فيه بيرنار تماما كما هو مؤثر في القرن الذي نعيش فيه.

لم يكن احتقار بيرنار للفرسان العاديين يعرف حدودا؛ فهم تاقهون مغرورون تماما كما أن فرسان الهيكل جادون وجديرون بالثناء.

إنكم تثقاون خيواكم بالحرير، وتغطون دروعكم ببهرجة لا توصف، وتدهنون رماحكم، ودروعكم وسروجكم، وألجمتكم مرصعة بالذهب والقضة والأحجار الكريمة، تزينون أنفسكم بالفخار من أجل الموت، ولا تركبون خيولكم إلا للدمار... فهل هذه الحلى فخاخ الفوارس، أم هي زينة رخيصة للنساء؟ أو ربما تظنون أن سلاح عدوكم سوف ينحيه الذهب؟ وأن الجوهرات سوف تنجو؟ وأن الحرير لا يخترق؟ هناك أشياء

ثلاثة جوهرية للقارس في المعركة: يجب أن يكون متاهبا للدفاع عن نفسه، مسرعا إلى سرجه، عجولا في هجومه، ولكن أنتم، أنتم على العكس كالنساء، شعوركم طويلة حتى لا تكادون ترون؛ ومالابسكم طويلة حتى أنها تمسح أرجلكم؛ وتخفون أيديكم الرقيقة الناعمة في أكمام كبيرة وبملابسكم هذه تذهبون لتقاتلوا من أجل أكثر الأشياء تفاهة وسخفا!".

ولا ينجع الغرور والتفاهة إلا حين يؤخذ على محمل الجد، لقد كان رأى بيرنار في الفرسان الدنيويين واضحا بريئا وكذلك محرجا مثل رأى الطفل الذى رأى ما بداخل "ملابس الإمبراطور". لم يكن من الممكن التناقض مع فرسان الهيكل ليكون أكثر حيوية وتعبيرا؛ وإنهارت أواخر الحواجز وتزاحم الناس في كل مكان لمساعدة الفرسان المقدسين.

كانت الدول اللاتينية في الشرق ما تزال في حالة من الاضطراب؛ وكانت هناك حاجة إلى كل رجل. وكان فواك دائم السفر تقريبا، يقمع التمرد، ويدافع عن المدن، ويستولى من حين لأخر على قطعة أرض، من بين سنوات حكمه الأولى لم تكن هناك سوى سنة واحدة ساد فيها سلام نسبى، هى سنة ١٩٣٤، ولكن في عام ١٩٣٦، تم حسم مشكلة واحدة دائمة حسما نهائيا: هى مسألة أليس وأنطاكيا؛ وجاء الحل من خلال مكيدة مبهجة.

لقد اضطر فواك، بالطبع، إلى تولى الوصاية على عرش أنطاكيا بعد تمرد أليس الثانى. وكان قد أسند السلطة لرجل آخر، وكان هذا المندوب قد مات، أما خلفه فكان رجلاً يتسم بالسوء بصفة خاصة، إنه أسقف رادولف من ماميسترا، الذي كان، مثل أليس، يريد أكبر قدر ممكن من السلطة الشخصية. فدخل في مفاوضات مع أليس المنفية؛ وطلبت أليس من ميليساند أن تتدخل مع فواك نيابة عنها؛ وفولك، الذي كان ما يزال راغبا في إرضاء زوجته، سمح الأليس بالعودة إلى أنطاكيا. وما إن صارت هناك، عتى تخلصت من رادولف ولكي تدعم السلطة التي أوشكت أن تتمتع بها، قررت تزويج ابنتها كونستانس من ابن الإمبراطور البيزنطي، فأفزعت هذه الفكرة نبلاء وبارونات

الفرنجة ويعثوا برسالة يائسة إلى فولك، يخبرونه فيها أن يجد زوجا آخر لكونستانس بأسرع ما يمكن. فوجد فولك فجأة طريقة للتخلص من أليس المشاكسة إلى الأبد، واستدعى نبيلا فرنسيا على عجل هو ريعون من بواتيى، إلى الأراضى المقدسة ذلك أنه كان يسابق الزمن، لأن القسطنطينية أقرب كثيرا من أوربا، وكان الإمبراطور البيزنطى مهتما باقتراح أليس. غير أن ريمون، الذي كان يسافر على عجل وصل إلى أنطاكيا في أبريل عام ١٩٢٦، ولدى وصوله، واتباعا لتعليمات فولك، أرسل لأليس يبلغها بأنه جاء يطلب يدها للزواج. وكان هذا أمرا مقبولا تماما: فهو رجل نبيل يبلغ من العمر سبعًا وثلاثين سنة؛ وكانت أليس تبلغ التاسعة والعشرين؛ ولم تتجاوز كونستانس الصغيرة التاسعة. لقد كانت أليس في حالة من الإثارة والترقب – وظلت في قصرها إذ تم استغفالها تماما. فبينما كانت تعد نفسها نقلت ابنتها من القصر، وأخذت إلى ريمون، وتزوج الرجل بالقتاة الصغيرة.

ولم يكن في مقدور إليس فعل أي شيء على الإطلاق، ذلك أن ريمون، باعتباره زوج كونستانس، لديه أسبقية قانونية على أليس؛ وكنبيل ومحارب، نال على الفور دعم نبلاء وبارونات المدينة؛ وكان يدين بالولاء لقولك، ولما شعرت أليس بالعجز والغضب، غادرت أنطاكيا؛ بلا رجعة.

وعلى هذه الخلفية، من الانشبقاق البابوى في أوربا، والصراع الأهلى في الأراضى المقدسة، والحرب والدسائس، والثناء، والخداع واصل فرسان الهيكل عملهم، وشهدوا جماعتهم وهي تنمو. ثم في ٢٤ مايو، ١٩٣٦، مات هيو دي بيان، كان يبلغ من العمر ستًا وستين سنة، وهي سن متقدمة بالنسبة لتلك الأيام، وفي عمره الطويل، حقق شيئا نادرا جدا: كان لديه حلم، وعاش كي يراه يتحقق. لقد كان رجلا غير عادي، ومحظوظا، وقد نامل في أنه كان سعيدا.

الفصل الرابع

كل موهبة تامة هي من فوق

فرنسا والأراضى المقدسة ١١٣٩ - ١١٥٣

"انظر، أنا واضع أمامكم اليوم بركة ولعنة"

سفر التسمية، الإصحاح الحادي عشر، الآية ٢٦،

لقد تم حرمان البابا أناكليتوس الثانى الذى عين نفسه فى الكنيسة عام ١١٣٥ فى مجلس بيزا عن طريق أنوسينت الثانى وست وخمسين من الأساقفة من فرنسا وإيطاليا، من بينهم القديس بيرنار.

وكان بيرنار قد منع أنوسينت دعمه الكامل، ويبدو أنه تمكن من حسم الانشقاق، على الرغم من أن ذلك استغرق منه أكثر من عامين. وفعل ذلك تقريبا وحده دون مساعدة من أحد، وفي أثناء هذين العامين كان نفوذه يزداد مع كل يوم؛ وكان مجلس بيزا هو ذروة حياته العملية. وكان صديقًا ثابتًا أكيدا لفرسان الهيكل، وما يزال ناشطا نيابة عنهم. ومع انتشار رسالته إلى هيو في أنحاء أوربا، استمر سيل الهبات: وتمتعت الجماعة بحظوة خاصة في إسبانيا، والبرتغال، ولانجوبدوك، وإنجلترا حيث قدم الملك المتماعة بحيثًا ستيفن أرضه في كولي، بالقرب من أوكسفورد هبة أولى من سلسلة من الهبات. وحقق مجلس بيزا هدفه الثاني في أثناء أيامه الثمانية من بين ٣٠ مايو، و ٦ يونية: إذ تم تعديل ميثاق الهيكل وتوسيعه بإرشاد من بيرنار وموافقة أنوسينت. في ارتباط أنوسينت الأول الرسمي بالجماعة. وكان حتما، قبل أن يمر وقت طويل، أن

مضم أنوسين فرسان الهيكل إلى قلبه؛ وكان من المكن أن تكون مساعدة بيرنار المتحمسة لكليهما رباطا كافيا. غير أن أنوسينت كان قد تعلم، مما حدث في انتخابه من اضطراب، شبيئا واحدا: الكنيسة في حاجة إلى عضالات زمنية دنيوية، كي تدعم كبانها الروحي. ذلك أن انشقاقًا أخر مثل ذلك الذي مضي يمكن أن يكون كارثة؛ وقد لا يوجد قديس أخر يلملم الجرح. بالإضافة إلى ذلك، هناك مسيحيون في الشرق والغرب، يشكون من أن الكنيسة الأم القدسة لم تفعل ما يكفي لحماية أبنائها في الشرق. ويوفاة هيو دي بيان، وملك القدس العجوز، يولدوين الثاني، انتهى الجيل الأول من الصليبيين؛ وخبت جذوة العماس الأولى، وتطلبت الصعوبات التي يواجهها فولك عوبًا منظمًا. وكان المعلم الجديد للهيكل رجلاً فرنسيًا أخر، هو روبير دي كريون، الذي يعرف أيضًا بروبير البيرجاندي، وقد يكون هو العضو المؤسس التاسع الغامض الذي لا يعرف اسمه، وإلا، قد يكون قد انضم إلى الجماعة مباشرة بعد تكوينها، ذلك أن لائحة بتاريخ ١١٢٥ من الناصرة شهد عليها "روبير فارس الهيكل" غير أن هذا يست حيل تأكيده. لم يكن في وسم الهيكل، في سنوات التكوين، سوي أن يعكس شخصيات من قاموا برئاسته وقد تغير تغيرا مثيراً تحت رئاسة روبير، ذلك أن هيو خلف جماعة تتمتم بشهرة بواية وثروة واسعة؛ أما تحت رئاسة روبير فقد نمت كي تصبح كيانا يتمتع بسلطة سياسية في أنحاء العالم القديم. لقد كان روبير، شأنه شأن هيو رجلا نبيلا، لكنه كان ينتمي إلى عائلة أكثر عظمة من حيث الأجداد – إذ كان منَّ بين أجداده ملوك لفرنسا، وتذكر كتب التراث اسم انسيلم، مطران كنتبري، باعتباره صهره. لقد كان هيو يتمع بقناعات أخلاقية وهدوء مدمر تقريبا مثل ذلك الذي كان يتمِتع به بيرِنار؛ أما روبير، فعلى النقيض من ذلك، فعلى الرغم من أنه رجل ورع، فإنه دبلومياسي، فهو يعرف الرجال ويحركهم نحو الغاياتِ التي يعتقد أنها الصواب، وكان لديه أخوان أكبر منه سنا وبالنسبة للابن الأصغر ارجل من النبلاء كانت عنديَّد الطريقة الوحيدة لتحقيق حياة تتمشى مع مرتبته الاجتماعية هي الزواج الموفق، وحاول روبين فعل ذلك بشيء من النجاح - وأنجب ابنا يدعى إنسيلم، على اسم المطران الشهير،

الذي أصبح بمرور الوقت أسقف لندن. وحين توفيت زوجة روبير، منحه وجود الهيكل مديلا جديداً.

ريما كان قد بلغ من العمر سبعا وثلاثين سنة حين ذهب إلى الأراضي المقدسة، لأن البابا إيربان كان قد وعظ الناس بالحرب الصليبية الأولى في منطقة روبير، وسمعه روبير وهو صبى، وبدأ أن الرجل النبيل والرجل العسكري قد منتم كل منهما للآخر: فيعد وصول روبير إلى الأراضي المقدسة أصبح ناظر إقطاعية الهيكل، ويلى هيو في القيادة، وعاد إلى أوربا بصفته هذه، عام ١٩٣٧، يجمع الدعم ويقبل الهبات. وتلت ذلك خمس سنوات أخرى في البلد المقدسة؛ وحين عاد مرة أخرى إلى الغرب، عام ١١٣٨، كان معلم الهيكل، ومات أناكليتوس البابا المعادي في ٢٥ ينابر، ١٩٣٨؛ وكتب القديس ببرنار "لقد قطع الفرع المكسور، والطرف المتعفن، أنه، ذلك الشخص الشرير، الذي جعل إسرائيل تخطئ (يقصد أبناء إسرائيل: المترجم) قد ابتلعه الموت، ونزل في جوف الجحيم." لم يتقبل أناكليتوس أنوسينت مطلقا كبابا وسيمار على روما حتى وفاته. ولكن تمكن أنوسينت أخيرا من دخول المدينة، وهناك التقي بروبير. كان فرسان الهيكل يمتلكون منزلا في روما حيث كان من المكن اروبير أن يقيم؛ ومع ذلك، فإن اجتماعات البابا والمعلم ربما تكون قد حدثت في كنيسة القديس لاتيران، وكان روبير قد أظهر قدرته باعتباره رجلاً إداريًا؛ وفي أحاديثه مع أنوسينت، أظهر مهارته في الإقناع. وكما كان أنوسينت يعلم جيدا، فإن جماعة روبير تتحمل واجبا خاصا؛ وجادل روبير بأنها كي تؤدي هذا الواجب، فإن فرسان الهيكل في حاجة إلى حقوق خاصة. في الشرق المسيحي لا يتمتم بالاكتفاء الذاتي؛ وكل ما يحتاجه تقريبا ينبغي استيراده من الغرب، وقد أصبح الحج عملا رابحا في موانئ إيطاليا؛ إذ كان تدفق المعلين لا ينتهى، ومع أن فرسان الهيكل كانوا يبذلون أقصى ما لديهم، فقد كانوا يقدمون آخر ما لديهم، يضنيهم الافتقار إلى المال، وواجب دفع المشبور وخضوعهم لملك القدس والبطريارك. وحين كان الملك والبطريارك يختلفان، كان ولاء فرسان الهيكل يمزق؛ وعلى الرغم من الهبات الكبيرة التي تلقوها، من أنحاء البلاد المسيحية، فإن العشور والضرائب على أراضيهم المتناثرة شكلت عبنًا أكثر من كونها نعمة. ذلك أن مسئوليات الجماعة نمت نموا هائلا منذ أن أقسموا على جعل الطرق المؤدية إلى القدس آمنة للحجاج، إذ كانت هناك طرق كثيرة والمزيد من الحجاج؛ وهناك إدارة منازلهم المتباعدة وقادعهم ومزارعهم؛ وفوق هذا كله، هناك الدفاع عن المملكة المقدسة. ومع أن ولاء الإخرة الأول والأخير كان المسيحيين والكنيسة، فإنهم كانوا في حاجة أكبر إلى المزيد من حرية التصرف.

إن التواريخ لتلك الاجتماعات غير معروفة، ولكن من المؤكد أن أنوسينت لم يستغرق الكثير من المؤكد أن أنوسينت لم يستغرق الكثير من الوقت كى يعطى موافقته، إذ أدرك الفرصة المتاحة أمامه، وقبل أن ينتهى العام كان قد حسم استراتيجيته العظيمة، إذ قدم له جيش جاهز تام الولاء ويحركة لا خطأ فيها، بأن يظهر بما لا يدع مجالا للشك استعداد الكنيسة إلى أن تسعف أبناءها، أمكنه إسكات نقادها وتأمين الدفاع عنها.

ولم تكن هناك سابقة للتحرك الذي قام به، ويظل لا مثيل له في تاريخ الكنيسة بأكمله، وتم الإعلان عنها في ٢٩ من مارس عام ١١٣٩،

"الأسقف أنوسينت إلى ابننا العزيز روبير، معلم فرسان الهيكل المقدسين الكائن في القدس، ولمن يخلفونه وإخوته حاضرا ومستقبلا وإلى الأبد: كل موهبة من فوق"... كان من المكن ألا تعنى هذه العبارة الرنانة شيئا، أكثر من البلاغة؛ لكن أنوسينت كان يعنى بالضبط ما قال. أولا، أعطى فرسان الهيكل الحق في تعيين قساوستهم، الذين يكونون مسئولين أمام المعلم وليس أمام أي أسقف محلى؛ ومنحهم حق بناء كناشبهم. وكان من المكن أن تبدو هاتان المادتان ثوريتين بالقدر الكافي، ذلك أنه حتى الآن كان الهيكل يعتمد على الأساقفة كي يزويوه بالقساوسة والكنائس؛ ومع ذلك كان هناك المزيد. على الكنيسة أن تدعم المدافعين عن الكنيسة؛ لذا فإن كل رجل دين في البلاد المسيحية يحظر عليه بصفة خاصة مطالبة فرسان الهيكل بالعشور – واكن في وسع فرسان الهيكل مطالبة الآخرين بالعشور. ثم، في نغمة آمرة أخيرة، حرر أنوسينت فرسان الهيكل من كل سلطة عدا سلطته. ويعد إداريوهم الزمنيون مسئولين فقط أمام فرسان الهيكل من كل سلطة عدا سلطته. ويعد إداريوهم الزمنيون مسئولين فقط أمام

الجماعة، وليس أمام أى أمير أو ملك أو إمبراطور؛ وليس فى وسع أى أسقف، أو مطران، أو بطريارك أن يطالبهم بالولاء الروحى، فهذا حق البابا وحده، ولا يسمح لأحد أن ينتزع قسما أو يطلب توقيرا من أحد فرسان الهيكل؛ وليس فى وسع أى شخص، مدنيا كان أو دينيا، أن يغير أوائح ميثاق فرسان الهيكل. فقانونهم خاص بهم، ولا يغيره سوى للعلم واجتماع عام من الفرسان.

لقد بلغت الجماعة الرشد بعد إحدى وعشرين سنة من تأسيسها. إذ أعطى أنوسينت الفرسان مفاتيح الكنيسة ومفاتيح الملكة؛ ولو كان بيده، لأعطاهم مفاتيح السماء ذاتها.

حرية تامة على الأرض، واستقلال تام – كل هبة من فوق، ولا بد أن القديس بيرنار، راعيهم الروحي السابق، قد فرح فرحا عظيما بهذا النبأ. في حقيقة الأمر، من المكن أنه كان له أثر مباشر على قرار أنوسينت في إعطائهم مكانتهم العالمية الفريدة، لأنه كان في روما في صيف عام ١١٣٨، وأقام في دار فرسان الهيكل هناك. وثمة قصة تروى أنه حين رحل خلف، ريما صدفة، وربما عن عمد، أحد ملابسه الكتانية، وأن أحد فرسان الهيكل كان مريضًا فشفي ببساطة عن طريق مس الرداء. وسواء كانت هذه القصة حقيقية أم لم تكن كذلك، فمن المؤكد أنه كان في روما حين ند لا شك في أنه كان من المكن أن يلتقي بأنوسينت مرة أضرى، ولم يكن ينقصهم سوى ملك فرنسا السمين، لويس السادس حتى يكونوا الثلاثي الأصلى الذي مهد الأرض من أجل حرية فرسان الهيكل؛ لكن في ذلك الوقت، كان لويس السمين قد مات منذ عام.

وخلفه لويس السابع، المعروف "بالشاب" - إذ إن الملك الجديد لم يكن قد تعدى السادسة عشرة حين اعتلى العرش. وكان لويس هذا يتسم بورع استثنائي، ولكنه كانت به مسحة دنيوية معينة، ولدى سماعه ب"هبة" أنونسينت لفرسان الهيكل، أصدر مرسوما يحد من أية هبات أخرى: يمكن لرعاياه أن يتبرعوا بما يشاون الجماعة، باستثناء القلاع، والمدن، ويشرط ألا تتعدى الهبة على حقوق التاج بأي حال. لقد كان

هذا عملا سريما وحاذةا يندر حدوثه من لويس الشاب - يفترض أنه تصرف بناء على نصيحة وزيره. إذ كان تصرف هو طبق الأصل سلوك من فقد فجأة السلطة على فرسان الهيكل، وكبرت مسئلة التحرر من دفع العشور حتى صارت معركة امتدت لعقود كثيرة، شرقا وغربا؛ وفي الشرق على وجه المصوص، علق المؤرخ ويليام، أسقف صور بأن "بطريارك القدس هو من يمسك بمؤسسة الجماعة وفوائدها،" وبدا من غير العادى، بل من الفاضح، أن يحرم من أية حقوق على الجماعة.

ولا يبدو أن روبيس سمع لهذا الانتقاد أن يقلقه دون داع ففى أعين الناس العاديين، جعلت الحرية التي هصل فرسان الهيكل عليها حديثا، الجماعة أكثر جاذبية، إذا كان ذلك ممكنا. واستغل روبير هذه الحالة المزاجية وذلك بالترتيب لعمل ترجمة للميثاق من اللاتينية غير المفهومة تقريبا إلى الفرنسية العادية.

وهنا حدث شيء أدهش الناس وأذهلهم منذ ذلك الوقت؛ إذ يمكن المسرء أن يفترض أن ترجمة مثل هذا الميثاق يمكن أن تكون سليمة مستقيمة، ومن غير المحتمل أن تطرأ أخطاء؛ ولكن هناك اختلافان بين الميثاقين؛ - اختلافان لهما أهمية جوهرية في حياة الجماعة، يتعلق الاختلاف الأول والأقل أهمية بفترة اختبار الأخ الجديد، ففي الميثاق الأصلى، يعد الأخ الجديد سالكا أو تلميذا لفترة يحددها تفكير المعلم وحكمته حسب إخلاص من يرغب في الدخول، وهو شرط بسيط، شائع في أية جماعة دينية. ولكن في الميثاق الفرنسي هذه المادة محنوفة تماما، وقد يكون من المغرى إرجاع ذلك إلى خطأ من الناسخ، لولا الفرق الثاني، والتغيير الأكبر.

كان العرمان من الكنيسة هو أقوى سلاح روحي لدى البابا، ويمنع بموجبه الشخص الحي من دخول أية كنيسة، ومن المشاركة في قداس، بل ونظريا، يحرم من الاتصال بالمسيحيين العاديين. بالطبع، بالنسبة للكثيرين ممن كانوا يحرمون لم يكن للحظرين الأولين كبير أثر، أما الحظر الثالث فكان يتم انتهاكه؛ غير أن الحظر كان يصتبد إلى ما بعد الموت ويقطع نفس الإنسان من الاتصال بالرب. وكان الحرمان، بالنسبة للمؤمنين، يشكل تهديدا مخيفا وعقابا رهيبا؛ ومن يتصل بشخص

طبق عليه الحرمان يتم حرمانه هو نفسه، ولهذا السبب منع الميثاق اللاتيني للهيكل الاتصال بين فرسان الهيكل ومن عوقبوا بالحرمان، إذ يقول، "في تلك الأماكن، التي يجتمع بها فرسان غير محرومين، يجب أن تذهب" ولكن الميثاق الفرنسي قلب هذه اللائحة المنطقية رأسا على عقب، وبذلك، قوى من الانقلاب: "في الأماكن التي تعرف أن فرسانًا محرومين يجتمعون فيها، نأمرك أن تذهب؛ وإذا كان من بينهم من يرغب في الالتحاق بالجماعة، فلا يجب أن تنظر في الربح الدنيوي كما تنظر إلى سلامة روحه الأدبدية ".

يمكن أن يقول قائل، حتى ذلك كان مجرد خطأ آخر ارتكبه نساخ غير منتبهين؛ وإذا كانت حالة بسيطة تتمثل في حذف كلمة، حتى وأو كانت كلمة حساسة مثل "غير" في غير المحرومين، يمكن قبول الحجة. لكنها سرعان ما تفقد وزنها: فالأمر بالذهاب بين من حرموا تمت صياغته بشكل مختلف وتم التعبير عنه بشكل أقوى من الحظر السابق؛ بل ويذهب الأمر أبعد من ذلك في العبارة التالية، إذ يذكر النص اللاتيني أن على الإخوة "أن يهتموا اهتماما كبيرا ويمنعوا أي أخ من أن يكون مع أي رجل تم منعه علنا" أما النص الفرنسي، فيغير ذلك تغييرا تامًا إذ يقول: لا توجد طريقة أخرى بجب أن يكون الإخوة في الهيكل أي اتصال بمن حرم بشكل ظاهر".

إن هذا التغيير الأخير، بما فيه من نبرة تشجيع محدودة وإن كانت محددة، هو ما يعطى إحساسا بالصدق – الشعور بأن الميثاق قد تم تغييره عن عمد.

بالطبع، لم يكن هناك ما يمنع تغيير الميثاق، حتى إلى هذا الحد الجذرى، ولكن من جميع النواحى الأخترى يتطابق الميثاق الفرضى مع الميثاق اللاتينى، ويبقى السؤال: لم قرر روبير إجراء هذا التغيير الخاص بعيد المدى، ولماذا وافق الإخوة؟ فلو أن القديس بيرنار أو أنوسينت عوفا بهذا التغيير، لم يكونا ليوافقا، ولكن في ذلك الوقت اعتبر الميثاق سرا لا يقرأ إلا أمام عضو جديد لدى دخوله الجماعة. إن أفضل رد – وأبسط الردود، والذي يعبر عن شخصية روبير – يكمن في الاستقلال الذي فاز به من أجل جماعته، فحين يمد فرسان الهيكل إخوتهم لن رفضتهم

الكنيسة هم يؤكدون على استقلالهم عن رجال الدين العادبين، ويفسحون صفوفهم أمام كثرة من المجندين المحتملين، الذين يحتمل أن يكون بعضهم من الأغنياء. وثمة إجابة أخرى ممكنة هي أن التغيير يرجع إلى درجة مبالغ فيها من الإحسان المسيحي من جانب فرسان الهيكل – وأنهم يرغبون في إنقاذ نفوس المسيحيين الذين حجبوا عن المسيح.

ولكن بشكل ما، لا يوجد أى من هذين التفسيرين أو أى تفسير آخر تم اقتراحه، يعد مقنعا بشكل تام. ذلك أن الإخوة أنفسهم لم يلتزموا دائما بميثاقهم الجديد؛ وبدأ أنهم لا يتذكرونه إلا حين يناسبهم ذلك، ويتناسونه حين لا يتلام معهم. ولكن أيا كانت الإجابة، فإن فرسان الهيكل استفادوا بسرعة من التغيير: ففي عام ١١٤٣ مات جيفرى دى ماندلفي، كونت أسيكس، وهو محروم من الكنيسة وتم دفنه عن طريق فرسان الهيكل في أرض جعلت لأغراض مقدسة وألبس رداء الجماعة الأبيض.

وتوفى أنوسينت فى ذلك العام، كى يخلفه سيليستين الثانى، الذى كان يفضل فرسان الهيكل مثله، وعلى الرغم من جهود بيرنار، لم يتم حسم الشقاق حسما تامًا؛ إذ حل فيكتور البابا غير المنتخب كهنوتيا محل أناكليتوس، ولم يكن فيكتور ظلا لذلك الشخص الذى كان عليه أناكليتوس، وفي خلال بضعة أشهر خضع شخصيا لبيرنار،

ومع ذلك، سيطرت حالة التوتر على سيليستين مما حمله على إصدار مرسوم عنوانه جنود الهيكل، وهو تقريبا تكرار دقيق لما أصدره أنوسينت. ولم يكن أمام سيليستين من الوقت ما يكفى لفعل المزيد – إذ مات في العام التالي، وحل محله لوسيوس الثاني، الذي أصدر تكرارا أخر، يسمى أيضا جنود الهيكل، ثم مات في العام التالي.

واتباعا لهذا النمط، أصدر البابا التالي، يوجينيوس الثالث، تكرارا رابعا؛ يسمى هذه المرة جنود الرب، وكان هو، على أي حال، يتمتع ببنية أكثر صادبة، لحسن الحظ؛

ذلك أن رجلا ضعيفا كان يمكن أن يقتل بسبب الصدمة التي لحقت إرثه. ففي ليلة عيد الميلاد من عام ١١٤٤، أعاد المسلمون الاستيلاء على أديساء العصن المسيحي على المدود الشمالية الشرقية للأراضي المقدسة. وكانت هذه أول خسارة مهمة يتكبدها المسيحيون في الشرق، وكانت هذه الهزيمة للمسيحيين ككل صغعة نفسية كبيرة. فمنذ أن استولى بولدوين الأول على أديسا عام ١٠٥٨ في طريقه إلى عرش القدس ظلت أمنة، ورمزا وهميًا على أبدية الفرنجة، إذ كانت بعيدة ومنيعة. فكان فقد المديئة بمثابة انفجار أيقظ المسيحيين الغربيين من سباتهم. فنظروا إلى أنفسهم وكرهوا ما رأوه؛ فاستداروا إلى أنفسهم وكرهوا ما رأوه؛

وجاء الرد واضحا: حرب صليبية جديدة. وكان لويس، الملك الشاب قد بدأ بالقعل في وضع خطة؛ وكان يوجيئيوس، البابا، قد وافق عليها بالقعل، من حيث المبدأ. غير أن الناس في فرنسا ترددوا إلى أن سمعوا قديسهم، وفي فيزلي، في منتصف الطريق بين ديجان وباريس، في أحد القيامة ٣١ مارس ١١٤٢، تكلم القديس.

لم يحدث مشهد مثل هذا منذ أيام البابا إيربان. ومثله مثل إيربان، كان بيرنار يعظ من فوق منبر خارج الأبواب، إذ لم يوجد مبنى يتسع لهذا الزحام. وكما حدث مع إيربان، كانت الاستجابة مذهلة: إذ تقدم الكثير من المتطوعين، ونفد القماش المعد لعمل الصلبان، فاضطر بيرنار إلى تمزيق ملابسه الخارجية لعمل المزيد، ثم بعد ذلك، مثل بيتر الناسك "رئيس الدير الذي كان يحمل روحا صلبة في جسده الهزيل الذي يكاد يخلو من الحياة، اتجه إلى كل مكان، وأخذ يعظ وسرعان ما ازداد عدد من يحملون الصلبان زيادة تفوق الحصر".

هذا التعليق من شاهد عيان على المراسم فى فيلزلى، وهو راهب يدعى أودو دى دوى، وهو القس الخاص الجديد للملك لويس. وكان أودو من نواح عدة رجلا مهما، ولا يبدو أن الأوصاف المعاصرة له مفيدة فى البداية، إذ تعدد فضائل تقليدية كان الناس يعجبون بها فى ذلك الزمان – مثل الكرم، والكرامة، واللياقة فى السلوك، والجدية، وأعمال الفكر، والرحمة والشفقة. ومع ذلك، فإن نظرة إلى حياته تبين أن هذا الوصف

ربما كان وصفا دقيقا، وليس مجرد صورة نمطية لرجل له منزلة شريفة. وكان رئيس ديره هو سوجي، الذي يمكن قياس مكانته عن طريق اقتراح القديس بيرنار وقبول لويس له وصبيا على عرش فرنسا في أثناء غياب الملك في الحرب الصليبية. من هنا، يمكن تقييم أوبو؛ لأن سوجي دربه كي يخلفه في رئاسة الدير، واقترح اسمه على لويس كي يكون كاهن الملك الخاص في الحرب الصليبية. وعلى الفور أخذ لويس يشير إلى أوبو علنا باعتباره صديقه ومعلمه. غير أن أوضح تصوير الشخصية أوبو هو العمل الذي تركه – وصف الحرب الصليبية الأولى، من بدايتها المقعمة بالأمل حتى الهايتها المساوية. قبل أن تبدأ الحرب الصليبية، قرأ أوبو روايات عن الحملة الأولى كي يقيم الصعوبات والأخطار الماثلة أمام المحاربين الصليبيين؛ ثم حين انتهت العملية الكارثية، سجل روايته – "لأنه ان يخفق حجاج إلى الأضرحة المقدسة؛ وآمل في أنهم سيكونون أكثر حذرا بسبب ما مر بنا من تجارب." لا يكاد يكون هناك أحد كتب على الإطلاق عن الحرب الصليبية، إذ فضلوا جميعا نسيانها باسرع ما يمكن؛ فكان أوبو وحده هو من كتب رواية حية مسلية، فنية، ومليئة بالمعلومات.

فى فيزيلى عام ١٩٤٦، اتفق على أن يفادر الصليبيون الجدد فرنسا بعد عام، والتقوا حسب الميعاد فى باريس فى مقر إقامة سان دينى؛ وكان لويس، وبيرنار، والبابا يوجينيوس حاضرين، يصحبهم ثلاثمائة من فرسان الهيكل، "جميعا يرتدون ثيابهم البيضاء." كان احتفالا مليئا بالرمزية: إذ قدم سوجى، كرئيس دير للويس علم ملك فرنسا، وهو عبارة عن راية قرمزية مزينة بأشرطة ذهبية على رمح ذهبى – راية معركة سان دينى؛ ومنح يوجينيوس حقا جديدا للفرسان. من الأن فصاعدا هم وحدهم ولا أحد غيرهم، يمكنهم ارتداء صليب أحمر على الجانب الأيسر من الصدر وكتف عباءاتهم بحيث يرى الجميع فيهم شعارا مزدوجا – اللون الأبيض المعبر عن النقاء، واللون الأجمر العبر عن الاستشهاد.

لا أحد يعلم على وجه الدقة عدد الرجال الذين غادروا أوربا في ذلك العام. لقد كتب بيرنار، 'كانت المدن والبلدان فارغة، ويندر أن تجد رجلا بين سبع نساء؛ إلى الحد

الذى كانت هناك أرامل فى كل مكان أزواجهن ما زالوا على قيد الحياة." ولقد عبر عن رأى النساء رجل لم يذهب – وهو شاعر من العصور الوسطى، يدعى ماركبرين ففى إحدى أغنياته تبكى إحدى النساء على حبيبها المفقود:

"اللعنة على الملك لويس الذي أرسل جميع الرجال كي يدافعوا عن قبر المسيح وبذلك ملاً صدري بالحزن". هناك شيء واحد مؤكد، ذهب رجال أكثر مما كانت إليه حاجة. وتعلم يوجينيوس، شأنه شأن أوبو تعلم شيئا من التاريخ، وفهم صعوية الحرب الصليبية متعددة الجنسيات. لقد كان فرسان الهيكل، جيش البابا الرئيسي، في معظمه فرنسيًا؛ إذ كان لويس عنوان الورع؛ وكان يوجينيوس يشعر أن هذه ستكون حربا صليبية فرنسية. ويمكن للمنافسات الزمنية أن تعيق تحقيق الأهداف الروحية بكل سهولة. ولسوء الحظ، فإن بيرنار، ناسيا الغيرة بين الدول أجبر تقريبا الألمان على الذهاب أيضا. وكونراد ملك الألمان والإمبراطور غير المتوج لم يكن يرغب في الذهاب مطلقا؛ لكن بيرنار، بما يتمتع به من خطابة وبلاغة قال له: "أيها الرجل، ما هو الذي لم مطلقا؛ لكن بيرنار صورة المسيح يوم القيامة، وافق على الذهاب. كان الوضع سيكون أفضل لو

لقد انطلق الصليبيون عام ١١٤٧، متبعين طريق الحرب الصليبية الأولى، برا خلال المجر نحو القسطنطينية، حيث كان الألمان يتقدمونهم؛ وأصبحت القسطنطينية، البؤرة الخرافية للإمبراطورية البيزنطية، هي المجازفة المحدقة، وعبر أوبو عن هذا باقتضاب: 'القسطنطينية متعجرفة بثرائها، وغادرة في أساليبها، وفاسدة في عقيدتها؛ وتماما كما تخشى الجميع بسبب ثرائها، يرتعد منها الجميع بسبب غدرها وانعدام إيمانها،" قد يبدو هذا الحكم قاسيا، وإنصافا للإغريق يجب ملاحظة أن الألمان الذين سبقوا التجربة الفرنسيون – وتذكرت القسطنطينية المشكلات التي سببتها لها الحرب الصليبية الأولى توقعت ما هو أسوأ، ومع ذلك، فمن السهل اليسير العودة إلى الوراء في القرون وتقديم تحليل جاف

للأسباب والنتائج؛ إن الأحداث الجارية خاصة تلك التي لها طبيعة عسكرية أو دينية، تكون مليئة بالعاطفة، ولكي نفهم الرأي المعاصر لها، يجب أن ترى من هذا المنظور. اذا لم يكن بلا داع أن يقتبس أودو فيرجيل ويقول: "إنى أخشى الإغريق، حتى حين يحملون الهدايا".

منذ البداية كان لويس يشعر بالحرج الشديد من الدبلوماسيين البيزنطيين، الذين كانت كلماتهم بها من الإطراء ليس فقط ما يخجل إمبراطور، بل والمغفل، ولكن، على ما يبدو كانت المداهنة يسيرة هيئة بالنسبة لهم، إذ قال أودو: "المداهنون الفرنسيون، لا يمكنهم مجاراة الإغريق حتى إذا رغبوا في ذلك".

من الناحية الاسمية، يؤمن الألمان والإغريق والفرنسيون بنفس العقيدة، أذا فهم يعتبرون الحرب الصليبية هدفًا مشتركا. ولكن من الناحية العملية، احتفظت كل أمة بمصنالحها المادية في صدميم فؤادها، وأخذت تسعى بكل جهد لاحتلال المواقع على مدى الحرب الصليبية. إذن، بالنسبة لأوبو "كان الإغريق يقسمون باستخفاف على كل ما كانوا يعتقبون أنه سوف يسرنا، لكنهم لم يؤمنوا بما نؤمن به، ولم يحترموا أنفسهم. فهم عموما يؤمنون بالرأى القائل بأن أى شيء يتم من أجل الإمبراطورية المقدسة لا يعد شهادة زور". لكن الإغريق، في رأى الفرنسيين والألمان شاهدو زور، بل أسوأ من ذلك أنهم كانوا يزوبون الجيشين بالمرشدين؛ وفي كل حالة، بدأ للأجانب أن المرشدين خونة يقودونهم كي يقعوا في أيادي المسلمين. ذلك أن الألمان، في الطليعة فأجاهم الأتراك وذبحوهم، واقتيد الفرنسيون إلى أماكن "ما زالت ملطخة بدماء الألمان". حيث هوجموا هم أيضاً وهزموا.

لقد أدى انعدام الثقة والخداع إلى الكارثة. ولم تر غالبية المحاربين في الحرب الصليبية الثانية الأراضى المقدسة أبدا. وكتب أودو، "واحسرتاه، يا له من حظ يثير الشفقة ذلك الذي جعل الساكسون الأشداء والباتافيون وغيرهم من الألمان يفنون بشكل بائس بسبب غدر الإغريق الكسالي! وبسقوط الفرنجة، يكون الحزن المضاعف لا يطاق! سيكون لدى الأمتين شيء ينتحبون من أجله ما لم ينتقم أبناء هؤلاء الرجال لموت

أبائهم". صحيح أن الإغريق كانوا يستحقون اللوم، لكنهم أيضا كانوا كباش فداء لسوء حظ الصليبيين وافتقارهم إلى حسن التدبير والتفكير، ومع ذلك، فإن الفرنسيين والألمان على حد سواء انتقموا في الوقت المناسب انتقامًا بشعًا من القسطنطينية؛ ومن بين حطام جميع كوارث الحرب الصليبية الثانية كان فرسان الهيكل هم وحدهم الذين خرجوا بشرف.

لم يقد كتيبة فرسان الهيكل روبير ألبيرجندي، ولكن قادهم أفرار دى بار، الذى كان حينئذ معلم الهيكل في فرنسا. وفي القسطنطينية أظهر بار مهارة دبلوماسية في المحادثات التي أجريت مع الإمبراطور؛ غير أن القيمة المقيقية لفرسان الهيكل وما يتحلون به من انضباط لم تظهر حتى مرور بعض الوقت بعد القسطنطينية، حين كان الجيش الصليبي يحاول اجتياز أحد الجبال، فأحاط به المسلمين.

"إن فرسان الهيكل واورد أفرار دى بار الذى يجب أن يوقر بسبب ورعه، والذى قدم مثلا شريفا يحتذيه الجيش، أنقذ معتلكاتهم بحكمة ونشاط وحمى معتلكات الأخرين بشجاعة بقدر الإمكان. فى ذلك الوقت أحب الملك المثل الذى ضربوه وسره أن يحاكيه ... لذا تقرر أنه فى أثناء هذه الفترة الخطرة يجب على الجميع أن يقيموا إخوة مع فرسان الهيكل، الفقراء والأغنياء ويقسموا على ألا يفروا من ميدان القتال وأن يطيعوا فى كل جانب الضباط الذين يعينهم لهم فرسان الهيكل".

لقد كانت أوامر فرسان الهيكل الصليبيين أوامر بسيطة، وأساسية؛ وتبين بساطتها ما كان عليه الجيش من فوضى. "لأن الأتراك يسرون بالفرار ورجالنا يؤمرون بالتحمل، إلى أن يتلقوا أمرا، هجمات العدو؛ وينسحبون مباشرة حين تتم دعوتهم، مع أنهم يجب أن يصمدوا كما أمروا أصلا. وحين يتعلموا هذا، يتعلمون أيضا نظام المسير، بحيث أن الشخص الموجود في المقدمة لا يندفع إلى المؤخرة والطليعة على الأجنحة لا يجب أن يقعوا في الفوضى، وفوق ذلك، فإن من جعلتهم المطبيعة أو الظروف جنوداً راجلة (لأنه فقدوا أو باعوا صعداتهم، كان الكثيرون من

النبلاء يسيرون بين الزحام بطريقة غير معتادة بالنسبة لهم) قد سحبوا إلى المؤخرة كي يعترضوا الأعداء بأقواسهم".

إن وصف أوبو المقصل لهذه الترتيبات الأولية ينم عن دهشته لها، ويكشف عما يعانيه المحاربون الصليبيون من تشتت فيما مضى ومن انعدام في الانضباط. ومع ذلك، فحتى هذا القدر من التنظيم كانت له السيادة، مؤقتا، في مواجهة حرب العصابات التركية في الجبل؛ إذ شق المحاربون الصليبيون طريقهم إلى سطح الأرض، حيث عند الوصول إلى المسطحات الطينية وجد الكثير من الأتراك حتفا ولحدا في مكان مناسب لطبائعهم القدرة. في حين دمر هجومنا العارم وملاحقتنا الطويلة من فر منهم، وكان جوع الجميع ضئيلا، وكان يوم كل شخص أكثر إشراقا".

لكن قدرة الصليبيين على القتال معا التي عثروا عليها حديثا لم يكتب لها العمر الطويل؛ — إذ إن الأتراك استخدموا سياسة الأرض المحروقة، "وبجمع الأغنام والماشية من كل مكان، وتركها ترعى أمامنا، دمروا المنتجات التي لم يتمكنوا من حرقها." وحين انعدم الطعام، بدأ البشر والخيول في الجيش المسيحي يموتون جوعا؛ فأكلت الجياد؛ وتم التخلي عن الملابس والأسلحة والخيام. وكانت هناك أربع معارك، تم الانتصار فيها تحت قيادة فرسان الهيكل؛ واستطاع الفرسان، بواسطة حيلة، تأخير النهاية إلى حين. فعلى الرغم من أنهم هم أنفسهم كانوا على وشك الموت جوعا، فإنهم تمكنوا من الاحتفاظ بجيادهم، عن طريق القيام بعمل جبهة شجاعة مما أقنع الأتراك بأن الجيش ما يزال قويا. غير أن ذلك لم يكن سوى قشرة، ولم يستطع تحمل خيانة الإغريق وما فعله الأتراك. حين وصل لويس إلى أداليا على الساحل الشمالي الشرقي للبحر المتوسط، أقنع بأن يذهب بحرا. وذهب أودو معه، ومات جزء كبير من الجيش بسبب المرض والمجاعة والهجمات في الميناء وحوله؛ واستسلم جزء من الجيش بسبب المرض والمجاعة والهجمات في الميناء وحوله؛ واستسلم جزء كبير من بين من بقوا، واستداروا للعودة إلى بلادهم. ولم يتشتت سوى عدد قليل، برا

وظل الملك الشاب فى الأراضى المقدسة لمدة خمسة عشر شهرا، حتى أوائل صيف عام ١١٤٩، غير أن أوبو الذى يعد عمله ثناء على الملك بقدر ما هو تاريخ للحرب الصليبية، لا تأتى على ذكر تلك الفترة، ويقول مدون معاصر آخر للأحداث، باستنكار "لم يكن فى وسعه فعل أى شىء مفيد، أى شىء جدير بالذكر، أو، فى الواقع، أى شىء جدير بفرنسا".

بل إن أمواله نفدت، وفي أول موقف مسجل لموقف ستكون له أهمية كبرى بالنسبة الجماعة، اضطر إلى الاقتراض من فرسان الهيكل، وتحمل أحد أتباعه من اللوردات ٣٠٠٠٠ سوء من الدين؛ ومن أجل الباقي، كتب لويس لوصى عرشه، سوجى بمزيج غريب من انعدام الثقة والسلطة.

وقال: "لا يمكنني أن أفهم كيف كان يمكننا أن نبقى لحظة في هذه البلاد، بدون العون الذي استمروا في تقديمه لنا حتى الوقت الحاضر؛ لهذا أرجوك أن تعطيهم المزيد من آيات الاعتراف، وتبين لهم مدى ارتباطي بهم. وأشعر أنه من الضروري أن أحذرك من أنهم أقرضوني توا مبلغا كبيرا من المال، يجب دفعه في أقرب وقت ممكن، للحفاظ على كلمتى ولنع أي ضرر لهم، لذا يجب أن تهتم بتسليمهم دون تأخير ألفى مارك من الفضية".. .. لقد استغرقت الرحلة برا من أوربا من لويس عاما؛ أما عودته بحراً، فاستغرقت نحو سبعة أسابيم. وكان الملك كونراد، ملك ألمانيا قد سبقه؛ وكذلك سبقته أنباء سلسلة الهزائم. وحين نزل اويس وحاشيته في إيطاليا، بدء واعلى الغور حملة دعائية ضد البيزنطيين مندية باللائصة في معظم الفشل على خيانتهم المفترضة، وعلى الفور نودي بحرب صليبية أخرى، هذه المرة ضد البيزنطويين، أما القديس بيرنار الذي أدهشه وأهاله فشل لويس الزريم، فقد تبنى الفكرة الجديدة بكل ترحاب. وإذا ما اعتبرنا أن الإغريق جزء من المسيحيين، مهما كانت نقاط فشلهم، فأقل مًا يقال عن هذا التصرف إنه غير مقدس. ولا يمكن للمره إلا أن يشعر، بأنه على الرغم من غضب بيرنار من طبيعة الصليبيين الخاطئة، وما تبعها من عقاب من لدن الله، فإنه اعتبر الهزيمة شبيبًا شخصيا. وعلى الرغم من أن التفسير البيزنطي كان مقبولا على

نطاق واسع، فإن الرأى العام لم يكن يميل إلى تصديق التفسير القائل بالخطيئة العامة. وبدا أن الكفاح بكل هذه الطاقة في أعقاب الكارثة أمر يشتم منه الذنب، أو الخطأ على الأقل، فلحق ضرر بالغ بمكانة بيرنار، وعلى الرغم من أن سوجى ولويس وافقا مع بيرنار، فإن يوجينيوس كان مترددا جدا في المحاولة مرة أخرى؛ إذ إنه كان يرى أن مزج الفرنسيين والألمان عرض الحملة للخطر منذ البداية، وأخيرا فإن أية محاولة جديدة يجب أن تلقى دعما ألمانيا، على الرغم من المشكلات الدولية؛ وكوثراد قد رفض أى تورط أكثر من ذلك، حتى بعد أن أخضعه بيرنار شخصيا إلى حديث طويل من التوبيخ الشديد.

وفى أعقاب سلسلة الصدمات التى ميزت الحرب الصليبية الثانية جاءت صدمة أخيرة، ضئيلة نسبيا فى أعين العامة، لكنها كانت جسيمة بالنسبة لقرسان الهيكل، ذلك أن روبير البيرجندى، معلم الهيكل، مات، فى ١٣ يناير عام ١١٤٩، وحل محله المعلم الفرنسى الإقليمى، أفرار دى بار، ولكن على الرغم من المثال الذى ضربه فى أثناء الحرب الصليبية الثانية، فإن قيادة الجماعة كانت مهمة عظيمة بالنسبة له. فاستقال بعد ثلاث سنوات فقط كمعلم. ولم يقدم دى بار الكثير من التفسير، سوى التعبير عن الرغبة فى أن يكرس نفسه فقط لعبادة الله بسلام والتدبر فيه؛ لكن الإخوة – على ما يفترض أدركوا أن المعلم غير الراغب فى المنصب لن يكون نافعا، فلم يقفوا فى سبيله، واضطر إلى الانضمام إلى جماعة أخرى؛ وأصبح راهبًا فى كليرفو، يقفوا فى سبيله، واضطر إلى الانضمام إلى جماعة أخرى؛ وأصبح راهبًا فى كليرفو،

وتم انتخاب معلم جدید، فی الوقت المناسب، هو بیرنار دی تریمیلی؛ وفی قرابة هذا الوقت جات أنباء إلی بیرنار ربما جلبت إلیه قدرا من الراحة: لقد تم تعیین عمه أندری دی مونبار ناظرا لأراضی الهیكل، وظل العم وابن الأخ یتراسالان بكل حب، وكثیرا ما كان بیرنار یرجو أندری أن یزور أوربا مرة أخری، ویعد خطاب بیرنار الأخیر إلی أندری الذی كتب فی ربیع ۱۹۵۳، خطابا مؤثرا بشكل خاص، إذ إن رئیس الدیر فی ذلك الوقت كان فی قرابة الثالثة والستین، وكان اعتلال جسمه المزمن قد بدأ

حمدت أثره. "الخطابات التي أرسات بها إلى الفتي راقدا في الفراش"، واستمر يقول: "تلقيتها بكل اشتباق؛ وقرأتها وأعدت قراحتها كثيرا؛ غير أنى أتمنى أكثر من ذي قبل أن أراك. وأحس بالرغبة نفسها في خطاباتك، لكني أيضا أحس بمخاوفك على الأرض التي كرمها إلهنا بحضوره وباركها بدمه، وما وقع من مصائب لأمرائنا... ولكن دعنا نصعد فوق الشمس، وليستمر ما بيننا من حوار في السماء، فهناك، يا عزيزي أندرو، توجد ثمار عملك وهناك مكافاتك... أنت ترغب في رؤيتي، لكنك تقول إن الأمر بتوقف على، لأنك تكتب انتظارا لقراري، وماذا في وسعى أن أقول لك: إنى أتوق إلى رؤيتك، غير أنى أخشى أنك لن تأتى؛ هكذا فأنا معلق بين نعم ولا، أجرى من جانب لأخر، ولا أريد أن أختار. لكني أنحني أمام ما تقوله عن الأحزان الكبيرة للأراضي المقدسة، وبيدو لي أن أحوالها ستكون أكثر سوءًا بغيابك. لذا لا أجرؤ وعلى أن أطلب منك أن تعود - ولكن شدما اشتاق إلى رؤيتك قبل أن أموت! سوف تحسن التفكير أفضل مني، ... وقد لا تكون رحلتك عديمة الفائدة، لأنه، برحمة الرب، قد يكون هناك فرسان يرغبون في أن يتبعوك لأنك مشهور ومحبوب في كل مكان. لكني أقول هذا اك: إذا أتيت، فلا تتأخر، وإلا فلن تجدني هنا! لأني بالفعل عليل جدا، ولا أتوقع أن أبقي أطول من ذلك على هذه الأرض ".

لم يتمكن أندرو من العودة؛ وتوفى بيرتار، عجوزًا، ومريضًا، وخائب الرجاء، وحيدا في ديره المتواضع وحوله رهبانه. كانت الساعة التاسعة صباحا في ٢٠ أغسطس ١١٥٣.

وفى ذلك العام نفسه توفى شخصان أخران فى هذه القصة: البابا يوجينيوس، والمعلم الرابع للهيكل، بيرنار دى تيمبلى. إذ قتل وهو يحارب فى عسقلان فى أواخر يوليه. ومن المحتمل أن أندرى لم يتسلم خطاب القديس بيرنار الأخير حينئذ؛ ولكن لا بد أنه كان يفكر كثيرا فى ابن أخيه؛ وفى ذلك اليوم قبل ذلك بسبع وعشرين سنة حين التقى الاثنان فى كليرفو. لقد وقع الكثير من الأحداث فى هذا الوقت القصير؛ ولم يعد أندرى طالباً جديدا لعضوية الفرسان؛ يسعى إلى الموافقة المقدسة لإخوته، إنه الأن أكثر بركة من الأساقفة، وأقوى من الأمراء، فهو المعلم الخامس للهيكل.

الجزء الثالث الملكة فيما وراء البحر ١٣٠١-١٣٠٣

الفصل الخامس

مياه حية

الأراضى المقدسة، ١١٣١–١١٦٨ ينبوع جنات، بنر مياه حية، سيول من لبنان....

نشيد سليمان

للأراضى المقدسة اسم فخم ضخم، لكنها من الناحية الجغرافية ضئيلة الحجم. إذ يمكن المرء أن يطير فوق الدول الصليبية كلها طولا وعرضا في ساعة أو ساعتين. لقد كان أكثر أسمائها شيوعا في أوريا ما وراء البحر - وهذا الاسم يضم دفعة واحدة صفات الغرية والقداسة والمجد الزائف التي ميزت فرسان الهيكل بنفس القدر الذي ميزت به التربة المقدسة التي دافعوا عنها. أما بالنسبة لسكان الأراضي المقدسة، فإن أما وراء البحر كان يعني، بالطبع، أوريا؛ ولكن في هذا الكتاب - الذي ينظر جنويا بأعين أوربية - فإن ما وراء البحر هو تلك المجموعة من المالك والإمارات التي أسسها الصليبيون وقام فرسان الهيكل بدور الشرطة فيها. ولقد رتبت مملكة القدس القديمة، وإمارة أنطاكيا ومدينتا طربلس وأديسا على شكل حرف ت باللغة الإنجليزية، وفي وإمارة أنطاكيا ومدينتا طربلس وأديسا على شكل حرف ت باللغة الإنجليزية، وفي أعلى منطقة النفوذ اللاتينية في الشرق، كانت الدول الأربع معا عبارة عن ستمائة ميل، تقريبا إلى الشمال، وحوالي ثلاثمائة من الغرب إلى الشرق، - عبارة عن شريط طويل ضيق من القرن الشرقي للبحر الأحمر على طول ساحل شرق البحر المتوسط، يعبره ضيق من القرن الشرق البحر المتوسط، يعبره

حاجز ثقيل من سيلوسيا شمال قبرص إلى أديسا. وكانت طربلس أصغر هذه الدول: وحتى حين كان الصليبيون في قمة قوتهم، كان أكبر طول لها هو خمس وثمانين ميلا، ولم يكن أكبر عرض لها يزيد على أربعين، وعلى حدودها الجنوبية مع القدس، كان هذا يتقلص إلى مجرد ممر ساحلى: وبين بيروت ومدينة طربلس الفعلية، لم يتقدم احتلال الفرنجة سوى عشرين ميلا في الداخل.

إنها إمبراطورية، وإمبراطورية مقدسة؛ ولكن بالمعنى المعاصر كانت إمبراطورية مصغرة – منطقة كلية تزيد قليلا على أحد عشر ألف ميلا مربعا، ومع ذلك، في كثير من الأحيان كانت مساحة أكبر كثيرا من قدرة الفرنجة الغزاة على الدفاع عنها. على الخريطة يمكن قياسها بإصبع؛ ومن الجو يمكن مسحها في خلال ساعة، ولكن على الأرض، حين كانت أسرع وسيلة نقل هي الخيل، وآمن اتصال كان عن طريق الحمام، كانت تلك الأميال الإحدى عشر ألف ميل مربع شيئا معتدا، وتشكل تهديدا؛ لأن الأعداء كانوا يحيطون بالفرنجة.

وكان الخوف رفيقهم الدائم. ذلك أن الكهوف التي كانت تنتشر في المكان كان من الممكن أن تخفي كمينا مميتا؛ ويمكن الجبل أن يخفي جيشا؛ وكان من المستحيل القيام بعمليات الدورية في جميع الحدود الطويلة المترامية. يمكن فهم الحالة النفسية للسكان الأوربيين في الدول اللاتينية مجتمعة فهما أفضل حين نعلم أن عددهم لم يكن يزيد على عشرين ألفًا؛ ولم يكونوا جميعا، بالطبع، مقاتلين. وفي مملكة القدس بكاملها كان هناك أقل من ألف من الفرسان من غير رجال الدين والبارونات وما يزيد قليلا على خمسة آلاف من الفرسان من غير رجال الدين والبارونات وما يزيد قليلا على خمسة آلاف رقيب، هم المشاة كاملو التسليح. بالإضافة إلى ذلك قد يكون هناك ألف أخرى من المدنيين المسيحيين، الأوربيين ويضع مئات من رجال الدين؛ وقد انعكست أخرى من المدنيين المسيحيين، الأوربيين ويضع مئات من رجال الدين؛ وقد انعكست السكان المسيحيون من أهل البلاد يفوقون الأوربيين عددا، وهؤلاء المسيحيون كانوا السكان المسيحيون من أهل البلاد يفوقون الأوربيين عددا، وهؤلاء المسيحيون كانوا موجودين هناك قبل الحرب الصليبية الأولى، وسوف يظلون هناك حين تطهر الأرض من الأوربيين. ولكن على الرغم من أن المسيحيين من سكان البلاد كانوا يدفعون من الأوربيين. ولكن على الرغم من أن المسيحيين من سكان البلاد كانوا يدفعون من الأوربيين. ولكن على الرغم من أن المسيحيين من سكان البلاد كانوا يدفعون

الضرائب للأوربيين ويفترض أن يقاتلوا من أجل القرنجة، فإنه لم يكن من الممكن الاعتماد عليهم؛ فكثيرا جدا ما كان الفرنجة لا يبدون لهم كإخوة مسيحيين وإنها كغزاة ظلمة، وكان من السهل عليهم خيانة الفرنجة لصالح المسلمين، وقد فعلوا ذلك في مناسبات عدة، ومع ذلك، فقد كان لدى الدول اللاتينية نراعان مقاتلان، نصف طائفة اجتماعية من المرتزقة أبناء الأتراك، (اسم محلى يطلق على مرتزقة من الرماة كان الصليبيون يستأجرونهم في منطقة البحر المتوسط: المترجم،) لا يعول عليهم، مثل أي مرتزقة؛ ثم الجماعات العسكرية، وكان من المتوقع أنه يمكن الاعتماد عليهم اعتمادًا تامًا.

وكان فرسان الهيكل أولهم. إذ إنهم، منذ بدايتهم، كانوا عسكريين؛ وقبل الاعتراف بهم في تروا بوقت غير طويل انضمت جماعة أخرى، هي الإسبتاليون، هذا هو الاسم الشائع وبدلا من أن نطلق عليهم المستشفيين، سوف نستخدم هذا الاسم لشيوعه (المترجم). لقد أسست مستشفى القديس حنا في القدس عام ١٠٤٨، وظلت كذلك تماما لمدة قرن: أي مستشفى لنجدة ورعاية الحجاج، ولكن عند رؤية نجاح فرسان الهيكل الذي يعد ظاهرة تم الاعتراف بالمستشفى على أسس عسكرية، محاكاة الفرسان، ومما يثير الدهشة أيضا أنها بدأت تجتذب من الدعم والتأييد ما تحقق لجماعة الهيكل، إذ على الرغم من نجاح فرسان الهيكل، كان هناك ما يزال مجالاً للمنافسة.

وكانت الجماعتان عادة قادرتين على تقديم ما بين ستمائة إلى ألف فارس، مقسمين تقريبا بالتساوى؛ وإذا ما قسنا هذا الرقم بالأرقام السكانية التى سقناها سابقا، تتبين أهميتهم فى الحياة المدنية والعسكرية على نحو أوضح من أى شيء آخر. إذ أمكن أن يمثلوا ما يصل إلى سنة فى المائة من السكان الإفرنجة المقيمين؛ وكانوا هم الجيش الدائم الوحيد.

فإذًا ما أخذنا هذا في الاعتبار، فمن المؤسف أن نضطر إلى التسليم بأن أول اشتباك عسكري مسجل قام به فرسان الهيكل بأنفسهم كان هزيمة في حقيقة الأمر، لقد وقع ذلك عام ١١٣٨، بالقرب من بلاة تسمى تقوا، على بعد تسعة أميال فقط من جنوب القدس. كان المسلمون قد استواوا على البلدة؛ ويبين قربها من المدينة المقدسة مدى ضعف المسيحيين في دفاعاتهم ومدى قابلية أي شيء للتعرض للهجوم عدا المدينة المحاطة بالأسوار أو الحصون. لدى سماع هذا النبأ، انطلقت تجريدة من فرسان الهبكل بقيادة روبير، ألبير جندي المعلم الثاني، ولكن على الرغم من قدراته الدبلوماسية والإدارية، بدأ روبير، في تلك المناسبة على الأقل، أقل قدرة كقائد في الميدان. وكان مطران صنور، ويليام، المؤرخ، يتحمل ضغينة دائمة ضد فرسان الهيكل، وضد روبير بصفة خاصة، بسبب الامتيازات الكنسية التي منحت لهم في مؤتمر الهبة العليا. ولم يضم فرصة لم ينتقد فيها الجماعة، ورأى في تقوا قصاصا عادلا. وهو يقول إن روبير والإخوة أعادوا الاستبيلاء على البلدة بسهولة؛ لكنهم ارتكبوا "خطأ عدم سلاحقة المسلمين وهم يفرون". إذ ظل فرسان الهيكل في البلدة؛ وتجمع المسلمون مرة أخرى في خارج البلدة، وشنوا هجوما مضادا، وقال ويليام باكتئاب ورضا "كانت المساحة كلها ما بين الخليل وتقوا مفروشة بجثث فرسان الهيكل". (هذه المساحة كانت عشرة أميال)، من المحتمل أن ويليام كان مبالغا؛ ولكن حتى إذا كان وصفه هو الحقيقة الحرفية، يجب النظر إلى تقوا في سياقها، - إذ كانت معركة صفيرة بين عشرات المعارك الصغيرة، وعددًا كبيرًا من المعارك الكبيرة؛ إنها هزيمة صغيرة بين كم من الهزائم الكبيرة، والانتصارات الكبيرة. إذ كانت هناك ثلاثة تهديدات أكثر سوءًا من تقوا بشكل لا يوصف فهي تهديدات قوية على الأمن المسيحي في الأراضي المقدسة.

كان التهديد الأول تهديدا مباشرا: هو زنكي، القائد المسلم الجديد. فمع مقدم عام ١١٣٠ كان شمال سوريا بأكمله تحت إمرته. وفي عام ١١٣١ كان قد هاجم بغداد مرتين، وحين هزم مرتين، وجه اهتمامه إلى الغرب. وهاجم رجال من قيادته أنطاكيا عام ١١٣٣؛ وفي عام ١١٣٥ دخل هو نفسه الإمارة، بعد أن حاول دخول دمشق؛ وفي عام ١١٣٥ دخل هو نفسه عدينة حوران الإسلامية أيضًا؛ وفي عام ١١٣٨ اقترب من دمشق مرة أخرى؛ لكنه قنع بمدينة حوران الإسلامية أيضًا؛ وفي عام ١١٣٩ حاصر بعلبك واستولى عليها. وما بين ذلك، كان يغير على الحصون الحدودية، فأصبح تهديدا مجربا، وقوة يعتد بها.

وكان التهديد الثانى أكثر دقة وحساسية، وأكثر خطرا: وهم الحشاشون، تحت قيادة زعيمهم الأسطورى، رجل الجبال العجوز، ومن الغريب، أن الحشاشين كانوا، من بعض النواحى، مكافئين إسلاميين لغرسان الهيكل، لأنهم أيضا كانوا جماعة من المجاهدين. غير أنهم لم يقاتلوا علنا في ميدان المعركة ولم يكن مبدأهم ببساطة التعارض بين المسلمين والمسيحيين والصليب والهلال. إذ كان مصدر إلهامهم هو الإسلام العربي، وليس الإسلام التركي، والمذهب الشيعي وليس المذهب السني، بعبارة أخرى كانوا يعتقدون أن الزعامة الروحية للعالم الإسلامي يجب أن تكون من خلال النسل المباشر للنبي محمد، وليس من خلال خلفاء بغداد؛ وبالتالي، كانوا يرون معظم المسلمين حولهم وكذلك المسيحيين بمثابة كفار،

بهذا العدد الكبير من الأعداء، قد يبدو أنهم ليسوا تهديدًا كبيرًا؛ لكنهم كانوا قتلة سريين، ومهرة في حرفة القتل القاسى الكفء. وكانت طاعتهم الرجل العجوز قائدهم لا يداخلها أي شك، وكان الحشيش يزيد من شجاعتهم، ومن هنا جاء اسمهم، وقد حرفت الكلمة عن طريق الفرنجة بحيث تصبح المغتالين، ومنذ ذلك الوقت احتفظت بمعناها أي القتل السياسي، وهذا العامل على وجه الدقة، أي دافعهم السياسي المعقد، هو الذي جعل المسلمين والمسيحيين على حد سواء يرهبونهم؛ لأنهم لم يكن من الممكن التعرف عليهم، لذا كانوا يستطيعون قتل من يشاون، – ويستطيعون التحالف مع أي من الجانبين، حسب ما يلائمهم.

أما المتهديد الأخير فكان أكثرها إنهاكا، وهو التهديد الذي أسهم أكثر من غيره في السقوط النهائي للدول اللاتينية، في الشرق: وهو انهيار التحالف بين الفرنجة والبيزنطيين. لقد وعد الإمبراطور الفرنجة بالدعم بشرط أن يعيدوا إليه أية أراضي يغتحونها كانت قد أخذت منه في السابق من جانب المسلمين، وكانت إمارة أنطاكيا من بين هذه الأراضي، التي تمسك بها الفرنجة بقوة منذ استواوا عليها عام ١٠٥٨؛ وفي عام ١٦٧٧ كان الفرنجة قد قرروا أيضا بقوة أنهم يريدون استرجاع أنطاكيا، فعبر الإمبراطور جون زينس الدردنيل بجيش كبير، وحاصر المدينة.

وهكذا فإن مسيحيين حاصروا مدينة مسيحية. وكانت هذه سخرية بلاد ما وراء البحر القاتلة. ولم يقدم الملك الجديد قواك أي دعم أريمون أمير أنطاكيا، على الرغم من الدور الذي لعبه الأمير في التخلص من أليس المزعجة؛ وفي عام ١١٣٨ عبر ريمون عن احترامه لجون زينوس، ورفرف العلم البيزنطي فوق أنطاكيا.

ومع ذلك كان هناك مزيد من التعقيد في السخرية؛ إذ كان السياسة المزيد من الالتواء. ذلك أنه حين حاصر زينوس أنطاكيا، هاجم مسلمو دمشق، المستقلون عن زنكي تماما، طربلس، وتم دحرهم؛ ثم بعد ذلك بعامين، أي في عام ١١٣٩، صار الدمشقيون والملك فواك حلفاء، ضد زنكي، وأعيدت بنياس إلى فواك، ضمن الصفقة. كانت هذه إذن هي صورة ما وراء البحر، في الجيل الأول من حكم الفرنجة: عبارة عن شبكة معقدة بشكل لا يكاد يصدق من العداءات والتحالفات، حيث يمكن أن ينحاز جانب مع الآخر ضد أخيه في العقيدة، وحيث تنبذبت الصود باستمرار مع خسارة واسترجاع المدن والبلدان والحصون، وهي صورة ظلت حقيقية على مدى المائتي سنة من وجود ما وراء البحر: إذن، لا عجب في أنه حين بدت القدس مسيحية آمنة وجد مسيحيو الغرب أنه من السهل عليهم تجاهل هذه الأحداث البعيدة المعقدة، وفضلوا التفكير في مشكلاتهم. غير أن زنكي، ذلك عدو المسيحية الطموح الميال القتال، كان جاهزا لتذكيرهم.

أين المتاج الذي بوركت به، وأين الإكليل الرائع؟

أين زينات الملكة، زوجة الأمير الملكية، وروائع قصر العرس، وأنسجة الذهب المطرزة؛ لم غاب الزوج عن حجرة العرس، ولم غاب أصدقاؤه عن الكنيسة؛ ماذا جرى المفاقه؛ إذ لم يعودوا يشدون بأغنية داود.

١١٤٤: ضماعت أديسا، فتحبها زنكبى، وسبط مشاهد من سفك الدماء والرعب، اختنق خمسة ألاف في الزحام المذعور؛ وذبح ألاف أخرون؛ ويكي كاهن من أديسا.

كل ما أخذ منك فجأة، كل ما تلاشى وأنطفا؛ لم يكن سوى أحلام، وأشباح بديتها اليقظة.

رأى المسلمون في زنكي يد الله الرحيم، وقالوا إن الصحراء أزهرت أينما حل. وقال المسيحيون عنه "وعاء الشيطان، وصانع الشر" لكن كل من الجانبين وافق على أنه أحسن اختيار اللحظة، ذلك أنه في العام السابق، مات معارضاه الكبيران، الملك فولك، وجون زينوس، ماتا مصادفة في حادثي قنص. وبدون جون أصبح الإنطاكيون والبيزنطيون في حالة صدام مرة أخرى: ولا يوجد ما يهدد زنكي من الغرب. ودون فولك، انتهى التحالف بين الدمشقيين والفرنجة: فلا تهديد من الجنوب. وشكلت أديسا البداية الحقيقية للهجوم الإسلامي المضاد: وفي ما تلا ذلك من سنوات، وبينما كانت الدول اللاتينية تقاتل يوميا من أجل وجودها ذاته، ظهر فرسان الهيكل في المقدمة.

الناس في حالة اليأس يتشبسون بأى أمل، مهما كان واهيا. حين وصلت أنباء أديسا إلى الغرب، صحبتها شائعة عن علك مسيحى في الشرق، يحارب المسلمين ويحقق انتصارا. يسمى جون، بريستر جون. وكثير من الناس، في ذلك الوقت، وكثيرون آخرون على مدى قرن بعد ذلك آمنوا به إيمانًا تامًّا، وعلقوا عليه آمالهم في النجاح. وبعد الحملة التي تلت ذلك من الحرب الصليبية الثانية، حين اعتبره فرسان الهيكل مثلا يحتذى وقادة للجيش الملكي، أقسم الكثيرون أن فارسا كان يرتدى ملابس بيضاء ظهر من المجهول كي يساعدهم في أوقات شدتهم، ويختفي حين يكون كل شيء أمن، بشكل غامض كما ظهر. وكانت تحيط بغرسان الهيكل هالة من الغموض – إذ إن من بشكل غامض كما ظهر. وكانت تحيط بغرسان الهيكل هالة من الغموض – إذ إن ميثاقهم أصبح الآن سريا، ولم يكن مسموحا لأي أخ أن يكشف عنه لأي إنسان؛ وكانت اجتماعاتهم العامة تتم باقصى درجات السرية، خلف أبواب مغلقة وعليها حراسة مشددة ونوافذ أيضا مغلقة. وكل ممنوع جذاب ومرهوب، وبعض الناس، الذين ربطوا بين صمت الجماعة بحكاية الفارس الأبيض الفريب، رأوا أن فرسان الهيكل مصدر حيرة وإغراء. وسبب الجاذبية واضع: فهي فرقة من النخبة، وقاعدتها في

أقدس أنحاء البلاد المسيحية، ولديها صلات دولية، وثروات دولية، وتنظيم دولي سرى، وتحرر من جميع القيود الزمنية والروحية المعتادة، لذا يمكن النظر إليهم من جميع النواحي كجماعة ذات مكانة مميزة بحق.

غير أن هناك أخرين ممن فسروا العناصر نفسها تفسيرا مختلفا؛ ذلك أن السرية، والثراء، والسلطة والحرية جعلت الجماعة موضع شك وتوجس. فغى وسع المدافعين عن فرسان الهيكل الثناء على ما يتسمون به من تقشف وإخلاص ووحدة، ويمكن لمنتقديهم الإشارة إلى التناقضات: فالفرسان النين أقسموا قسم فرسان الهيكل بالفقر قد انضموا إلى أغنى جماعة في العالم؛ وقسم الطاعة معناه أن الشخص لم يعد في حاجة إلى طاعة مليك؛ والقسم بالدفاع عن البلاد المسيحية معناه أن الشخص في وسعه تجاهل مطرائه. بالنسبة للمدافعين عنهم، تعد سلسلة القلاع الخاصة بفرسان الهيكل في البلد المقدسة هي دفاع المسيحيين الأول، وممتلكاتهم في أوربا نظام منطقي الدعم. أما النقاد فراوا هذه الأشياء باعتبارها تهديدا محتملا، أولا على أمن البلد المقدسة نفسها، بما أن فرسان الهيكل غير ملزمين بالوقوف إلى جانب الملك أو البطريارك؛ وثانيا تهديدا لأمن كل بلد في أوربا، حيث إن الجماعة هي الجيش الوحيد النظامي المنضبط.

لا يمكن اعتبار أى من هذين الرأيين صحيحًا تصاما؛ كما لا يمكن اعتبار أيهما على خطأ تام. فعلى مدى الخمس والأربعين سنة الأولى من حياة الجماعة، لا يوجد دليل مباشر على أن فرسان الهيكل أساءا استخدام حقوقهم، بل هناك قرائن متكررة في صالحهم: على سبيل المثال، رسائل لويس السابع إلى سوجى، وهذا التعليق في ميثاق سابق:

"لا نعتقد أن المؤمنين يمكنهم نسيان ما قدمه فرسان الهيكل من عزاء وعون السكان، والحجاج، والفقراء وجميع من أرادوا زيارة ضريح الرب،" ولكن أنصافا لمنتقدى فرسان الهيكل، نجد أن السجلات المباشرة وغير المباشرة لنفس تلك الفترة لا تشهد بأى امتياز عسكرى بارز، فمن المؤكد أنه مع مقدم عام ١١٥٣، كان فرسان

الهيكل يمتلكون قلاعا من غزة حتى أرمينيا؛ ولكن فى إحدى المرات - فى تقوا - انهزموا، وفى معركتين أكثر أهمية، بدأ أن سلوكهم أدنى من أن يكون مشرفا. هاتان هما معركة دمشق عام ١١٤٨، وعسقلان عام ١١٥٣.

فدمشق، التى كانت تعتز باستقلالها عن المسلمين الآخرين، وعن الفرنجة، كانت مغرية للجانبين، لعقود، إذ حاول زنكى فتحها مرارا وتكرارا، بل إنه مات خارج أسوار دمشق عام ١٩٤٦، إذ قتله فى أثناء نومه عبد خصى أوربى. ثم حين تقاطر لويس السابع وكونراد ملك ألمانيا إلى الأراضى المقدسة مع من تبقى من الحرب الصليبية الثانية، قرر الفرنجة أن يتخنوا دورهم. وكان الاستيلاء على دمشق المعروف فى الكتاب المقدس فى أنحاء البلاد المسيحية، من شأنه أن يكون أكثر من تعويض عن خسارة أديسا: إذ كان من المكن أن يجعل الكوارث فى أنحاء بيزنطة جديرة بالحدوث، ولكن لأسباب بدت غير مفهومة حينئذ كما هى كذلك الآن، لم يفوزوا بالمدينة، وأنحى الكثيرون باللائمة على فرسان الهيكل.

من السبهل علينا أن نفهم السبب الذي جعل القرنجة والمسلمين على حد سواء يشيرون إلى دمشق باعتبارها "لؤلؤة الصحراء". فهى من حيث المنظر كانت مذهلة، واليوم عند النظر من الجو إلى المدينة، تأخذ النظر ثلاثة ألوان – بياض المباني، التي تلمع في شروق الشمس؛ والواحة الخضراء، "الحدائق" حول المدينة؛ واللون الأصفر الذي يشبه الشفق في الصحراء المحيطة بكل مكان. إنها زمرد واؤلؤة وضعا في ذهب.

من المؤكد أن دمشق شائها شان أية مدينة، بها أجزاء قبيحة قذرة، كتلها السكنية المرتفعة، ومعمارها الذي يعد من الطراز العاشر؛ غير أن هذه العيوب لا تسيء إلى الانطباع العام، وهو أن هذه المدينة ذات قيمة مرتفعة؛ ومنذ ثماني قرون، حين كانت جيوش الغرب الصليبية تناضل كي تستقر في الشرق، لا بد أن أثرها على من رأوها، أو عمتي سمعوا عنها كان بالغ الجاذبية، وفي حياة الفرنجة الصعبة غير المستقرة، تجذر حلم دمشق وازدهر بسهولة.

وطبيعة هذا الحلم، والحقائق والأساطير التي تغذي عليها تروى ببساطة: فدمشق فريدة بحق. بالنسبة لمعظم الصليبيين، كانت أراضي شرق المتوسط لها حظوة خاصة، ذلك أن جميع أحداث الكتاب المقدس وقعت هناك؛ ولكن حتى بالمقارنة بالقدس، كان هناك اعتقاد بأن دمشق تتمتم ببركة خاصة. فهي أقدم مدينة على وجه الأرض ظلت مسكونة باستمرار - إذ أنها وجدت قبل ميلاد إبراهيم بألف سنة، لكن قيمتها بالنسبة للفرنجة كانت أكبر من مجرد القدم، أو حتى من الفائدة الاستراتيجية. إذ إن امتلاك الفرنجة للمدينة من شأنه دق إسفين مجسد بين مسلمي الشمال ومسلمي الجنوب، أكثر من أي تمالف بين الدمشقيين والفرنجة، وكان لهذا حسابه. ولكن ما كانت له أهميته بالنسبة الجنود العاديين والحجاج هو أنه بالقرب من دمشق كانت توجد مقبرة هبيل وفي اتجاه آخر ولكن قريبا أيضا كان دير راهبات به أيقونة يقال إنها تشبه العذراء والطفل، رسمها القديس لوقا وهي الأولى من نوعها! وفي جنوب المدينة هناك مقبرة للقديس جورج، (جرجرس)؛ وفي المدينة نفسها هناك مقبرة لحنا المعمدان؛ والموقع كله هو موقع جنة عدن. ومن طين نهر بردا، الذي تقوم عليه دمشق، صنع آدم، - على أى حال، كان المسلمون يقولون باعتزاز إن هذا صحيح، وتلهف الفرنجة إلى قبول هذه المعلومات.

كانت هناك غرائب، وأخطاء، أيضا تحيط بهذه المطموات المنقولة عبر الأجيال. إن مقبرة هبيل طولها نحو عشرين قدما وهي أضيق من أن تتسع لأي إنسان؛ ولكن حراس لبنان، وهو قبر مشابه، الذي يقال إن به ست، ابن آدم الثالث، في حين يرقد النمرود في ضريح بالقرب من حرمون – عبارة عن قبر طوله ثلاثون قدما، وطبقا لسفر التكوين، "كان هناك مردة في الأرض، في تلك الأيام" وعذراء سيدنا يا المرسومة (وهي تعني شيئين، "سيدتنا" "ومكان صيد") كان وما ذال يعتقد أنها تبكي، لقد قبل فرسان الهيكل هذا الاعتقاد، وبمزيج الإيمان والدعاية الماهرة التي تميز أيامهم الأولى، عبارا بعض الدموع في زجاجة وأرسلوا بها إلى أوربا.

لو مبدقنا كل مكان يقول إن بها رأس حنا المعمدان، فيلا بد أنه كانت له ثلاثة أو أربعة رءوس على الأقل. وبالمثل، تذهب عدة ادعاءات منتنافسة تطالب بالتكريم إلى أن جنات عدن كانت موجودة؛ ولكن ريماً كان الخطأ الذي يثير أكبر قدر من الشفقة هو ذلك المتعلق بالقديس جورج، إذ لا بد أن الفكرة القائلة بأن القديس الصامي لإنجلترا مدفون هنا قد أثارت وفتنت الكثيرين من الأوربيين؛ لكنه ليس مدفونا في هذا المكان. ذلك أن جورج المدفون بالقرب من دمشق لم يكن ضبابطا رومانيا، وإنما هو حمال حبشي، قد تم إعدامه بسبب دوره في هرب القديس بولس من المدينة. وعلى الرغم من ذلك، بمعنى ما، لا تعد هذه الأخطاء والغرائب مهمة. الأمر المهم هو أن هذه الأشياء عن الأرض المقدسة بشكل عام ودمشق بشكل خاص كان يعتقد على نطاق واسم أنها حقيقية. ودون هذه المعتقدات، لما حاول أحد القيام بالحروب الصليبية، ولما كان هناك وجود لفرسان الهيكل. وفي هذا القرن العلماني، حين تنظر إلى الوراء إلى هؤلاء الناس، من الضروري أن نتذكر أنهم حينما رأوا القدس - أو دمشق، لم يروا مجرد أسوار وأبراج ومبان؛ ولم يفكروا فقط في احتلال الأراضى. بل رأوا أماكن بعثت أناجيلهم إلى الحياة. إذ لم تعد الأسماء المألوفة من الطفولة الأولى والتي يوقرها الناس مجرد كلمات يقولها الوالدان، أو القساوسة، وإنما هي حقائق مجسدة ذات أيعاد ثلاثة، وفتحها عمل من أعمال العبادة. والعبادة تمشي في دمشق الآن، كما كانت تمشى في ذلك الحين، - عبادة الله، ويهوه، والمسيح والتجارة. فهي النشاط الأساسي في المدينية؛ وهي تبستمر طوال الوقت، يشكل أن أخر، وعادة بقدر كبير من الجلبة، والكثير من الألوان. فصبيحات المؤذن ترتفع خمس مرات في اليوم، تدعو المؤمنين للصبلاة - ويما أن الترتيل يأتي في هذه الأيام من جهاز تسجيل فلا بد أن يكون مرتفعا بحق. ولا بد من ذلك، إذا كان له أن يسمع ويعلو على الأجراس التي تدق فرحًا، أو تئن في أداء حزين؛ وفوق صحب السيرات والناقلات؛ وفوق زمجرة الجمال؛ واصتكاك الدرجيات الجاد، وتوسيلات الشيحائين، وصبيحات التجار، وغمغمة العوار، ومُنجِيج المقاهي، إنه خليط كبير لمدينة كبيرة حيث الصخب والحيوية والمرح؛ وإذا كانت دمشق كذلك، تصبح شبيهة بغيرها من المدن الكبري في العالم، فهناك أشياء مع ذلك، تجعلها مختلفة عن أى مدينة أخرى، هناك الشارع المسمى سوق المنصور وهو مغطى بسقف مقوس على طوله الذي لا يتعرج، وأشعة الشمس من خلال النوافذ، صانعة خطوطا من الغبار؛ – وهناك شيء لا هو بالخطأ ولا هو بالغريب، – إنه موقع تعميد القديس بطرس، وبالنسبة لمن يميلون إلى الحج التاريخي، يوجد قبر صلاح الدين، وهو عبارة عن مبنى بسيط نظيف، يحتوى على ضريح حجرى ألماني ينتمى القرن التاسع عشر، قبر نور الدين، وقبر بيبرس وسوف يظهرا في هذه الحكاية فيما بعد؛ وعلى المرء أن يقر: هناك عدد كبير من القبور في هذه المدنة.

وهناك أيضًا أماكن وأناس يتمتعون بقدر كبير من الجمال؛ فالناس في كل مكان، راهبات، وكهنة، ومؤذنون، وياعة شريات؛ معظمهم شديدو الكرم، ومستعدون الدردشة، خاصة في السياسة؛ ولديهم طريقة أخاذة في تسخيف سياسة أي شخص؛ (وذاكرتهم السياسية طويلة جدا)، فهم في نفس الوقت يدافعون بصدق عن إعجاب صادق بالأفراد الذين يصنعون ويديرون ويعانون السياسات. ولا بد أنه من أوائل أماكن الجمال المسجد الأموى الكبير، الذي كان موقعه مقدساً على مدى ثلاثة آلاف سنة، والذي ضمت جدرانه عناصر من أضرحة ما قبل الرومانية، والرومانية والسيحية والإغريقية والأرامية. وقد بني في شكله الجالي في أوائل القرن الثامن؛ وقد أنفق في تشييده ما يعادل سبم سنوات من دخل البلدة، وأضىء بستمائة مصباح معلقة بسلاسل من الذهب الصلب. وقد اختفت هذه وغيرها الكثير من الزينات الذهبية منذ وقت طويل، نتيجة للحرائق والمعارك - وكان من المكن أن تضيم قبل ذلك لو أن الصليبيين فازوا. ومع ذلك، يظل مكانا بارزا للجمال البصري، والهدوء العميق، بأعمدته الرائعة، وأرضيته القرميدية، وجدرانه المنقوشة. وهذه الأشياء غير معتادة في الإسلام، لأنها تمشيلية، (أي تمثل أشكالاً لأشياء) إذ تصبور الأنهار، والمنازل والبساتين، في زمن رعوى ومكان رعوى مجهول، ويقول البعض إن الصور تسجل دمشق كما كانت في وقت من الأوقات - حدائق الجنة، ومكان البراءة العذرية، وأن

هزيمة الصليبيين عام ١٩٤٨ تنبع من عدم استحقاقهم لجائزة كهذه. أما بالنسبة للفرنجة، فإن الطريق الذي أدى إلى ذلك الفشل الزريع بدأ في أنطاكيا في ربيع المذالا، حين كان لويس السابع وزوجته إلينور من أكيتان هناك. إذ كانت سمعة إلينور النما في مكانة منخفضة، لأن شخصيتها لم تكن منسجمة مع الفضائل التي كان دائما في مكانة منخفضة، لأن شخصيتها لم تكن منسجمة مع الصفات المطلوبة من ملكة. لقد كان لويس جادا تقيا، إلى حد البلادة؛ أما إلينور فكانت تتدفق بالحيوية، وخفة الروح، والذكاء والأناقة. لذا كان رجال الكنيسة والسياسيون في بلاط زوجها يصدمون من سلوكها الغزلي؛ أما الرجال الأقل قتامة فكانوا يبتهجون بسلوكها. وكان أحد هؤلاء هو ريمون، أمير أنطاكيا، وكان عم إلينور: وكانت زوجته المطفلة كونستانس لم تتعدى العشرين، لكنهما كانا متزوجين منذ إحدى عشرة سنة، وقبل وقت قصير من وصول العشرين، لكنهما كانا متزوجين منذ إحدى عشرة سنة، وقبل وقت قصير من وصول العادية. وشعر لويس بالإهانة اشرفه، وقاد جيشه إلى القدس بعد أن أخذ زوجته العادية.

وفي ٢٤ يونية، انعقد مجلس حرب في المدينة المقدسة، وكان هناك الإمبراطور كونراد، ولويس، ومعلمو الهيكل، والمستشفي، وابن فواك وخليفته، بوادوين الثالث. ويشكل ما توصلوا إلى قرار بأن تكون دمشق هي هدفهم – على الرغم من أنها كانت المدينة الإسلامية الوحيدة التي لديها أقل درجة من الصداقة مع الفرنجة، وانطلق المبيش في منتصف يولية، وهو أكبر جيش تمكن الفرنجة من جمعه، عن طريق بنياس، ووصلوا إلى دمشق في ٢٤ يولية ونصبوا المعسكرات جنوب المدينة، في منطقة تمثلئ بالحدائق والبساتين، وكانت هذه قاعدة ممتازة، وكان الهجوم في البداية مبشرا، ذلك أنه خلال يومين، كان أهل دمشق يضعون المتاريس في شوارعهم في حين كان أنه خلال يومين، كان أهل دمشق يضعون المتاريس في شوارعهم في حين كان الفرنجة يواصلون ضرب أسوار المدينة. ثم في ٢٧ يولية، نقل الفرنجة المعسكر وانتقلوا إلى الجانب الشرقي من المدينة.

من الناحية السطحية، كان السبب هو تقدم التعزيزات الإسلامية؛ لكن الجنود العاديين كان يداخلهم الشك، لأن قادتهم أخذوهم من أفضل قاعدة إلى أسوأ قاعدة. إذ كانت مكشوفة، بلا ماء، وتواجه أقوى جزء من أسوار المدينة. فما إن تحرك الفرنجة حتى وجدوا أنفسهم في وضع الدفاع. وكانت تعزيزات المسلمين وشيكة الوصول؛ ولم يكن في وسعهم فعل أي شيء، بلا ماء أو طعام، ولا دفاعات طبيعية، وفي اليوم التالي أخذوا في التقهقر.

وتبعهم الرماة المسلمون وقتلوهم، وفي هذه المرة كان السهل بالمعنى الحرفى مغطى بأجسام الخيل، والبشر، والجيف، التي كانت ملقاة تتعفن دون دفن الأشهر، وقال ابن القاليسي إن رائحتها كانت قوية حتى أن الطيور كانت تسقط من السماء ... فحمدا لله على ذلك».

لم تكن هذه ببساطة هزيمة، بل كانت كارثة: إذ تم القضاء على الجيش العرمرم في أيام خمسة، وزالت تماما أسطورة منعة الفرنجة. ومن الطبيعي أن الجميع بحثوا عن سبب وعن كبش فداء. بالنسبة للجنود العاديين، والمدنيين الذين بقوا في بلادهم، (يقصد الأرض المحتلة: المترجم) لم يكن هناك أي شك في السبب: لا بد أنها الخيانة. وكان السؤال الوحيد، إذن، من الخائن.

وكان عدد البدائل تقريبا كعدد القادة. ذلك أن لويس وكونراد قاما باللوم الشديد على جميع البارونات الفلسطينيين، كما فعل الكثيرون من الجنود، وقالوا إن البارونات كانوا يشعرون بالغيرة مما حققه الفرنسيون والألمان من نجاح في الجزء الأول من المعركة. أما البارونات فقد أنحوا باللائمة بدورهم على الملكين، قائلين إنهما لم يفهما الموقف السياسي في الأراضي المقدسة؛ وأن المسلمين ليسبوا جميعا متشابهين بالضرورة؛ وأن الدمشقيين الأصدقاء لم يكن من الواجب مهاجمتهم على الإطلاق. وذهب أخرون بخبس إلى أن لويس كان يرغب فقط في إثبات نقسه أمام إلينور بشن الهجوم، وأنه بعد ذلك فقد حماسه. لكن أكثر القصيص شيوعا كانت تروى

أن المسلمين قدموا رشوة هائلة لواحد أو أكثر من القادة ذوي النفوذ، إما البارونات الفلسطينيين، أو فرسان الهيكل.

من المكن أن يكون البارونات قد تلقوا الرشى؛ ليس في وسع أحد أن يؤكد ذلك، ولا يمكن لأحد أن ينفيه، وسواء رغبنا في قبول ذلك أم لا، يبقى من المكن، أن فرسان الهيكل، مع علمهم بالمضامين السياسية لفقد التحالف الفرنجي الإسلامي الوحيد، قد يكونوا قد وضعوا مصلحة جماعتهم أولا، وقد يكونون متهمين بالفساد، وعلى الرغم من المثل العليا لدى فرسان الهيكل، يصبح هذا الاتهام أكثر قابلية للتصديق في ضوء تصرفاتهم في عسقلان، بعد ذلك بخمس سنوات فقط.

ومهما يكن من أمر، فعند هذه النقطة تدخل شخصياتان جديدتان هذه الحكاية، شخصية مسلمة، وأخرى إفرنجية – نور الدين، ابن زنكى، وخليفته؛ ورينلد دى شاتيون. كان نور الدين في الواقع هو الابن الثاني لزنكي وعند وفاة زنكى كان الفرنجة يأملون في أن يتقاتل الإخوان فيما بينهما. غير أنهما قسما أراضي والدهما بشكل سلمي؛ فأخذ الأخ الأكبر العراق، وأخذ نور الدين سوريا. وانطلق من هناك كي يفوق والده: وكان جيشه هو الذي دعم دمشق، وكان هو التهديد الذي استخدمه الدمشقيون للحفاظ على معاهدتهم الواهية مع الفرنجة.

وكان رينواد دى شاتيون أيضا الابن الأصغر لكنه أقل حظا فى أسرته. ذلك أنه جاء من شاتيون – سير – لوان، على بعد مائة ميل جنوب باريس، وكان عضوا من أعضاء طبقة النبلاء الصغرى. وهى قصة طبق الأصل من قصص الكثيرين من الصليبيين: إذ ليس فى وسعه ترقع أى ميراك ذى قيمة فى فرنسا، فغادرها ربما مع جيش لويس السابع كى يبحث عن حظه فى الأراضى القدسة.

ولكن باستثناء ظروف مغادرته، لم يكن يشبه غائبية الصليبيين من أى ناحية. إذ لم يلعب الدافع الديني أى دور في تركيبه؛ فهو ببساطة ووضوح مجرد شخص يتصيد حظه، وفاز في الأراضى المقدسة، وخسر عدة ثروات، كل ذلك بالسهولة التي يكسب ويخسر بها قاطع الطرق المطبوع على ذلك.

في التاريخ المسجل يظهر أول ما يظهر في أنطاكيا، أنطاكيا سيئة السمعة في عام ١٩٥١، في ذلك الوقت، كانت قد مضبت سنتان على وفاة الأمير ريمون الأنطاكي، إذ قتل في معركة ضد نور الدين، الذي أرسل بجمجمة الأمير في صندوق من الفضة، إلى خليفة بغداد السني، وكانت كونستانس قد أظهرت حينذاك أن بها شيئا من روح أمها أليس، وبعد أن رفضت بإصرار كل من تقدموا لطلب يدها، حكمت أنطاكيا وحدها. ومن المحتمل أنها كانت قد التقت برينواد قبل ذلك، ومن الواضح أن رينواد كان في مقدوره أن يكون ساحر الشخصية حين يلائمه ذلك، لأن كونستانس قررت أن بتروجه في أوائل عام ١٩٥٦، على الرغم من أنه لم يزد قليلا عن أحد جنود الحظ المفاسين، وكان هذا الزواج يتطلب موافقة الملك، فانطلق رينواد على الفور للحصول عليها. وكان بوادوين منشغلا بحصار عسقلان، فالتقي هو ورينواد هناك. وكان لهما لقاء قصير، بهر أثناءه رينواد الملك بهمته، وبدا أن الخاطب من المحتمل أن يكون قادرا على الدفاع عن أنطاكيا دفاعا جيدا، وكان الملك منشغلا؛ فأعطى موافقته، وأسرع على الدفاع عن أنطاكيا، وتم الزواج على القور.

ثم بدأ رينواد يكشف عن شخصيته الصقيقية. وكان هو بالفعل موضع نقد لأن الأنطاكيين صدموا من اختيار كونستانس زوجًا وضيع المكانة. إذ كتب ويليام الصورى: "كثير من الناس تعجبوا من هذا، وكان هناك كلام كثير في أنحاء البلاد؛ ولكن على الرغم من هذا كله، كان رينواد أمير أنطاكيا." وكامير، لم يكن ليتحمل أي نقد من أولئك الذين كان يعتقد أنهم أدنى منه، وحين اكتشف أن بطريارك المدينة العجوز من أشد منتقديه اختطف ذلك الرجل المسن، وجرده من ملابسه، وضربه ثم قيده ولطخ رأسه بالعسل وتركه يومًا بأكمله على سطح ساخن، يعذبه الذباب والدبابير، ومع ذلك، شأنه شأن كل شخص مستأسد كان يولى اهتمامه لمن هم أعلى منه قدرا، وحين تلقى توبيخا شديدا من بولدوين، تصرف بالطريقة التى تناسب شخصيته: إذ تم الإفراج عن البطريارك واقتيد مكرما على ظهر حصان حول أنطاكيا، وكان رينولد بنفسه يقود الحصان وهو يسير على قدميه.

غير أن هذا الرجل الذي كان يخلو من أي جاذبية من نواح عدة، كان محاربا جسورا؛ وبهذا الوصف، حقق الكثير من الشعبية بين الفرنجة. غير أنه لم يكن يحترم أحدا سوى فرسان الهيكل، ولم يكن معا يشرفهم أن يتقبلوا ذلك. وفيما بعد، ذهبوا إلى حد عقد تحالف رسمى معه، – وهو تحالف كانت نتيجته النهائية مناقضة لكل ما كان الهيكل يرمز إليه: تفكك وهزيمة بلاد ما وراء البحار، غير أن ذلك كان لا يزال بعيدا، وفي عام ١١٥٢ لم يكن لأحد أن يستشعره أو يتنبأ بوقوعه. وبينما كان رينولد يعذب البطريارك المسن، كان حصار عسقلان في أوجه، وكان فرسان الهيكل

كان المسلمون يطلقون على عسقائن "عذراء الصحراء" لأنها هي وحدها التي ظلت دون أن تنتهك منذ أيام الحرب الصليبية الأولى، وفي بداية العام قرر بولدوين أن يغير ذلك، واقترح المشروع على فرسان القدس، وتم قبوله على الفور وأقسم القادة على الصليب الحقيقي ألا يستسلموا حتى يتحقق الفتح، وكان أمامهم انتظار طويل،

كانت المدينة تمتد على نصف دائرة، جانبها المستقيم إلى البحر وقوسها محصن تحصينا قويا. فتمكن المسيحيون من حصارها، بما في ذلك الجانب المتجه نحو البحر، لكن المدينة كان بها الكثير من المؤن، وكانت الأسوار قوية جدا حتى أن الحصار كان قليل الأثر لعدة أشهر. وفي عيد القيامة دعم الحجاج المسيحيين، لكن هذا حدث به توازن حين تمكن أسطول مصرى من اختراق الحصار البحرى ومعه المؤن. فشعر المسيحيون الذين يقومون بالحصار بارتباك شديد، واتفقوا على القيام بجهد إضافي، حتى ذلك الوقت كانت أسلحتهم عبارة عن مجانيق، وقواذف ومعدات تحطم الأبواب الخشبية. فكانت المجانيق تلقى بالصخور؛ والقواذف تقذف برماح ضخمة، طولها سبع الخشبية. فكانت المجانية تلقى بالصخور؛ والقواذف تقذف برماح ضخمة، طولها سبع المصار يهكن أن يعلو على الأسوار؛ – لم تكن هذه الفكرة أصلية على وجه الدقة، لكنها كثيرا ما تكون فعالة. وكان البناء ضخمًا عند الانتهاء منه، وشديد الإبهار ~

أو شديد الرهبة، هذا يتوقف على وجهة نظر كل شخص، وعلقت حوله أغصان الصفصاف والحبال لحمايته من المحفور – لأن المسلمين أيضًا كانوا يملكون المجانيق – وجلود جديدة كى تمتص أثر الرماح والسهام، وأمامه كان هناك "سلحفاء" نفق متحرك من العارضات والألواح الخشبية، وتحت حماية هذا، كان الرجال يعدون الطريق من أجل البرج العظيم، ووضعت منصة من الألواح المتحركة تحت عجلات البرج، وتحركت الآلة ببطء وهدوء كمارد رهيب، إلى أن وقفت أمام الأسوار، فالقى المسلمون بكل ما أمكنهم الحصول عليه في اتجاهها؛ ورد الفرنجة بكل ما استطاعوا الرد به؛ فلم يؤثر أي فريق في الفريق الآخر،

ثم، فجأة، وبطريقة غير متوقعة نجح الهجوم، كان ذلك في أواخر يوليه، ليلا، وأرسل المسلمون جماعة صغيرة تحت جنع الظلام كي يحرقوا البرج، فاشتعل بسرعة، جاعلا الليل يضيء باللهب والشرر؛ ولم يتمكن المسيحيون من إطفاء الحريق، ولكن بينما كانوا يشاهدونه وهو يحترق بيأس، تغيرت الرياح – وهب اللهب في اتجاه أسوار المدينة، التي أضعفتها أصلا معدات تحطيم الخشب، وعند السحر انهار جزء من الجدار، وكان فرسان الهيكل مسئولين عن هذا القسم، وقاد المعلم، بيرنار دي تمبلي هجوما من خلال ذلك الشرخ، وصحبه تسع وثلاثون من الإخوة. في البداية افترض العسقلانيون أن هذه هي مجرد طليعة بقية الجيش، وكانوا على وشك الاستسلام؛ ولكن حين لم يظهر المزيد من المسيحيين، أحاطوا بفرسان الهيكل، وذبحوهم عن بكرة أبيهم، وتم سد الشق بسرعة؛ وفي اليوم التالي، علَقتُ أربعون من صلبان فرسان الهيكل من تحصينات المسلمين.

ومع ذلك، كان الحصار لينجع بمرور الوقت. ذلك أن ثلاثة أسابيع أخرى جعلت المسلمين يقتربون من حافة المجاعة، إذ لم تمر أية سفن إمداد؛ واستسلمت المدينة في ١٩ أغسطس. وسمح للسكان بالمرور الآمن إلى مصر، بمنقولاتهم؛ وحين وصلوا إلى هناك، قتل معظمهم المسلمون البدو وسرقوهم.

وفى عسقلان تحولت المساجد إلى كنائس؛ واستقر المسيحيون فى المدينة؛ وانتشر الكلام عن فرسان الهيكل. وعرف سبب عدم وجود دعم لتسع وثلاثين من الإخوة الميتين، ومعهم المعلم، ولم يجادل فيه من تبقى من الفرسان: لقد أمر بيرنار دى تمبلى مجموعة من فرسان الهيكل بحراسة الشق من الخارج، ويمنعوا المسيحيين الآخرين من الدخول. أما السبب الذى جعله يفعل ذلك، فهذه مسألة أخرى؛ إذ لم يستطع الناجون أو لم يشاءوا شرح ذلك، أما هو فلم يمكن سؤاله باعتباره قد مات. فقال خيار الناس إن فرسان الهيكل كانوا يرغبون فى أن ينالوا شرف فتح المدينة؛ وقال آخرون كثيرون إنهم طمعوا فى أن ينالوا نصيب القادم الأول من الغنيمة. وأيا كان السبب، كان من المكن فتح المدينة قبل ذلك بثلاثة أسابيع لو أن فرسان الهيكل تصرفوا بقدر أقل من الاندفاع.

واتخذت قصص الفساد في الهزيمة عند دمشق انحناءً في النهاية، يعبر تعبيراً صادقًا عن الفكاهة المتهكمة لدى الجنود الذين يشغرون أن قادتهم خانوهم: إذ قيل إن النقود التي يقال إن المسلمين دفعوها اتضح أن جميعها مقلدة زائفة. ولم تخفف مثل هذه النكتة من الشعور في عسقلان: إذ اعتبر دى تمبلي وإخوته أنانيين وحمقى عديمي الشرف.

وانتهى شهر العسل بين فرسان الهيكل ويقية المسيحيين منذ وقت طويل. لقد توصل إلى هذه النقطة بعض الناس منذ وقت طويل قبل غيرهم؛ أما الآن فإن جميع من هم خارج الجماعة قاموا بتقييمها في الممارسة، وأصبح كل ما فعله الإخوة مفتوحا على رأيين. واستمرت المكاسب والخسائر مثل ما يحدث في لعبة الشطرنج، ذلك أن أمير دمشق المسلم تأثر من فتح عسقلان، وبدأ يدفع لبولدوين إتاوة سنوية. ولكن بالنسبة لأهل دمشق العاديين، فإن التحالف شيء، ودفع الإتاوة شيء آخر، وفي عام 1804 انفتحت أبواب دمشق أمام نور الدين. فحقق حلم أبيه حتى دون أن يضطر إلى القتال، وفاز بلؤلؤة الصحراء.

في نفس الوقت كان هناك صراع على السلطة يدور بين المسلمين في القاهرة: إذ قتل الخليفة أحد رجال البلاط يدعى [نصر] غير أنه فشل في الاستيلاء على العرش وفر إلى صحراء سيناء. وكان يهدف إلى القيام بدورة كبيرة جنوب أراضى الفرنجة نحو اللجوء في دمشق؛ ولكن في أثناء مروره بجانب مونريال على بعد سبعين ميلاً جنوب البحر الميت، وقع في كمين لفرسان الهيكل وأسروه، فعبر على الفور عن رغبة قوية في أن يصبح مسيحيا، فأخنوا يعلمونه العقيدة لمدة أربعة أيام؛ ثم وصلت سفارة من أخوات الخليفة الميت في القاهرة، تعرض فدية ستين ألف دينار للقاتل، فسلمه فرسان الهيكل على الفور وأخنوا المال؛ وأعيد مقيدا بالسادسل، إلى القاهرة، حيث مثلت به أرامل الخليفة الأربع قبل شنقه.

وتلقف منتقبو فرسان الهيكل هذه الحادثة. لقد أرسل بنادم كافر ونفس أخرى من نفوس الرب، إلى حتفه لمجرد المال. وعقدت المقارنات بين فرسان الهيكل ويهوذا الأسخريوطي. ولكن كالمعتاد، كان هناك تفسير آخر؛ لم يكن قبول نصر المسيحية أكثر من طريقة لإنقاذ حياته، والمال أكثر فائدة القتال من أجل مملكة الله على الأرض؛ من إضافة معتنق جديد أمره ملتبس.

وعلى وجه التقريب تم تطبيق الحجة نفسها على مناسبة أخرى في العام التالي فقط. إذ كان رينولد دى شاتيون يجرب نفسه مرة أخرى في أنطاكيا. إذ تم التفاضى عن نقطة فنية في زواج كونسستانس ورينولد: وهي أن أنطاكيا تدين بالولاء إلى الإمبراطور البيزنطى، وكان على كونستانس أن تطلب الإذن من الإمبراطور كما طلبت من الملك. وهي لم تفعل ذلك، فشعر بالإهانة. كما كان قلقا من أن الأمير الجديد قد يحاول تحرير أنطاكيا من بيزنطة، ولكي يستبق ذلك وضع عرضاً غير عادى، يمكن الاعتراف برينولد، على الرغم من زواجه غير السليم، أميرا على أنطاكيا إذا وافق على القتال من أجل الإمبراطور ضد الأرمن. وإذا ما نجع في قتاله، فإن الإمبراطور يعد بمكافأة مائية أيضاً.

ورينولد، بالطبع، قبل الصنفقة، – مال، وقتال، ودعم إمبراطورى؛ لم يكن فى وسنعه مقاومة ذلك. وكسب معاركه ضد الأرمن، وطالب بما وعد به من مال. غير أن المال لم يكن جاهزا؛ ذلك أن الإمبراطور كان يريد المزيد من الانتصبارات أولا. لكن رينولد كان في استطاعته لعب هذه اللغبة أيضنًا، فقدم البلاد التي فتحها لفرسان الهيكل. وقبل الإخوة العرض، واحتلوا الإسكندرونا وأعادوا بناء القلعتين التوأمين جاستون، وبغراس، اللتان أطلتا على بوابات سوريا. ولم تمنعهم سمعة رينولد.

غير أنه لا بد من توازن في الصورة: وكان من أسهل ما يكون في تلك الفترة من الزمان، لصورة مشوهة أن تتكون. إذ يجب تذكر أن الأحداث التي سبق ذكرها، كانت أحداثا استثنائية، ومعالم تمثل في عقول الناس في مواجهة واجبات الجماعة العادية المالوفة المتمثلة في القيام بدور الشرطة في الطرق الكبيرة وحماية الحجاج. كما كانت هناك معالم وأحداث مهمة، من نوع أكثر شرفا؛ وإليك مثالين، من أعمال في أنطاكيا والقدس، لقد وصف أندرى دى مونبار الحدث الأول في رسالة مؤثرة من الضراعة إلى المعلم في ذلك الوقت [إفرار] بعد أن عاد إلى فرنسا، ولكن قبل تقاعده عن الجماعة.

"منذ أن حرمنا من وجودك الغالى، رزئنا بأن خسرنا، في معركة، أمير أنطاكيا (ريمون، الذي وضعت جمجمته في الفضة)، وجميع نبلائه. وثمة حادثة أخرى تلت هذه الحادثة الأولى: لقد غزا البرثيون مقاطعة أنطاكيا، ولما لم يجرؤ أحد على مقاومتهم حصنوا المكان ووضعوا حامية. ... وما إن سمعنا بالكارثة، اجتمعنا مع ملك القدس، وحزمنا أمرنا بالذهاب لمساعدة المقاطعة المنكوية. ولم نتمكن من أعداد أكثر من مائة وعشرين فارسا وألف من الخدم، والمرتزقة، ولكي نزود المرتزقة بالمعدات، اضطررنا إلى اقتراض سبعة آلاف من البيسانت في عكا وألف في القدس. ... وما إن وصلنا وحصرونا داخل أسوار المدينة.

"لم يكن وجودك ضروريا إلى هذا الحد بالنسبة لإخوتك كما هو الآن؛ ومهما تفعل بنا العناية الإلهية، لا تتردد في البدء في رحلة العودة. ونحن نعلم أن الله يمكنه بكل سهولة أن ينقذنا من أعدائنا كما يمكنه تحويل الوثني إلى متعبد حقيقي، ونحن نضع فيه كل ثقتنا. ولكن لا يدهشنك العدد القليل من الإخوة الذي نرسله إليك؛ فنحن بناء على أمرك نود أن نجمع ونحتفظ هنا بجميع رجالنا الموجودين على جانبكم من البحر؛ لأن غالبية من جلبناهم لمساعدة أنطاكيا قد ماتوا ... أن وضعنا من الصعوبة حتى إننا لا نملك الألوان كي نرسمه، أو الكلمات التعبير عنه".

لم يكن هذا النداء البائس صيحة جبان؛ ذلك أن مونبار وأخوته كانوا قد بذلوا ما يستطيعون وكتب وهو يترقع بكل أمل في أن دى بار، كمعلم سوف يفي بما أقسم عليه. كونه لم يفعل ذلك، وترك الجماعة تنضم إلى السيسترسيانيين (جماعة تأملية لاهوتية) في كليرفو، يبين المحنة التي تقدمها دراسة فرسان الهيكل. إذ لا بد أن معاصريهم واجهوا نفس المشكلة، ولا يملك أحد أن يندد بفرسان الهيكل أو يثثى عليهم بالكامل.

فإذا كانوا بوصفهم أفراداً أن جماعة قصروا في الوفاء بمثلهم وما أقسموه من إيمان، فإنهم كانوا عادة أكثر إخلاصاً لهدفهم المتحد من أي مجموعة من العسكريين، لقد تحدث عنهم القديس بيرنار باعتبارهم مزدوجي التسليح؛ ويمكن النظر إليهم بالمثل باعتبارهم مزدوجي العب، إذ يحاولون إلى الأبد عمل توازن بين أخلاق الدير مع السياسة العملية البرجمانية، وليس مما يبعث على الدهشة أنهم لم يكونوا دائما على مستوى مثلهم؛ بل المثير الدهشة هو أنهم كثيرا بل عامة ما لقتربوا من تلك المثل.

أما الحدث في القدس، وهو صنورة أخرى للشرف، فوقع في عام ١١٥٢، حين كان تمبلي معلماً . إذ كان هو والملك بولدوين كل منهما بقواته يقومان بحملة ناجحة إلى حد ما ضند نور الدين، كان دى تمبلي في نبلس، وبولدوين في طريلس، وبذلك كانت القدس دون قائديها الرئيسنيين، وحين علم المسلمون ذلك، تقدموا بسرعة

نحو المدينة، ونصبوا المعسكر عند جبل الزيتون. وكانوا ينوون شن هجوم مباغت، ولكن أمكن رؤيتهم؛ وتنبه فرسان الهيكل الذين بقوا في القدس، فهاجموا المسلمين هم ومعهم الفرسان الإسبتاليون، ودهماء من المدنيين تحت جنح الظلام. وتحول اتجاء المفاجأة كلية؛ وتنبه جيش المسلمين من غفلته، وانكسر، وفر، وتشتت كي يقع في الفخ على ضفاف الأردن. وتقول الأنباء إن خمسة الاف ماتوا، سواء قتلوا أو غرقوا في النهر.

وبعد ذلك الهجوم، الذى تم صده وتحويله إلى انتصار قرر بوادوين أن يحاول الهجوم على عسقلان، وهناك دى تمبلى لقى حتفه، وانتخب أندرى دى مونبار، عم القديس بيرنار معلما للهيكل – وهو أعظم شرف حققه في حياته، وأثقل المسئوليات. لكن لم يكن لديه ما يكفى من الوقت كى يستمتع بهذا التكريم أو يتحمل المسئولية: إذ مات بعد ذلك بأقل من ثلاث سنوات، في ١٧ يناير ١١٥٦، آخر المجموعة الأصلية المكونة من ثمانية أو تسعة.

وكان المعلم السادس للهيكل هو بيرتراند دى بلانكفورت، وهو عضو من عائلة بلانكفورت من بوردو. وكان معلما لمدة ثلاث عشرة سنة، غير أنه لم يكن قادرا على إدارة الجماعة لمدة عامين من هذه المدة - ذلك أنه في ١٩ يونيه ١٩٥٧، أسر في المعركة، واقتيد مقيدا بالسلاسل إلى دمشق. حدث ذلك خارج بنياس. إذ كان نور الدين، وهو الآن حاكم دمشق الذي يثق في نفسه قد خرج مرة أخرى،؛ وحوصرت بنياس. وهب لنجدتها بوادوين ويلانكفورت ولكن بسرعة أكثر مما ينبغي، لأنهما لم يتوفر لديهما الوقت كي يقوما قوة المسلمين. وقال ابن القلانيسي.

"حين اقترب الفرنجة خرج رجالنا عليهم من الخلف كالأسود حين يهجمون على فريستهم، وأعملوا فيهم الذبح، وتلا ذلك الأسر والنهب، وفر قليل من الفرنجة، وفي الاثنين التالى، وصل الأسرى ورءوس من قتلوا إلى دمشق.... وكان من بين الأسرى بلانكفورت وسبع وثمانون من إخوته – وأعفى هو على الأقل من النهاية الشنيعة". كان

الأسرى من المسلمين تصيبهم قطع الرءوس أو سلخها، وقتل ما يقرب من ثلاثمائة من فرسان الهيكل الآخرين في المعركة،

"وتم عرض الأسرى ومعداتهم ونخبة من الغيل، حول المدينة، وأحدث المنظر قرحا عظيما ... وخرج جمع كبير من المواطنين، شيبا وشبابا، ونساء وأطفالا كى يشاهدوا النصر المجيد الذى منحه الله" وكان من بين مبادئ فرسان الهيكل عدم التقهقر ما لم يكن من أمامهم ما يزيد على ثلاثة إلى واحد. مات ثلاثمائة وتم أسر ثمان وثمانين كادت الجماعة أن تتحطم، ولكن في العام التالي أنقذ من نجوا شرف جماعتهم فيما كان بالفعل مباراة عودة؛ وفي هذه المرة هزم الثلاثون المتبقون قوة من مائتين من المسلمين.

وكان رينواد دى شاتيون، قاطع الطريق في أنطاكيا هو أيضا مشغولا، ولكن في مهام أنانية بحتة. فبأموال سلبها من البطريارك المعذب اغتصب جزيرة قبرص. لا توجد كلمة أخرى تعبر عما فعله: إذ لم يكن لتصرفه من دافع سوى الطمع، واشتهاء ما هو دون دفاع وجميل. إذ إن الجزيرة كانت مسالمة وتعيش في رفاهية، وتنعم بحكم أبن أخ الإمبراطور البيزنطي – وهي قرابة كانت لتكفى كي تثير روح الانتقام عند رينواد. فدمرت المحاصيل، وسرقت الماشية؛ وقتل الشيوخ والأطفال؛ ونهبت الكنائس والمحال والمنازل وأحرقت،؛ واختطفت النساء إلى أنطاكيا، وسبجن الرجال من أجل تقاضى الفدية في المستقبل، وتم إرسال القساوسة إلى بيزنطة – بعد أن جدعت أنف كل واحد منهم.

وقد ساند جميع تصرفات إيمانه الأكيد بأن أحدا لن يفعل شيئا إزامها. إذ حاول بولدوين في وقت متأخر جدا أن يحذر أهل قبرص من الهجوم؛ وبعد أن انتهى لم يكن في وسعه فعل الكثير، لأن قيمة رينولد كانت أكبر مما ينبغي، ولكن جزئيا كي يبين رأيه في هذا الأمر، تزوج من ابنة أخ الإمبراطور؛ وقلل رينولد من شأن الإمبراطور. وكما فعل أبو أمانيويل، جون زينوس في عام ١١٣٨، دخل أمانيول أنطاكيا عام ١١٥٨، وأذل رينولد إذلالا تامًا. ذلك أن الجيش الإمبراطوري كان كبيرا جدا، حتى أن

رينواد لم يستطع المقاومة. واقتيد حافى القدمين إلى خيمة الإمبراطور؛ وجثا أمامها في التراب، وقال وبليام الصورى "وأخذ يبكى ويصيح طويلا حتى اشمأز الجميع". يقال إن التماسيح تفعل الشيء نفسه، وكان في وسع أمانيويل كإمبراطور خلع رينواد. والسبب الرئيسي الذي منعه من فعل ذلك هو أن الأمر كان بالغ التعقيد. ذلك أن أنطاكيا كدولة تابعة خاضعة كانت تضيف مكانة معينة لإمبراطوريته؛ وكمسئولية مباشرة، كان من المكن أن تستنفذ ماله ورجاله. وكان هو سياسيًا حتى النفاع، ودائما على استعداد لموازنة الطفاء مع الأعداء إذا كان هذا يساعد على تحقيق هدفه؛ لذا، فبعد قبول احترامات رينواد، عقد هدنة – مع نور الدين.

استشاط الفرنجة في الأراضى المقدسة غضبا؛ لكن الهدنة كان لها تبعة طيبة بالنسبة لهم، إذ تم فك أسر ستة آلاف من الأسرى المسيحيين من سجون المسلمين، بما فيهم بيرتراند دى بلانكفورت. وإذا لم يتعلم أحد من الخمسة آلاف وتسعمائة وتسعة وتسعين من الأسرى الآخرين شيئا من المسلمين، في زمن الأسر، فإن بيرتراند قد تعلم، وسرعان ما استخدم ما تعلمه.

أما رينولد دى شاتيون، الذى لم يشعر بالندم قط، فاستمر فى أعمال التخريب والنهب حيثما استطاع؛ غير أن قيمته كرصيد تضاطت طبقا لذلك، لذا ففى عام ١٦٦٠ دخل فى إغارات كثيرة لم يتقدم أحد لمساعدته. فلما تضخم من فرط الثقة بالذات، هاجم أخا نور الدين، فأحيط به، وأسر وسجن، - ليس لمدة عامين، كما حدث مع بلانكفورت، وإنما لمدة خمس عشرة سنة. وكان أحد آخر أعماله قبل ذلك، التأكيد على بيع ممثلكات لفرسان الهيكل؛ لكنهم، شأنهم شأن غيرهم سعدوا برؤيته برحل.

بالنسبة للفرسان المقدسين، كان السلام بعيد المنال كما كان دائما، ولا يمكن تحقيقه إلا بحد السيف. وكانت الحرب دائما مصاحبة لهم، وكانت الحياة البسيطة على الأرض مخطورة عليهم بسبب ما يتسمون به من مزيج السياسة والعقيدة. ولم يكن السبب فقط عدوهم المباشر، المسلمون؛ بل أن الأحداث في أوربا البعيدة كانت لا تُزال

تؤثر فيهم تأثيراً عميقًا. ففي عام ١٩٥٢ تم تتويج فريدريك باربروسا إمبراطورا على الألمان، والانشقاق البابوي عاود الظهور من جديد. ودعم فريدريك مرشحا يسمى أوكتافيان، أما فرسان الهيكل فرشحوا آخر يسمى إليكساندر. وفاز إليكساندر وفي عام ١٩٦٢ أعاد إصدار وثيقة الهبة العليا وقوى من ما بها من امتيازات غير عادية، إلى حد ضرب ضريبة على الكرسى المقدس والكنيسة بأكملها دعما للجماعة. غير أن ينابيع أوربا كانت آخذة في الجفاف؛ ومات الكثير من الفرسان في الأراضى المقدسة، وأخذ عدد المجندين يقل. وكان الاستشهاد يفقد جاذبيته. ولم تعد الجماعتان بقادرتين على الأمل فيما يكفي من المساعدة لكل منهما. وأحدثت المنافسات أثرها البالغ في كل اتجاه: بين البابا وباربروسا، وفرسان الهيكل والإسبتاليين، والبطريارك والملك، وكنيسة الشرق والغرب. بل إن الجماعتين العسكريتين التقيتا في معارك مفتوحة، كل منها تحرس ممتلكاتها ومكانتها بكل حمية.

ومع ذلك، كان هناك جانب أكثر خفة؛ إذ كان فرسان الهيكل والإسبتاليون موحدين في مقتهم لبطريارك القدس، وبلغ الاثنان حدا كوميديا لإظهار هذه الكراهية. ورأى ويليام الصورى أن سلوكهما يثير الصدمة، ولكن حتى هو لم يتمكن من إزالة هذا العبث. ويصف كيف بنى الإسبتاليون أبراجا في مواجهة كنيسة الضريح المقدس، أبراجا أعلى وأكثر عظمة من أبراج الكنيسة التي قدستها دماء سيدنا ومخلصنا". وتحتوى على أجراس مرتفعة جدا.

"حين كان البطريارك يرغب في الحديث إلى الناس ويصعد المنبر كان الإخوة على الفود يدقون أجراسهم بنشاط كبير ولدة طويلة حتى أن البطريارك تعوزه القوة كي يرفع صوته بالقدر الكافي لذا على الرغم من جميع جهوده، لم يكن الناس يستطيعون سماعه"، وبينما كان البطريارك يحاول الوعظ، والأجراس تدى من حوله، كان هناك طرق مستمر على الباب أيضاً لأن فرسان الهيكل كانوا يستخدمونه للتدريب على الرماية.

مثل هذه اللحظات كنانت مطلوبة من أن لأضر لكسس إيقناع الصبراع الرهب والتوبِّن، لأن فرسان الهيكل كانوا بشريين، على الرغم من مثلهم التي تفوق البشر، وتبين القصة نقصاً بشريًا أخر: ألا وهو التكبر، الذي أصبح بدرجات غير محسوسة حزءًا من طريقتهم في الحياة، والذي أصبح فجأة باديا الجميم عام ١١٦٨، لقد كانت زوجة الملك بولدوين، تيودورا أبنة أخ الإمبراطور البيزنطي تبلغ الثالثة عشرة من عمرها فقط حين تزوجت. وفي عام ١١٦٢ حين كان عمرها ست عشرة سنة، أمسحت أرملة، لأن بولدوين الثالث مات في ١٠ فيراير، قتلته العلاجات التي قدمها له طبيبه. ولم ينجب الزوج والزوجة أطفالا، وانتقل عرش القدس إلى الأخ الأصفر ليولدوين، أمالريك. حيننذ اعترف الفرنجة والمسلمون على حد سواء بأن مصر هي مفتاح السلطة في الأراضي المقدسة: ومن شأن أمتلاك الفرنجة لها شق قوة المسلمين الجغرافية إلى الأبد، ومن شنأن توحدها مم خليفة بغداد السني أن يحيط بالفرنجة بشكل قاتل. ولم يكن أمالريك بالشخص الجبان؛ وفي ١١٦٣ و ١١٦٧ قام بشن هجمات على مصر، واندحر هذان الهجومان. أما الهجوم الثاني فقد حسم بمساعدة مفيدة للجانبين، وكان من المكن أن تستقر الأمور لبضعة سنوات على الأقل. لكن إغراء مصر، وأرض النيل الخصبة، وما بالبلاد من موارد طبيعية، وأهمية مصر الاستراتيجية، كل هذه الأشياء كانت أكبر من أن تقاوم. وفي عام ١١٦٨ اقترح أمااريك القيام بهجوم ثالث؛ ورفض فرسان الهيكل تقديم دعمهم.

القصل السادس

المسلم العربى المثالي

مصر والأراضى المقدسة، ١١٦٩–١١٨٧ سأجعل صبيانا رؤساء لهم، وأطفالا يتسلطون عليهم أشعياء، الإصحاح الثالث، الآية ٤.

لقد كان غزو أمالريك لمصر في عام ١١٦٨ يتناقض تناقضاً مباشراً مع المعاهدة التي عقدها في العام السابق، وحين رفض فرسان الهيكل مصاحبت، استفاد منتقدوهم وأعداؤهم فائدة كبيرة من ذلك. وقال البعض إنهم يشعرون بالفيرة لأن المشروع منشأه معلم الإسبتاليين. واستشاط أخرون غضبًا، من أن الجماعة، التي أسست الدفاع عن الأراضي المقدسة لا يعينون ملكها، وشكوا من أن فرسان الهيكل في استقلالهم إنما يسقطون فريسة التكبر. وأجاب دي بالانكفورت، المعلم بأنه هو وإخوته – والملك – ملتزمون بالمعاهدة. وجاء الرد القوى بأن معاهدة مع الكفار ليست ملزمة؛ ورد الفرسان باقتباس القديس يرميا الذي قال، "لا يهم لمن، بل بمن نقسم".

خيانة هي أم تصرف شريف: تتوقف الإجابة على وجهة نظر الشخص، فتوماس فوار، وهو مؤرخ إنجليزي حين كان يكتب في القرن السابع عشر، وصف هذا الأمر وقال، تحين يكون تاج هو جائزة اللعبة، لا يجب أن نتوقع من اللاعبين أن يلعبوا بشرف". ولكن ويليام الصوري، وهو عمومًا أحد أشد منتقدى فرسان الهيكل، أقر

بانهم تصرفوا بشرف. فمن المؤكد أن أمالريك كان غادرا، ولم يستفد أحد من خيانته سوى المسلمين. إذ دحر الهجوم الإفرنجى، عن طريق قبوات مشتركة مصرية وسورية، فنصب الخليفة المصرى المعروف بالرشيق كبير الضباط السوريين وزيرا له. وتوفى الوزير الجديد بعد ذلك بعامين، وحل محله ابن أخيه، وهو شاب مسلم مغمور، يجعله إحساسه بالشرف والدين المسيحيين يشعر بالخجل، اسم هذا الشاب هو صلاح الدين.

مع مقدم عام ١١٦٩، لم يعد فتح المسيحيين القدس، الذي تم منذ سبعين سنة، سببًا ليهجة المسيحيين، بل كان مجرد حقيقة تاريخية. ذلك أن سبعين سنة؛ وثلاثة أجيال؛ تعد وقتًا كافيًا جدا لإخماد نشوة تلك الأيام الأولى وتحويلها إلى شيء أكثر من مجرد ذكري خاملة، إذ إن كل من اشتركوا في المعارك والمغامرات في بداية القرن كانوا قد شبعوا موتا. وبالنسبة للناس في أوربا كانت الأراضي المقدسة مسيحية وهذا هو كل ما في الأمر. إذ كانت كذلك منذ زمن أجادهم، ومن المحتمل أن تظل كذلك؛ فهي في نهاية الأمر، مدينة الرب، وهم عبدة الله الوحينون المقيقيون. بل إن الصدمة التي حدثت حين سقطت أديسا تأكلت - جزئيا لأن الناس لم يكونوا بريدون التحدث عن الحرب الصليبية الثانية التي تمت بسوء تدبير وعيوب في التصرف؛ وجزئيا لأنهم تقبلوا الأمر الواقع، ما دامت المدينة المقدسة نفسيها أمنة؛ ولكن في الأغلب لأن الأوربيين، المُشغلين بمشاكلهم، كانت هذه كلها أمورا بعيدة جدًّا عنهم. وبالنسبة الكثيرين من الفرنجة في الأراضي المقدسة أيضًا، فقد الطم القديم بريقه. فالقدس الذهبية قد صنعت من حجارة وطوب ووحل مثلها مثل أي مدينة أخرى. من المؤكد أنها مقدسة، وسوف يدافعون عنها من أجل ذاك - لكن ما هو أهم من ذلك، أنها وطنهم. ذلك أن آلاف المسيحيين من أصول إفرنجية ممن يعيشون في الأراضي المقدسة لم يروا أوربا قط؛ وإن يروها أبدا؛ ولم يرغبوا في ذلك بشكل خاص، فهي أيضنًا بعيدة جدا، وباردة ومظلمة ومبتلة، ولديهم الصعوبات الخاصة بهم وهي كبيرة مثل تلك التي يواجهها أي شخص في أوربا، لأنهم لم يستمتعوا بإثارة الفتح، وإنما يواجهون المشكلة اليومية المتعلقة بحماية منازلهم في أرض غير صديقة.

من بعض النواحى، واجه هؤلاء الناس، أحفاد الصليبيين الأول، أشق صعوبات واجهها أى إفرنجى فى الشرق. ذلك أنهم حين كانوا يقاتلون، لم يكن ذلك من أجل مجد كنيسة روما، وليس بالضرورة من أجل مملكة الله على الأرض؛ وإنما كان قتالهم من أجل المكان الوحيد الذى عرفوه كوملن لهم.

أما القدس كحلم بعيد فيمكن بسهولة أن تكون لها هالة من القداسة. أما كمكان يعيشون فيه، من يوم إلى يوم، ومن سنة إلى سنة، فقد احتفظت بقداستها فقط لدى أولئك الملتزمين بالله، وهم رجال الدين، ورجال الجماعات العسكرية. فبالنسبة لهم أسماء الأماكن في الأناجيل حقائق حية، وحين يقرء ون في كل يوم في كتبهم المقدسة أسماء البلدان، والأنهار والجبال والوديان التي كانوا يرونها حولهم، كانت الحياة لها معنى، وهدف يعلو على مدار الحياة اليومية، لقد رأت عينا المسيح نفس المناظر؛ ومست قدماه نفس التربة. بالنسبة لأناس مثل هؤلاء، يمكن أن تكون الحياة في أرض الكتاب المقدس مصدر قوة وإلهام.

وكان لدى فرسان الهيكل مصدر آخر للقوة: الاستقرار والنظام. إذ كانت حياتهم منظمة تنظيمًا صارمًا بالانضباط الثنائي الذي يتحلى به الرهبان والمحاربون؛ فكل لحظة من لحظات اليوم تحتوى على واجب يسألون عنه أمام الآخرين.

فى الصيف، يبدأ اليوم فى حياة فارس الهيكل من الرابعة صباحاً . أما فى الشتاء، فيبدأ فى السادسة، ولكن عدا ذلك، فإن التنويع فى الطعام والملبس والمراسيم الكنسية طبقا للموسم، وكل يوم يسير إلى حد كبير هكذا: بدقة من جرس، يوقظ أحد الأعضاء الآخرين: لكى يرتدوا ملابسهم، عليهم فقط أن يضعوا أرديتهم البيضاء، أو البنية أو السوداء فوق الملابس الداخلية التى كانوا ينامون بها . ولا يتوقع منهم الاغتسال، ولا يتناولون طعام الإفطار. ويذهبون مباشرة من عنابرهم إلى الكنيسة الخاصة لأداء الصلوات المباحية وهى صلاة السادسة والتاسعة وصلاة منتصف الصباح ومنتصف النهار – كلها فى نفس الوقت معا . وهكذا يتم تركيز الواجبات الدينية معا ! فهم باعتبارهم رهبانًا، لا يمكنهم إهمال الصلوات، ولكن باعتبار أن

عليهم واجب العناية بأجسادهم بالإضافة إلى أرواحهم لا يمكن أن يكونوا دائما في الكنيسة. لذا فهم بعد القداس، يتغرقون القيام بمهامهم المختلفة؛ إذ إن مهمة الفارس هي العناية بجياده وسالاحه ودروعه لإصلاح أي خطأ، ثم يستسرون في تدريبهم الستمر، مستخدمين أسلحتهم المعروفة – الرماح ذات الرءوس المديدية، والسيف والخنجر والدرع، والدبوس. أول وجبة في اليوم تكون في وقت مسَّاهُر من الصباح، أو عند الظهيرة؛ ويُأكل الفرسان والرقباء أولا، ويليهم الخدم من الإخوة. وأخيرا بأكل المرتزقة. وكل شخص يحضر معه إلى المائدة وعاءه، وفنجانه وملعقته وسكينه؛ ومعلم الدير وحده أو القائد هو الذي يشرب من كوب، تشريفا له، وكاحتراس لترقى السم. وكان الفرسان يجلسون على مقاعد طويلة خشبية أمام مائدة طويلة خشبية، ولا يتكلمون في أثناء تناول الوجبة؛ والصوت الوحيد الذي يسمع هو صوت أخ كاهن يقرأ في الكتاب المقدس، وتطلب الطلبات بالإشارة؛ وإذا شاء الفرسان، فيمكنهم استبدال الخدم بطعامهم، ولكنهم لا يشجعون على الامتناع عن الطعام كلية. ذلك أنهم يجب أن يكرنوا لائقين دائما للقتال، لأن الصبيحة القتال يمكن أن تأتى في أية لحظة. عدا ذلك، لا يوجد سنوى ظرف واحد يمكن للأخ أن يترك المائدة فيه دون إذن، ذلك الظرف هو إذا ما نزفت أنفه. إنه استثناء غريب؛ ولا بد أن ذلك كان حدثًا شائعًا حتى يكتب في الميثاق.

هناك استثناءات عجيبة أخرى أيضًا، إذ كان يجب على الإخوة أن يكونوا فى الكنيسة بعد الظهيرة لسماع صلوات المساء، التى تجمع معا كما حدث فى الصباح. لكن البعض كان يسمع لهم بألا يحضروا: الأغ الخياز، "إذا كانت يده فى العجين" والأخ الحداد "إذا كان يقوم بتسخين حديد على النار" وأى أخ من حملة الدروع "إذا كان يعنى بحدوات الخيل، والحوافر" وأى أخ يقوم بغسل شعره. ولكن جميع الإخوة على يعنى بحدوات الخيل، والحوافر" وأى أخ يقوم بغسل شعره. ولكن جميع الإخوة عليهم ترنم أبونا، سواء على إيقاع مطرقة أو خرير الماء المستنع. وعلى كل أخ أن يترنم بأبانا مائة وثمان وأربعين مرة يوميا، – أربع عشرة مرة فى كل ساعة، وثمان عشرة مرة المناوات المساء، وثلاثين مرة من أجل الأحياء وثلاثين مرة من أجل الأموات. لا بد أن العد السليم كان يشكل صعوبة.

وكان التكرار تقريبا مستمرا؛ ولكن "حتى إذا أصبح آليا، فإنه يكون بمثابة خلفية مهدئة تأملية لجميع أفكارهم وأفعالهم". وكانوا يأكلون مرة أخرى في المساء؛ وإذا ما قدم لهم اللحم، كما كان يحدث ثلاث مرات في الأسبوع، يكون هناك نوعان أو ثلاثة أنواع بالإضافة إلى النبيذ والماء للشرب؛ ثم ينتهى اليوم كما بدأ، بالصلاة معا ومباركة عامة.

إذن، كان هذا هو طقسهم اليومي المرسوم، ولو كان هذا هو كل شيء، لما اختلف كثيرا عن أي نظام هادئ مسالم لدير جيد التنظيم، مع هذا النشاط كله، – جميع النشاط الذي يتضيل المرء أنه يرتبط بالفيل والرجال الذين هم في حالة دائمة من التدريب من أجل الحرب، ومع عمل جماعة بدائية إلى حد ما ومقيدة – فإن الجو الذي يميز أي دار لفرسان الهيكل كان يمكن أن يكون جوا هادئا، غير أن هذا الهدوء في الحركة الدائبة لم يأت صدفة؛ مل كان ثمرة إدارة جيدة التنظيم واعية التحديد.

لقد كان جميع الإضوة يدربون على التصرف بلياقة ورحمة طوال الوقت مع بعضاً، كما يليق بخدمة المسيح. فيجب تحاشى الضحك بصوت مرتفع؛ ويكون الحوار في أضيق الحدود، ويتم بصوت منخفض. ومع ذلك، في مواجهة المثال الناعم الرقيق، كانت هناك مادة خاصة بعدم ضرب الخدم المتطوعين بالجماعة من جانب الفرسان، وهي تشي بقدر من الحرية في مفهوم الفرسان للرقة.

منذ البداية، كانت إدارة الجماعة إدارة إقطاعية، ولا بد أنها في أول الأمر كانت مرنة – أي أنها كانت فضفاضة، ولكنها لم تكن أبدا تسير كيفما اتفق ومع ذلك، حتى قبل وفاة الجيل الأول من الإخوة، تم التضبييق إلى حد كبير؛ وعلى الرغم من النقص النسبي في الأدلة المباشرة، فإن الأدلة الداخلية السجلات المختلفة تعطى صورة بشكل ما عن بيرقراطية فرسان الهيكل، من الجلي الواضح أنها كانت تنظيما بيرقراطيا. ذلك أن كل شيء في إمبراطورية فرسان الهيكل كان مركزا في القدس بشكل صارم؛ وكل شيء في هيكل القدس مركز وقائم على المعلم، على الأقل نظريا، إن

لم يكن في المارسة الفعلية. من الواضع أنه سيكون من العسير على رجل واحد مراجعة حسابات كل دار من دور فرسان الهيكل، على سبيل المثال، من إيراندا إلى الوتلجردين (القسم الجنوبي الشرقي من مملكة القدس) ومن البرتفال إلى المجر؛ غير أنه قمة هرم له قاعدة واسعة والبناء الاتحادي بأكمله يتطلع إليه. وفي وسعه، إن شاء، التفتيش على أي جزء من أي تنظيمات محلية؛ وبنفس الطريقة، لو أن أيا من الإخوة، مهما كان تواضع مكانته لديه شكوى أو شعر بأنه عومل بظلم في مستوى محلى، يمكن لذلك الأخ أن يقدم قضيته أمام المعلم نفسه.

من المناسب بالنسبة لجماعة تتخذ الطاعة فيها مكانا بارزا، أن تعاقب التعديات على الميثاق عقابا صارما، لكن هذا يبدو غير منحاز. إذ كان يتم سماع القضايا وإصدار الأحكام في الاجتماع الأسبوعي؛ أما الاجتماع العام فكان أكثر عظمة وأقل تكرارا، يجتمع فيه الأعضاء الأقوياء في الجماعة لمناقشة السياسة الداخلية والخارجية، ومع أن الاجتماعات الأسبوعية المنتظمة كانت أكثر تواضعا فإنه لم تكن ترتب بشكل أقل التزاما بالرسميات.

وكانت عادة ما تتم يوم الأحد، إما في الكنيسة أو في القاعة الرئيسية في الدار، وكانت تنعقد في كل دار يسكنه أربعة أو أكثر من الإخوة. وكان جميع الإخوة، خدما ورقباء، وفرسانًا يشاركون. وعند دخولهم الاجتماع، كانوا يركعون أمام المذبح، ويرتلون أبانا الذي، ويخلعون قبعاتهم قبل الجلوس – من اللباد الأحمر أو الأبيض – القلانس الضيقة. (عند هذه النقطة يعطى الميثاق تفصيلا فاتنا بأن الإخوة الصلع يسمح لهم بالإبقاء على قلانسهم الضيقة) ثم يبدأ المعلم، أو القائد أو الأخ الأكبر الحاضر الإجراءات بموعظة مليئة بالنصائح الأخلاقية والروحية؛ ثم يفتح المجال للاعترافات. ولم تكن هذه الاعترافات تتعلق بإساءة تصرف روحي، تتطلب تطهيرا يقوم به أحد الكهنة وإنما تتعلق بخروقات النظام والانضباط. مع ذلك فإن نوعي الاعتراف قريبا الصلة حتى أن الكثير من الإخوة، خاصة ذوى العقول الأكثر بسلطة، أخفقوا في فهم الفرق – وهو تقصير في الفهم يشاركهم فيه الكثير من خارج الجماعة، في فهم الفرق – وهو تقصير في الفهم يشاركهم فيه الكثير من خارج الجماعة،

مما سوف يتسبب في الكثير من الضرر في المستقبل، وكانت الاعترافات الطوعية يتم التعامل معها بقدر أكبر من الليونة من تلك التي تأتي بناء على اتهامات؛ وفي حين كان في وسع أي أخ أن يبرز إلى العلن خطأ أخ آخر، فأنه إذا ما اتضع أن الاتهام خاطئ أو بدوافع سيئة، فإن مقدم الاتهام يطلب منه الاعتذار علنا ويقدم نفسه لعدالة الدار. وبعد أن يقر بخطئه، يجب عليه ترك الاجتماع، في حين تتم مناقشة قضيته سرا. وبعد ذلك بالعديد من السنوات، استخدمت هذه السرية، مثلها مثل البلبلة المتعلقة بالاعتراف والعفو والتطهير سلاحا لاتهام وتوبيخ الجماعة كلها، لكن الغرض الأصلى منها كان بسيطا ومنطقيا: إلا تأتي العقوبة من أخ بمفرده مما قد يؤدى إلى نشوء مشاعر سيئة بين الإخوة، وإنما من الجماعة ككل.

من المهم بشكل خامس على ضوء الاتهامات التي استخدمت للقضاء على الجماعة، فحص الأفعال التي كان الإخرة أنفسهم يعدونها جرائم. ففي الجانب الأدني من السلم كانت هناك مخالفات مثل فقد أو تدمير أي شيء يخص الجماعة. ومن بين المخالفات النموذجية المسجلة في هذا القسم ضبياع مطرقة في أحد الأنهار، من جانب أحد الإخوة ألقى بها على أحد الطيور، أو كسر صينية مليئة بالأكواب من جانب أخ أخر، بعد أن يكون قد أسقط كوبا، فألقى بالصينية كلها بسبب الغضب، فكانت الأخطاء العارضة أو الصغيرة مثل ثلك، تستتبع عقويات تختلف وتتراوح من صبيام يوم في الأسبوع على الخبرُ والماء لمدة عام إلى الحرق على الظهر العاري، إلى الندم بالحط من المكانة لمدة عام، يفقد فيه الأخ حقه في ارتداء ثوبه الذي يميزه، ويجبر على أن يأكل الطعام من الأرض مع الكلاب – ولا يسمح له بمطاردتها، وهذه الفئة من المخالفة كانت غامضة، وتتوقف على ما يمكن أن يحدث من أسبوع لأخر؛ إذ لم يكن في وسع الإخوة في الاجتماع أن يبحثوا عن العقاب المناسب في كتاب من الكتب، وإنما كان عليهم استخدام ما الديهم من حصافة. ذلك أن الجرائم الخطيرة هي التي كانت مدونة، وكانت لها عقربات معروفة مجددة. هناك عشر مخالفات تستحق الطرد من الجماعة، هي المتاجرة في المناصب الدينية، والسرقة، واللواط، والابتداع والتأمر وقتل مسيحي، والضيانة! وإفشاء أسرار الاجتماع، والتقهقر أمام أقل من ثلاثة من الأعداء، ومغادرة الدار بأية وسيلة غير البوابات. وأى أخ يثبت أنه متهم بأى من هذه المخالفات يطلب منه المثول أمام الجمع بأكمله، ولا يرتدى سوى سرواله وحزام حول رقبته. عندنذ يجلا بعصا درس الحبوب أو بحزامه ويعطى الإذن بانقإذ نفسه – وهذا معناه أن يلقى به في الخارج، ويجبر على الانضمام إلى جماعة أخرى أكثر شدة. إلا أنه لا يمكنه الانضمام إلى الإسبقاليين، – إذ اتفقوا وهم فرسان الهيكل في وقت مبكر على ألا يقبلوا الإضوة المطرودين من أيهما. وكل مضالفة من هذه المضالفات تعرض الأمن الداخلي والخارجي للجماعة للخطر؛ لهذا فإن العقوبة عليها شديدة – حتى يرى العالم كله تطهير السلوك المشين من صفوف الهيكل. ومع ذلك، فعلى الرغم من أن فرسان الهيكل أنفسهم لا يتسامحون مع مثل هذه الأشياء، فإن الاتهامات بخمسة من هذه الجرائم المحددة، وهي المتاجرة بالمناصب الدينية، واللواط والابتداع والتأمر والخيانة، الجرائم المحددة، وهي المتاجرة بالمناصب الدينية، واللواط والابتداع والتأمر والخيانة،

في واقع الأمر، فإن هذه الأحداث، بالطبع، كانت نادرة الوقوع؛ فاللواط على سبيل المثال، لم يسجل سبي مرة واحدة في تاريخ الجماعة الذي امتد لمائتي سنة. وكانت أعمال الاجتماع الأسبوعي تجرى عادة حول أمور تافهة. ثم تنتهي الإجراءات بمباركة وداعية من الأخ الأكبر بين الحضور يذكر فيها الأخرين بأن السلوك الذي لم يتم الاعتراف به لم يتم العفو عنه. أما بالنسبة للباقي "فإني أعطيكم كل ما يمكنني من عضو، باسم الله، وسيدتنا، والقديس بطرس، والقديس بولس، ولكم أنتم الذين منحتموني السلطة".

لكن المعلم الأخير، جاك دى مولى، قد غير ذلك؛ فكانت اجتماعاته تنتهى بكلمات اغفر لكم الأخطاء التى لم تعترفوا بها من خلال خجل الجسد، أو خوفا من عدالة الدار". وعلى الرغم من سلامة القصد فى هذا الفرق، فإنه كان عميقا، ومن الممكن أن الإخوة فى جيله فسروا ذلك بأنه يعنى جميع الخطايا، وليس مجرد الضروج على الانضباط، وشعروا بالتخفف، والأفعال التى كانوا ينفرون منها كانت عندئذ شائعة.

ولكن في الأزمنة الأولى، وفي معظم تاريخ الجماعة، كان الميثاق هو الميثاق على قسوته، وتجب طاعته. لقد كانت هذه الصرامة ومعها الإلهام الروحي الذي وجده الإخوة فيما يحيط بهم، هو ما أعطى فرسان الهيكل ذلك الإحساس بالهدف، والاستقرار. حتى كبار السن، والمرضى والجرحي كانوا قادرين على الاحتفاظ بهذه الراحة، وكانوا يلقون عناية خاصة؛ ويعتني بهم بأكبر قدر من الرقة، والحكمة، وكان ضحايا ذلك المرض الأكثر فظاعة، الجذام، يضطرون إلى ترك الجماعة والانضمام إلى مجموعة خاصة، جماعة القديس لأزاروس، وأكن حتى هم كانوا يعاملوا بكل رحمة، – ومما يدل على أكبر قدر من الاستنارة – أن الجماعة كانت يتعامل مع المصابين بالصرع ليس كأناس تلبستهم الشياطين، وإنما كمرضى يمكن التحكم في مرضهم.

باستثناء الإسبتاليين، لم يكن لدى أحد فيما وراء البحر الأمن والاتجاه النابع عن حياة جيدة التنظيم. إذ لم يعد الأشخاص العاديون من الفرنجة تلك الطموحات الفريدة التى وحدت أباهم، أو تلك الأهداف البسيطة؛ لقد تحققت هذه، وبدلا منها كان هناك الغيرة والمنافسة، والعداوات والتحالفات التى تسم أية مجموعة مفككة، أما فرسان الهيكل، الذين كانوا يعتزون بتنظيمهم ويثقون به، ويزدرون الحياة الدنوية التى تتناقض معهم، فقد أسهموا فى هذا التشتيت لدى غيرهم. ولكن مع ذلك فإن المسيحيين فى الأراضى المقدسة لم يتحملوا التفكك؛ إذ إن آباءهم استفادوا من انقسامات المسلمين، ولكن لم يكن هناك مطلقا أى فتح حقيقى الشرق. ومع أنه قد تم الاستيلاء على مدن وقلاع لم يتم تأمين شيء تأمينًا حقيقيًا؛ وكانت سلامة المسيحيين تعتمد على ضعف المسلمين أكثر من اعتمادها على قوة المسيحيين.

وهذا لم يدم. فعاجلا أو آجلا، كان لا بد للبلاد الإسلامية التي تحيط بالفرنجة أن تتحد. لقد قال دى بلانكفورت بالحس العسكرى الثاقب الذى جعل معلمي فرسان الهيكل يتحدثون كالأنبياء، ذات مرة إن أخشى ما يخشاه أن "يقوم أمير مسلم بمفرده بإعادة توحيد أقوى مملكتين إسلاميتين، القاهرة ودمشق، ويمحو اسم مسيحى". ذلك

أن الفرنجة اعتمدوا لعقود على العداء المتبادل بين مصر الشيعية وسوريا السنية، وقاموا بالاعيب دبلوماسية باللول الواقعة بينهما، وهم يدركون أن مسيحيى بيزنطة وأوربا سوف يتحدون لمساعدتهم إذا كان ذلك جوهريا، وقد نجح هذا المزيج لعقود؛ واكن في الثلث الأخير من القرن الثاني عشر، دمر وزير مصر السورى الشاب هذا التوازن إلى الأبد.

كان صلاح الدين أحد أولتك الناس النادرين الذين يملكون صفات تجبر أصدةاءه وأعداءه على احترامه. وكل من التقوا به قالوا ذلك عنه: فباستثناء مواهبه كقائد كان عادلا، وكان تقيا، وكان معتدلا؛ وكان يتصف بالرحمة بصفة عامة، وجسورا مقداما، دائما ما يفى بكلمته. كانت هذه جميعا صفات المسلم الكامل، المسلم المثالى؛ كما كانت صفات مسيحية مثالية، ولكن لم يكن هناك قائد فى المعسكر المسيحى يشاركه هذه الخصال حتى بين فرسان الهيكل. وحتى إذا كان أى مسيحى قد أظهر هذه الخصال، لم يكن هذا ليفت من عزم صلاح الدين، كمسلم تقى، على استرداد القدس، والتخلص من الكفار وخاصة فرسان الهيكل الذين كان يثق بهم كأناس شرفاء، لكنه كان يكرههم كراهية عصوقة كمحاربين لدين أخر.

غير أن صلاح الدين لم يكن دائما طموحا هكذا، وعلى الرغم مما يحكى عنه من حكايات تتعلق بانتصاراته فى أثناء شبابه فى القنص، يبدو أنه كشاب كان منكبا على الدرس، متحفظا حذرا فى سلوكه، يميل إلى التمسك بالقواعد إلى حد ما، لقد ولد عام ١٩٣٧ أو ١٩٣٨ سنة ٣٣٢ هجرية - فى قلعة تكريت على ضفاف نهر ذجلة، شمال شرق بغداد، وعاش كطفل أولا فى بعلبك؛ وكان فى دمشق حين استولى عليها نور الدين عام ١٩٥٤، وبقى هناك عضوا فى البلاط لمدة تسع سنوات، ثم شن أمالريك ملك القدس فى عام ١٩٦٣ هجومه الأول على مصدر. وعبر عم صلاح الدين عن الرأى الشائع العام المتعلق بهذا البلد - إنها "بلد بلا رجال، وبها حكومة بغيضة غير الشائع العام المتعلق بهذا البلد - إنها "بلد بلا رجال، وبها حكومة بغيضة غير مستقرة،" لكنها نسبيا كانت تمتلك موارد غير مصودة، وكان أمالريك ونور الدين عرفان أنها مفتاح القوة. فهاجمها نور الدين فى السنة التالية على أمالريك؛ ورد

أمالريك بهجوم أخر عام ١٩٦٧؛ فكان الدخول الأسطورى لصلاح الدين في التاريخ الإسلامي الإفرنجي. ذلك أنه في قيادته المستقلة الأولى، صعد لحصار دام خمسًا وسبعين يوما في الإسكندرية، تحيط به قوات مشتركة إفرنجية مصرية، إلى أن أنقذه جيش سورى. وبينما كان رجاله يجلون، وقع رهينة في معسكر أمالريك؛ ويقال إنه هناك قدمت له فروسية مسيحية.

ولا بوجد دليل مؤكد على هذه القصبة، ولكن سواء كانت صحيحة أو لم تكن كذلك، فإنها بيئت الاحترام الذي كان يكنه له الفرنجة وفرسان الهيكل بمرور الوقت. وكانت نزاهته الكاملة أحد أسباب هذا الاحترام؛ إذ لم يضرق معاهدة أبدا، ومثل هذا السلوك كان في النول اللاتينية الإقطاعية هو المعيار من الناحية النظرية؛ أما من الناحية العملية فلم يسمم أحد عن هذا السلوك. بل كان القاعدة التي كان الجميم حتى فرسان الهيكل يكسرونها؛ وككل شيء أخر، كان انعدام الثقة هو ما تسبب في سقوط دول ما وراء البحر: لقد مات بيرتران دي بلانكفورت في ٢ يناير عام ١١٦٩، وكان فيليب دي ميلي من نباس هو خليفته، وهو نبيل من أصول إفرنجية، لكنه مواود في البلد المقدسة: وكان أول معلم من أهل فلسطين. وكان في حياته الدنيوية سيدا قويا يستحوز على مقاطعتي اولتريجوردين، التي تضم قلعة الكرك القوية ومونريال، وقد اختاره فرسان الهيكل بسبب مكانته الدنيوية، إذ لم تكن له قط أية مهنة دينية – ودخل الجماعة في ١٣ أغسطس عام ١١٦٩ وصبار معلما في خلال أسبوع. ويقيادته حقق فرسبان الهيكل نصرا واحدا له أهميته: ففي ديسمبر عام ١٩٧٠، حين كان صلاح الدين يختبر قوته الجديدة في مصدر، عبر الحدود وحاصر حصن دارون، المعقل الإفرنجي في أقصى الجنوب، على ساحل المتوسط. لقد كانت قلعة ضعيفة، وعلى وشك التسليم حين أنقذها أمالريك وفرسان الهيكل. وكانت الجماعة في حاجة إلى انتصار كهذا، لأن سلوكهم في ما يتعلق بمصر كان لا يزال يثير المرارة، وفي أرمينيا نحو الشمال كان مرتد من فرسان الهٰيكل يقود غارات من المسلمين على أراضي الفرنجة. إلا أن دي ميلي لم يبق طويلا: إذ استقال بعد انتخابه بأقل من عامين، من منصب المعلم وأصبح سفين أمالريك الدائم إلى القسطنطينية، ومن بين السببين الذين ذكرهما عند استقالته هناك سبب مقنع: إذ شعر أنه يستطيع خدمة الأراضي المقدسة بشكل أفضل في دوره الجديد. أما السبب الآخر الذي ساقه فلا يوجد أحد من فرسان الهيكل يمكنه تخيله: وهو الفتور، إذ جف فيضان الدعم من أوربا إلى أن صار قطرات.

في عام ١١٧٠ دهمت الأراضي المقدسة سلسلة من الزلازل المدمرة التي قلبت مدنا وقلاعًا لا يقدر إنسان على تدميرها، وتروى لنا مدونات بيزا في عام ١١٧٧ أن نحو سنة آلاف رجل ماتوا. وتوقع الذين يميلون إلى قراءة مثل هذه الأشياء كنذر أن كارثة توشك أن تقع، ولكن لم تكن هناك أية نتيجة واضحة على ذلك سوى الانتخاب العرضي لمعلم جديد الهرسان الهيكل. أو أن المتنبئين، نظروا أبعد قليلا، لكان من المكن أن يبدو هذا الانتخاب كارثيا بالقدر الكافي.

كان اسم المعلم الثامن هو أودو دى سان أمان. وكان يحتل مراتب فى البلاط، كمرشال القدس، وحامل كأس الملك، ولكن على الرغم من هذا، أظهر نفسه كمعلم بأنه أحد فرسان الهيكل المخلصين ولا شيء غير ذلك، يدافع عن حقوق الجماعة ضد أي دخيل. وقد شغى ويليام الصوري من ضعفه المؤقت وانفمس في الهجوم بكامل قوته: وقال إن سان أمان "كان رجلاً يمتلئ غضبا وهو لا يخشى الله، ولا يحترم الانسان." ومما يبرر انحياز ويليام الهائل، أن أفعال سان أمان بدا أنها توضح ذلك. إذ إنه لم يتنازل أمام بطريارك أو ملك، ولكنه التزم بشكل صارم بالمعنى الصرفي المطلق لامتيازات فرسان الهيكل. وقد كان هذا من الناحية الفنية اتجاهاً لا غبار عليه؛ أما من الناحية الفنية اتجاهاً لا غبار عليه؛ أما من الناحية الفنية اتجاهاً لا غبار عليه؛ أما من الناحية المعلية فإن المساومة تجعل الأمور أكثر يسرا، ذلك أن فرسان الهيكل فازوا بحقوقهم عن طريق الدبلوماسية؛ وبدا أن الإصرار على هذه الحقوق ضرب من العجرفة.

لم يحدث صدام مباشر حتى عام ١١٧٢، لكنه حيننذ جاء مصحوبا بالانتقام. إذ جات سفارة إلى الملك أمالريك من الحشاشين – دون الناس جميعا. فهؤلاء الشيعة المتشددون أزعجهم نهوض صلاح الدين في مصدر، إذ إنه، على الرغم من أن هذه

البلاد كان يحكمها الخليفة الشيعى اسميا، فإن صلاح الدين نفسه كان سنيا، وكان يقبض على زمام السلطة الحقيقية باعتباره وزيرًا. لذا سعى الحشاشون إلى عقد تحالف مع أمالريك، الشيعة والمسيحيون ضد السنة؛ وأشار السفراء إلى أنه إذا ما نجح هذا التحالف، فإن الرجل العجوز ورجاله في الجبل سوف يدينون بالمسيحية. ولم يكن هذا محتملا أو واردا، غير أن أمالريك لم يعبأ بذلك؛ فالحشاشون سوف يكونون حلفاء أقوياء. ولم ينصوا سوى على شرط واحد: أن ترفع أموال مفروضة على بعض من أراضيهم من جانب فرسان الهيكل، وهذا ثمن لا يذكر؛ لذا وافق أمالريك، ووعد فرسان الهيكل بأنه سوف يعوضهم عن الخسارة، وعندها اكتشف أن سمعة عدم الوغاء بالوعود يمكن أن تكون عائقا خطيرا.

بينما كان سفراء الحشاشين عائدين إلى قلعتهم في الجبل، قلعة الموت – وكر النسر، – نصب واحد من الفرسان منفردا لهم كمينا وقتلهم، بأسلوب يليق بهم. كل ما يعرف عن القاتل أن اسمه وولتر دى ميسنيل، بعين واحدة، ولا يعرف هل أوبو دى سان أمان هو من أمر بالقتل أم لا، ولكن بما أنه قد تم، فقد ساند وولتر على الفور. فاستشاط أمالريك غضبا، وطلب أن نتم محاكمة وولتر كمجرم عادى؛ فرفض سان أمان تسليمه، وأشار، كما فعل كثيرا من قبل، أن الجماعة مسئولة فقط أمام البابا، الذى يمكن أن يحكم في القضية، – إذا بلغت أصاد هذا الحد، وفي ما يتعلق بفرسان الهيكل، فإن وعد أمالريك بأن يرد لهم ما يخسرونه من مال مجرد كلام في الهواء؛ إذ فرسان الهيكل يفضلون المال المجمد وليس التحالف الملتبس الغامض.

عند غنر أمالريك الثالث لمصر، أظهر الإخوة أنهم لن يقاتلوا رغم إرادتهم؛ وبقتلهم للسغراء، تدخلوا تدخلا مباشرا في حكم أمالريك، لذا كف الملك عن الكلام، وركب إلى صيدة علي رأس مجموعة من الجنود، حيث كان وولتر يوضع في أمان مفترض، واندفع داخلا دار فرسان الهيكل، وقبض شخصيا على الفارس ذي العين الواحدة، وتم حمل وولتر إلى السجن، ولم يسمع أحد عنه أي شيء بعد ذلك.

ومع ذلك، فإن التحالف المقترح بين الفرنجة والحشاشين لم يصل إلى شيء، وأصر فرسان الهيكل على إتاوتهم. إذ إنهم كانوا يتجاهلون الملك متى شاءوا، ويتبعون ما يرونه هم. فأخذ غضب أمالريك يتزايد، وحين سلم اثنا عشر من فرسان الهيكل حصنًا لا يمكن الدفاع عنه، المسلمين في معركة صغيرة عام ١١٧٤، "ربطهم الملك على الفور" – أي أنه شنقهم، وحاول أن يفعل المزيد: وبدأ مع ويليام الصوري وضع رسالة إلى البابا، مفصلا شكاواه، ومطالبا بحل الجماعة. غير أن الرسالة لم يتم إرسالها أبدا، بل ولم تتم، لأنه في ١ يولية ١١٧٤، أنهى أمالريك حياته التي تدفق فيها الدم، أو بعبارة أكثر ركاكة، مزيج من التيفود والدوزينتاريا.

وقبل ذلك بأقل من شهرين، كان الموت قد اختطف نور الدين من المسلمين؛ وكان السبب احتقانًا في الحنجرة؛ وبعد أمالريك بشهرين مات خليفة القاهرة الشيعي. وكان السلطان السوري الجديد صبيا في الحادية عشرة؛ وكان ملك القدس الجديد في الثالثة عشرة؛ وكان ملك مصر الجديد هو صلاح الدين، البالغ من العمر سبعًا وثلاثين سنة والراغب في النجاح.

لقد أعاد صلاح الدين مصر إلى العظيرة السنية المحافظة، بسهولة وهدوء، دونما أية معارضة من الشعب المصرى. أما من الناحية السياسية لم يكن الأمر سهلا بالنسبة له في مصر، وفي عام ١١٧٥ وافق على عقد هدنة من عامين مع القدس في حين قام بتنظيم مملكته الجديدة. وعلى الرغم من أن الفرنجة كانوا من الممكن أن يهاجموا أن استطاعوا، فإنهم اعتبروا أنفسهم محظوظين بالهدنة لأن ملكهم، البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة، بولدوين الرابع، لم يكن صغيرا فحسب وإنما كان مصابا بالجذام، هكذا، على أي حال، تقول الروايات المعاصرة له. لقد كان بولدوين الرابع مريضاً مريضاً مميناً، هذا أمر لا شك فيه، ولم يلاحظ أحد مرضه إلى أن كان في نحو العاشرة، حين كان معلمه ويليام الصوري، الأستف والمؤرخ يراقبه وهو يلعب مع أصدقائه، وكان الصبية يجربون التحمل بنشب أظافرهم في أذرع بعضهم بعضاً؛

يستطع الشعور بالألم، فأطلقوا عليه جذامًا؛ ولكن لم يكن مسموحا لأى أحد، حتى وريث العرش، بالحياة العادية إذا كان مجذوما. يقول فوار "لقد كان الجذام المسمى داء الفيل، وهو مؤذ للمريض، لكنه غير معد لأصحابه" — ومع ذلك، فهو مميت؛ وحول الأراضى المقدسة، كان صلاح الدين يصنع عقدة مميتة أيضا. ذلك أن دمشق فتحت له أبوابها في نوفمبر ١٩٧٤، وحسب ما قاله فوار، "كانت القدس مملكة فقيرة هزمها الطقس، فهي كئيبة موحشة منكشفة أمام عواصف الأعداء من كل جانب، ليس لها من غطاء أو حماية من صديق طيب بالقرب منها، ترقد في فم الأسد بين فكه الأعلى وفكه الأسفل؛ دمشق في الشمال، ومصر في الجنوب؛ مملكتان تركيتان قويتان، متحدتان تحث لواء أمير قوي، هو صلاح الدين. أما أمراؤنا الغربيون فهم كرماء بشفقتهم، لكنهم مقترون في مساعدتهم. ذلك أن حرارة الحرب في فلسطين جعلت رغبتهم في الذهاب إلى هناك تبرد".

ومع ذلك، لم تخضع جميع الدول الإسلامية بهذه السهولة لمصر وساعد الفرنجة تلك الدول التي لم تخضع كل ما أمكن ذلك، وكانت حلب واحدة من هذه الدول، إذ أنقذها جيش من الفرنجة من الحصار الذي فرضه صلاح الدين في أوائل فبراير عام ١١٧٥، وكانت حلب بالفعل تحتجز عددا كبيرا من السجناء المسيحيين في معارك سابقة؛ فحين رفع الحصار، أفرج الحلبيون عنهم جميعا عرفانا بمعروف متقنيهم. من بين المفرج عنهم كان ذلك البارون اللص النموذجي رينولد دي شاتيون – وكان أكبر سنا، لكنه لم يكن أكثر حكمة ولو بأقل قدر، ولم يكن غاضبا بأي حال بسبب الخمس عشرة سنة التي قضاها في السجن. والآن انقلبت طاولات المرب انقلابا كاملا؛ لدي السلمين والفرنجة، إذ تبددت أرواح أجدداهم مثل رمال الصحراء، والفكرة القديمة التي قادت المسيحيين إلى القدس – فوضي المسلمين في مواجهة مملكة المسيحيين – انقلبت انقلابا تاما. وانفلق فكا الأسد ببطء حول الملكة المقدسة، وفي داخل الملكة المتحرث المنافسات كانتشار المرض في جسد بوادوين. فكان الملك والملكة يقتل بعضهم بعضا.

لقد كانت منافسات تلك السنين الإحدى عشرة، [١١٧٥ – ١١٨٦]، معقدة كأى تراجيديا مسرحية. ومثل ما يحدث في تلك الحبكة، تكشفت مستويات الحبكة مرحلة مرحلة، وتفاعلت معا حتى وصلت إلى الكارثة.

وكانت الشخصيات الرئيسية الأولى هي رينوالد دي شاتيون، وريمون الطريلسي، وفرسان الهيكل، والإسبتاليين، ويولدوين الملك المجذوم، فيما أن بولدوين كان صغيرا، فهو في حاجة إلى وصبى على العرش إلى أن يبلغ السن المناسبة وهي السادسة عشرة؛ وكان وصبي العرش هو ريمون الطريلسي. ويدعم من أبناء بلده من البارونات، والإسبتاليين حاول إقامة علاقات سلمية مع المسلمين حولهم؛ ذلك أن الاستمرار في الحرب كان يشكل عبثًا تُقيلا على المسيحيين، غير أن فرسان الهيكل ورينولد كانوا ملتزمين بالحرب – فرسان الهيكل بدورهم كفرسان للرب، ورينولد بما لديه من افتراض سابق بسلطته كأمير، وما يتسم به من عقلية قطاع الطرق. إذ أنه حين أفرج عنه من السجن، وجد نفسه معدمًا بلا أرض، وأمير حرب بلا عمل، لأن إقطاعيته في أنطاكيا قد سلمت في غيابه لابن زوجته، وزوجته كونستانس قد توفيت. أذلك، ما إن أطلق صراحه حتى تزوج وريثة اولتريجوردين ونصب نفسه لوردا على قلعتي الكرك وموذريال، - اللتان كانتا في إحدى المرات من ممتلكات فيليب دي ميلي، المعلم السابع للهيكل، وما زالتًا، من أهم المناطق من الناحية الاستراتيجية، باعتبارهما الدفاع الشرقي الجنوبي عن الملكة المقدسة. لكن المسافة بين أوريا وبلاد ما وراء البحر -التي كانت في وقت من الأوقات منطقة جذب للمظلومين والمعدمين كما كانت قداسة الحروب الصليبية بالنسبة للتقاة أصبحت صديقا لا يؤتمن بالنسبة للجيل الجديد من الفرنجة في الأراضي المقدسة، وإذا كان هناك رعب في الخروج لغزو أرض أجنبية، فهناك الإثارة أيضًا، وهناك إمكانية أمام الفقراء والأغنياء في أن يجدوا حياة جديدة أفضل على وجه الأرض. غير أن هذه الإثارة وهذه الإمكانية لهما وجود محدود. وعندما استنفدت الأرض، لم تعد هناك أية مقاطعات كي يكسيها أحد، أو ممالك يوجدها أحد؛ وليس في وسم الفقير سوى استبدال سيد بآخر. وحينما يجب أن يتحول العدوان إلى دفاع، يتبخر ما في الحرب من إثارة؛ ولا يتبقى سوى الرعب، بل أكثر من ذاك، فإن أولئك الذين استمروا في الخروج من أوربا في أواخر القرن الثاني عشر، يملؤهم ما يملؤهم من مزيج من التقوى والغرور والطمع، وجدوا في الشرق أناسا يعرفونهم بالكاد كأقارب. لقد كانت هناك روابط اللغة، وقشرة سطحية من الثقافة المشتركة؛ وغير ذلك لا يوجد الكثير، ذلك أن الغربيين جاء اليبحثون عن عالم يعلم:

فرنجة الشرق أنه غير موجود. ولم يستطع تقاة أوربا أن يفهموا أنك ببساطة كى تبقى على قيد الحياة، لا بد من عقد معاهدات مع الكفار؛ وبالمثل خاب رجاء الأملين والجشعين حين أدركوا أنهم استدعوا كى يدافعوا عن أراضى غيرهم فحسب، دون أن يحصلوا على أية مكافأة مادية لأنفسهم. لذا قلت التعزيزات القادمة من الغرب، كما أن تلك الأعداد القليلة التى كانت تأتى وهى تجهل حساسية الوضع السياسى، كل هؤلاء كل لأسبابه حب الله أو حب النهب انضموا إلى المزيج الحربي الخطير المكون من رينولد وفرسان الهيكل.

لقد تفاقم التعارض بين المعسكرين المسحيين، الذين كان أحدهما ينشد السلام، والأخر متشدد بلا تنازل، تفاقم هذا التعارض بسبب خصومات شخصية. ذلك أن زوجة رينولد كانت متزوجة من قبل وقد قتل زوجها الأول، وكانت مقتنعة بأن اللوم يقع على الوصى على العرش، ريمون الطربلسي. كما كان ناظر أراضي الهيكل جيرار دي ريدفور يحمل لريمون ضغينة شخصية. ذلك أنه قد جاء إلى الشرق كفارس عادى مع الحرب الصليبية الثانية، والحق نفسه ببلاط ريمون، ووعده ريمون بتزويجه من أول وريثة مؤهلة لكن الأولى اتضع أنها مؤهلة أكثر مما ينبغي – كان اسمها لوتشيا من بوترن، وحين عرض تاجر إيطالي على ريمون وزن الفتاة ذهبا للزواج منها كان من المناسب لريمون أن ينسي الوعد، فانضم جيرار إلى فرسان الهيكل تعبيرا عن الأشمئزاز، دون أن ينسي غضبه وخيبة أمله أو يتحدث عنهما. وبدأ سرا وفي صمت يخطط للانتقام.

ولكن على الرغم من الانشقاق في الدولة في القدس، بدا أن الأمور تسير سيراً حسنا في البداية. ففي عام ١١٧٧، بلغ بوادوين المجذوم السادسة عشرة، واعتبر بالفا. وتنحى ريمون عن الوصاية على العرش؛ وتولى بوادوين السلطة الكاملة، وسرعان ما أظهر أنه عوض عن أية إعاقة بمجرد الحماس. وانتهت الهدنة مع مصر؛ فواجه الملك المعوق على الفور تقريبا غزوة حين عبر صلاح الدين وجيشه الحدود الساحلية للبحر المتوسط. فكتل سان أمان جميع فرسان الهيكل في غزة إذ بدا أن هذا هو الهدف الواضح؛ لكن صلاح الدين تخطاه بالكامل، واندفع شمالا، فانطلق بولدوين لمواجهته بما لا يزيد على خمسمائة فارس. والتقبا في عسقلان، حيث طوق الجيش لمصرى الكبير القوة الإفرنجية واحتجزها عاجزة في البلدة. ثم ترك صلاح الدين بولدوين والخمسمائة فارس محاطين، وتوغل شمالا. وفجأة اتضح هدفه الحقيقي: القدس نفسها، المفتوحة التي لا يوجد من يدافع عنها.

وبدا أن كل ما يحتاج العرب المسلمون قعله هو مجرد الدخول والاستيلاء واكن عندئذ أظهر بولدوين ما يمكنه فعله: فاستدعى سان أمان من غزة بشجاعة اليائس، واندفع برجاله الخمس مائة خلال خطوط العدو وتواعد مع فرسان الهيكل وركب متجها شمالا بأقصى سرعة وأحاط بصلاح الدين. أما العرب المسلمون، فبسبب الثقة المفرطة خفقوا من درجة الانضباط، وفي ٢٥ نوفمبر، كانوا يعبرون واد ضيق، في مكان يسمى مونتجيسارد لا يبعد عن شمال غرب القدس سوى خمس وأربعين ميلا حين هاجم بولدوين، وهو يقترب دون أن يراه أحد مطلقا على غير توقع من الشمال. كمان هناك ست وعمضرون من الفرسان العرب المسلمين، وبضع ممنات من المسيحيين؛ ولكن تم التخلص من المسلمين، وقتل معظمهم؛ أما صلاح الدين نفسه فقد هرب فقط، لأنه كان يركب ناقة سباق. وركب الملك الشاب، ويده مضمضة، في مقدمة الهجوم المسيحي – وإلى جانبه القديس جورج، كما قال الناس، والصليب الحقيقي يلمع كالشمس. وسواء كان ذلك صحيحا أم لم يكن كذلك، فقد كان نصرا لا يكاد يلمع كالشمس. وسواء كان ذلك صحيحا أم لم يكن كذلك، فقد كان نصرا لا يكاد

مثل هذا الجيش المسلم الكبير عن طريق مثل هذه القوة الصغيرة، وعلى المدى الطويل لم يفعل أكثر من منع الهزيمة النهائية. بمزيد من العون من الغرب، ربما سارت الأمور سيرا مختلفا. وكان لدى الفرنجة بعض المبرر للأمل في الدعم، ذلك أنه في ذلك العام نفسه اتفق هنرى الثاني ملك إنجلترا ولويس السابع ملك فرنسا على القيام بحرب صليبية معا، وأرسل البابا بمبعوث للبحث عن بريستر جون؛ ولكن سرعان ما تخلى لويس وهنرى عن الفكرة، وعلى الرغم من أن مبعوث البابا بلغ الحبشة، لم يتم العثور على بريستر جون،

فى زمن مضى كان هناك مجال لحب الاستطلاع، والاهتمام بل والصداقة، بين الفرنجة والمسلمين. فقبل ذلك بجيل، نشأت مثل هذه الصداقة بين فرسان الهيكل وأحد الدبلوماسيين المسلمين، هو الأمير أسامة الشيرازى: لقد كان يعيش بشكل رئيسى فى القاهرة ودمشق، غير أنه قام برحالات متكررة فى الجزء الأول من القرن إلى القدس، يراقب ويلاحظ طريقة الفرنجة فى الحياة باهتمام تجاهل معه السياسة. وكان يمقت العلاج الطبى الإفرنجى؛ ويعجب بنظام العدالة الذى أسسه الملك أمالريك؛ وأدهشه ما يتسم به الأزواج والزوجات الفرنجة من قلة الغيرة الزوجية؛ وكان يحب فرسان الهيكل ويحترمهم.

كتب أسامة، "حين كنت في القدس كنت أذهب إلى المسجد الأقصى (قبة الصخرة)، وبجانبه مكان للعبادة حوله الفرنجة إلى كنيسة. وكلما دخلت المسجد، الذي كان في يدى فرسان الهيكل الذين كانوا أصدقائي، كانوا يضبعون المكان تحت تصرفي، حتى أتمكن من الصلاة هناك. وذات يوم دخلت وقلت الله أكبر، ونهضت كي أبدأ صلاتي، حين ألقى أحد الفرنجة نفسه على من الخلف، ورفعني وأدارني حتى صرت أواجه الشرق. وقال "هذه هي طريقة الصلاة." وتدخل بعض الفرنجة على الفور، وأمسكوا بالرجل، وأبعدوه عن طريقي. ولكن في اللحظة التي توقفوا فيها عن مراقبته أمسك بي مرة أخرى وأجبرني على أن أتوجه شرقا، مكررا قوله إن هذه هي طريقة الصلاة." ومرة أخرى تدخل فرسان الهيكل وأبعدوه. واعتذروا لي قائلين: "إنه أجنبي

وصل اليوم، ولم ير قط أحدا يصلى ويوجه وجهه إلى جهة غير الشرق". فقلت "لقد انتهيت من صلاتى" وغادرت المكان وأنا مذهول من هذا المتعصب". مع الجيل الثانى، كان المسيحيون القادمون من الغرب أجانب بالنسبة للغرنجة والمسلمين على حد سواء؛ ولكن مع الجيل الثالث، لم يعد لدى أحد وقت للتسامع. إذ أصبحت الحرب بالنسبة للمسلمين تحت قيادة صلاح الدين جهادا وحربا مقدسة؛ أما بالنسبة للفرنجة فقد أصبحت قتالا يوميا من أجل البقاء.

على أي حال، لقد صناحوا قائلين، الذئب مرات كشيرة؛ و"الأجانب" الذين احتقروهم في وقت من الأوقات توقفوا عن المجيء، مع أن الحاجة إليهم كانت أكبر من ذي قبل.

ومهما كان ما قاله المنتقدون الفريبون عن فرسان الهبكل، فقد حافظوا على مماهداتهم مم المسلمين. حتى إذا كانت هذه الثقة الآن صعبة. فعلى ضفاف نهر الأردن، عند نقطة العبور حيث صارع يعقوب الملاك، شرعوا في بناء قلعة. وكانت في منتصف منطقة لا يملكها أحد حيث كان التحصين مستبعدا بنص المعاهدة؛ فقال سان أمان، الذي كان لا يزال متمسكا بالميثاق، إن المعاهدة بين صلاح الدين وبولدوين، لذا يمكن لفرسان الهيكل أن يفعلوا ما يحلو لهم، فعرض صلاح الدين أولا على بولدوين ٦٠٠٠٠ من القطع الذهبية ثم ١٠٠٠٠٠ لوقف البناء، ولكن لم يكن ممكنًا منع فرسان الهيكل. وانضم بوادوين إلى المغالطة: وبينما كان فرسان الهيكل يقومون بالبناء، وضم دائرة دفاعية حولهم مدعيا أن البناء والدفاع عمليتان مختلفتان تماما. وبدأ البناء في أكتوبر عام ١٧٨)؛ وتم البناء في إبريل عام ١١٧٩، وسميت شاتيلي، وتم وضع حامية من ألف وخمسمائة من المرتزقة وستين من فرسان الهيكل من بينهم ناظر الأراضي. وبراجعت الدائرة أو الحلقة، وعلى الفور أقام صلاح الدين حصارا على القلعة الجديدة. وتم صده، وقضى الأسابيم القليلة التالية في شن الفارات على المنطقة؛ ثم ثار لهزيمته في ١٠ يونية، في مونتجيسارد. إذ كان الفرنجة يمرون خلال مرج عيون، في أعلى نهر الأردن – كان بولدوين (محمولا على محفة)، وريمون، وسان أمان، وفرسان الهيكل،

والجيش الملكى: كانوا جميعا موجودين، وأزعج مرورهم القطعان التى كانت ترعى في الوادى، وراقبهم صلاح الدين من نقطة مراقبة في أعلى التل. وكان هجومه مفاجأة تماما كما كان هجوم بولدوين في مونتجيسارد، كما كان نجاحه عظيما كذلك. لقد فر الملك وريمون؛ وتشتت الجيش المسيحى؛ وأسر سان أمان، وكان ذلك خطأ فرسان الهيكل. حتى هم لم ينكروا ذلك؛ لأنهم انضموا إلى المعركة مباشرة لدى رؤيتهم لجيش المسلمين، قبل أن يستعد الجيش الملكي، فجعلهم الهجوم الإسلامي المضاد يرتدون على إخوتهم من المسيحيين. طيش، تسرع، هزيمة؛ أنقذ الملك ولورد الملكة الأول بالكاد؛ وأصبح معلمهم في الأسر؛ – وأصبح فرسان الهيكل مستولين عن الكثير في مرج عون.

وبعد أن تحرك صلاح الدين جنوبا وصل مرة أخرى إلى شاستيلى، القلعة التى توجد عند منطقة عبور يعقوب. وحاصرها لمدة خمسة أيام من ٢٤ حتى ٢٩ أغسطس، مرسلا مهندسين لتقويض الجدران؛ ونجح فى هذه المرة. والجدران التى أقيمت بسرعة منذ أشهر قليلة، انهارت، وفى النهاية لم يبق شىء: لا بشر ولا حجر: إذ قتل كل من فى الحامية، وسويت القلعة بالأرض، بعد أن بدأ البناء بعشرة أشهر فحسب. وحين لا تكون هناك أية إمكانية السلام أو الثقة، يمكن لفارس من الدنيويين أسر فى أثناء القتال أن يأمل فى أن يطلق صراحه مقابل فدية. أما أحد فرسان الهيكل فلم يكونوا يتزحزحون، ولم يتوقعوا أى شىء؛ ذلك أن الفارس كان يلتزم بميثاقه، ويرفض أن يفتدى بأى شىء أكثر من حزامه وسيفه. وهذا ما حدث مع سان أمان، فمات بعد عام فى أحد سجون دمشق، ويقال إنه كان شديد الكبرياء بحيث لم يفكر فى مسألة الفدية

وسواء كان الأمر يتعلق بالكبرياء أو الفهم الحرفي الكلمة المكتوبة فلقد كان سان أمان مصدر شقاء المملكة، أما إلى أي حد كان كذلك، فيمكن معرفته والحكم عليه من التوبيخ الذي أرسله إليه البابا إليكساندر الثالث، عام ١١٧٩:

"نحن نعلم أن إخوة الهيكل تعنوا الميزات التي منصها لهم الكرسي المقدس ويفعلون أشياء كثيرة تسبب الخجل بين شعب الرب، وشرًا مستطيرًا للنفوس. ... لذا نمنعهم من استلام الكنائس والعشور من أيدى الناس العاديين دون موافقة أساقفتهم؛ وعليهم تجنب من حرموا من الكنيسة ووضعوا تحت الحظر البابوي بلا اسم؛ وفي الكنائس التي لا تخصهم، يجب أن يتركوا للأساقفة تعيين القساوسة؛ ولا يسمح لهم فصل من عينوا دون استشارة الأساقفة؛ وإذا جاءوا إلى كنيسة محظورة قانونا، يسمح لهم مرة واحدة في العام بأداء القداس هناك، وحتى في ذلك الوقت لا يسمح لهم بدفن المحظورين قانونا هناك." إنها لغة قوية ودقيقة، ولا يملك أي أحد حتى او كان مثل سان أمان أن يسيء تفسير معناها. لقد كان إليسكاندر الثالث من أقوى داعمي فرسان الهيكل؛ لذا يتضبح من كتابته هو بالذات لمثل هذا التوبيخ أنه يعتقد أن فرسان الهيكل قد تجاوزوا حقوقهم كثيرا وبشكل كبير، ومع ذلك، ففي أيام سان أمان نما الهيكل نموا لا حد له في السلطة الزمنية في الأراضي المقدسة، من حيث شراء القلام والبدء في التجول في أنحاء البلاد مع عودة ملاكها إلى الغرب، ومع ذلك شعر فرسان الهيكل أنفسهم بأنه قد حان الوقت لإجراء تغيير في السياسة؛ لأن الرجل الذي انتخبوه كي يكون معلمهم التاسع كان نقيض أمان من عدة نواح. هذا الرجل هو أرنوك دى توروج. عمره غير معروف، غير أنه كان أكبر سنا بكثير من سان أمان، لذا كان لديه الحذر والتحوط المتوقع من السن؛ ومنذ كان معلم الهيكل في إسبانيا، منذ عام ١١٦٧، لم تكن لديه أية صلة بأي من الجماعات السياسية في الأراضي المقدسة.

لقد كان هذ الاختيار جديرا بالإعجاب من عدة نواح، لأن طبيعته المعتدلة هدأت، إلى حين، الانتقادات التي كانت توجه إلى فرسان الهيكل – لكن فضيلة عمره المتقدم لم تخدمهم، وانعدام الارتباط السياسي لديه بأي جماعة أو أحد تسبب في نشوء صراع مفتوح مع الملك:

لقد دخلت منافسات تلك الفترة في الأراضي المقدسة مرحلتها الثانية عند تلك النقطة وزاد من حدثها أحداث وقعت ما وراء الحدود، من بين أعمال القديس أمان

الأخيرة قبل السجن عقد اتفاق مع معلم الإسبتاليين "أنهت طوعا ويشكل لا رجوع فيه، جميع الجدال بين الجماعتين، هنا وما وراء البحر، المتعلق بأراضينا وأموالنا، وممتلكاتنا المختلفة" - وهذا أحد أعمال القديس أمان القليلة التصالح. لكن هذا التصالح غير توازن سياسة السلطة في الأراضي المقدسة عن طريق جلب الإسبتاليين إلى جانب فرسان الهيكل؛ وبعده تماما في عام ١١٨٠، بدأ تغير مثير خارج البلار حين مات الإمبراطور مانويل زينوس، ولم يترك وريثًا سوى صبى يبلغ من العمر الحادية عشرة. وفي عام ١١٨٠ أيضاء مات بطريارك القدس؛ وحل محله هيراكليوس، أسقف قيسارية، وهو رجل أمى تقريبا غير أنه جميل المنظر إلى حد ملفت، ولم تكن سمعته طيبة. ويرجع اختياره إلى حد كبير إلى نفوذ أم الملك. وفي نفس العام تزوجت أخت الملك سيبيلا من شاب فرنسي غير معروف يدعي جي دي لوزينيان. وهو الابن الثالث لنبيل صغير في فرنسا، وسيم، يقال إنه ينحدر عن الشيطان عن طريق جنية الماء، ميلوزين، ولكن لم يكن لديه ما يميزه غير ذلك بأي حال. وبما أن الملك، في ذلك الوقت، كان يوشك على الموت، وقف كي يورث عرش القدس. ويذلك تشكلت الأحزاب، تقريباً من كونت ريمون من طرياس، الوصبي السابق على عرش بوادوين، والبارنونات من أبناء بلده من جانب، والذين كانوا ما زالوا يأملون في نوع ما من السالم؛ وعلى الجانب الآخر، كان هناك من يميلون إلى الحرب، ويتكونون من فرسان الهيكل ورينوالد دى شاتيون، ومعهم حلفاؤهم الجدد، الإسبتاليون، والبطريارك المنحل هيراكليوس والوريث الجديد الأحمق، جي دي لوزينيان. فرجحت كفة المجموعة الثانية، الجماعة الميالة للحرب؛ ولكن لو أن بيزنطة صمدت، لكان لأفعالهم وسوء تصرفاتهم قدر أقل من العواقب الوخيمة. وما وقع هو أن ست سنوات من التفاعل بين الناس والأحداث أدت إلى وقوع المأساة التي لا فكاك منها.

لقد كان الحدث الوحيد الباعث على الأمل في ذلك العام ١١٨٠ هو معاهدة سلام جديدة بين بولدوين وصلاح الدين، كان القصيد أن تدوم لمدة عامين، وكانت إحدى موادها تسمع بالمرور الحر للتجار الفرنجة والمسلمين من خلال أراضي كل منهما؛

ولكن حدث أن طريق قوافل إسلامية رئيسى إلى مكة يمر من خلال أوئتريجوردين، تحت أسوار قلعة رينوك، الكرك، ولمّ يكن من المتوقع بأى حال توقع أن رينولد يمكن أن يقاوم الإغراء المتمثل فى تلك المجموعات من الجمال المحملة بالثروات وهى تمر أمام بابه؛ فلم يستطع المقاومة، ولم يقاوم، وفي عام ١١٨١ استولى على البضائع فى قافلة بأكملها، فطلب صلاح الدين عودة البضائع أو التعويض؛ ورفض رينولد رفضا قاطعا، ولم يتمكن بولدوين المسكين من فعل أى شىء، إذ إنه كان قد صار أعمى يلزم فراشه غير قادر حتى على توقيع اسمه، وتصادف أن ألفًا وخمسمائة من الحجاج السيحيين غرقت سفينتهم على الساحل المصرى، وعلى الفور أخذهم صلاح الدين رهائن؛ وكان رينولد متصلبا، فبقيت البضائع والرهائن كل فى مكانه، ونشبت الحرب مرة أخرى.

وفي عام ١١٨٢ كان صلاح الدين يوسع إمبراطوريته فدمر شيمال سوريا؛ واقتنص رينولد الفرصة كي يقوم بإجراء عملية في حياته، وأي كان رأينا فيه فإن جسارته في حد ذاتها تجبرنا على الشعور بشيء من الإعجاب؛ لأنه حينئذ كان قد سئم الغارات البرية المحلية. فكانت القرصنة هي الشيء التالي، والقرصنة على نطاق كبير، وعلى مدى طيران الغراب، تقع الكرك على بعد مائة وعشرين ميلا شمال وشمال شرق خليج العقبة، القرن الشرقي للبحر الأحمر. ومن إيلا، الميناء الواقع شمال الخليج، إلى المدينة تستغرق الرحلة بحرا وبرا حوالي سبعمائة وخمسين ميلا؛ أما إلى مكة فهي تزيد على ألف ميل. غير أن مكة والمدينة، أقدس مدينتين في الإسلام كانتا هدف رينولد الجديد. ولقد كانت غابة موآب شرق البحر الميت، بالقرب من الكرك مرْدهرة، فقطعت الأشجار بناء على أوامر رينولد، وتم بناء خمس سفن، وجربت في البحر الميت، وفككت وحملت على الجمال، مسافة تلك الأميال المائة وعشرين إلى عيلا. وتم الاستيلاء على البلدة بسهولة؛ وتم تجميع السفن؛ وبقيت سفينتان لحصار حصن جزيرة جري، وانطلقت بقية السفن تغرق وتحرق السفن الأخرى، وتخرب وتنهب المدن، بزهو واستهتار وغرور، لم يفكر أحد من قبل في شيء كهذا؛ وكان العالم الإسلامي

غير مستعد مطلقا؛ ولدة عام تقريبا، كان أسطول رينولد سيدا في البحر الأحمر. أما رينولد نفسه، الذي كان أقرب إلى الراعي منه إلى البحار فقد بقي على الشط، في الشمال؛ أما بحارته فلا بد أنهم كانوا يعيشون أسعد أيام حياتهم، في نشاط دائب رائع من ساحل إلى ساحل. فعلى الساحل الإفريقي، نهبوا إيديب، الميناء النوبي الرئيسي، وأخنوا تجارًا مع بضائعهم القادمة من الهند وعدن. وعلى ساحل العرب، أحرقوا جميع السفن الموجودة في ميناء المدينة، ووصلوا إلى الراغب، أحد الموانئ التي تخدم مكة – وتقول بعض الأخبار العربية إنهم بلغوا عدن. لقد كانت مغامرة رائعة، ولكن لم يكن من المكن أن تدوم. إذ تشكل أسطول من المسلمين تحت أمير بحر يسمى لولو، وهذا اسم غير محتمل إلى حد ما. ولحق بالقراصنة وهم منشغلون في الهوارة، ميناء المدينة. لقد أوشك الأسطول على النجاح، مما أثار أكبر قدر من الدهشة والفزع لدى المسلمين؛ لأن الراغب تقع على بعد ما لا يزيد على خمس وستين ميلا من مكة. بل إن قليلا من القراصنة وصلوا إلى مكة – ولكن كسجناء: لأن لولو دمر سفنهم، وتم تقسيم الناجين إلى مجموعتين، أخذت إحداها إلى مكة، والمجموعة الأخرى أخذت إحداها إلى مكة، والمجموعة الأخرى أخذت إحداها إلى القاهرة؛ وفي المدينتين، ثم إعدام المجموعتين بالمراسم المناسبة.

ومن أغرب جوانب هذه الواقعة أن مدونا أفرنجيا واحدا هو الذي ذكرها أساسا. كان سكوير يدعى ايرنول ووصف الأودسا (الملحمة) القرصانية باعتبارها حملة علمية للعرفة ما كان يعيش الناس عليه في هذا البحر". أما بالنسبة للمسلمين، فكانت أكبر انتهاك للعقيدة منذ سقوط القدس، وأقسم صلاح الدين أن يقتل هو شخصيا رينولد، وتركز الكتابات الإسلامية بالطبع عن رحلة التدمير هذه على دمار السفن وحرقها، والفوضى والضراب الذي خلفه رجال رينولد. ولم يتناول المسلمون أو ايرول في تعليقه الموجز ما يبدو الآن أهم جزء في القصنة بأكملها: العمل الكبير المتمثل في تنظيم وتحمل نقل تلك السفن من البحر الميت إلى البحر الأحمر.

لا أحد يعرف طريق رينولد من الكرك إلى الساحل، ولكن توجد إمكانية واحدة في الواقع: هي الطريق الروماني القديم الذي كان يربط بين العقبة ودمشق البعيدة، والذي

كان يمر من أمام باب رينولد. حتى اليوم، ما ذالت أجزاء من هذا الطريق باقية، وتكثنف الرحلة على طولها هذا الطريق من بحر إلى بحر المنظر الحي الفاتن عبر الزمان، وتعيدنا إلى ذلك اليوم حين بدأت جمال رينولد تثبق الطريق نحو الجنوب، بالعوارض والألواح الخشبية لسفنه المربوطة على ظهورها المتأرجحة.

وبين البحر الميت وقلمة الكرك يجرى وادى الكرك، وهو واد ضيق متعرج يقطعه مجرى مائي يكبر بسرعة في نوبات الأمطار النادرة حتى يصبح نهرا. من المكن أن تكون سفن رينواد قد تم جرها إلى الشاطئ عند نقطة معينة إلى حلق الوادي وفككت هناك على الشاطئ. إن مجرد كونها فككت وجمعت يثير سؤالا عن كيفية بنائها، ولا يمكن أن تكون الإجابة عن هذا السؤال سوى مسألة تخمين؛ من المكن أن تكون على نسق تصدمهم أوربي وأمنت بأوتاد، ولكن من المكن، ريما الأكشر احت مالا أنهم استخدموا تصميما شرقيا مثل الدهو (سفينة عربية). ذلك أن رينولد كان يستغل البيئة المحيطة به أكبر استغلال، والسفن من عائلة الدفو لها ميزتان في عملية البحر الأحمر: ذلك أن أشكالها المألوفة لن تعطى أي إنذار بوقوع أي خطر، وبناها التقليدي - إذ تربط بالياف، بدلا من أن تثبت تثبيتا دائما - ربما يكون قد ساعد على حل مشكلة نقلها برا. ولكن بالنسبة لشخص أوربي، سفن الدفو ليست سهلة في التعامل معها، حتى إذا ما قورنت بسفينة تنتمي للقرن الثاني عشر؛ ويما أن تغطيس شيء في البحر الميت يستلزم جهدا وعزما فمن المكن أن فترة الاختبار كانت فترة تدريب لطواقم السفن. ولكن سواء تعلق الأمر بتدريب أو اختبار، فما إن ينتهي وتحمل السفن على الجمال، يجب أن تبدأ الرحلة الطويلة الصعبة. كما أن وادى الكرك، نقطة الانطلاق كان إحدى أصبعب المراحل: عبارة عما يقرب من عشرة أميال من طريق منصدر، يرتفع أربعة آلاف وثلاثمائة قدم عن مستوى البحر الميت، إلى القلعة نفسها. ويرتفع الطريق منحدرا من شاطئ منخرى تنتشر عليه النباتات، خلال أجراف مسننة من الحجر الرملي والجرانيت؛ ثم بعد المرور بقطعة من الأرض منغيرة ولكنها ثرية، تجد نفسك أخيراً بجانب قمتي الجبل المستديرتين من المجر الجيري. ها هي الكرك صامتة متأملة وبها شيء من الوعيد، ترتفع فوق رأسك. إن حجمها رهيب. ويرجع تاريخ المبنى إلى أوائل القرن الثاني عشر، غير أن الموقع كان به سكان منذ ١٢٠٠ ق.م. ويتحدث العهد القديم عن لعنة صبها النبي أشعياء على البلدة، ولقد شهدت الكرك الكثير من المعارك الكبرى في زمانها، سواء بسبب تلك اللعنة أو بسبب موقعها الاستراتيجي على طريق التجارة الشمالي الجنوبي. في مقاطعة أوتلجوردين الصليبية، كانت الكرك تسود بهيئتها، وتهدد، وتحمى، وتخنق؛ إذ تعلم من هم خارجها غريزة البقاء، في حين تعلم من بداخلها أن يتذوقوا الفتح وينظروا إلى ما وراء الأفق. إنها قلعة مبهرة، غير أن تركها يبعث على الشعور بالارتباح. ومن المحتمل جدا أن قراصنة رينولد شعروا بذلك الشعور، وإذا ما سلمنا بما هو غير محتمل أي أن بعضهم كان يجيد القراءة والكتابة - فإن هذا يجعل الافتقار التام إلى سجل يفصل رحلتهم الصحراوية أكثر قابلية للفهم. ذلك أنهم بعيدا عن وكر رينوك كانوا سادة أنفسهم ولم تكن الصحراء سوى عقبة صغيرة قبل البدء في مغامرتهم الكبري، كان من المكن أن يتوقعوا العودة، كي يحكوا عنها، وريما كي يكرروها؛ إذ إن الكتابة – إن كان أحد منهم يقدر عليها – لا محل لها إذا ما قورنت بالتجرية الفعلية،

لقد كان قدرهم قدرا قاسيا، إذ يتعثرون فوق الحجارة المحرقة، وربعا توقفوا قليلا عند قمة ممر رأس النقب، على بعد عشرين ميلا جنوب بترا، وحملقوا في الصخور البنية المجدبة إلى الجبال الزرقاء على المدى؛ ثم يهبطون إلى مساحات الغور الواسعة، تلك المسطحات الطينية الجافة التي تخلو تماما من المياه، التي أحرقتها الشمس فاسحالت كالصوان، وأخيرا يعبرون الرمال الصفراء في الصحراء الجنوبية. حتى هم لم يكونوا ليتجاهلوا الجبال هناك. إنها بروز عملاقة من الصخر الصلب، يبلغ ارتفاع الكثير منها ما يزيد على ألفي قدم، تحولت إلى عشرات الأشكال الرائعة بفعل عواصف القرون. رئما استراح الناس في ظلها، أو عثروا، شاكرين، على تلك البرك القليلة التي يجرى فيها الماء والتي ترقد مختفية بين تلك الأشكال.

ولكن سواء كان الفرنجة أميين أم غير أميين، فإن صمتهم الشامل بخصوص هذه الرحلة الشاقة ينبع من سبب أكثر بساطة وعمقا من أي سبب آخر: ألا وهو أنه، بعد ما يزيد على ثمانين سنة من الاحتلال المسيحي، فإن هذه الأراضيي الواقعة شرق البحر المتوسط كانت بمثابة الوطن. وكانت أخطارها ومخاطرها معروفة ومقبولة، لأنه بالنسبة للفرنجة في القرن الثاني عشر فإن الشرق اللاتيني، بحالته الريفية هذه كان كل منا يعرفونه في حياتهم أو من الممكن أن يعرفوه، ومع ذلك فإن هذه المشاق والمخاطر في الأرض لم تكن أقل واقعية؛ وبشكل ما من الخير معرفة ذلك، فرجال رينوك الرجل، مع كونهم بلا شك سفاحين، وقتلة، فإنهم كانوا طلقاء في البحر الأحمر لما يقرب من عام، قبل مقتلهم الكئيب الاحتفالي بسيوف المسلمين. وفي الوقت الذي تم فيه تدمير أسطول رينولد في صيف ١١٨٣، كان صلاح الدين سيدا على حلب. ذلك أن ملك سوريا الصبى كان قد توفى فجأة قبل ذلك بعامين، ربما مسموما، ولم يكن على صلاح الدين سوى أن يملأ الفراغ، ولم ينعم الإسلام بملك بهذا القدر من العظمة لما يربو على مائتي سنة؛ إذ امتد حكمه من ليبيا إلى عدن إلى دجلة، وهو مثلث ضخم أكبر بكثير من جميع النول الصليبية مجتمعة. أما الآن فهي لا تعنو مجرد شريط حدودي ضبيق - لكنها موجودة، وكأن وجودها يشكل وصعة عار على الإسلام. ويجب استنصالها. وكان صلاح الدين يعلم أنهم لا يمكنهم انتظار المساعدة؛ فالغرب قد سنَّم كما أنه منشغل - والحركة الأخيرة في أنماط القوة أن حكم بيزانطة القوي المستقر كان يتفكك. والإمبراطور الصبي قد سمم، مثله مثل ملك سوريا الصبي؛ وكان الإمبراطور الجديد طاغية يحكم إمبراطورية توشك على الإفلاس وجيش لا يذكر. فركل صلاح الدين على رينولد.

وفى القدس، كان مرض الملك بولدوين يعمل عمله ببطء فى جسده، وبدأ ذراعاه وساقاه يتأكلان. وبسبب إلحاح أمه، وأخته، والبطريارك المنحل أعطى الوصاية على العرش إلى الشاب الجميل الضمعيف، جى دى لوزينيان. غير أن جى كان من الضعف، والجبن والتردد والفظاظة مع مليكه المحتضر، حتى أن أحدا لم يطق فكرة

وجوده في السملة حتى مساندوه الثلاثة. فتم خلعه في مارس عام ١١٨٣، ونودي بابن روجته ابن أخت بولدوين وريثا للعرش. أنه بولدوين أخر، سيكون الخامس الذي يحمل هذا الاسم؛ وستكون حكايته هي الأقصر والأكثر مدعاة للحزن.

عند هذه النقطة أدى جهل أرتولد دى توروج بالسياسة الفلسطينية إلى أن يضل الطريق، ذلك أنه، لسبب غير مفهوم حاول هو ومعلم الإسبتاليين معا ومعهم هيراكليوس التوسط من أجل جى، وتم نفى الثلاثة جميعا من البلاط؛ ثم، بعد ذلك ببضعة أشهر أرسل الملك بولدوين بهذا الثلاثي في مهمة لا بد أنهم جميعا كانوا يعلمون أنها بلا أمل – وهي دق طبول الصرب في أوربا كي يبعثوا الاهتمام هناك من أجل شن صرب صليبية أخرى، وهكذا حرمت الجماعتان من قائديهما المختارين.

فى أثناء ذلك، كان صلاح الدين يستعد لرينواد. وكان حصاره للكرك هو آخر حدث كبير فى عام ١٨٨٧ وفشل هذا الحصار، ولكن فى أثنائه وقع حادث غير عادى – إنه إيماءة تعد من أعلى درجات الشهامة، إذ إن الحصار بدأ فى ٢٠ نوفمبر، وتصادف أنه كان يتم الاحتفال بزفاف فى القلعة. وبينما كانت صخور مجانيق المسلمين تهز الأسوار، استمر حفل الزفاف فى الداخل. وأرسلت أم العريس أطباقا من الوليمة لمبلاح الدين، وحين علم أين يتم الزفاف، أمر بوقف قصف ذلك الجزء.

لقد أصبح الكونت ريمون وصبيا على عرش القدس مرة أخرى، ولدى تقدمه نحو الكرك، انسحب صلاح الدين. كان ذلك في ٤ ديسمبر ١١٨٣، وكانت القلعة وريمون في أمان؛ لكن صلاح الدين كان في وسعه الانتظار.

وفي خريف ١١٨٤ سار نحو الكرك مرة أخرى؛ ولم يتمكن من كسر دفاعات القلعة. غير أن هذا لم يكن مهما حقا: فرينولد كافر غير مؤمن، لكنه واحد بين كثيرين، وكان الوقت في جانب صلاح الدين.

ففى ٣٠ سبتمبر، خضع أرنواد دى توروج لمقتضيات سنه، وتوفى فيرونا؛ وكانت هذه هى النتيجة الوحيدة للبعثة إلى الغرب. ولم يكن هناك أى أمل من أوربا، والطاغية البيزنطى، أندرينيكوس زينوس، الذى قلب السياسة المسيحية رأسا على عقب، حيث عقد معاهدة مع صلاح الدين ضمن فيها ألا يساعد الفرنجة. ولم تفد هذه المعاهدة اندورنيكوس بأقل القليل، لأن طغيانه أثار تمردا في عام ١١٨٥، وتم القبض عليه وتمزيقه إربًا.

وتسارعت عجلة القدر في هبوطها بفعل الدسائس، وتم انتضاب معلم جديد للهيكل؛ وكان الانتخاب سريا كالمعتاد، ولكن يبدو أنه لم يحسم سوى بعد نقاش عنيف في الجماعة، ففي القدس أشيع أن جيلبير أريل، قائد القدس وأمين خزانة الجماعة، ورفيق توروج في الرتبة، سوف يكون المعلم الجديد؛ ولكن حين أعلن ناخبو الهيكل قرارهم، كان جيرار دى ريدفور، الذى باع ريمون عروسه، كان دى ريدفور قد ارتقى كي يكون ناظر أراضي الهيكل، فلم يكن من غير المعتاد أن يرقى من ناظر إلى معلم، ولكن بقلبه المليء بالضغينة والجنق على الوصى على عرش المملكة، كان انتخابه أسوأ اختيار ممكن.

وقى ١٦ مارس ١٦٨٥، توفى الملك المجذوم بولدوين متخلصا أخيرا جدا من ألمه الذى دام طويلا. وتوج ابن أخته كبولدوين الخامس، وفى هذه المجموعة من الممالك التى يرأسها أطفال، كان أصغرهم جميعا: إذ لم يتعد عمره سبع سنوات. وأطلق عليه الناس اسم بودوينيت. وصحب موت الملك المجذوم وتتويج الملك الطفل مجاعة فى أنحاء المملكة، وبدأ أن المجاعة سوف تضع حدا للحرب القديمة بين الهلال والصليب دون أى دفعة من صلاح الدين فطلب الكونت ريمون فى يأس هدنة لمدة أربع سنوات، ولم يكن يأمل فى أن يقبل الاقتراح – غير أنه قبل، لأن صلاح الدين كان مريضا، وكان يعتقد أنه يحتضر. وبدأ ذلك بالنسبة للفرنجة وكأنهم قد انتشلوا من بين فكى الأسد.

لقد كانت هذه الفرصة الأخيرة مجرد وهم. ففي نهاية أغسطس عام ١١٨٦، توفى بودوينيت بعد عيد ميلاده بووقت قصير. لقد توفى، على الأقل، لأسباب طبيعية، لانه كان دائما معتل البدن، فكان موته شبه متوقع، وكان بولدوين، الملك الجنوم، قد ترك خطة احتطياطية في وصيته، لتغطية الخلافة على العرش، طبقا لهذه الخطة، يقوم البابا وملكو فرنسا وإنجلترا وإمبرطور الألمان بتقييم المزاعم المتنافسة بين أخت الملك المجنوم سيبيلا، وابنة زوجة أبيه، إزابيلا؛ فكانت خطة حساسة، وبينما كان بولدوين يحتضر أقسم جميع بارونات المملكة وقادتها العظام على تنفيذ الخطة. وكان هيراكليوس ودي ريدفور من بين من أقسموا على تقديم المساعدة. أما رينولد دي شاتيون فلم يكن موجودا، لكن رفيقه في السجن من أيام دمشق يدعى جوسلان كان حاضرا، وأقسم اليمين مثل الجميع.

وحين توفى بودوينيت، أطلقت الخطة الإحطياطية، فدعا الكونت ريمون إلى عقد اجتماع لجميع لوردات الملكة لاتخاذ قرار بشأن السفراء الذين سوف يتجهون إلى الغرب، وكان المقرر أن يعقد الاجتماع في القدس! غير أن جوسلان أقنع الكونت بأن طبرية ستكون أكثر أمنا، بعيدا عن تأثير البطريارك هيراكليوس المنحل غير المؤتمن. وسافر إلى طبرية.

وكان بوبوينيت في عكا، وما إن غادر ريسون المدينة، حتى احتلتها قوات جوسلان، إلى جانب صور وبيروت. وأعاد فرسان الهيكل جثمان الملك الهزيل إلى القدس، حيث قاموا بدفنه بكل آيات التكريم في كنيسة الضريح المقدس. واستدعى جوسلان رينولد من الكرك، وسيبلا وزوجها عديم النفع جي دى لوزينيان من عسقلان ووجههم إلى القدس. وفي عكا أعلن عن سيبيلا ملكة، ثم اتجه مسرعا شمالا كي يقاها هي والآخرين. وحين تجمعوا جميعا، أغلق فرسان الهيكل بوابات المدينة المقدسة، ووضعوا الحراس لمراقبة الكونت ريمون. وذهب هيراكليوس وريدفور كي يطالبوا بالشارات الملكية؛ وكانت هذه محفوظة في خزانة ذات أقفال ثلاثة، مفتاح منها كان لدى البطريارك والمفتاحان في البداية رفض معلم الإسبتاليين الذي كان وفيا لقسمه تسليم مفتاحه؛ ثم ألقى به باشمئزاز من النافذة، والآخران أدى معلمي الجماعتين. وفصل نفسه وجماعته كلية من تتابم الأحداث.

وحين أمن هيراكليوس شارات الملك، قام بتتويج سيبيلا، ثم قامت هى بتتويج جى؛ وهو أضعف وأسوأ من حكم بلاد ما وراء البحر من ملوك، ورفع جيرار دى ريدفور صوته فى مباركة ساخرة صائحا: "هذا التاج يعوض عن زواج بوترن".

ورفض ريمون الخضوع لجى. وكانت الهدنة مع صلاح الدين لا تزال سارية المفعول، مع أن صلاح الدين شفى وأصبح قويا مرة أخرى، وكان من المكن مع ذلك أن يتم بث الحياة فى المملكة على الرغم من ملكها عديم الشخصية. ولكن عندئذ، لعب رينواد دى شاتيون ورقته الأخيرة.

ذلك أن مجموعة أخرى من تلك الجمال المحملة بالثروات أخرجته مرة أخرى من وكره في الكرك. فذبح الحراس المساهبين لها، وزج بالتجار وأسرهم في سجونه، وقال لهم اطلبوا العون من محمد، وكانت غنيمته من هذه الغارة هي أكبر غنيمة فاز بها في حياته. وكانت أشبه بالإعادة لآخر إغارة على قافلة، إذ طالب صلاح الدين بالتعويض؛ ورفض رينواد؛ ولم يستطع الملك جي فعل أي شيء؛ فاستؤنفت الحرب. لكنها هذه المرة كانت حرب إبادة تامة.

القصل السبابع

قرون حطين الأراضى المقدسية

سأدفعهم ليد أعدائهم، ... وأجعل مدن يهودة خرية بلا ساكن. أرميا الإصحاح الرابع والثلاثون، الآيات ١٩- بب.

لقد أثر جو انعدام الثقة والخيانة في الجميع في بلاد ما وراء البصر – حتى الكونت ريمون، الذي كانت وصايته على العرش جديرة بالثقة ويمكن الاعتماد عليها. وقال المسلمون إن الفرنجة في ذلك الوقت لم يكونوا يعدون أحدا أشجع أو أكثر حذقا منه؛ ولكن بعد تتويج جي، تحول ريمون إلى الخيانة والتمرد. فحاول أولا اقتلاع سيبيلا، وجي وأن يحل محلهما إزابيلا وزوجها، همفرى من تورون؛ غير أن الخطة فشلت حين أقسم همفرى يمين الولاء لجي. ثم، بدأ التراسل مع صلاح الدين حين أصبحت الحرب الشاملة أمرا حتميًا، وفي أوائل عام ١١٨٧ كون الاثنان معاهدة أصبحت الحرب الشاملة أمرا حتميًا، وفي أوائل عام ١١٨٧ كون الاثنان معاهدة أن هذا التصرف كان تصرفا ذكيًا: إذ كان ريمون يعلم أن الفرصة الوحيدة لبقاء بلاد ما وراء البحر تكمن في مد السلام إلى أبعد حد ممكن وإلى أطول وقت ممكن. ولكن من المؤكد أيضًا، أن هذا كان ضربا من ضروب الخيانة. ولم يحاول ريمون إخفاء ما فعله، وحين عرف الأمر في القدس، جمع الملك جي جيشه واستعد لإخضاع ريمون فعله، وحين عرف الأمر في القدس، جمع الملك جي جيشه واستعد لإخضاع ريمون بالقوة. ولم تكن الحملة، بالطبم، فكرة جي – إذ إنه، في الواقم لم تكن لديه أبداً أفكار بالقوة. ولم تكن الحملة، بالطبم، فكرة جي – إذ إنه، في الواقم لم تكن لديه أبداً أفكار بالقوة. ولم تكن الحملة، بالطبم، فكرة جي – إذ إنه، في الواقم لم تكن لديه أبداً أفكار بالقوة. ولم تكن الحملة، بالطبع، فكرة جي – إذ إنه، في الواقم لم تكن لديه أبداً أفكار

تخصه فلعب ريدفور على انعدام التفكير لديه على نحو يخلو من الأخلاق، ذلك أن حقد دى ريدفور على ريمون لم يكن يعرف حدودا، فكان هو من دفع بجى إلى هذا الوضع غير المآلوف من ممارسة السلطة. لو أن جى هو من دفع بالأمور لكان ذلك ضربا من ضروب الجنون، ولارتكبت بلاد ما وراء البحر انتحارا في الحرب الأهلية، لأن ريمون كان قد امتلك دعما من المسلمين في جيشه، وكان في وسعه التعويل على موارد إمبراطورية صلاح الدين غير المحدودة. غير أن الأمر لم يصل مطلقا إلى هذا الحد، ذلك لأن مستشارا جديدا قد ظهر: إنه باليان من ابيلين، الذي بين بقوة ما في هذه الخطة من حمق. إذ يمكن الاعتماد على جي في شيء واحد، ذلك الشيء هو أنه يتبع أحدث نصيحة تقدم له. وبدلا من استخدام القوة، وافق على استخدام الدبلوماسية، وأرسل باليان، في صحبة رئيس أساقفة صور، معلم الإسبتاليين وجيرار دى ريدفور التوسط عند ريمون. فشعر ريدفور بالإهانة بحدة، لكنه كان مضطرا للحضور، ذلك أن سلامًا دونه يمكن أن يكون عديم الجدوي.

وكان وصيف باليان في هذه الرحلة شابًا يدعى أرول، وكان يجيد القراءة والكتابة، وهذا لم يكن شيئا شائعا؛ بل والأمر الأقل شيوعًا أنه كان لديه الاهتمام الكافى بالكتابة كي يسجل ما رآه. وهو الذي كتب السجل الإفرنجي الوحيد عن قرصنة رينولد دى شاتيون مع أنه لم يشارك فيها مما يفسر كونه عزا دوافع أعلى لدى رينولد مما كان يستحق. لكن روايته عن السفارة لريمون جاءت عن خبرة مباشرة، وتفصيلية وحية. لقد غادر الوفد القدس في ٢٩ إبريل ١١٨٧، وفي ذلك اليوم قطعوا ستين ميلا، واستراحوا في قلعة باليان في نبلس، وفي صباح يوم ثلاثين، حين قرر باليان البقاء في داره وتنظيم شئونه، أرسل رئيس الأساقفة والمعلمين قبله؛ ورتبوا أن يلتقوا على بعد خمسين ميلا إلى الجنوب عند قلعة لافيف. وفي المساء كان باليان مستعدا للسفر؛ وانطلق هو وأرول في وقت متأخر، وكانا يقصدان السفر طوال الليل. ولكن حين كانا يمران بالسامرة، تذكر باليان موعدا: ذلك أن الصباح التالي، ١ مايو هو عيد القديس فيليب والقديس جيمز. فقرر التوقف في دار أقرب أسقف والاحتفال بالقداس في الصباح.

وبعد الفجر بقليل في يوم العيد، واصل المسير مع أرول، ووصبلا إلى لافيف عند الفحى، وسرهما رؤية خيام فرسان الهيكل منصوبة أمام أسوار القلعة؛ ولكن حين اقتربا أحسا بأن هناك خطأ ما، إذ خيم الصمت على كل شيء، ففتشا الخيام وكانت جميعا خالية. فدخل أرول القلعة وفتشها – وكانت أيضا خالية. إذ لم يكن في المبنى كله سوى جنديين فقط، متمدديين في أحد الأدوار العليا، وفي حالة من الإعياء حتى أنهما لم يتمكنا من الكلام.

فى القلعة لمدة ساعتين إذ لم يكونا يدريان ماذا يفعلان غير ذلك، وهما فى حالة من الحيرة والقلق؛ ثم انطلقا فى الطريق مرة أخرى. وفى الطريق إلى الناصرة التقيا فجأة بفارس واحد وحيد – أحد فرسان الهيكل، جريحا ينزف دما. وحين اقترب كل منهم من الآخر، صاح باليان: ما الخبر" فأجاب الفارس "الأخبار سيئة" وهناك فى الطريق الترابى، علما بما جرى.

فى الليلة السابقة، فى قرابة الوقت الذى كان باليان وارول يضرجان فيه من نبلس، وصل رئيس الأساقفة والمعلمان عند لافيف، حيث وصلتهم رسالة من ريمون. تقول الرسالة إن صلاح الدين طلب إذنا من ريمون كى يعبر ابنه أرض الكونت فى رحلة استطلاعية لفلسطين. فاضطر ريمون إلى الموافقة التزاما بمعاهدته؛ لكنه وضع شرطا بألا يدخل المسلمون أرضه قبل فجر ١ مايو، وأن يضرجوا قبل حلول الليل دون المصاق أى أذى بأى من مدنه أو قراه. وتم تصنير أهل البلاد من الزيارة، وأمرهم ريمون بالبقاء داخل دورهم، حتى لا يصيبهم سوء. واشتملت رسالة ريمون إلى رئيس الأساقفة ومعلم الإسبتاليين، الأساقفة والمعلمين على النصيحة نفسها؛ فاتبعها رئيس الأساقفة ومعلم الإسبتاليين، روجى دى مولان. أما جيرار دى ريدفور فلم يفعل. واستدعى مارشال الهيكل جاك دى ميلى من قرية قريبة، كى ينضم إليه ويحضر جميع إخوانه معه. وأطاع دى ميلى الأمر، ووصل إلى لاقيف ومعه تسعون فارسا من فرسان الهيكل – وكانت خيمتهم تلك التى فتشها باليان وأرول دون جدوى.

في ذلك الصباح، حين كان باليان يحضر القداس، كان فرسان الهيكل قد غادروا لافيف. وتوقف رئيس الأساقفة في الناصرة؛ واستمر المعلمان والإخوان، والمرشال، يدعمهم أربعون من الفرسان من غير الجماعات الدينية. اهتم الجميع برسالة ريمون؛ فيما عدا مائة وثلاثة وثلاثين فارسا، وكانت الطرق خالية، اتجهت المجموعة على ظهور الخيول مسافة قصيرة بعد الناصرة، ثم وهم يصعدون أحد التلال، شاهدوا قوة الاستطلاع الإسلامية في أسفل. وكانوا سبعة آلاف.

ويمبادرة من أحد فرسان الهيكل، أقسم على ألا ينسحب ما لم تكن المجموعة أمامه أكثر من ثلاثة إلى واحد. وهنا، عند ينابيع كريسون، كانوا ثلاثة وخمسين إلى واحد؛ فلم ير جاك دى ميلى وروجى دى مولان أى جدوى من مواجهتهم وقالا ذلك. أما جيرار فأبى الانسحاب. وأدار ظهره بغضب إلى روجي، ونظر إلى جاك، وهو طويل أشقر يمتطى جوادا أبيض، وقال هازئا، "إنك تحب رأسك الشقراء حبا جما حتى لا ترغب فى فقدها." فرد جاك، "إنى أموت فى المعركة كما ينبغي لرجل شجاع، إنه أنت من ستفر كما يفر الخائن".

وحين أثار كل منهما ما وجه الآخر له من إهانات، نزلا بالجيش إلى المعركة اليائسة. وتحققت كلمات جاك دى ميلى: فمن بين المجموعة المكونة من مائة وثلاثة وثلاثين رجلا لم يهرب سوى ثلاثة – كان دى ريدفور من بينهم. وكان دى ميلى آخر من سقط. ذلك أنه قاتل كشيطان – أو كملاك، عندئذ كان من الشائع لدى الفرنجة أن يروا القديس جورج يقاتل إلى جانبهم فى انتصاراتهم، وهو اعتقاد كان المسلمون يعلمونه، أما بالنسبة لفرسان الهيكل، فقد كان غائبا فى كريسون؛ ولكن حين رأى المسلمون مظهر ميلى، وما تحلى به من شجاعة، اعتقدوا حين أسقطوه أنهم قتلوا القديس المسيحى المحارب.

بالنسبة للفرنجة، لم تكن لهذه المذبحة سوى نتيجة بناءة واحدة: إذ سلم ريمون نفسه لجى، حين رأى فظاعة الذنب الذى اقترفه بسبب المعاهدة التي عقدها مع صلاح الدين، وسلم نفسه دون تردد. ذلك أنه شهد أدلة بشعة على المذبحة، فبعد

ظهيرة ١ مايو، حين التقى باليان وأرول بالفارس المحارب، كان ريمون في طبرية يراقب عودة دورية المسلمين، وكان يعلم أنهم حافظوا على كلمتهم: فلم تضار مدينة ولا قرية ولا مبنى، غير أنه استطاع أن يرى رءوس فرسان الهيكل معلقة على رماحهم،

على الأقل، – أخيراً، وفي آخر لحظة كان هناك ما يشبه الوحدة في الملكة. وفي مايو مرت قافلة حجاج من الكرك؛ هذه المرة لم يجرق رينولد على المساس بها، لأن من بها كانوا يشملون أخت صلاح الدين وابنها، وكان صلاح الدين بنفسه على رأس المراسة المساحبة، وفي نفس الوقت، كانت الجيوش من جميع أنحاء إمبراطوريته تتجمع شرق بحر الجليل. واستعد المسيحيون كأفضل ما يكون الاستعداد، وفي نهاية يوايه كانوا قد جمعوا ما يقرب من ثلاثة عشر ألفًا من الرجال، عشرة آلاف من الجنود الشباة، ونحو ألفين من الفرسيان، وألف ومائتين من الفرسيان. وقدمت الجماعتيان العسكريتان كل ما استطاعتا، محتفظتين فقط بحاميتين هيكليتين في حصوبُهما. بالإضافة إلى ذلك قدم فرسان الهيكل لجي نصيبهم من الأموال التي تم تلقيها من هنري الثاني ملك إنجلترا، - والجنود الذين دفعت لهم الأموال من هذه كانوا يحملون سلاح إنجلترا. وكان يفترض أن يكون هيراكليوس على رأس الجيش يحمل الصليب الحقيقي باعتباره البطريارك والزعيم الروحي، لكن كان من المناسب له أن يمرض، فاضطر أن يعطى الصليب لأسقف عكا. وكان معظم الناس يمتقدون أنه، في واقع الأمر، كان يلهو مع عشيقته. ولم يكن أمام الجيش المسيحي وقت يضيعه؛ فصلاح الدين مستعد، وهو الذي طلب المواجهة. وفي ٢٦ يونيه، استعرض جيشه، وقسمه إلى ثلاثة أقسام وكان هو في المنتصف. في ترتيب المعركة قاد رجاله إلى جنوب بحر الجليل، وفي ١ يوليه، عبروا نهر الأردن. وفي ٢ يوليه سقطت مدينة طبرية؛ لكن القلعة التي كانت تقودها زوجة ريمون، صعدت، وأرسلت رسالة إلى زوجها في معسكر الملك في عكا . لقد كان الجيش الملكي بالفعل يتحرك. وفي أجتماع مع الملك، كان الكونت ريمون قد نصح باتباع الحذر واتباع استراتيجية دفاعية: كانت حرارة الصيف بالفعل لا تطاق، والأرض عطشي، – ولكن بالنسبة للجيل الثالث من الفرنجة، كان ذلك أمرا مِنْ الوَفِّيا؛ ولم يكن مسلاح الدين يعلم ذلك، وإذا أمكن تصاشي المعركة فبإن الطقس والأرض بمكن أن تعمل لصالح الفرنجة. إذن كانت نصيحة ريمون سليمة، لكن خيانته كانت قريبة العهد جدا. فاتهمه رينولد دي شاتبون ودي ريدفور بالجين والغدر؛ وكانت العاطفة لدى الملك جي تتغلب على العقل، فأمر بهجوم عام. وفي أصبيل ٢ يوليه، كان الجيش الملكي يعسكر في سفوريا، وهو مكان جيد الري وبه الكثير من المراعي، في منتصف الطريق بين عكا وطبرية، وعلى بعد ثلاثة أميال من كريسون. وهناك وجدهم المرسال القادم من طبرية. وأنباؤه الآثية من سيدة في حالة من الكدر، مست الفرسان الذين يتسمون بالشهامة، وكان رد الفعل العام هو إقامة المعسكر على الفور والذهاب لتقديم العون. ولم ينشق سوى صوت واحد، كان صوت ريمون دون كل الناس، مع أن ملبرية هي مدينته، وزوجته معرضة للخطر، وقال إنه يفضل أن يخسرهم جميعا على أن يضحى بالملكة، - لأنه، توقع أن تكون هذه هي النتيجة لو ترك الجيش موقعه القوي. في هذه المرة سناد عقله والمثال الذي ضبريه؛ واتخذ القرار بالبقاء في سيفوريا، واستراح الجيش في تلك الليلة. ثم، حين هذأ كل شيء، عاد دي ريدفور إلى خيمة الملك، ومرة أخرى أتهم ريمون بالخيانة، إن طبرية تبعد ست قصبات وإن خسارتها ستكون عارا على السيحيين، وأنه هو وإخوانه يفضلون بيع عباءاتهم البيضاء على أن يدعوا مدينة مسيحية تسقط بهذه السهولة. وحين سمع جي ذلك، غير رأيه حتما. وصدر أمر جديد: ليخرج الجيش إلى طبرية في الصباح التالي. وجاء الفجر سريعا في ٣ يولية إنه فجر منتصف صيف والهواء، حار وجاف وساكن، ويشكل ما، ما إن طلع الفجر، حتى خمن صلاح الدين - أو علم - بأمر الملك. ربما غادر خونة حقيقيون معسكر جي تحت جنح الظلام. فبينما كان جيش الملك يغادر المياه والمروج في سفوريا، عبأ المسلمون وتحركوا عشرة أميال إلى الشمال الغربي، مباشرة بين الفرنجة وطبرية. وتوقفوا عند قرية صغيرة تسمى حطين. الأرض هناك تنحدر بسرعة بعيدة من الغرب إلى الشرق، ويؤدي السهل الغربي العظيم إلى تل صخرى ذى قمتين، ارتفاعه مائة قدم، يسمى "قرون حطين،" وتبعد قرية حطين أقل من ميل عن القرون لكنها تقع تحتها بست مائة قدم؛ أما بحر الجليل، الذى يبعد خمسة أميال، فينخفض بمائة قدم أخرى. وحطين مثل سفوريا بها الكثير من المراعى والماء. لذا تمكن صلاح الدين من الاستراحة وأنعاش رجاله وخيله؛ لكنه كان يخاطر مضاطرة كبيرة. إذ لم يكن جيش جي أصغر كثيرا من جيشه، ومن شأن الهزيمة هناك أن تجبره على التقهقر أسفل التل نحو البحر. ومع ذلك، كانت مضاطرة محسوبة: ذلك أنه بين سفوريا وحطين السهل الغربي جاف كالعظمة، وينبغي على الجيش المسيحي أن يسير عبره مسافة اثني عشر ميلا، بالدروع، وتحت الحرارة البيش المسيحي أن يسير عبره مسافة اثني عشر ميلا، بالدروع، وتحت الحرارة المنفحة، لشمس منتصف الحبيف. وقال أحد المسلمين "بدو وكأنهم جبال تسير ويحار المصير فوق رءوسهم".

وحين كان الفرنجة يتقدمون، خرجت عليهم تجريدات راكبة من الرماة، من معسكر المسلمين. وكان الكونت ريمون قد تولى قيادة طليعة الغرنجة؛ وركب معه باليان وارول. وتولى جى الوسط، أما فرسان الهيكل فكانوا فى المؤضرة. وكان الطريق من الحجر الجيرى، الذى يلمع باللون الأبيض، بلا ظل أو ماء. وأحاط الرماة المسلمون بالفرنجة، يعملون فيهم القتل، مركزين على فرسان الهيكل ويضغطون عليهم بشدة جعلتهم يكادون ينعزلون عن بقية الجيش الملكى. وحين قطع الجيش عشرة أميال كان كل فرد من أفراده قد أنهاك، وهذه العطش، ولفحته الشمس، وأثقلته الدروع وقيد الرماة حركته. فأمر جى بالتوقف، وحين سمع ريمون الأمر، صاح: "وا حسرتا! بيا هالكون، والملكة قد قضي عليها"، وكان هو وحده يعلم بإمكان وجؤد بثر، في لوبية، على المنحدرات الجنوبية لقرون حطين؛ فجرجر الجيش بإمكان وجؤد بثر، في لوبية، على المنحدرات الجنوبية لقرون حطين؛ فجرجر الجيش المكى نفسه إلى الأمام قليلا، لكن البئر كانت جافة.

ولم يتمكنوا من الاستمرار؛ لا ولم يتمكنوا من التقهقر، فأقاموا المعسكر بالقرب من البئر الجافة، دون مرعى الخيل، ولا مياه لأى مخلوق، إنسانًا كان أو حيوانًا، وجفت حلوق الرجال حتى أنهم لا يكادون يأكلون، وطوال الوقت، كان جيش صلاح الدين في الأسفل يأكلون ويشربون وكأنما كي يثيروا الغيظ ويسيلون اللعاب.

كان الليل مسبقا للجحيم، بما فيه من حرارة وذعر. وتحت جنح الظلام أحاط المسلمون بالفرنجة، وأشعلوا النار في العشب الجاف، وجزوع الشجر. ومع مقدم الليل، هبت ريح ومع اشتعال أوراق الشجر الجاف بلون أحمر لامع، انبعث الدخان الحارق متغلغلا في المعسكر الملكي. وفوق الضجيج الصادر عن اللهب وهبوب الدخان، استطاع الفرنجة أن يسمعوا ويروا المسلمين وهم يغنون ويصلون بصوت مرتفع؛ وتحمل أرول هذا كله. وحين جاء الصباح أخيرا – السبت ٤ يولية – رأى مقدار إحاطة المسلمين، ورأى أن القعلة ذاتها على صغرها لا يمكنها النفاذ. ولكن بعيدا، أسفل كان بحر الجليل باديا، يلمع تحت الشمس الساطعة. فدفع منظر كل هذا الماء الكثير بمشاة الفرنجة إلى اليأس: فشقوا الصغوف واندفعوا نحو دائرة المسلمين في الكثير بمشاة الفرنجة إلى اليأس: فشقوا الصغوف واندفعوا نحو دائرة المسلمين في الكثير بمشاة الفرنجة إلى اليأس: فشقوا الصغوف واندفعوا نمو دائرة المسلمين في الكثير بمشاة الفرنجة من السهام، وحمل سبعين جمادً من السهام في انتظار لدى كل رجل جعبة كاملة من السهام، وحمل سبعين جمادً من السهام في انتظار استعمالها لتزويد الجنود. ولم يتمكن أحد من مشاة الفرنجة من النفاذ.

بدأ هجوم المسلمين بسحابة من السهام "كأسراب كثيفة من الجراد" وقتل الكثير من جياد الفرنجة، في الهجوم الأول الكبير، والفارس بلا جواد، فارس بلا حراك. ومع ذلك، وعلى الرغم من العطش والحرارة والدخان الذي لا زال يتصاعد من الجزوع المحترقة، فإن الفرنجة قاتلوا بشراسة. "اشتعلوا ولمعوا في عذاب وجنون" كما كتب أحد المسلمين، "لكن حين كانت السهام تسقطهم صار من بدوا كأسود مجرد قنافذ".

ومع موت وعجز المشاة عن الحركة التجأ الفرسان إلى قرون حطين. وحين أحكم المسلمون الخناق، أمر جى ريمون بانتهاز الفرصة الأخيرة والقيام بهجوم مباشر فى حين يتجمع هو ومن تبقى من الفرسان حول الصليب الحقيقي. وكان القسم الذى

هاجمه ريمون بقيادة ابن أخت صلاح الدين الذي رد بتكتيك كلاسيكي حين رأى هذا التحرك إذ إنه تراجع وترك الفرنجة يمرون، ثم ضم الصفوف. فأصبح هجوم ريمون عديم الفاعلية بل أسوا من ذلك: الأن انشطراح قوة الفرنجة، ولم يبق أمام ريمون سوى التقهقر في اتجاه طربلس. وانفصل باليان وأرول بعد ذلك بوقت قصير مع ريجينالد حاكم صيدة؛ وبعد ذلك لم يهرب أحد.

وعلى القرون قام جى ومائة وخمسون من الفرسان الأخرين بوقفتهم الأخيرة، وفى وسطهم خيمة الملك الحمراء والصليب الحقيقى، وكان ابن صلاح الدين البالغ من العمر ست عشرة سنة فى الجيش:

وقال "لقد كانت أولى معاركى، وكنت إلى جانب أبى، وحين تراجع ملك الفرنجة إلى التل، قام فرسانه بهجوم جرىء، ودفعوا بالمسلمين إلى الخلف نحو أبى، فلاحظت غضيبه – إذ تغير اونه، وجذب لحيته واندفع إلى الأمام، وهو يصيح: "أسقطوا الشيطان!" فانهال رجالنا على العدو، الذي تراجع صاعدا التل، وحين رأيت الفرنجة يفرون والمسلمين يلاحقونهم، صحت في حبور: لقد قضينا عليهم!" لكن الفرنجة عاودوا الهجوم، وأزاحوا رجالنا مرة أخرى إلى حيث يوجد أبى، فحثهم مرة أخي، إلى التقدم، فدفعوا العدو في أعلى التل، وصحت مرة أخرى: "لقد قضينا عليهم!" لكن أبى استدار إلى وقال: "اصمت! – نحن لم نهزمهم ما دامت هذه الخيمة قائمة هناك!" وفي تلك اللحظة انقلبت الخيمة. ثم ترجل أبى وجثا على الأرض، يحمد الله، ودموع الفرح تملأ عينيه".

وكان مندوب هيراكليوس من بين الموتى، وهو أستقف عكا الذي كان يصمل الصليب الحقيقي، وكان يفترض أن يكون حامله بلا سلاح أو درع، لكنه كان يرتدى سترة معدنية تحت ملابسه، فرأى المسيحيون، بعد ذلك، هذا على أنه نموذج على الافتقار الشامل للإيمان، وهو سبب الكارثة، من الصعب علينا الآن أن نفهم ما في الحرب يدا بيد في العصور الوسطى من بشاعة ورعب؛ ولكن بعد حطين، ساد الخطاب الإسلامي، في شماتة وسعادة بما تم من عمل في ذلك اليوم.

"ألقيت ضلوع من سقطوا عارية، في ميدان القتال، متناثرة أشالاء على موقع النزال، مقطعة وممزقة، وانشقت الرء وس، وانشطرت الطوق، وقسمت الظهور، وكسرت الأعناق، وصارت الأقدام أشلاء، وشوهت الأنوف، ويترت الأطراف، وتشوهت الأعضاء وتطايرت الأجزاء، وقلعت العيون، وخرجت الأحشاء، وصار الشعر بلون الدم، وقطعت الأصابع، وانكسرت الضلوع، وفككت المفاصل، وهشمت الصدور، وانقسمت الأجساد نمسفين، وسحقت الأدرع، وذبلت الشفاة، وثقبت الجباه، وصارت قرمزية اللون، وتدرجت الصدور في الدماء، وانخلعت السواعد، وكسرت العظام، ومزقت الثياب، وفارقت الحياة الوجوه، وفغرت الجراح فيها، وسلخت الجلود، وقطع الشعر، وانسلخ الجلد عن الظهور، وخلعت الأسنان، وسالت الدماء، وخرجت آخر أنفاس الصياة، وتدلت الأعناق، وسالت المقل، وعلقت الرء وس، وسحقت الأكباد، وهشمت الرء وس، وأزهقت الأرواح، أشباحهم ذاتها حطمت؛ كحجارة بين حجارة، إنها لعبرة لن معتر".

فى تلك العبارة الأخيرة مفارقة كثيبة غير ذكية: فلم تكن هذه المعركة هى أول درس يتعلمه المسيحيون فى حطين. إذ تذكر بعض الكتب أن هذا التل ذا القمتين كان موقع موعظة الجبل التي قالها المسيح.

على الأقل لم يكن في وسع الموتى محرفة عظم ما لحق بهم من هزيمة. ولكن بالنسبة لمن نجوا، وبالنسبة البلاد المسيحية، اقد فقد شيء أكبر من الهزيمة في ميدان القتال في حطين: ألا وهو الصليب الحقيقي، الذي تم الاستيلاء عليه وجره في التراب، وحتى حين انتهت الحرب، استمر الذبح. إذ تم إحضار من نجوا من الفرنجة، بما فيهم ما يربو على مائة من فرسان الهيكل والإسبتاليين، أمام صلاح الدين، وتم بيع الفرسان من غير الجماعات الدينية كعبيد؛ ثم قطعت رأس فرسان الجماعتين المقدستين واحدا أمام صلاح الدين، في ذلك اليوم مات مائتان وثلاثون من فرسان الهيكل منهم من أعدم ومنهم من قضى في القتال؛ ولم ينقذ سوى دى ريدفور، فرسان الهيكل منهم من أعدم ومنهم من قضى في القتال؛ ولم ينقذ سوى دى ريدفور، ومعه الملك جي، ومجموعة من البارونات ورينواد دى شاتيون. ذلك أن الملك وريدفور

كانا رهينتين أثمن من أن يقتلا؛ والبرونات يمكنهم تلقى فديات عنهم؛ وصلاح الدين كان قد أقسم على أن يقتل دى شاتيون بنفسه، فاقتيد دى شاتيون، ودى ريدفور والملك جي إلى خيمة صلاح الدين، بالقرب من ميدان القتال، وحياهم صلاح الدين جميعا بكل أدب، وأمرهم بالجلوس والراحة؛ ثم قدم لجى كوبا من ماء الورد، المثلج بالجليد. وحسب العادات الإسلامية فإن تقديم الطعام أو الشراب يضمن الأمان لمتلقيه؛ فشرب جي شاكرا وأعطى الكوب لشاتيون. فقال صلاح الدين على الفور لمترجمه: "هذا الكافر لم يحصل على إذن منى بالشراب، وسوف ينقذ حياته بهذه الطريقة"، ونهض صلاح الدين واقفا أمام رينولد وعدد خطاياه بغضب، ولكن لم يكن هناك أي شيء يمكنه أن يجعل رينولد يحس بالخجل، فرد بوقاحة. فاستل صلاح الدين سيفه، ويحركة سريعة واحدة خلم رأس رينولد.

فأخرس الذعر جي؛ ولكن حين تم سحب الجثة من الخيمة، استدار إليه صلاح الدين وقال: "أقسمت مرتين بأن أقتل ذلك الرجل: مرة حين حاول الهجوم على مكة والمدينة ومرة حين خرق الهدنة واستولى على القافلة؛ لكن الملك لا يقتل ملكا".

وغادر جيش المسلمين ومعه رهائنه وعبيده ميدان القتال، بسرعة ويدءوا مسيرة طويلة في بقية فلسطين، كانت مسيرة أشبه بموكب النصر منها إلى الحملة الحربية. وفي ه يولية، بعد حطين بيوم، استسلمت طبرية؛ وأعطيت زوجة ريمون وأهل بيتها، مرورا أمنا إلى طريلس، وفي اليوم العاشر سقطت عكا؛ ونبلس في اليوم الرابع عشر؛ ويافا في العشرين؛ وتورون في اليوم الرابع والعشرين؛ وصيدة في التاسع والعشرين؛ وبيروت في السادس من أغسطس؛ أما عسقلان ففي الرابع من سبتمبر.

ومع مقدم منتصف سبتمبر لم تكن هناك ممتلكات للفرنجة جنوب طريلس سوى بضعة قلاع وميناء صور والقدس نفسها، وكانت صور على شبه جزيرة، لا يربطها بالساحل سوى شريط ضيق من الأرض؛ وقد هرب إلى هناك جميع البارونات المهزومين، وأقاموا دفاعا قويا، أما القدس، فلم يكن بها سوى فارسين؛ لكنهم رفضوا أن يتركوا المدينة تضيع، مع أن صلاح الدين وعدهم بالصياة والحرية، وكان من بين

اللاجئين الذين اكتظوا في المدينة المقدسة زوجة باليان حاكم أبين وأبناؤه! أما باليان نفسه فكان قد ذهب إلى صور، وطلب من صلاح الدين السماح له بالمرور الأمن كي يحضر أسرته إلى صور، فسمح له بذلك، بشرط ألا يحمل أي سلاح، وألا يقيم سوى ليلة واحدة في القدس. ووافق باليان بحسن نية، وذهب إلى القدس مع أرول؛ ولكن ما إن أصبح هناك حتى كان من المستحيل عليه أن يحفظ قسمه: إذ إن المواطنين ببساطة رفضوا أن يدعوه يرحل. وكان ذلك أمرا مصرجا بالنسبة لرجل شريف، فكتب باليان إلى صلاح الدين شارحا سبب خرقه لوعده، فحله صلاح الدين شارحا سبب خرقه لوعده، فحله صلاح الدين، كدأبه، من قسمه، وقدم حراسة تصحب أسرته. ذلك أن مثل هذه الإيماءة على أهميتها لم تكلف صلاح الدين شيئا، لأن الجميع كانوا يعلمون أن القدس مالها إلى السقوط؛ فكان ذلك نبلاً خالصاً، وعطفاً لا ضرورة له.

وبدأ حصار المدينة المقدسة في ٢ سبتمبر، وفي ٢ أكتوبر، ذكرى صعود النبي محمد إلى السماء، (يقصد الإسراء والمعراج) كتب أحد فرسان الهيكل يدعى تيريك إلى هنرى الثاني، ملك إنجلترا:

"وا حسرتاه! لقد سقطت القدس، وأمر صلاح الدين بأن يتم إنزال الصليب من قمة هيكل الرب، وأن يحمل لمدة يومين في المدينة، ويضرب بالعصبي، وبعد ذلك أمر بأن يغسل الهيكل بماء الورد، من الداخل والخارج ومن أعلى إلى أسفل".

قبل ذلك بثلاثين سنة فحسب، زار صدينة القدس حج ألمانى اسمه جون فورتسبورج. وقال إن المبانى التى يمتلكها فرسان الهيكل عبارة عن مدينة داخل المدينة، وحصن داخل الحصن؛ وكانت الإسطبلات من الاتساع بحيث إنها كان بها ما يزيد على ألف وخمسمائة من الجمال، أو ما يربو على ألفى حصان. وكانت قاعة طعامهم قاعة واسعة مسقوفة، لا تزينها سوى غنائم الحرب – من سيوف وخوزات ومعاطف واقية أخذت من العدو. فتجوات القطط والكلاب فوق الأرضية التي انتشر عليها ورق الشجر الجاف. وكانت عنابر نوم الإخوان غرفًا صغيرة مؤثثة بفراش، ومقعد وصندوق مفتوح لكل فرد منهم.

وفى الخارج هناك حجرات تخزين مسامير الألجمة وفرن صهر المعادن، ومصنع الدروع، وورش الحائك والإسكافي والمخازن والمخبز، والمطابخ وأقبية الخمور، ومخازن العلف - المعفورة في الصخور الطبيعية ومسلخ الحيوانات.

في خلال أسبوع واحد من الفتح الإسلامي، تغير ذلك كله لأن صلاح الدين بذل جهود خاصة لإزالة جميع آثار فرسان الهيكل. وفي يوم الجمعة، ٩ أكتوبر، بعد تنظييف وتطهير المسجد الأقصبي صلى هناك؛ ثم بدأ في التخلص ممن نجوا من الحصيار، ولا يمكن أن يكون هناك نقيض أكبر من هذا مع تصيرف الفرنجة عام الحصيار، ولا يمكن أن يكون هناك نقيض أكبر من هذا مع تصيرف الفرنجة عام ١٠٩٩، إذ كان لا يزال هناك ما يزيد على عشرين ألفا من المسيحيين على قيد الحياة؛ تم أفتداء سبعة آلاف بالمال من الخزانة الملكية والجماعتين العسكريتين، وتم الإفراج ببساطة عن ألف ومائتين؛ وبقى المسيحيون من أهل البلاد في القدس، أما أولئك الفرنجة الذين لم يتمكنوا من دفع الفدية – وكانوا عدة آلاف – فقد صاروا عبيدا؛ ولكن لم يقتل أحد، لو أن هيراكليوس أحسن التصرف، ربما لم يكن هناك عبيد مطلقا؛ لكن الأخلاق لم يكن لها دور كبير في حياته، ذلك أنه دفع فديته من عشرة آلاف قطعة نفية وغادر المدينة، مما أثار اشمئزاز المسلمين والمسيحيين على حد سواء، مثقلا بعب، حقيبة مملؤة بالزهب، ويقود قافلة من العربات المحملة بالبسط، وغير ذلك، ولا يعرف أحد ماذا جرى له بعد ذلك؛ ويكفى تعليق فوار تيرس: "لقد عاش عيشة ملؤها لوذيلة، ومات مغمورا".

ابتداء من معركة حطين حتى سقوط القدس، استغرق فتح فلسطين اثنى عشر أسبوعا وستة أيام. ولم تتبق سوى صور؛ إذ إن صلاح الدين افترض أنها سوف تقع بسهولة كما وقعت بقية المدن، فلم يعبأ بالاستيلاء عليها في وقت مبكر. ومما أذهله كما أذهل الفرنجة أن الوقت كان قد تأخر كثيرا، ففي منتصف يوليه، بعد حطين بعشرة أيام، كان الميناء على استعداد للاستلام؛ ثم أبحرت سفينة إلى الداخل، حاملة كونراد، مركيز دى مونفرا، وشقيق زوج الملكة سيبيلا، من زواجها الأول، وتولى على الفور الدفاع عن المدينة، وشغل جيش المسلمين بالفنائم الأكثر سهولة.

وفى نوفمبر، بعد أن أخضع صلاح الدين بقية البلاد، عاد إلى أسوار صور؛ لكنها حينذاك كانت قد قويت كثيرا، وأصبحت المدينة جيدة التنظيم، فلم يتمكن المسلمون من اقتحامها. وفي يوم من العام الجديد، ١٨٨٨، رفع صلاح الدين الحصار الثاني عن صور، وعاد بجيشه إلى الداخل. لقد بدأ عام ١١٨٧ بالخيانة والدسائس في بلاد ما وراء البحر، وفي نهايته لم يتبق شيء من مملكة القدس اللاتينية؛ لا شيء سوى عظام جافة متناثرة في أنحاء قرون حطين – وميناء واحد عبارة عن شبه جزيرة. بالنسبة للمسلمين، لم تكن صور سوى مجرد مصدر ضئيل للإزعاج؛ أما بالنسبة للمسلمين، لم تكن صور سوى مجرد مصدر ضئيل للإزعاج؛ أما بالنسبة للفرنجة، فكانت الصخرة الأخيرة، والأمل الوحيد.

الفصل الثامن

قلب الأسـد قبرص والأراضى المقدسية، ١١٨٩ – ١١٩٣

نيس للموتى ولا للسجناء أصدقاء ولا أقارب ريتشارد قلب الأسد، في أسره.

مع تفكك فلسطين الإفرنجية في خريف عام ١٩٨٧، تجمع فرسان الهيكل الذين تم اجتياح أراضيهم في صبور، وكان تيريك من بينهم، وهو الذي كان قد كتب إلى هنرى الثانى ملك إنجلترا؛ إذ كان هو مدير الهيكل في القدس، وفي أثناء أسر دى ريدفور تولى مسئولية الجماعة. وفي صبور، تعاون مع كونراد دى مونفيرا، إذ كان يشهد على الوثائق القانونية، وينظم دفاعات المدينة، ويقوم بكتابة مناشدات حادة إلى الفرب. وبدا أنه يعمل بشكل جيد مع ريدفور - عمومًا، لم نجد انتقادا من أيهما للأخر. ذلك أن الوضع الذي وجدا نفسيهما فيه يتطلب التعاون؛ غير أن العلاقة الجيدة لم تدم. ذلك أن ريدفور عاد في أوائل عام ١٩٨٨ إلى فرض إرادته على فرسان الهيكل مرة أخرى؛ إذ كان قد نال حريته بعد أن أمر إخوانه في غزة بتسليم القلعة لصلاح الدين. وفي يولية، تم إطلاق صراح جي دى لوزينيان أيضا.

وبعد ذَاك بوقت قصير، كتب كونراد لرئيس أساقفة كنتربرى، ويبين خطابه الأثر الذي كان يتمتع به جي ودي ريدفور. إذ قال: "إنك تعلم ماذا تكلفت كى أدافع عن المسيحيين في صدور؛ ولأنى أكافح كى أحتفظ بهم هناك، فإن دى لوزينيان، الملك السابق يهاجمنى هو وباروناته ومعلم الهيكل: وهم لا يكتفون بتلطيخ سمعتى، والقدح في شرفى، بل يعترضون المساعدة المضرورية بالنسبة لى؛ والأسوأ من ذلك أن دى ريدفور استولى على صدقات ملك إنجلترا، ويرفض أن يعطيها لى".

لم يكن التعليق الأخير حقيقيًا، ذلك أن فرسان الهيكل كانوا قد أنفقوا جميع حصيتهم من صيدقات هنري في الأعداد لحطين، وفي الفديات في القدس - مع أنه من الجائز جدا أن يكون دي ريدفور قد ادعى، ببساطة من قبيل الحقد، أن الأموال لا زالت موجودة، وبتم صحيها . لكن بقية الشكوي كانت صادقًا؛ وأهم ما فيها عبارة "الملك السابق". إذ كان جي يظن أنه، طالما كان ملكا ذات مرة، فهو ملك دائما، اذا فحين تم إطلاق صراحه ذهب راكبا إلى صور، كي يتحكم فيما تبقى من مملكته. ومهما يكن من أمر، فإن كونراد كان يعلم أنه يحسن التصرف بشكل أفضل من جي، ورفض التخلي عن السلطة، بل رفض السماح لجي بدخول المدينة. ولمدة عام كامل، ظل الملك الشرعي غير قادر على الحكم، وبدون كونراد كان من الممكن فتح الملكة. وكان كونراد يعتبر أن جي فقد حقه في الحكم؛ وأن العرش خال، في انتظار كتابة اسم كوبراد عليه. وكان في ذلك ما يكفي لإحياء المنافسة القديمة؛ فعظام رينولد دي شاتيون ترقد في حطين، ويقال إن ريمون من طربلس مات خجلا، ولكن فرسان الهيكل بقيادة دي ريدفور ما يزالون يدعمون جي، وكان أهل صور عندئذ قانمين بكونراد. وبدا لهم أن جي لم يكن قط ملكا محظوظا، ومما زاد من فداحة الانشقاق انتشار شائعات بأن دى ريدفور وعد صلاح الدين بأنه سوف يعتنق الإسلام.

ولم ينتظر جى طويلا مع انفلاق بوابات المدينة فى وجهه، ولكن بعد قضاء الشتاء فى طربلس، عاد إلى معور فى ربيع عام ١١٨٩ وجدد مطالباته. ولما تم تجاهله ورفضه كما حدث من قبل أقام معسكرا خارج أسوار المدينة. وفى نفس الوقت تقريبا، وصل أسطول من بيزا يتكون من خمس وخمسين سفينة، وهذا يعد دعما مهما لكونراد؛ ذلك

أن المساعدة الوحيدة التي جاحة من الغرب كانت كتيبة من صقلية في العام السابق. ويقى جي أمام المدينة لمدة أربعة أشهر عديمة الفائدة، وفجأة في نهاية أغسطس نفد صبيره، ورحل - أخذا دي ريدفور صعه، وكذلك فرسان الهيكل والأسطول البيزي والصقليين. ولما كان البعض يباركون كونراد كمخلص، ويلعنه البعض الآخر كغاصب، لم يكن في وسعه فعل أي شيء سوى مراقبتهم وهم يرحلون، ثم يكتب شكواه المريرة. وكان جي قد قرر الذهاب إلى عكا. وعكا شأنها شأن صور، كانت مبنية على شبه جزيرة؛ لكنها تختلف عن عكا من حيث إن المسلمين كانوا يستولون عليها. لكن جي الذي كان لديه أسطول كبير يحاصر به أتجاه البحر، وجيش يغطى اقتراب الأرض، أعتقد أنه يستطيع محاصرة المدينة والاستيلاء عليها. وكان قراره إيماءة تحدي كبيرة وشجاعة في وجه كونراد؛ فهو كملك بلا مملكة لم يكن لديه الكثير الذي يخسره، سوى حياته. أما النجاح في عكا فمن شأنه أن يقدم له قاعدة مناسبة، ومصداقية لم يتمتع حياته. أما النجاح في عكا فمن شأنه أن يقدم له قاعدة مناسبة، ومصداقية لم يتمتع جها من قبل.

من المؤكد أنه شجاع، لكنه أيضًا متهور، ذلك أن جى كان يعول على انشغال مسلاح الدين فى مكان آخر، أن كل شيء فى هذا القرار – بما فى ذلك من تهور وافتقار واضح إلى التفكير يوحى بأن من زرعه فى عقل جى، هو حليفه العبقرى الشرير دى ريدفور. ذلك أن دى ريدفور المهووس، المتصلب، الخالى من التعقل، ربما ظن فى ذلك الوقت بأنه باعتباره معلم ميليشيا الرب يحمل تعويذة للحياة. فالحظ، من قبل، كان يدفع به إلى الأمام – فى كريسون، وفى حطين، وفى سجنه. أما فى هذه المرة فقد خذله. لقد بدأ حصار عكا فى ٢٧ أغسطس. وكادت المدينة تسقط تحت المرة الأولى؛ غير أن الفرنجة لم تكن لديهم ألات حصار، فلم يتمكنوا من تأكيد الميزة التى أتيحت لهم. وكان الأمل فى ألا يعير صلاح الدين أى اهتمام ضربا من ضروب الجنون، فكان هناك فى خلال اسبوع، والفرنجة، الذين يحيطون بعكا برا وبحرا، كان خلفهم أيضًا جيش من المسلمين. وفى ٤ أكتوبر اصطدم الجيشان، ولم وبحرا، كان خلفهم أيضًا جيش من المسلمين. وفى ٤ أكتوبر اصطدم الجيشان، ولم وبحرا، كان خلفهم أيضًا جيش من المسلمين. وفى ٤ أكتوبر اصطدم الجيشان، ولم وبحرا، كان خلفهم أيضًا جيش من المسلمين. وفى ٤ أكتوبر اصطدم الجيشان، ولم يكن القتال حاسمًا؛ ولكن فى أثنائه، تم أسر دى ريدفور مرة أخرى، وألقى به فى

السبون مرة أخرى، ولم يعد. والجنون شيء نسبي؛ ويمكن تعريفه بأنه اقتناع طاغ يختلف عن الاعتقاد الذي يعتقده عامة الناس، وفي عصرنا، الذي يفتقر إلى العقيدة الدافعة في بلدان المسيحية في العصور الوسطى يمكن أن تبدو قصة الحروب المعليبية بأكملها ضربا من الجنون – ذلك أن الكثير من الطاقة والجهد والكثير من الأرواح بددت على تلك القطعة الصغيرة من الأرض التي تسمى الأراضي المقدسة. أما بالنسبة لهم، لم يكن هذا جنوبنا، لأنهم كانوا يعتقدون أن هذه الأرض مقدسة. ولكن دى ريدفور، آخر معلم منتخب لفرسان الهيكل، في القدس، ربما كان مجنونا بالفعل.

وما إن ولى، بدا أن حظ جى يتغير، ذلك أنه مع اقتراب الشتاء، مرض صيلاح الدين، وسرح جزء من جيشه، وتراجع إلى الداخل مع من بقى، وعلى الرغم من أن المسلمين في عكا دعموا دفاعاتهم، ولم يكن هناك أى تدخل مباشر متوقع من الغرب رفض إرسال رجال ضد الفرنجة في الوقت الذي لا يمكنه فيه أن يكون في القيادة. وقال، "إذا لم أكن هناك معهم، لن يحققوا شيئا مطلقا، وقد يضر ذلك أكثر مما يفيد". فحفر رجال جي الخنادق، وبنوا تحصيينات من الطين، واستعدوا لخنق عكا خنقا بطيئا. لو أنهم عرفوا ما ستستفرقه هذه العملية ربما لم يكونوا ليبدءوها أصلا؛ ذلك أنه حين وصلت الحرب الصليبية الجديدة بعد عامين، كانوا لا يزالون هناك. وكان الأوربيون قد ألغوا منذ وقت طويل رفض الأنباء السيئة المعتادة، والتوقعات الأكثر سوءًا، التي كانت تأتى من الأراضي المقدسة. وأخيرا كان للأنباء الفظيعة عن حطين أثرها - بلبلة مرتبكة من الندم. وكتب المؤرخ توماس فوار معلقا:

"لقد انتجب الكرادلة نحيبا يفوق الوضف، مقسمين على إصلاح الأخلاق؛ وألا يتلقوا الرشى أبدا، وألا يحيوا حياة الرذيلة؛ أجل، وألا يركبوا حصانا ما دامت الأرض المقدسة تحت أقدام الأتراك. غير أن هذا الانفعال تبدد بما فيه من عنف، وانتهى إيمان هؤلاء البحارة مم العاصفة".

وفي أكتوبر عام ١١٨٧، وحتى قبل أن تصل أخبار القدس إلى روما، كان البابا جريجوري الثامن يناشد الناس من أجل شن حرب صليبية ثالثة. وصدرت عن أمراء أوربا – خاصة هنرى الثانى، ملك إنجلترا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا – أصوات ضبيج عن التقوى والورع؛ بل إن هنرى قرر "عشور صلاح الدين" عبارة عن ضريبة مقدارها عشرة فى المائة على دخل كل شخص من غير رجال الدين فى مملكته، كى يدفع المال من أجل حرب صليبية. ولكن فى البداية لم يحدث الكثير غير ذلك. إذ تم جمع المال بنجاح، مع أنه وقعت فضيحة حين صاح أحد فرسان الهيكل بأن جيلبيرت من هوكستون حاول اختلاس المال الذى كان فى عهدته؛ ومع ذلك لم تقع حرب صليبية. وكان السبب هو الحرب شبه الدائمة بين إنجلترا وفرنسا؛ كانت قد خمدت بعد الصدمة الأولى لسقوط القدس، ثم اشتعلت مرة أخرى بعد أشهر قليلة، مما أبقى على الملكين داخل وطنيهما. ولكن ثمة شخص واحد كان قد أخذ الصليب وقرر رطته إلى الأراضى المقدسة والأعمال التى قام بها هناك اسما جديدا: ريتشارد قلب رطته إلى الأراضى المقدسة والأعمال التى قام بها هناك اسما جديدا: ريتشارد قلب الأسد – ملك إنجلترا.

ومن المفارقة أن يصبح ريتشارد أحد أبطال إنجلترا الشعبيين، ليس فقط لأنه لم يكد يعيش في إنجلترا، بل كاد يجعل البلاد أقرب إلى الفقر، بل أنه لم يكن يتكلم الإنجليزية. في محاولة فهم ريتشارد ورد الفعل الشعبي الإنجليزي عليه – وفي محاولة لمس قلب الأسعد – على المرء أن ينقب في الحكايات والأسساطير التي دارت حوله وأحاطت به. ذلك أن معظم هذه الحكايات خلقت بعد وفاته بأربعمائة سنة، فتم تكبير الأحداث الحقيقية، كما الصقت أحداث خيالية. ذلك أن كتاب القصيص الخيالية استعاروا من الكثير من الحكايات عن الشخصيات الحقيقية، أو الأسطورية وأطلقوا المنفسهم العنان في مقارنة ريتشارد بأبطالها – من أمثال شارلمان، ورولاند، وأرثر، وروبين هود. وإذا ما تغلغل المرء في هذه الزخارف، سوف يقف وجها لوجه أمام رجل أقرب مواز له هو البارون اللص رينولد دي شاتيون. بل إنه لو توفر لدى رينولد بعض الشاعرية داخل نفسه والقليل من الدعاية، لكان من المكن أن يكون بطلا شعبيا مثل الشاعرية داخل نفسه والقليل من الدعاية، لكان من المكن أن يكون بطلا شعبيا مثل ريتشارد، فأفعالهما متشابهة بشكل ملحوظ. أما الفروق، فأولا، كان دافع رينولد في

المقام الأول هو الطمع، في حين كانت أفعال ريتشارد بها قشرة سميكة من الدين؛ وثانيًا، فإن ريتشارد، كملك أوربي، كان يتحكم في جمهور أكبر من رينولد – وهو، فوق ذلك، جمهور بعيد بشكل مريح، عن موقع الأحداث؛ وهو أكثر ثقافة وتهذيبًا عن جمهور رينولد؛ وهو مستعد للاحتفاء بأبطاله بالغناء والشعر والنثر.

ولد في إنجلترا في سيتمير عام ١١٥٧، وكان ريتشارد هو الابن الثاني لهنري الثاني ولينور من أكوتين التي طلقها اويس الشاب ملك فرنسا عام ١٩٥٢ بعد عودته من الحرب الصليبية الثانية عديمة الجدوى. ونشأ ريتشارد فرنسيا أكثر منه إنجليزيا، إذ كان يعيش في بلاط أمه في بواتيي، ويتعلم مثله. وكان، كرجل، تجسيدا لهذه المثل – إذ كان طويلا، قويا وأنيقاء له شعر أحمر ذهبي؛ وكان جم الطاقة؛ وفارسا ممتازا، يتقن استخدام السيف؛ كما كان سريم الانفعال، لكن تسهل تهدئته – خاصة يواسطة الذهب؛ وكان قائد معركة من الطراز الأول، شهما مع النساء وشاعرا جميلا في البلاط، أي أنه كان تجسيدا لعصره، وتعد مصادر شهرته في الفروسية والشهامة الرومنسية أقارب إلى فرنجة فرنسا وإنجلترا منها إلى فرنجة فلسطين. ذلك أن مشكلات فلسطين أكثر إلحاحا من العثور على قافية للغناء؛ بالإضافة إلى ذلك، فإن نصف مغامرات ريتشارد حدثت خارج الأراضي المقدسة، في رحلاته إلى هناك والعودة منها. إذ مرت أربع سنوات بين تلقيه الصليب وومبوله إلى عكا، بالنسبة للبلاط الرومانسي في بواتيي، فإن الصليبي الكامل، الذي كان في وقت من الأوقات يعد نموذجه فارس الهيكل الورع المتقشف، بدأ الآن قديم الطراز قليلا، ولكن إذا ما قام الرجل ببعض الفتوحات العارضة في طريقه، وهو ذاهب لمقاتلة الكفار، عندئذ، يكون ذلك أفضل. أما بالنسبة للإنجليز، فكان الأمر لا يزال أكثر بساطة، ذلك أنهم، حتى في ذلك الوقت كان لديهم إحساس متطور بالقومية. وقد يكون ريتشارد نصف إنجليزى بالمولد، وتقريبا فرنسيا كله بالتربية؛ غير أن هذا لم يكن مهما؛ إذ إن تتويجه جعله إنجليزيا كله، وجعل من شخصيته مثالا "لجميم فرسان إنجلترا البواسل"، حتى ذلك الوقت كان الإنجليز قد لعبوا دورا صغيرا نسبيًّا في المروب الصليبية؛ ولكن ما

إن أعطاهم ريتشارد دورا قوميًا في المشروع، حتى كالوا له الثناء بحيث يغتفر للمرء أن يظن أنه هزم جميع المسلمين وحده.

لقد أصبح ملكا على إنجلترا في ٦ يوليه عام ١١٨٩، وتم تتويجه في ٣ سبتمبر. فشرع مباشرة في إعادة تنظيم الملكة، والاستعداد للمرب المقدسة، "عن طريق ألف مهارة أميرية جامعًا الكثير من العملات وكأنما لا ينوي إعادتها". وأخيرا أمكن البدء في حربه الصليبية.

وكان فيليب أغسطس ملك فرنسا قد حزم أمره أخيرًا بأن من الخير اسياساته أن ينضم خيرًا من البقاء في الخارج؛ وبذلك لم يكن المشروع ملكًا لريتشارد، أو حتى ملك لإنجلترا؛ غير أن فيليب كان رجلا هادئا لا يحب التظاهر، ولما كانت شخصية ريتشارد المشعة هي التي سادت الحرب الصليبية، بدا وكأنه، هو الوحيد الذي شارك في الحرب.

وغادر المكان من فيزيلى فى فرنسا فى ٤ يولية ١٩٩٠، – بعد ثلاثة أعوام بالضبط من معركة حطين. ويعد ليون بمسافة قصيرة اتخذ كل منهما طريقا مختلفا إذ اتجه فيليب إلى جينوا، أما ريتشارد فاتجه صوب مرسيليا، حيث انتظر أسطول كل منهما على حدة انقلهما مع جيشيهما إلى بلاد ما وراء البحر. وكانا قد قررا فصل الرحلة فى صقلية؛ فذهب فيليب مع رجاله بحرا، ووصلوا بعد رحلة أمنة عند ميسينا فى ١٤ سبتمبر. أما ريتشارد فقد كان هناك بالفعل. فهو، شأنه شأن رينولد دى شاتيون كان لا يحب البحر، وقرر فى آخر لحظة أن يسافر برا من خلال إيطاليا فى حين سافر رجاله بحرا، وفى أثناء مروره بإحدى القرى حاول سرقة أحد الصقور، فهجم عليه صاحبه وكاد يقتله. ففر، لكن هذا الحدث غير اللائق دمغ رحلته بأكملها، وحين وصل إلى ميسينا فى ٢ سبتمبر، لم يكن يشعر بأى ندم، وكان فى حالة مزاجية فياية فى السوء.

وحدث أن أخته المفضلة، جوانا كانت في صقلية، تقريبا سجينة عند تانكريد اللك، وكان رد فعل ريتشارد دائمًا حادا في الإهانات، على أنه، هو شخصيًا كان

يسب الناس بحرية؛ وعلى الرغم من إطلاق تانكريد الفورى لصراح جوانا كان عمل ريتشارد الثانى فى حربه الصليبية هو الاستيلاء على مدينة إيطالية صغيرة نيابة عن أخته. وتبع ذلك بأن وضع قواته فى دير صقلى ملقيا الرهبان فى الخارج بالقوة، وكان هناك اعتقاد شائع فى إيطاليا وفرنسا بأن الإنجليز لهم أذيال، ولم تكن طبيعة ريتشارد الحادة لتتحسن عند سماع الصقليين يرددون هذا الرأى. وفى ٣ أكتوبر قام رجاله بنهب ميسينا، ورفرفت رايته فوق البلدة.

ولم يكتف ريتشارد بإزعاج الملك الذي يستضيفه، تانكريد، بل راح يسيء إلى الملك فيليب شريكه في الحرب الصليبية، ذلك أنه كان هناك تقاهم منذ عدة سنوات بأن ريتشارد سوف يتزوج من أخت فيليب أليس؛ والآن، أعلن أنه لا يوجد ما يحمله على فعل ذلك، ولكن بشكل لا يعقل، – كما تقتضى أساليب السياسة – ابتلع فيليب الإهانة؛ وأعطى تانكريد اريتشارد وجوانا عشرين ألف أوقية من الذهب أكل منهما؛ وقضوا جميعا الشتاء على الجزيرة الصغيرة.

غادر فيليب صقلية في ٣ مارس، أما ريتشارد فغادرها في ١٠ إبريل عام ١١٩١، وبقى إخوان فرسان الهيكل والإسبتاليون مسئولين عن ميسينا. وكما حدث من قبل، كانت رحلة فيليب بطيئة وسالمة؛ لكن ريتشارد بدا وكائه يجتذب المتاعب والأحداث أينما ذهب. ذلك أن رياحا عاتية وأمواجا عالية بعثرت أسطوله. وغرقت إحدى السفن، واثنتان قزف بهما على قبرص، وتوقف ريتشارد نفسه أولا في كريت ليوم واحد، ثم توقف لمدة عشرة أيام في رودس. ومرض جدا في أثناء العاصفة حتى أنه كاد لا يفكر في رحلة بحرية أخرى، ولم يغادر رودس بحرا إلا لأنه لم يكن هناك طريق آخر. وبعد أن أرسل بنبأ إلى عكا بأنه سوف يصل قريبا، توجه إلى قبرص – لأن السفن التي أن أرسل بنبأ إلى عكا بأنه سوف يصل قريبا، توجه إلى قبرص – لأن السفن التي بيرجينجاريا من نافار، وكان الوصول إلى البر في ٨ مايو. وكان إمبراطور قبرص بيرجينجاريا من نافار، وكان الوصول إلى البر في ٨ مايو. وكان إمبراطور قبرص الذي نصب نفسه، إذاك، قد منع جوانا وبيرجيناريا من نزول الجزيرة، وبعد أن قضى ريتشارد أيامًا كثيرة في البحر، كان يشعر بالرغبة في الانتقام. وفي ١ مايو، وصلت

السفن من الأراضي المقدسة، تحمل فرسان هيكل من أرفع الرتب، كما تحمل جي دي لوزينيان، المفعم بالأمل والمتلهف للمساعدة. وفي اليوم الثاني عشر، تزوج ريتشارر وبيرجيناريا ملكة إنجلترا؛ وفي اليوم الثالث عشر، حين وصلت بقية سفن ريتشارد، وبمساعدة جي، وفرسان الهيكل بدأ هجوما شاملا على الجزيرة. وقبرص، قبرص القابعة في البحر، عبارة عن جزيرة صغيرة: إذ تزيد مساحتها قليلا على ٣٥٠٠ ميل مربم، غير أنها ليست بالمكان الذي يمكن اختزاله في عبارة واحدة، سواء في الواقم أو الخيال. في الأزمنة القديمة كان شكلها يقارن بأحشاء علقت كي تجف. فعلى الساحل الشمالي، هناك كيرينيا بما بها من تحصينات ضخمة فينيسية ترتفع من شاطئ البحر. وفي الجنوب توجد ليماسول، حيث نزل ريتشارد، وخليج بافوس القديم، حيث ولدت أفروديت. وإلى الغرب، في شبه جزيرة أكاماس، توجد الكهوف التي حفرها القديس نيوفوتوس، وحيث كتب عن "سحابة الإنجليز" الذين غزوا الجزيرة. وإلى الشرق، توجد شبه جزيرة كاربازيا، التي يمكن للمرء أن يرى منها، في يوم مساف جبال لبنان؛ وفي وسط الجزيرة توجد جبال ترويوس، بما بها من مناجم نحاس قبيحة فاغرة فيها، ونيقوسيا، العاصمة؛ وبين قمم الجبال المليئة بالرياح، ومسمت البحر وصخبه، يبدو أن هناك كل منظر وكل خضرة - من حقول حنطة، وبساتين غريبة من المشمش والموالم؛ مزارع لوز وزيتون؛ وخلايا نحل؛ وغابات صنوبر، وشقائق نعمان، وشجيرات، ويلوط ذهبي وأشجار كرز. وتوجد كنائس وأديرة في كل مكان، الكثير منها مهجور أو محطم.

وفى الوقت الذى نزل فيه ريتشارد قلب الأسد فى ليماسول، كانت حضارات ميسيناى، وفينقيا، وروما ومصر وبيزنطة قد تركت آثارها على قبرص، وعلى بعد بضعة أميال من ليماسول، تحت أمواج خليج أكوتيرى، تقع مدينة أماتوس الفارقة؛ وإلى الغرب في كوريوم، يوجد ضريح أبول الروماني، في الغابات، ومذبحه لا يزال في مكانه. وبقيت قنوات وحمامات واستاد يتسع لستة آلاف من البشر. أما الشيء الأكثر غموضا من أي من هذه الأشياء، فهو قصر فوني، في الشمال بجانب خليج نورفو، إذ

توجد الجدران، والشرفات، والأفنية، والحمامات، والممرات وبثر السلم، التي يرجع تاريخها جميعا إلى القرن الخامس ق.م. ومع ذلك، لا يعرف أحد على وجه الدقة من بناها، ومن كان يعيش هناك، ومن أين جاء هؤلاء الناس. لقد كان احتلال فرسان الهيكل هو أقصر احتلال في تاريخ هذه الجزيرة، كما أنهم تركوا أقل ما يمكن أن يتركه أحد: كنيسة صغيرة في فاماجوستا، وبعض الصخور الحفورة في كندرائية القديسة سوفيا في نيقوسيا، وفي الخارج في شبه جزيرة كاربزيا تركوا قلعة تسمى كاستريا، لا يبقى منها سوى الأساس، ليس ثمة ما هو أكثر من ذلك؛ إذ يبدو أنه لم يكن هناك وفاق تقريبا بين قبرص وفرسان الهيكل، ذلك أنها، بالنسبة لهم كانت دوما جزيرة منكودة الطالع؛ أما بالنسبة لريتشارد قلب الأسد، فكانت عكس ذلك تمامًا: لقد جلبت عليه قبرص شهرة أكبر وثروة أكبر مما كان لديه في أي وقت من الأوقات. وتم ذلك بسرعة أيضًا، ذلك أن فتحه المرح الصاخب لم يستغرق أكثر من ثلاثة أسابيع.

ففى نهاية ١٩٩١، كانت الجزيرة بأكملها فى يدى ريتشارد، واستسلم الإمبراطور إذاك. ولم يشترط إذاك سبوى شبرط يثير الشفقة إلى حد ما – هو ألا يقيد بالحديد؛ فوضعه ريتشارد فى أصفاد من السالاسل الفضية كنوع من الفكاهة الثقيلة، وفى ه يونيه، بعد أن وضع إزاك فى الأصفاد، وبعد أن تبع جى وفرسان الهيكل، وصارت ثروات قبرص فى قبضة ريتشارد، وأسندت مسئولية قبرص إلى اثنين من الإنجليز، أبحر ريتشارد مرة أخرى – هذه المرة إلى عكا، أخيرا.

ولا بد أنه كان يشعر بالسعادة لأن الرحلة لم تستغرق أكثر من ثلاثة أيام. ومع ذلك، ففى هذا الوقت القصير جدا، تمكن من الدخول فى قتال، هذه المرة مع غليون (من القرون الوسطى) عبارة عن سفينة مؤن كبيرة المسلمين تحمل الطعام إلى عكا. وأغرق الغليون – للأسف قبل التمكن من إفراغ شحنته – وقتل طاقمه، أو ماتوا فى أثناء الغرق. وبالطبع خرجت حكايات عن هذه الحادثة؛ وتروى هذه الحكايات عن ريتشارد وهو موليا ظهره إلى الشراع، حيث قتل الجميع سوى ثلاثين من الطاقم الذى

كان يتكون من ألف وستمائة. من الواضح أن دوره لم يكن بكل هذا الصجم؛ لكنها كانت أول مرة يقاتل فيها مسلمين حقيقيين. ويبدو أن هذا أفهمه معنى الحرب المقدسة: إن هناك أناسًا حقيقيين لا يشاركونه العقيدة، وهم على استعداد لأن يقتلوا كي يحموا عقيدتهم. وهكذا، فحين وصل إلى عكا في ٨ يونية عام ١١٩١، كان مدربًا ومشحونًا، ومستعدا ومتحرقا للبدء في القتال. وكل ما كان في حاجة إليه هو أن يتغلب على دوار البحر.

أما فيليب ملك فرنسا فلم يكن رجل حرب؛ وكان يفضل مؤامرات السياسة ودسائسها على المواجهة في المعركة، وفي أثناء الأسابيع السبعة بين وصوله ووصول ريتشارد، تلهى بعمل ماكينات حصار محكمة. كما كان أيضا، شخصًا وضيعًا، ولم يدفع لجيوشه أكثر من الكمية المتفق عليها؛ وكانت معقولة بالقدر الكافى، ولكن في حصار دام عامين، كان لا بد من شيء إضافي لضبط الميزان. هذا القدر قدمه ريتشارد.

وكانت شهرة ريتشارد قد سبقته، ومجرد كونه في عكا، جعله يجلب بعض الطاقة للحصار المعتل، الذي كان في ذلك الوقت قد بلغ أسبوعه الثالث والتسعين وانحدر حتى صار جموداً لطيفاً، إذ كان الأطفال من المسلمين والمسيحيين يلعبون معا بين الخطوط، وكان المحاربون من الجانبين يبدءون مبارزات فردية، ثم يترقفون الدردشة. لكى يكسب المرء حربا، لا يجب أن يعيش أقرب مما يجب من العدو؛ فهو يصبح إنسانيا، وكثيرا ما يصبح محببا إلى حد ما. أما نظرة ريتشارد إلى المسلمين، فهى طبق الأصل نظرة القادم الجديد، إنها نظرة جديدة وواضحة؛ إذ لم يكن لديه وقت كي يتطهر من التعصب الفكري - بل إنه كان قد اندفع إليه حديثاً، فذكر وجوده المسيحيين بئن جيرانهم هم في الواقع أعداؤهم، بل هم أعداء من نوع مقيت بشكل خاص: إنهم كفار أسروا الصليب الحقيقي. لقد كان في وسع فيليب أن يكون غيورا بقدر ما هو وضيع. وكانت آلاته وماكيناته جاهزة؛ إذ إن ريتشارد كان قد أهأنه في صقية، ومم ذلك، كان يتمتم بشعبية تفوق شعبيته. لذا دون أن ينتظر إلى أن

يتحسن الملك الإنجليزي، قام بشن هجوم اشترك فيه فرسان الهيكل، هذا الهجوم يتم تذكره بسبب مظهره أكثر من أثره،

لقد كتب أحد المشاركين: "يمكنك رؤية عدد غير مفهوم من المسلحين، وكانت هناك الكثير من السترات المعدنية اللامعة، والكثير من الخورات المتلألئة، والكثير من الخيول الأصيلة تصبهل، والكثير من العباءات البيضاء، والكثير من الفرسان المدربين، الجسورين، والكثير من الرايات، حتى أنه لم يظهر قط مثل هذا العدد". ولكن على الرغم من هذا الاستعراض، لم ينجح الهجوم، فبعد القتال طوال النهار – وكان اليوم هو الاثنين، ١٧ يونية – ألقى الفرنسيون أسلحتهم وويخهم الأتراك بخبث، وأغاظوهم بأنهم لم يكملوا ما بدأوه، بل إن الأتراك قذفوا نيرانهم الإغريقية، ورويدا رويدا، دمروا ماكينات ومعدات الحرب التي صنعها الملك الفرنسي بكل عناية. فغلبه ما كان يحس به من غضب وغل حتى إنه سقط فريسة للحزن، ولم يتمكن حتى من امتطاء حصان من فرط ما أحس به من اضطراب وحزن".

وبعد ذلك بعدة أسابيع، حين شفى ريتشارد بالقدر الكافى بحيث يفكر فى القيام بمحاولة أخرى، كان فيليب لا يزال حزينا بحيث إنه لم ينضم إليه. وفى كل الحالات، كانت طريقة ريتشارد شيئا لا يمكن لفيليب المقتر أن يهضمها، فكتب نفس مدون الأحداث:

"فقرر (ريتشارد) إنه، ما دام في عالم الأعمال يتقدم العمل من خلال الامتياز، فيمكنه جذب أرواح الشباب عن طريق إعطاء المكافئة، بدلا من إصدار الأوامر عن طريق القادة. فمنذا الذي لا يجذبه عبير المال".

كانت فكرة ريتشارد غاية في البساطة: رفع أجر الجنود، وقدم منحة، أولا من قطعتين من الذهب ثم ثلاثة ثم أربعة، مقابل كل صخرة تزال عن أسوار عكا. وكان ذلك في استطاعته؛ إذ إنه امتلك الكثير من المال حين غادر إنجلترا، كما جعلته فتوحاته العارضة تقريبا لمسينا وقبرص شديد الثراء، ونجحت الفكرة. إذ تم إسقاط أحد

الأبراج الدفاعية، فقد أضعفته النار من أسفل، وتدافع من الصخور من أعلى؛ ثم اندفع الشباب وهجموا مجموعات نحو الجدار، وحين كانت المحخور تقتلع، كانوا يستمرون في تلهف، طمعا في الثناء وكذلك الأجر. بل كانوا يعملون بشجارة بين قذائف الأعداء، وجرح الكثيرون منهم؛ وأخرون بقوا بعيدا عن الخطر، خوفا من الموت، لكن بعضهم دون حماية من درع أو أسلحة، دفعوا بالأتراك بعيدا برجولة عن السور. لقد كان ذلك السور شاهق الارتفاع، وشديد السمك، غير أن الشباب أزالوا الكثير من الصخور...." لقد بين ريتشارد للفرنجة الفوائد العملية من الفتح، وأنها أكثر جاذبية من متطلبات الواجب أو اعتبارات الدين غير الملموسة، واشتد القتال بحرا وبرا، مما خنق المدينة، جاعلا المسلمين في البر الرئيسي في الخليج؛ فاستسلمت الحامية في ١٢ يولية، وكان الحصار قد دام لثمان وتسعين أسبوعا؛ أما ريتشارد فكان موجودا هناك يولية، وكان الحصار قد دام لثمان وتسعين أسبوعا؛ أما ريتشارد فكان موجودا هناك

كانت شروط السلام صارمة، إطلاق صراح المسلمين المحاصرين، ولكن لا يستطيعون أخذ أى شيء من المدينة عدا ما يرتدون من ملابس، أما الأسلحة، والأثاث، والطعام، والمال -- وكل شيء آخر يجب أن يبقى، وتم افتداء المسلمين الذين أسرهم الفرنجة مقابل ٢٠٠٠٠٠ قطعة من الذهب؛ والصليب الحقيقي ومعه ألف ومائة من المسيحيين الأسرى الذين حددت أسماؤهم، تتم إعادتهم إلى الفرنجة؛ والإبقاء على ألفين وسبع مائة من المسلمين كرهائن، إلى أن يتم الوفاء بجميع الشروط؛ وتم تحديد الموعد النهائي بالشروط بنهاية الشهر -- أي بعد أقل من ثلاثة أسابيع.

فى البداية، سار كل شىء بشكل لين سهل، إذ تم تسليم الرهائن المسلمين، وأجليت المدينة. وريتشارد الذى كان دائما مستعدا لاحترام المحارب الجيد، تماما كما كان مستعدا دائمًا إلى إهانة المحارب الضعيف، أصدر أوامره ألا يجرح أحد أو يسيء إلى المسلمين الراحلين. غير أن هذا الأمر لم يكن ضروريا؛ فالمسيحيون كانوا مفتونين بمنظر خصومهم، وكانوا يعرفون بعضهم، وكتب شاهد عيان:

"فى ذلك اليوم الحرج كانت استقامة الأتراك جديرة بالإعجاب، وكذلك شجاعتهم العظيمة... والآن، وهم يعبرون الأسوار العالية فى طريقهم إلى خارج المدينة، كانت أعين المسيحيين المحبين للاستطلاع والذين كانوا يعجبون بهم بوصفهم جنوداً، يحملون لهم الذكريات. وكان مظهرهم، وهم يخرجون خاوى الوفاض، من المدينة تقريبا، بما فيه من جلال وكرامة مثيرا المدهشة. فعلى الرغم من أن الضرورة القصوى أضعفتهم فأنزات قدرهم إلى مستوى المتسولين تقريبا، فإن ما يتسمون به من ثبات لم يختف؛ بل بدا أنهم منتصرون بروحهم العالية".

لقد كان هؤلاء النازحون محظوظين. ذلك أن معاهدة السلام قد عقدت دون موافقة صلاح الدين؛ فقط الاتصال الوحيد بينه وبين المدينة المنكوية عن طريق إرسال رجل يسبح من الساحل خلال حصار الفرنجة عند مدخل المرفأ، فأحضر مثل هذا الرجل إلى صلاح الدين نبأ المعاهدة المقترحة، وكان صلاح الدين يقوم بكتابة رسالة يمنع فيها التسليم حين رأى أعلام المسلمين تنزل من فوق الأسوار وتحل محلها رايات إنجاترا وفرنسا.

وسنواء تم السنماح بالمعاهدة أم لم يتم، فقد وقعت، وباسنمه؛ فوافق على الالتزام بها.

وحين أفرغت المدينة، تزاحم المسيحيون إلى الداخل، وتدافعوا في الشوارع، وهم يصب حون، ويغنون ويرقصون، ويركب المكان على رأسهم - ريتشارد بطل الساعة، وهو منتش، وصاخب، وفيليب، بجانبه، صلب وكثيب.

"رفعت الرايات وأعلام الملكين المضاعفة فوق الأسوار والأبراج، وقسم الملكان المدينة بالتساوى. كما قاموا أيضا بعمل توزيع متناسب لمؤن السلاح والطعام، وتم تقسيم الأسرى من أعلى درجات النبالة أو المنزلة بينهما بالقرعة. ... وفوق ذلك، أخذ ملك فرنسا من بين نصبيه قصر فرسان الهيكل النبيل وجميع متعلقاته. وحصل الملك ريتشارد على القصر الملكى، وأرسل إليه ملكتيه (جوانا، وبيرجينجاريا)، ومعهما الأطفال والخدم ".

فأشعات هذه القسمة مباشرة شرارة إحدى صبحات التمرد التي كان الفرنجة ينغمسون فيها حين لا يوجد من يقاتلونه من المسلمين، إذ كان الكثيرون من أفراد جيش المسيحيين أديهم ممتلكات في عكا قبل الفتح الإسلامي. وكانت جماعة فرسان الهيكل أكبر مالك وحيد؛ إذ كانوا يملكون سوق الماشية، وشوارع السوق، وقصير بجانب البحر، وتحت قيادة معلمهم الجديد، روبيير دي سابل، كان فرسان الهيكل يتزعمون الشكاوي، قائلين إنهم لم يقاتلوا كي يثبتوا ملكين أجنبيين، وإنما كي يستردوا ممتلكاتهم المفقودة. وتم التوصل إلى حل ودي قبل أن يمر وقت طويل، لكن هذه الحادثة كانت نعوذجا لاتجاهات الفرنجة عموما، وريتشارد على وجه الخصوص، وأكدت على التناقض بين شخصيتي ريتشارد وصلاح الدين. ذلك أن ريتشارد كان ملكا بالحق الملكي، لكنه فارس منحرف بالطبيعة. ولم يكن يشعر بالكثير من المسئولية نحو رعيته الإنجليزية، ولا يحس بأي مسئولية نحو جنوده فيما عدا حين يكون في ميدان القتال. هناك، يمكن أن يكون قائدا رائعا، يرى الفرص وينتهزها، ويرى الأخطار ويتجنبها، ويضرب دائما مثالًا على الشجاعة الشخصية. لكنه أيضًا يمكنه أن يكون فظا، وأنانيا لا يعتمد عليه، ولا يوثق به – وفي اللحظة التالية شاعريًا، حنوبًا حسن الطبع، وجديرا بالإعجاب. وفي جميع هذه التناقضات، كان ببساطة، مرأة ثقافته. ومبلاح الدين الذي كان يعرف ذلك، ويعرف ريتشارد معرفة جيدة، كان شديد الحذر مع هذه المعاهدة. وسنال فرسنان الهيكل الذين كان يثق في كلمتهم مع أنه كان يكرههم، عما إذا كان ريتشارد سوف يفي بالجزء الخاص به من المعاهدة أم لا. فرفض فرسان الهيكل الرد. ولا يمكن العثور على تقييم أكثر استنكارا لذلك لنزاهة ريتشارد.

لقد كان ما اشتهر به صلاح الدين من أمانة ورحمة قائما على أساس متين: وكان سلؤكه في القدس أوضح الأمثلة على هذا، بل أن ذلك اشتهر حتى في أوربا، وكانت سلطته على شعبه قائمة على حبه الواضح لهم، وعلى إيمانه الذي لا يتزعزع بالإسلام. ذلك أنه، في ذلك الإيمان فقط يمكن أن يصبح متعصبا أو غير إنساني، كما

اتضع فى إعدامه لفرسان الهيكل فى حطين. لكنه، كان يقاتل، على وجه العموم، فقط كى يحفظ طهارة أراضيه، ودينه، أيس كما كان الفرنجة يفعلون كثيرا، حبا فى القتال والنهب. اذا كان من الصعب على صلاح الدين الوفاء بمعاهدة ريتشارد فى عكا. وكان الوقت قصيرا؛ إذ كان عدد الأسرى الذين يجب إطلاق صراحهم كبيرا؛ ومبلغ المال كان باهظًا؛ والصليب الحقيقى، الذى لم يعد فى نظر المسلمين سوى قطعة من الخشب، كان أقيم جزء فى المساومة المضادة يمكن أن يملكوه. وبينما كان صلاح الدين غير قادر على الحنس بكلمته، لم يكن هناك ما يضمن أن ريتشارد سوف يصافظ على كلمته. لذا، تفاوض صلاح الدين على إجراء تغيير على الشروط: بقى عدد الناس كما هو، ولكن تم مد الوقت إلى ثلاثة أشهر. فى كل شهر يتم تسليم عدد الناس كما هو، ولكن تم مد الوقت إلى ثلاثة أشهر. فى كل شهر يتم تسليم تلث إجمالي الأسرى وثلث المال. وكان صلاح الدين غير راغب فى التخلي عن الصليب الحقيقي؛ وهنا يكمن تفسير تصرف ريتشارد التالي، وهو أقسى فعل ارتكبه فى حياته كلها.

فى ٢ أغسطس وصلت أول مجموعة من الأشخاص والمال، وكان قليل من السجناء المذكورة أسماؤهم غير موجودة، في المجموعة، وطلب صلاح الدين استبدال الرهائن المحتجزين في عكا بمجموعة جديدة، وكان كل من الجانبين يشعر بشك عميق في الجانب الأخر. فبالنسبة لريتشارد، بدأ صلاح الدين مراوغا، وحسب فهمه، كان ذلك يعنى شيئا واحدا: الغدر، لذا كان رد فعله يتعدا حدود العقل من حيث قسوته. وفي أصيل ٢٠ أغسطس انطلق مع جيشه على صهوات الجياد إلى أن أصبحوا على مرأى كامل من معسكر المسلمين. وأحضروا معهم جميع الرهائن المسلمين – ألفين وسبعمائة من الرجال، وأصدر ريتشارد أمره؛ وقال أفرنجي برضي بعد ذلك أدونما ابطاء. قفز اتباع الملك إلى الأمام متلهفين إلى تنفيذ الأوامر، شاكرين الرحمة الإلهية التي سمحت لهم بالانتقام".

والمسلمون المعسكرون فوق التلال كانوا يراقبون، دون أن يفهموا في البداية. ووصف وزير صلاح الدين بهاء هذا المنظر البشع في ذلك اليوم. "أحضر الفرنجة الأسرى المسلمين مقيدين في السلاسل ... ثم هووا عليهم كرجل واحد وذبحوهم بدم بارد، بالسيف والرمح، وكان جواسيسنا قد أخبروا صلاح الدين بمناورات العدو، فأرسل ببعض التعزيزات؛ ولكن حينئذ كان الذبح قد وقع، وما إن أدرك المسلمون ما حدث هاجموا العدو واشتعلت المعركة، مع وجود قتلى وجرحي في الجانبين، حتى جن الليل، وفصل بينهما، وفي الصباح التالي أراد المسلمون أن يعرفوا من سقط، فوجدوا وفقاهم من الشهداء يرقدون حيث سقطوا؛

منذ ذلك الوقت، حاول الناس سبر تفكير ريتشارد واكتشاف دافع لهذه المذبحة. ولم يجدوا سوى إمكانيتين قحسب، وشرحهما بهاء الدين باقتضاب: "أحدهما أنهم قتلوهم انتقامًا لسجنائهم الذين قتلوا من قبل. والسبب الآخر هو أن ملك إنجلترا كان قد قرر التقدم نحو عسقلان ولم يشأ أن يخلف وراءه عددًا كبيرًا من جنود العدو." وأي التفسيرين ممكن؛ وكلاهما مقيت. ولكن هناك سبب ثالث، لم يذكر من قبل: مسألة الصليب الحقيقي.

حتى في القرن الثاني عشر كان هناك شطرات كافية من الصليب الحقيقي في العالم تملأ عدة سفن، وحقيقة الصليب الذي امتلكه الفرنجة في حطين من الواضح أنها كانت موضع تساؤل، ومع ذلك فإن الشيء المهم هو أن الفرنجة كانوا يعتقدون اعتقادا جازما أنه الصليب الحقيقي. غير أن ما حدث لذلك الصليب بعد حطين يظل لغزا. فالمسلمون يقولون إنه قد أرسل إلى دمشق، ثم إلى بغداد، حيث دفنه الخليفة – في ٤ يونيه ١١٨٩؛ وثمة تاريخ دقيق – كي تدوسه أقدام المسلمين. ولكن صليبا، مغطي بالذهب، ومحلي بالآلئ والطي، كما كان "الصليب الحقيقي" كان يحتفظ به في معسكر صلاح الدين، وكان يعرض على المبعوثين من الفرنجة الذين قبلوه على أنه معسكر صلاح الدين، وكان يعرض على المبعوثين من الفرنجة الذين قبلوه على أنه الصليب الحقيقي، وأخيرا، زعم أحد الفرنجة القلائل الذين فروا من حوين أنه دفته هناك في الرمال، حين رأى أنهم خسروا المعركة. وتعهد بالعثور عليه مرة أخرى، غير أنه لم يستطع بعد ثلاثة أيام وليالي من الحفر، واستسلم وتخلي عن البحث.

هذا التفسير الأخير هو أقلها معقولية؛ إذ لا يوجد مسيحي مؤمن بأنه يعرف مكان الصليب المقيقي يمكن أن يتخلى عن البحث بعد ثلاثة أيام فقط، والسؤال هو أي من الروايات هي تلك التي صدقها ريتشارد؛ ومن المكن، أنه، بعد أن قبل دون تفكير الأنباء عن وجود الصليب في معسكر صلاح الدين، ربما يكون قد سمع عن دفنه في بغداد. وحين صدق ذلك، ربما يكون قد اعتقد أن صلاح الدين جعل منه أحمق. وسواء صح ذلك أم لا، فإن مجرد التفكير في ذلك أمر لا يطاق؛ وريتشارد حين يغضب كان لا يرحم.

أيا كان السبب الحقيقي غير المكتشف – "والله خير العالمين" كما كتب بهاء الدين بتماسة – ترك ريتشارد عكا بعد ثمان وأربعين ساعة واتجه جنوبا، بحقد تاركا الاجساد المذبوحة كي يتم جمعها أو تترك كي تتعفن. وكان جيشه من مائة ألف من الاقوياء، في طليعتهم، مجموعة صغيرة من بضعة مئات، هم نخبة القوة من العباءات البيضاء – فرسان الهيكل، مع معلمهم الجديد، روبير دي سابل.

أما مصير جيرار دى ريدفور فكان مجهولا، إذ لم يسمع أحد عنه منذ أسره خارج عكا، قبل ذلك بنحو عامين. وانتظر فرسان الهيكل عاما ونصف عام قبل انتخاب معلم جديد، ذلك أنهم لم يكونوا متأكدين من أنه ميت أو حى، وما إذا كان لا يزال مسيحيًا أو مرتدًا. وربما كانوا متأثرين بسبب الخمول الزاحف عليهم بسبب أشهر الحصار الطويلة؛ ومن المؤكد أن وصول ريتشارد قد بعث فيهم النشاط كما حدث مع غيرهم. فلم يكد يصل حتى حددوا اختيارهم أخيرا: دى سابل، إنه رفيق الملك الإنجليزي.

لقد كان دى سابل أحد القلائل الذين طلب منهم بوضوح الانضمام إلى الجماعة؛ وتم انتخابه مباشرة - بعد دخوله، وكان مؤهلا تمامًا للمنصب الرفيع: فهو ثرى، كريم وتقى، وناضيع، ومجرب وصباحب نفوذ. ترك فى فرنسيا مقاطعاته فى أنجو فى يرولى ولا سوز، وبلدته سابل التى تقع على بعد خمسين ميلا جنوب غرب باريس. كما ترك أسرة - ابنتين، كليهما متزوجتين، وزوجة وابن، كليهما ميتين، ويدين دير

للرهبان وأخر للراهبات بوجودهما وحياتهما بالفضل له؛ وثمة كنيسة خاصة تحيى ذكرى زوجته.

وفي طريق الخروج إلى عكاء كان هناك أحد أمراء بصر ريتشارد، وكانت أراضيه في أنجو قد جعلت ريتشارد سيده الأعلى؛ ولكن حين كان بنادي ريتشارر وفيليب أغسطس يا "ابن العم" لم يكن يراعي أصول الأدب فحسب، بل كان براعي الدقة، فقد تصادف أيضًا أنه كان يمت بقرابة بعيدة لمعلم فرسان الهيكل الثاني، روبير دى كرون، الذي انتخب قبل ذلك بخمس وخمسين سنة، وهذا مؤهل عرضي؛ غير أن روبير دي سابل كان يتمتع بشيء من المهارة ذاتها التي كان يتمتع بها روبير السابق عليه، فهو المعلم الدبلوماسي الذي أكسب جماعته الميثاق الأكبر؛ وكان فرسان الهيكل في حاجة إلى معلم دبلوماسي أكثر من أي وقت مضي منذ أيام روبير ديكرون، ذلك أن أفعالهم غير الحكيمة الأخيرة بقيت حية في عقول الناس أكثر من الحماية التي قدموها؛ إذ إن معلمًا واحدًا متصلب الرأس يمكنه أن يعطى الجماعة سمعة سبيئة أكبر من تلك التي يمكن أن يمحوها ثلاثة من الزعماء الحكماء. بيرنار دي تيمبلي، وبيرتران دي بلانكفور، واوبو دى سان أمان، وجيرار دى ريدفور؛ لقد كان لفرسان الهيكل أكثر مما يكفي من المعلمين العنيدين النزقين - على أي حال في الوقت الحاضر. وكان الأعضاء من أفراد طبقة النبلاء العليا نادرين بين فرسان الهيكل في ذلك الوقت. وكانت سمعة دى سابل طبية أصلا، ويمجرد قبوله لمنصب المعلم، خطى خطوة كبيرة نحق الذنب الذي عزاه الكثيرون إلى الجماعة - وهو ذنب الهزيمة في حطين، وما تلا ذلك من خسارة القدس. وأصبح فورا شخصية رئيسية في المسكر الأنجلوفرنسي في عكا، لذا فبعد تقسيم ريتشارد التعسفي للمدينة وما تلا ذلك من تمرد دام عاما أنيطت بدي سابل مهمة تخصيص الممتلكات والإسلاب. وبينما بقى فيليب في الأراضي المقدسة، كان دي سابل يقوم دائما بالتحكيم بين الملكين؛ وحين أمر ريتشارد باستعلاء أن يلقى براية دوق النمسا بإهمال كان دى سابل وإخوانه الجدد هم من حموا ريتشارد من غضبة النمساويين.

لقد كان من المهم بالنسبة الفرسان الهيكل أن يعملوا على تخفيف التوبر بين الفرنجة ذلك أنه، على الرغم من أنهم هم والإسبتاليون كانوا القوة العسكرية الوحيدة المتبقية في الشرق، فإنهم كانوا يحتاجون إلى شد إزار الصليبيين الجدد إذا كان لأى شىء أن يتم استعادته. وربما كان من حسن الحظ، أن الملك فيليب غادر إلى أوربا فورا بعد إعادة الاستيلاء على عكا، معلنا أن قسمه قد تم الوفاء به وأن دوره في الحرب الصليبية قد انتهى، وقبل أن يغادر، سلم جميع مواده الحربية وما لدبه من طعام إلى دى سابل، كى يتم تقسيمها بين الجماعتين. فهو لم يكن لديه كثير حب للحروب الصليبية، وكثيرا ما كان عائقا أكثر من كونه نافعا؛ وانتقد رحيله علنا، لكن الكثيرين رحبوا به في دخيلة أنفسهم، وعلى الأخص الإنجليز. أما بالنسبة لمعظم الصليبيين كانت القدس هي الهدف الوحيد؛ لذا لم يغادر سوى القليل من الفرنسيين مم ملكهم. وظل الباقون، وتحركوا جنوبا مع ريتشارد.

وعلى الرغم من خبرة دى سابل فى ميادين الحرب الأخرى، كان قادما جديدا على فلسطين. فتلقى النصح بحصافة من إخوانه، الذين كانوا يعرفون البلاد والعدو معرفة جيدة. وكان ريتشارد، بدوره، عموما يصغى إلى نصيحة دى سابل، ويعمل بها بصفة عامة. أذا، فاثناء هذه المرحلة من الحرب، كانت روح فرسان الهيكل هى الروح الهادية؛ وقد حدث شيئان على الأقل بينا للإخوان إلى أى حد بعثت صورتهم العامة وتحسنت. حين افترض أن دى ريدفور قد مات، وصار دى سابل مسئولا، توقف جميع ما كان يوجه من انتقاد لأعمال فرسان الهيكل، وعلى الرغم من أنه، على الأقل، مرة واحدة تناقضت نصيحة فرسان الهيكل مع أمال الصليبيين، فإن هذه النصيحة م قبولها.

لقد كان ريتشارد في حاجة إلى مستشارين؛ إذ كان شخصا ملينًا بالطاقة في حاجة إلى توجيه وسيطرة، وإلا فمن المكن أن يحرق كل شيء دونما تمييز. ذلك أنه

لم يكن إداريًا بأى حال؛ وأقبل من ذلك، لم يكن من بناة الإسبراطوريات، وكانت قبرص أخذة في الأثقال عليه، والمال أخذ في النفاد، فاقترح دى سابل حلا للمشكلتين: أن يشترى فرسان الهيكل الجزيرة، فوافق ريتشارد مباشرة، ذلك أنه ابتهج من فكرة التخلص من ملكية غير مرغوب فيها ومل خزائنه بالمال، وتم تحديد الثمن بمبلغ ١٠٠٠٠ بيزنتة ذهبية، ودفع دى سابل مبلغ ٢٠٠٠٠ نقدا، نيابة عن الجماعة، ورتب لافع بقية المبلغ حينما تكون هناك حاجة إليه وكما تكون هذه الحاجة. وحين توفر اريتشارد الأمن المالي، والقوة المسكرية، والنصيحة السليمة،

من أجل المسير إلى عسقائن، أوصى فرسان الهيكل بالطريق الروماني القديم بجانب الساحل – وهو طريق أطول من الطريق المباشر، إلا أنه أكثر أمنا، حيث يتحكم في البحر أسطول الإمداد البيزي. وتحرك صلاح الدين بحذر في موازاتهم، محاولا إغراء ريتشارد بالهجوم، لكن دي سابل جعل الملك يركز ناظريه على الجنوب. ولم يتم الالتحام في المعركة أخيرا حتى بلغوا أرسوف، على بعد مائة ميل من عكا، وفي منتصف الطريق إلى عسقالان. لقد اختار صلاح الدين الموقع؛ وكان الهجوم الأول مسلما؛ لكن النصر كان من نصيب ريتشارد. إذ كان تشكيل المعركة إحدى روائم الذكاء الكلاسيكي. في المؤخرة كانت هناك قوة احتياط من المشاة تحرس طابور الأمتعة. وثلاثة أضعاف هذا العدد من المشاة والرماة شكلوا الصف الأمامي، المعتد على ثلاثة أميال من الطريق الروماني؛ وبين الصغين، على الطريق نفسه، انقسم الفرسان إلى اثني عشرة فرقة، وكان فرسان الهيكل في الجناح الأيمن، والإسبتاليون في الجناح الأيسر، وريتشارد في المنتصف بعلمه، فتكسرت موجة من المسلمين تلق الأخرى في مواجهة الفرنجة الذين كانوا ينتظرون كالصخور؛ ثم حين جاء هجومهم، كان ريتشارد في المقدمة. واعتلى وزير صلاح الدين، بهاء الدين أحد الثلال ابتغاء السيلامة، فكانت له نظرة طائر مع اندفاع الخيول نوات الدروع إلى الأمام. وكتب وهو. لامث الأنفاس. "رأيت بنفسى فرسانهم يتجمعون معا في وسط المشاة؛ وأمسكوا برماحهم، وصاحوا صيحة المعركة الخاصة بهم كرجل واحد، فأفسح المشاة، واندفعوا في هجوم كبير في جميع الاتجاهات – بعضهم على جناحنا الأيمن، ويعضهم على جناحنا الأيسر، والبعض في المنتصف، إلى أن انكسر كل شيء".

وكانت أجمل ساعات ريتشارد.

لقد كان يبلغ من العمر الرابعة والثلاثين، أي أنه في قمة الحيوية. وفي عكا جعل جيش صلاح الدين الضخم عديم الأثر. وهزمهم في ترسوف في معركة حامية، وأظهر نفسه كواحد من أكبر القواد في زمانه وثقافته، وعلى نفس الدرجة من الأهمية، قد بين أن صلاح الدين الذي لم يهزم منذ حطين، ليس منيعًا. ويمكن للحرب الصليبية أن تستمر، وبدأ ألا شيء يمكن أن يوقفها. فصلاح الدين الذي يكبر ريتشارد بعشرين سنة، بمقياس الزمن، كان مقبلا على الشيخوخة، وكان مريضًا قد تعب من الحرب. وكانت أمنيته الرئيسية هي الحفاظ على القدس من أجل الإسلام، فبدأ يقاتل بطريقة غير معروفة بالنسبة له من قبل: سياسة الأرض المحروقة في المؤخرة، ساحبًا قواته إلى داخل الأرض المقدسة، بؤرة الاهتمام. وسويت عسيقلان بالأرض؛ وتفككت تحصينات الله، والرملة، ونترون، وهي القوس الشرقي للدفاع عن القدس. فتركزت جميع طاقات صلاح الدين على القدس، التي كانت ضعيفة التحصين بشكل يائس؛ لأن ريتشارد، ملك الفرنجة صاحب قلب الأسد قد يدخل في أي وقت، وجميع العمل، وجميع القتال، وجميع الأرواح التي فقدت من أرواح المسلمين في سنوات أربع من الجهاد قد تضيم بالكامل.

لكن هذا لم يحدث أبدا. لقد تقدم الفرنجة بنشاط وحماس، وقد جذبهم مغناطيس القدس، وفكرة أن المدينة المقدسة اقتربت من أن تصبح في قبضتهم؛ ثم عند حصن بيت نوبا، على بعد ما لا يزيد على اثنى عشر ميلا من هدفهم، أمر ريتشارد

بالتراجع، فكانت خيبة الأمل مذهلة. ووقف الإنجليز بجانب ملكهم، كما فعل فرسان الهيكل، والإسبتاليون؛ أما الفرنسيون الذين شعروا بالفضب والإحباط، فبدء وايتركون الخدمة، ومع ذلك إذا كان ريتشارد قلب الأسد قد فقد الشجاعة، فلم يكن ذلك خوفا من صلاح الدين؛ فلقد كان يرغب بشدة مثل رجاله في الاستيلاء على المدينة المقدسة. لقد كان واضحا من التلال حول بيت نوبا؛ حين ركب إلى هناك ذات يوم، كان أن رأى ريتشارد القدس فغطى وجهه بدرعه كي لا يرى المدينة، القريبة جدا، والمغرية جدا والضعيفة جدا، والخطرة جدا، لقد رأى ريتشارد خطرا مستقبلا؛ فمنعه ذلك، كما منعته متاعب في الأراضى التي تركها من فتع كان من شأنه أن يجعل البلاد المسيحية باسمه.

لقد كان دى سابل وفرسان الهيكل بمساندة الإسبتاليين والبارونات من سكان البلاد هم من عارضوا الفتح. إذ كانوا يعلمون، كما كان ريتشارد وغيره من الصليبين يعلمون أن المدينة متاحة لهم؛ سوف تضيع أرواح، ولكن يمكن الفوز بالمدينة. ولكن حين تؤخذ، من سوف يحتفظ بها؟ ذلك أن غالبية الصليبيين سوف يرحلون إلى بلادهم بالتأكيد؛ وسوف يضطر ريتشارد أيضا إلى العودة إلى عرشه الإنجليزى البعيد. ولن يكون لدى الفرنجة من الفلسطينيين شيء سوى شريط ساحلي ضيق؛ ومدينة كبيرة بعيدة عن البحر، يحيطها الأعداء وتنفصل عن الأصدقاء. سوف تكون جاذبية الفتح بلا حدود، ولكن سيكون هذا تهوراً غير محسوب. حتى إذا كانت مملكة القدس هي مملكة القدس المن القدس المن القدس المنا، فيجب أن تكون موحدة جغرافيا وسياسيًا، إذا كان لها أن تتحول إلى واقع مرة أخرى.

فكانت عسقلان هي الهدف الجديد، وعمل الشتاء الجديد هو إعادة تحصينها، واستدار الجيش المكتئب الحزين وسار في أسى نحو الساحل، وكان الشتاء في ذروته؛ وعلى القور جميع الأشياء التي كانت مجرد منغصات من قبل صارت لا تطاق تقريبا – فهناك المسير في الوحل، والمطر والطين، وإقامة المعسكرات في الطين، والبرك، وهناك

الطعام المتعفن. حتى في عسقلان كان الحال أفضل قليلا – كانت المدينة محطمة، وكان العمل الشاق ضروريا لمجرد حجب المطر.

وفي عكا أيضا كان الشتاء ساخطا. ذلك أن جي دى لوزينيان، ملك القدس اسميا، كان وحيدا بين أهل بيته؛ فزوجته سيبيلا، وابنتاهما قد متن جميعا، في العام السابق. وكوننراد دى مونفيرا، مخلص صور، كان قد هندس طلاق الأميرة الأخرى، إذا بيلا من زوجها همقرى، ثم تزوج إزابيلا هو نفسه. هناك مطالبان اثنان بعرش واحد غير موجود: كان الأمر يمكن أن يبدو ملهاة رخيصة لولا أنه كان أقرب إلى المأساة. ولم يكد ريتشارد يفيق من هذه الأخبار من عكا، حتى جاحة أنباء تصرفات أخيه جون السيئة في إنجلترا، وعلى الملك الجائل أن يعود بأقصى سرعة، وما لم يكن يرغب، مثل جي، أن يفقد مملكته، وأخذت الأمور تتجاذبه من كل جانب، فمن ناحية هناك ميوله، وهناك طموحه، وواجبه، فوائن ريتشارد جميع هذه الأشياء في أواخر شهوره في الحرب الصليبية، وكان دى سابل هو من ينصحه في جميع المناسبات.

وفتحت مفاوضات من أجل السلام مع صلاح الدين. وفي نفس الوقت، رفعت مسالة من يجب أن يرتدى تاج القدس الفارغ أمام مجلس عام يتكون من جميع الفرسان والبارونات. وأيد ريتشارد شخصيا جي، على ما به من عدم فاعلية، بما أن أل دى لوزينيان من أنجو كانوا أتباعا للملك الإنجليزى، وفعل دى سابل نفس الشيء لنفس السبب، لكنه، الآن، بما يتمتع به من بعد نظر أدرك أن التاج يجب أن يئول إلى الرجل الأفضل. وفاز كونراد بصوت فرسان الهيكل – وكل الأصوات الأخرى أيضا. لم يذهب صوت واحد لجي.

ومع ذلك كان جي قانعا؛ لأن دى سابل حين كان يصوت لكونراد ملكا للقدس، القدرح مملكة جديدة لجى – جزيرة قبرص، ذلك أن حكم فرسان الهيكل لم يعد يمثل احتلالا عسكريا، بل حتى في ذلك كان حكما محدودا، إذ لم يكن من الممكن الاستغناء عن أكثر من أربعة عشر فارسًا من البر الرئيسي. وهؤلاء الأربعة عشر لم يكونوا يستسيغون الاستعمار، ولم يتمكنوا من التحكم في أهل قبرص المحبين

للحرية؛ لكن جي أسعده شراء الجزيرة، وعاد القرسان الأربعة عشر، إلى عكا وهم سعداء أيضا.

أما كونراد دى مونفيرا فلم يكن يتمتع بمثل هذا الحظ. فحين سمع بنبأ انتخابه السار، صلى لله ألا يسمح له أن يقبل إذا لم يكن الشخص المستحق العرش. ومات بعد ذلك بثمانية أيام، بطعنة من خنجر مفتال بين ضلوعه. وتطايرت الاتهامات في كل اتجاه – إنه جي، إنه ريتشارد، إنه صلاح الدين، في الواقع كانت مبادرة المفتالين أنفسهم، عملهم الأول والأخير في كل الحرب الصليبية الثالثة، وقد أدى إليها عمل من أعمال القرصنة قام به جي، حيث سرق سفينة بضائع تخص الطائفة. أيا كان الأمر، فقد فتح ذلك المشكلة على مصراعيها مرة أخرى؛ لكن الشيطان يظهر عند الحاجة، وريتشارد باعتباره شخصاً ينتمي إلى عائلة بلانتاجينيت، ادعى انتسابه إلى الشيطان. فوجد زوجا جديدا لإزابيلا في خلال يومين، وبعد ذلك بخمسة أيام كان للقدس ملك خديد – هنرى من شامبين، الذي تصادف أنه ابن أخت ريتشارد. ومن المناسب أنه حديد – هنرى من شامبين، الذي تصادف أنه ابن أخت ريتشارد ما وراء البحر زعيم كان أيضاً ابن أخي فيليب ملك فرنسا أيضاً. وأخيرا، كان لبلاد ما وراء البحر زعيم يمكن أن يتبعه الجميع – أو الجميع تقريبا.

ومرت الأشهر القليلة المتبقية من الحرب الصليبية الثالثة في حراك سريع من الأعمال المتبادلة من العدوان ومفاتحات السلام. وفي ٢٣ مايو من عام ١٩٩٧، أعاد ريتشارد الاستيلاء على دارون؛ أقصى قلعة في الجنوب يفقدها صلاح الدين. وفي ٢٠ يونية، وعلى طريقة رينواد دى شاتيون، استولى على قافلة للمسلمين بها كميات كبيرة من البضائع والطعام، وعدة ألاف من الجمال والخيول. وتقدم مرة أخرى نحو بيت نوبا، وتراجع مرة أخرى، دون أن يعلم أن صلاح الدين كان على وشك الأمر بالتراجع هو نفسه نحو الشرق، وفي ٢٩ يوليه، تبع صلاح الدين الفرنجة نحو الشرق واستولى على يافا؛ وفي اليوم الواحد والثلاثين استعادها ريتشارد.

وكانت المعركة الأخيرة في ه أغسطس، خارج أسوار يافا. وكانت، مثل تارسوف، استعراضا رائعا لقيادة ريتشارد؛ وفي حركة أخيرة مستهترة بدا أنه يضع أصابعه

في وجه صلاح الدين. كان المقصود من هجوم الفجر أن يفاجئ الفرنجة وهم نائمون، غير أن تحذيرا في اللحظة الأخيرة وفر لهم ما يكفي من الوقت كي يستعدوا؛ وبالفين من المشاة، وأربعة وخمسين من الفرسان، وخمسة عشر من الخيول، دحر ريتشارد ما لا يقل عن سبعة آلاف من الخيالة المسلمين.

لم يكن للأمر أن يستمر، ذلك أن كلا من الجيشين كان قد أنهك. وكان كل من ريتشارد وصلاح الدين مريضاً. ولم يتم إحراز انتصار أخير، كما لم يتم إلحاق هزيمة نهائية، غير أن كلا من الملكين كان يدرك أنه لا هو ولا الملك الآخر يمكنه الاستمرار. وفي ٢ سبتمبر وقع ريتشارد معاهدة سلام لمدة خمس سنوات. ورقض كملك أن يقسم؛ فأقسم دى سابل نيابة عنه، وفي اليوم التالي وضع صلاح الدين اسمه على المعاهدة؛ وبذلك أنهي الحرب التي قامت في الحرب الصليبية الثالثة، التي جعلها ريتشارد قلب الأسد بإرادته النارية وشخصيته حريه الخاصة. وتم بعث بلاد ما وراء البحر. واختزلت إلى كسر من حجمها السابق، لكنها عاشت. وتحقق السلام بشرف، حيث كان كل شيء قد ضاع بالنسبة للبلاد المسيحية منذ بضعة سنوات مضت. وتمكن المسيحيون من زيارة الأماكن المقدسة في القدس؛ وأمكن لقوافل مضت. وتمكن المسيحيين أن تمر بحرية، بلا خوف، في أراضي كل منهما، لقد انتهى القتال؛ وسرحت الجيوش.

لكن مغامرات ريتشارد لم تنقه بعد. إذ كان لا يزال عليه أن يسافر الأميال الطوال في عودته إلى إنجلترا وكون الكثير من الأعداء في تلك الرحلة. وقدم دى سابل آخر مساعدة يمكنه تقديمها، وغادر ريتشارد الأراضي المقدسة مقنعا كأحد فرسان الهيكل. لكن بعض الشخصيات لا يمكن أخفاؤها. فقد تم التعرف عليه وهو يمر من خلال النمسا، وقبض عليه وقدم الدوق، - الرجل الذي أهمل رايته في عكا، وبعد ذلك بخمسة عشر شهرا، أطلق صراحه، حين ذهب كل ما لدى إنجلترا من فضة لبناء تحصينات فيينا.

حينئذ، كان كل من صلاح الدين ودى سابل قد توفى: الأول فى الربيع، والثانى فى خريف عام ١٩٣٣. ولحق بهما ريتشارد بعد ذلك بست سنوات، وهو يقاتل كما عاش يقاتل. توفى صلاح الدين فى سلام مع شعبه، ومع أعدائه ومع ربه، يتذكره المسلمون بالحب، ويتذكره الفرنجة بالاحترام. ولا يعرف الكثير عن نهاية دى سابل؛ إذ لا تذكر السجلات سوى حقيقة أنه مات. ولكن كما أعاد ريتشارد بلاد ما وراء البحر، أعاد دى سابل شرف الجماعة بما كان يتسم به من حكمة وحصافة؛ وحتى الأحياء لفترة قصيرة، يمكنهم أن ينعموا بالسلام.

الفصل التاسع

مذهب الشيطان أوربا، بيزنطة والأراضى المقدسة ١٢١٣ – ١٢١٣

لابد أن يكون بينكم بدع أيضا.

١ كورينتوس، الإصحاح الحادي عشر، ١٩

لقد كان من بين الأهداف الرئيسية للحروب الصليبية توحيد البلاد المسيحية الشرقية والبلاد المسيحية الغربية، ومن بين المبادئ الأساسية في ذلك الوقت، أن الاعتقاد الديني - التحول إلى العقيدة الحقيقية الوحيدة للكنيسة الرومانية - يمكن إقامته بطريقة فعالة بالقوة. وما لم يضع المرء هذا نصب تفكيره، فإن أحداث العشرين سنة التي تلت وفاة صلاح الدين ودي سابل تكون جوهر الجنون، ومع ذلك، حتى مع تذكر تلك المبادئ، من الصعب رؤية السنوات من ١٩٩٣ إلى ١٢٢٣ إلا باعتبارها أشنع انحراف عن تعاليم المسيحية - حتى انحراف عن تعاليم المسيح، ومسخًا كئيبًا لكل شخص في البلاد المسيحية - حتى فرسان الهيكل كان لهم دور فيه.

لقد تم لعب هذه المسرحية القبيحة في ثلاثة مسارح منفصلة: جنوب فرنسا، وشمال سوريا، والقسطنطينية. وكان فرسان الهيكل متورطين، إلى حد كبير أو صغير، في المسارح الثلاثة جميعا؛ وخلف الثلاثة جميعا، وفي نفس الوقت محرك عرائس، وإحدى العرائس، كان هناك رجل قوى: إنه البابا أنوسينت الثاني.

لم تكن إمبراطورية صلاح الدين لتصان إلا عن طريق شخصيته. لذا حين توفى عام ١١٩٢ خلف سبعة عشر ابنا وابنة واحدة؛ فبدأت الإمبراطورية تتفكك على الفور، لقد انتزع السكين من رقبة بلاد ما وراء البحر، غير أن فرنجة فلسطين لم يستطيعوا استغلال الفرصة لإعادة الفتح؛ ذلك أن مملكتهم الضنئيلة كانت في غاية الضعف. وكان هنري من شامبين يتمتع بكامل السلطة الملكية، مع أنه لم يتوج أبدًا ملكا على القدس؛ وكانت سياسته نحو المعلمين دائما هي سياسة الدبلوماسية المسالمة، وتتسم يتبادل الكلمات بدلا من الضريات، وأيده فرسان الهيكل ابتغاء صالح بقائهم. بل إن هنري عقد تمالفا جديدا مم الحشاشين، وقد احتفى رجل الجبال العجوز بهذا التجالف بطريقة مبهرة: إذ دعا هنري إلى اجتماع على قمة جرف حيث استعرض أتباعه إخلاصهم بأن قفزوا واحدا بعد الأخر إلى حتفهم في أسفل، إلى أن رجاه هنري بإنهاء الاستعراض، أما فرسان الهيكل فلم يكن لديهم كثير وقت لمثل هذه التوافه. وكانوا ممتنين لهذا التحالف: لقد أزيل تهديد آخر. واتباعًا لسنة دي سابل الحصيفة، تجنبوا أي صراع مع المسلمين لمدة أربع عشرة سنة تقريبا بعد وفاته. غير أنهم كانوا منشغلين في اتجاه آخر - منشغلين بمولد عشرين سنة من تقاتل الإخوة بين المسيحيين،

فى بداية الأمر بدأ ذلك لا ضرر منه، مجرد مسالة بسيطة تتعلق باسترداد ممتلكات مفقودة. على بعد ما يقرب من ثمانية عشر ميلاً شمال أنطاكيا تقع قلعة تسمى بغراس، قبل حرب صلاح الدين، كانت ملكا لفرسان الهيكل. وفي عام ١٩٩١ استولى صلاح الدين عليها ومحاها؛ ثم غادر هو ورجاله مباشرة، فاحتل أمير أرمينيا ليو الثاني، الموقع، وأعاد بناء القلعة. وما إن انتهى من إعادة البناء، حتى طالب الأمير بوهيموند، أمير أنطاكيا نيابة عن فرسان الهيكل بأن ترد إلى الجماعة؛ فرفض ليو الطلب رفضا قاطعا؛ ومن هذا الرفض نشبت حرب دامت لعقدين بين مسيحيى فلسطين ومسيحيى أرمينيا.

في تلك الأيام التي كان يوجد فيها ملوك سياسيون، كان ليو من أوضح هؤلاء الملوك. فهذا الملك الذي تم تتريجه عام ١٩٨٨، نال عرشه عن طريق الكلمات المعسولة والنفاق؛ وحافظ عليه عن طريق الوعود الفارغة والابتزاز الروحي الحكيم متلاعبا بمن هم أكبر منه ضد بعضهم بعضها، ولم يكن من الممكن منح تاج الملك إلا عن طريق إمبراطور، أو البابا؛ وكانت كنيسة روما تعد الكنيسة الأرمينية مبتدعة. لذا حصل ليو على تاجه من الإمبراطور البيزنطي وعلى صولجانه من الأمبراطور الألماني، وهو أعظم حاكم زمني في ذلك الوقت. وفي نفس الوقت، دخل في مراسلات مع البابا المحتضر سيليستين الثالث، موحيا، بأنه في مقابل الاعتراف البابوي سوف يعيد الكنيسة الأرمينية إلى الحظيرة الأرثوذكسية. وتمت الصفقة، وحقق ليو طموحه؛ وتم الاعتراف به ملكا من جانب كل أصحاب الشأن والأهمية. وبعد أن حقق ذلك، كانت له طموحات بغراس موقعا استراتيجيا له أهمية كبرى، وعلى الرغم من حث البابا على أنه يجب أن يعيد القلعة لفرسان الهيكل، كان ليو عازما على الاحتفاظ بها. وكان فرسان الهيكل يعيد القلعة لفرسان الهيكل، كان ليو عازما على الاحتفاظ بها. وكان فرسان الهيكل أيضا عازمين على استعادتها.

ولا يعرف الكثير عن الرجل الذي كان معلم الجماعة حينذاك، حتى اسمه غير مؤكد، فيقال عنه بأشكال متختلفة مرة كجيلبيرت أريل، أو هورال، أو اريل، أو رورال، كما لا يعرف أحد عمره، أو مسقط رأسه؛ لكن على العكس من سلفه دي سابل كان من فرسان الهيكل "بالمهنة". وكان منصب المعلم الرفيع طريقه الطويل الشاق، وقبل انتخابه كمعلم بعشر سنوات، كان كبير رواد الهيكل في القدس؛ وكان هو الذي تم تخطيه لصالح دي ريدفور الخطر. ويمكننا أن نخمن ذلك، مما بينهما من فروق من حيث الشخصية، فهو وريدفور كان يكره كل منهما الآخر كراهية تامة؛ لكن إيريل قد أعفى من ألم الإحباط الذي يمكن أن ينجم عن الخدمة الشخصية لدى ريدفور، ذلك أنه، في عام ١١٨٥ نصب معلما على الهيكل في إسبانيا ويروفانس، وبقى هناك أربع سنوات، يراقب عن بعد الزعامة المدمرة الخرفة وما أدت إليه في حطين؛ ثم في ١١٩٠،

في الفترة بين ريدفور ودى سابل، حين كان الهيكل ككل بلا معلم، نصب مندوب المعلم للهيكل في الغرب. لذا يبدو أنه كان شخصنا يعتمد عليه، وأنه موضع احترام ويتسم بالضمير الحى؛ ومع أن السرية التامة لأعمال الهيكل تحظر ذلك، من المعقول أن نخمن أنه اقترح مرة أخرى كمعلم بعد اختفاء ريدفور في عكا. ومع أنه كان يمكن الاعتماد عليه، فإن فرسان الهيكل كانوا في حاجة إلى رجل يعترف به خارج حدودهم، رجل يمكن أن يعيد الاحترام الجماعة ليس في أعينها فحسب بل في أعين العالم أجمع. وحين توفى دى سابل، لاحت فرصة اريل، وفي عام ١٩٩٧ تم استدعاؤه من الغرب، وأصبح الخادم الأمين الهيكل ومعلمه الثاني عشر.

وبعد ذلك بخمس سنوات، حين وضع ليو تاج أرمينيا على رأسه وأحكم قبضته على بغراس، قد يكون بدا لفرسان الهيكل أن الظروف هي التي حددت اختيارهم للمعلم. وكان البابا سيليستين العجوز قد رحب بعودة الأرمن إلى المذهب الصحيح، غير أنه لم يفعل الكثير من حيث استعادة بغراس، ومن المؤكد أنه كان هناك أمل أكبر في خليفته؛ -- لأن أنوسينت الثالث كان صديقا شخصيا لجيلبيرت اريل، ومع ذلك، فإن أي تفاؤل من هذا القبيل لم يكن على أساس سليم، إذ إن الرجلين كانا يشتركان في سمة واحدة: الولاء العميق للأجهزة الدينية التي يرأسانها، ولكن بينما كان أريل متباطئًا عادى التفكير، مباشرًا ومستقيمًا، كان أنوسينت نشط الحركة، مشبوب العاطفة، وصاحب رؤية وشديد القوة – فهو ليس بالرجل الذي يلتزم بمقتضيات الصداقة حين تكون هناك أمور أكبر في الميزان.

وحين أصبح أنوسينت بابا في عام ١١٩٨، كان لم يتعد سبعا وثلاثين من عمره، ولم يحدث أبدا أن يحتل مثل هذا الرجل الشاب مثل هذا المنصب الرفيع، غير أن أنوسينت كان بحق شخصية استثنائية إن لم يكن شخصية فريدة. ذلك أنه درس اللاهوت والقانون الروماني، والقانون الكنسي في باريس وبولونيا، (ربما يقصد بولندا) وكون أفكارا محددة عن مهمة البابوية وهي أفكار رسمها بحيوية، وربما بقسوة، في يوم تنصيبه، إذ أقام موعظته على اقتباس من أرمياه: "هنا والآن، أعطيك سلطة فوق الأمم؛

بكلمة سوف ترفعهم وتنزلهم، وتقلبهم وتحولهم إلى ركام، بكلمة سوف تبنيهم وتزرعهم من جديد".

وكان يعنى ما قال فى كل مقطع، فعلى مدى مائة وعشرة من السنين، منذ أن شن إيربان الثانى الحرب الصليبية الأولى لم يكن للكنيسة بابا يتمتع بهذه الرؤية العريضة والشخصية القوية. إذ كانت رؤية أنوسينت هى لبلاد مسيحية أشبه بجمهورية عظيمة، يشترك فيها جميع الناس فى عقيدة واحدة، وتكون جميع الأمم، رغم استقلالها خاضعة لسلطة زمنية وروحية واحدة، – هى سلطته وسلطة من يأتون بعده. كانت فكرة أنوسينت هى إيجاد وحدة جامعة روحية كبيرة يترأسها الإحسان الزبوى للحبر الرومانى، وقد نجح فى تحقيقها تقريبا أكثر من أى بابا قبله ومنذ وقته، ففى ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا والنورويج وأرمينيا وأرجون، تم الاعتراف به كسيد روحى؛ وبدأ مفاوضات مع الإمبراطور البيزنطى، باعتباره رئيسا للكنيسة اليونانية، وسيكون أنوسينت، باطبع، رئيسا للكنيسة الموحدة.

غير أن ما بدا لأنوسينت تجمعا روحيا بدا لغيره دكتاتورية روحية. فلم يكن الجميع على استعداد لاتباع خطته – من المفهوم أن البيزنطنيين كانوا مترددين؛ وكان إخلاص الأرمن في خضوعهم موضع شك؛ وأهل جنوب فرنسا، الثائرون الجسورون كدأبهم بدءوا يشككون في العقيدة الثابتة ائتي لا تقبل الثنك لدى الكنيسة، والقدس نفسها، بالطبع، وهي نظريا مركز وركيزة المسيحية كانت في يد الكفار.

إذا كان ليو ملك أرمينيا مثالا جيدا على الكيفية التي يكون عليها الملك السياسي، فإن أنوسينت كان المثال الذي لا نظير له كبابا سياسي. إذ لم يكن هناك من يضارعه في العالم الكنسي، ومن بين جميع سادة أوربا الدنيويين منافسه الوحيد المحتمل - هنري السادس، ملك ألمانيا، الذي منح ليو الصولجان - توفي فجأة مما يلائم البابا. ثم شقت ألمأنيا الحرب الأهلية، لأن فريدريك وريث هنري كان في درجة أدنى، غير أن فريدريك كان تحت حماية أنوسينت، الذي اجتث وقلب وأعاد بناء الأمم اتباعا دقيقا

الكلمات موعظته. فأصدر حكمه على الحرب الأهلية الألمانية، وتوج الرجل الذي اختاره إمبراطورا، ثم خلع ذلك الشخص بمرور الوقت، ووضع فريدريك الشاب مكانه.

وقعل الشيء نفسه في إنجلترا بأن خلع الملك جون الضعيف الذي لا مبدأ له، ورفض إعادته إلى أن أصبح أحد أتباعه، والشيء ذاته حدث في النورويج، وفي فرنسا أجبر أنوسينت فيليب أغسطس على إنهاء زواجه الثاني، وإلا يكون متزوجا من زوجتين؛ وفي إسبانيا، تم إجبار الملك ليون على التنازل عن زوجته، لمن كان على قرابة وثيقة به؛ وعندما شهد ملك أرجون هذا كله، أسرع إلى إعلان ولائه للبابا المتقلب.

في خضم هذا التتابع للحوادث، بدت مسألة ملكية بغراس مسألة بعيدة غير ذات أهمية. ذلك أن أنوسينت كان يعلم أن فرسان الهيكل لن يتركوا كنيسة روما مطلقا، لكنه كان يشك في عمق اعتناق ليو للمذهب، ولم يكن يرغب في فقد تابع تم اكتسابه بكل يسر، لذا ترك ليو يحتفظ بالقلعة موضع النزاع، وأخذ جيلبيرت اريل يرسل الرسالة تلو الرسالة إلى من كان صديقه في وقت من الأوقات، يناشده مراعاة العدالة، غير أن أنوسينت لم يكن يتأثر بأي مناشدة في هذه القضية بالذات. وعلى فرسان الهيكل مواصلة حربهم الخاصة ضد مسيحي مثلهم – فهو لم يجد ما يعترض عليه في هذه الأحوال.

ومع ذلك، فقد ساعد الإخوان بهمة في نواح أخرى. واعتبرهم جيشه الخاص، وإن يسمح لأحد بأن ينسى ذلك، وفي السنوات السبع الأولى من بابويته أعاد التأكيد على الهبة العليا ثمان مرات، وفي سنته الثانية ١١٩٩، طلب منه أن يدافع عن الجماعة ضد الهجوم الوحيد الذي لا يستطيعون مقاومته مطلقا: ألا وهو الحرمان من الكنيسة.

إن مجرد فكرة أن فرسان الرب يجب أو يمكن حرمانهم من الكنيسة تبدو فكرة من قبيل العبث، لكنها حدثت؛ وتبين هذه الصادثة السبب الذي جعل الناس في ذلك الوقت تتكون لديهم مشاعر مختلطة ضد فرسان الهيكل. لقد كانت النقود هي أس المشكلة. ذلك أن فرسان الهيكل كانوا قد تعوبوا منذ زمن طويل على التعامل مع مبالغ كبيرة من المال، ليس فقط من حيث حساباتهم في تمويل عملياتهم العسكرية الممتدة على مسافات بعيدة، ولكن التعامل في المال أيضا نيابة عن الأخرين. وكانت قلاعهم في أوربا عنوانًا على القوة والأمن، وكان من الشائع بالنسبة لأي ملك أوربي تصادف أن يعلك بعض المال أن يعطيه أو يودعه في أيادي فرسان الهيكل المحافظة عليه. ولم يكن فيليب أغسطس سوى واحد من هؤلاء؛ ففي زمن حريه الصليبية مع ريتشارد ملك إنجلترا، كانت خزانة الدولة الفرنسية مودعة في قباء هيكل باريس، ولم يكن الملوك هم الوحيدون الذين بحثوا عن مستودع آمن المال الاحتياطي داخل جدران فرسان الهيكل؛ بل إن الأساقفة ورؤساء الأساقفة والتجار والمواطنين العاديين جميعا أودعوا أموالهم داخل دور فرسان الهيكل.

وما لم يكن هذا المال يقدم كهبة صريحة، فإن هؤلاء الناس كانوا، بطبيعة الحال، يتوقعون استرداده حين يطلبونه، وللأسف، كان معظم فرسان الهيكل من الأميين، فكان حفظهم للدفاتر شديد العشوائية في غالب الأحيان. وفي بعض الأحيان كان رجل واحد، ريما رئيس مقر ريفي لفرسان الهيكل، يعلم أن رصيداً مودعا، فإذا مات أو نقل قبل أن يستعاد المال، فقد لا يراه مالكه مرة أخرى. كما كان يحدث أحيانا، أيضا أن المال الذي أودعه شخص ما يطالب به وريثه، وبقليل من حسن النية من كلا الجانبين، يمكن تسوية مثل هذه المطالبات بكل يسر؛ غير أن حسن النية لم يكن دائما متوفراً. ووفقا لأخلاقيات ذاك الزمان، لم يكن حب المال هو أصل الشر وإنما التفاخر والعظمة – التعالى، والتكبر والعجرفة – وفي أيام أنوسينت كان من الشائع أن فرسان الهيكل شيهم من هذا الكثير. وحتى ريتشارد الأول، وهو نفسه لم يكن ملكا متواضعا، دفع عن نفسه اتهامات بأنه متكبر وذلك بأن قال بأنه سوف يزوج تكبره بفرسان الهيكل،

في عام ١١٩٩، اجتمع عنصرا المال والتكبر. ذلك أن أسعف طبرية أرسل مطالبة المعلم، جيلبيرت أريل، لرد ألف وثلاثمائة بيزنتة ذهبية أودعها سلفه لدى فرسان الهيكل، ورفض فرسان الهيكل، لسبب غير معروف، رد المال، ورشع أسقف صيدة التحكيم؛ وعموما، كانت فكرته التحكيم هي التهديد بالحرمان من الكنيسة، ليس فقط لأريل والجماعة كلها، وإنما أيضا الصدقائهم وزملائهم في أوربا والأراضي المقدسة، ما لم تعد النقود في خلال ثلاثة أيام، وأعيد المال - غير أن الأسقف نفذ تهديده مع ذلك.

فأصاب الذهول أريل وإخوانه، وشعروا بالغضب، فإذا حرموا من الكنيسة لن يتمكنوا من الوفاء بقسمهم المقدس، فقالوا، حسن إذن، سوف ننسى ما أقسمنا عليه، وتلقى بعباءاتنا البيضاء، ونغادر الأراضى المقدسة ونعود إلى ديارنا.

فتدخل أنوسينت على الفور. وبعد أن اتهم الأسقف "بالحمق الشديد أو الخبس الخطير" أوقف الرجل عن أداء واجباته ومنع أى رجل دين من أن يتعدى حدوده مرة أخرى. وكان هذا نوعا من الانتصار لفرسان الهيكل، الذين سحبوا تهديدهم المتهور؛ غير أنه لم يفد سوى فى تعميق الكراهية التى يشعر بها رجال الكنيسة العاديون نحو الجماعة؛ ويمكن معرفة عمق هذه الضغينة من سرعة وشدة حكم الأسقف ضد فرسان الهيكل. كما يشير رد فعل أنوسينت السريع إلى عزمه على أن يحرر فرسان الهيكل من أبة سلطة عدا سلطته.

لقد أصبح فرسان الهيكل والإسبتاليون ملاكًا كبارًا في فلسطين الإفرنجية من خلال الشراء بأسعار بخسة للمتلكات أو الاستيلاء على ممتلكات هجرها المدنيون الذين فروا في اتجاه الغرب. وكان أنوسينت الثالث واسع الثراء من حيث الأراضي، وشديد الانضباط من الناحية العسكرية، ويتمتع بمنعة شرعية وروحية، كان ذلك كله تحت تصرفه؛ وكان من شأن هذه الإمكانيات جميعا أن تذهب بعقل أي رجل أقل من أنوسينت الثالث. لكن أنوسينت لم يطر صوابه، بل إنه كان يرى بدقة كيف من أنوسينت الثالث. لكن أنوسينت لم يطر صوابه، بل إنه كان يرى بدقة كيف يمكنه، هو وحده، استخدام فرسان الهيكل، بما يتمتع به من عقل قانوني صارم، ونظرة شاملة للجمهورية المسيحية؛ فبمجرد اعتلائه العرش البابوي، بادر بالحرب الصليبية الرابعة.

وكنائت لديه كل الأسجاب التي تجعله يأمل في تحقيق النجاح التاء. لم تكن الظروف أكثر ملاحمة مطلقا لهذا منذ أيام إيربان الثاني. ذلك أن الفشل الذريم للحرب الصليبية الثانية، والإنجازات المصودة للحرب الثالثة، شكلت نقيضاً حاداً للإنتصارات الكاسمة للحرب الصليبية الأولى، بالنسبة لأنوسينت كان السبب واضحا في حد ذاته لم يذهب ملوك إلى الحرب الأولى، وحيث لا يوجد ملوك، لا توجد منافسات ملكمة. ذلك أن التناحر والغيرة العادية بين الأشخاص يمكن لمندوبي البابا التحكم فيها؛ ويمكن لأنوسينت، من موقعه الذي لا يمكن تحديه، إلا تلطخ حربه أي ملوك. كما بمكنه تحاشى الوقوع في خطأ إرسال رجال من أمم مختلفة للقتال من أجل ما يفترض أنه هدف مشترك؛ أما بالنسبة المحاربين الخاصين به، فلديه لهم دور خاص، فيما أنهم أصلا في الأراضي المقدسة، فمن الواضح أنهم ليسوا في حاجة إلى السفر. وبدلا من ذلك، ينتظرون الجيوش الأوربية التي سوف تتشكل؛ ويدعمون ما يملكونه، ويمهدون السبيل من أجل هجوم عظيم موحد؛ ومما يطكونه من احتياطي أسطوري من ذهب وحلى، يمكنهم المساهمة في تمويل العملية الكبرى. بدأ هذا كله بسيط الجمال بحيث لا يسمح لأي فرصة للفشل. وإذا كان جميع المشاركين يلهمهم الله كما يعتقد أنوسينت بأن الله يلهمه، كان من المكن أن تنجح. لكن كل شيء كان خاطئًا بشكل مأساوي على نحو بشع، لأن عقول الناس بها قوى لم يأخذها أنوسينت في الحسبان، لم يكن بقادر على فهم قوتها.

بادئ ذى بدء، لم يكن فرسان الهيكل متلهفين بأى حال إلى الدخول فى حرب مقدسة جديدة. ذلك أن ضياع بغراس كان يغضبهم بشكل مؤلم، وليو تجاهل طلب أنرسينت الوحيد بأن يتخلى عن القلعة، وتعجب فرسان الهيكل من عدم مبالاة البابا الظاهرة. وتوفى جيلبيرت أريل فى ١٢ ديسمبر عام ١٢٠٠ وهو فى حالة من البلبلة والشك فى دوافع صديقه القديم؛ وإذا كان فيليب دى بليزيي خليفة أريل، حذرا وملتويا فى التعامل مع أنوسينت فلم يكن ذلك سوى انعكاس الحيرة التى تحسها الجماعة كلها.

وكانت هناك مع ذلك أسباب أكثر إلحاحا وعملية لتحاشى النخول في حرب غير خيرورية. ذلك أن دي بليزيي (الذي لا تعرف أصوله ومراتبه السابقة معرفة تامة) أصبح معلمًا في وقت خاص شديد الصعوبة: إذ أنفقت فصول الصيف الثلاثة الأولى من احتىلاله لهذا المنصب في التحامل مع الجفاف، والمجاعة، والزلازل والطاعون وعاصفة رملية عاتية. وفي أثناء الزلازل تم تدمير مدن عكا وصور، وطربلس تدميرا كبيرا، ومن العجب أن دار فرسيان الهيكل في عكا كنان من بين المباني القليلة التي بقيت دون أن يلحقها أي ضرر. لذا فإن التعمير، وإيجاد الطعام لعشرات الآلاف من الجياع، والفقراء اللاجئين من الريف المحطم كان عملا يكفي وزيادة؛ غير أن الكوارث الطبيعية على الأقل، ضربت الجميم، من مسلمين ومسيحيين، فتمكن دي بليزيي من تجديد الهدنة مم المسلمين. أما أنوسينت البابا الميال إلى الحرب، فلم يكترث بذلك مطلقاً، وإنما استتراح حين سمع من دي بلزيي أن المسلمين بدءوا يدفعون إتاوة ابطريارك القدس في مقابل المعاهدة. ربما كانوا يفعلون ذلك. وربما يكونون قد صدقوا ادعاء دي بليزيي بأنه يمكنه أن يضمن سلاما دائما إذا ما استمرت الإتاوة - ولكن من حسن حظ دي بليزيي أن أنوسينت لم يسمع بهذا الادعاء. وعلى الرغم من مراوغة فرسان الهيكل المعقولة جداء فإنهم لم يستطيعوا منم وقوع الحرب الصليبية. وتم جمع مستهاهمتهم فيها في الوقت المناسب؛ وانطلق المشروع في أوربا؛ وعلى الفور بدأ الخطأ في العمق بشكل يهدد بالخطر. ذلك أن مبدأ الشيطان كان يتحكم، فكان مقدرا الحرب الصليبية الرابعة أن تصبح إحدى أكبر جرائم المسيحيين ضد المسيحيين.

لقد كانت مسيحية أنوسينت في أفواه الناس لكنها لم تكن في قلوبهم. وكان قادة الحرب الصليبية الرابعة منجذبين بإغراء الثراء وشهوة الانتقام – وليس الثراء في السماء، وليس الانتقام من الكفار. لقد بدأ الجنود العاديون بحسن نية، وتجمعوا في يونيه ٢٠٢١ في فينيسيا. والاقتراح الذي قال به ريتشارد قلب الأسد قبل ذلك بعشر سنوات، وهو أن الحرب الصليبية يجب أن تبدأ بهزيمة مصر أولا، تم قبوله، وتعهد أهل فينيسيا بأن يقدموا السفن والطعام لمدة عام. وكان ثمنها مرتفعا جدا: ٨٥٠٠٠ من

المركات الغضية. وفي الوقت الذي تجمع فيه الجيش الصليبي، اكتشف قادته أنهم لا يستطيعون جمع مثل هذا المبلغ. وكل ما استطاعوا تقديمه هو خمسون ألفا، بما في ذلك مساعدة فرسان الهيكل. وما لم يكونوا يعرفونه أنذاك، هو أن أهل فينيسيا في حين وافقوا على نقل الجيش إلى مصر، كانوا قد عقدوا اتفاقية تجارية مع سلطان مصر – اتفاقية وعدوا فيها ألا تطأ قدم جيش أوربي التراب المصري، منذ سنوات عديدة، كانت الجمهوريات الإيطالية التجارية، في بيزا، وجينوا، وفينيسيا قد اكتشفت أنه يمكن تحقيق أعمال تجارية جيدة مع الأمم الإسلامية، ولم يرغب أهل فينيسيا على وجه الخصوص في إفساد أسواقهم الرابحة المستقرة. لقد كان أعداؤهم فينيسيا على وجه الخصوص في إفساد أسواقهم الرابحة المستقرة. لقد كان أعداؤهم

ولما كان الصليبيون غير قادرين على الوفاء بالجانب الخاص بهم من المعاهدة، وهم ينتظرون في فينيسيا لم يكن أمامهم سوى الموافقة على أية شروط يمليها أهل فينيسيا. وبدا أن العرض المقدم لهم يتسم بكرم كبير: يمكن تأجيل دفع مبلغ ٢٥٠٠ مرك المتبقى ويمكن البدء في الحملة، إذا ما استطاع الصليبيون فقط مساعدة أهل فينيسيا في ميناء زارا في دالماتيا. إنه شيء تافه؛ فزارا على بعد يرمين في البحر من فينيسيا، وهو على الطريق إلى الأراضى المقدسة. فقبل القائد الصليبي، بونيفاس دى مونفيرا، شقيق كونراد، مخلص صور العرض بسرعة، مستخفا بحقيقة أن زارا مدينة مسيحية؛ وفي ذلك الوقت، رأى هو أيضًا هدفًا أفضل من فلسطين. وأدرك أنوسينت أنه فقد السيطرة على الحرب الصليبية بعد فوات الأوان. إذ إن أوامره اليائسة بحظر العدوان على المسيحيين تم تجاهلها. وفي ١٢٠٢ أبحر الأسطول يحمل أربعة آلاف وخمسمائة فارس وتسعة آلاف من مساعدى الفرسان، وعشرين ألفا من المشاة، وبعد ذلك أصبحت زارا أو ما بقي منها ملكًا لفينيسيا.

واستخدم أنوسينت السلاح الوحيد الذي يملكه، وذلك بأن حرم مدينة فينيسيا من الكنيسة وكذلك كل الجيش الصليبي. ومع ذلك، فيما أن الصليبيين قد تم ابتزازهم، فقد رفع الحكم عنهم، وعلى الرغم من أن أهل فينيسيا ظلوا مدانين، فإنهم لم يشعروا

بأي خجل. ذلك أن زارا بالنسبة لهم لم تكن سوى المقدمة، فبونيفاس كان قد رتب لطريق جانبي آخر في مؤتمر مع أنريكو داندواو المسن نصف الأعمى والذي لا يعرف مكره حدودا ألا وهو القسطنطينية.

لقد كانت لداندولو ضغائن شخصية مع البيزنطيين. إذ إن فقده لنصف أبصاره نتج عن جرح في الرأس تلقاه في منذ ثلاثين سنة، حين اشتبك في معركة هناك حين كان سفيرا إلى القسطنطينية؛ وبعد أن صار حاكما (دودجي) أو دوقًا، ثبت أن كراهية البونانيين له أمر غيار بالتجارة. كما تذكر أهل فينيسيا بمرارة كيف أن أبناء مدينتهم طريوا بقسرة من القسطنطينية عام ١١٧١؛ كما رأى الصليبيون أن لديهم ما يكفي من الأسمان لكراهية اليونانيين حين فكروا في الأمر. إن الكنيسة الشرقية منشقة ومبتدعة، والمبتدعون الذين رفضوا كلمة المسيح أكثر سوءًا من الكفار الذين لم يسمعوا عنها، كما أن الجميع يعلمون أن اليونانيين خونة؛ فمنذ أكثر من خمسين سنة بدأ القديس بيرنار التعليمات التي لا زالت قائمة وهي أن غدر اليونانيين هو الذي قضي على الحرب الصليبية الثانية، وكتب أوبو أن "فرنسا وألمانيا سيكون لديهما ما يندمان عليه ما لم ينتقم أبناء هؤلاء الرجال ولم يتاروا لموت آبائهم". وتمكن بونيفاس بيسر من أحياء هذه الذكريات، وأضاف إليها ما يخصه في المشروع. إذ ادعى أن شقيق زوجته، هو الإمبراطور الشرعي لبيزنطة. والإمبراطور الحالي مفتصب يجب خلعه واستبداله في صبالح القانون الدولي والوفاق. وفي روما، لم يكن أمام أنوسينت سوي انتظار الأخبار، بعجز ونفاد صبر. ولم يندد بالخطة مباشرة؛ فإذا نجحت، فإن وحدة البلاد المسيحية الشرقية والغربية أمر يستحق التضبحية. وحين بدأت الأنباء تصل ببطء، كان يشعر بالحبور – إذ حدث انقلاب ضد الإمبراطور، وجلس الإمبراطور الجديد على العرش؛ وسوف يتم دفع الديون لأهل فينيسيا، ويتم توحيد الكنيستين، وينضم عشرة ألاف بيزنطي إلى الحرب الصليبية. أي أن كل ما كان يمكن أن يؤمل فيه قد تحقق، وأسوف تهبط القوات المتحدة لأوربا وبيزنطة على الأراضي المقدسة.

ثم تغيرت الأخبار ببطء، وجاحت أنباء تتحدث عن حرق، وتعذيب، واغتصاب، وتدنيس للمقدسات. وتحولت القسطنطينية، قلب بيزنطة وفخرها إلى مذبح هائل. ففي ثلاثة أيام من الشغب والصخب قتل الصليبيون أكبر عدد ممكن من اليونانيين، من أطفال صغار ورجال ونساء، وشيب وشباب؛ ودخلوا القباء، ونهلوا ما شاءوا من النبيذ اليوناني اللذيذ، ثم اندفعوا كي يشعلوا النيران في المكتبة الكبيرة؛ واندفعوا إلى الأديرة كي يعبثوا بالراهبات؛ وهشموا أبواب كنيسة القديسة سوفيا، وشربوا نبيذ الذبح، ومزقوا الحرير المعلق، وانتزعوا الزينات الذهبية والغضية، وأفرغوا صناديق الأثار الدينية، وتبرزوا على الإيقونات، ونظفوا أنفسهم بصفحات من الكتب المقدسة؛ وطوال الوقت، كانت إحداهن تجلس على وطوال الوقت، كانت العاهرات يقفزن بين المقاعد، في حين كانت إحداهن تجلس على مقعد البطريارك وتغنى عن مباهج العشق.

وحين جمعت الجثث أخيرا، كان من بينها جسد الإمبراطور الذي أعيد تنصيبه. ذلك أن جميع وعوده كانت بلا أساس: لم يكن هناك رجال للجيش، ولا مال لأهل فينيسيا. فتم خلعه، وخنقه، وتوج مكانه فارس من الفلمنكيين سيدا على جميع اليونانيين.

أما في أوربا "فكان الانتصار الصليبي" يتمتع بشعبية، طاغية. ودفع المال الأهل فينيسيا من الفضة المأخوذة من كئوس التناول التي تم صهرها، وتدفق سيل من الآثار المقدسة الشمينة في كتدرائيات فرنسا، وفلاندر، وإيطاليا وأديرتها. وكان أنوسينت وحده هو الذي رأى أن حلمه الكبير قد تحطم؛ الأن لن تتحد الكنيسة الشرقية والغربية أبدا. فأدار ظهره إلى بيزنطة، وأخذ في كابة ينظم بيته من الداخل.

ربما أحيانا، في الاثنتي عشرة سنة المتبقية من عمره، قد يكون أنوسينت تمكن من النسيان، تمكن من الهرب من ذكري الدخان والقذارة بينما كانت حضارة وثقافة بيزنطة تنوي وتموت تحت صليبيه. ربما؛ لكنه تغير، وطهرته النار وجعلته صلبا. فعلى الرغم من أنه لم يكن مسئولا مسئولية مباشرة عن جرائم الحرب الصليبية الرابعة، فإن غضبه من نتائجها كان ممزوجا بشعور عميق بالذب. والتطهر من الانفعالين كان

في حاجة إلى مخرج من العنف المبرر؛ ووجد هذا المخرج تقريبا تحت أنفه، في الوسط الجغرافي للبلاد المسيحية الغربية؛ - جنوب فرنسا، بلاد اللانجويدوك،

لقد كانت فرنسا منقسمة شمالا وجنوبا، إلى ثقافتين، هذا الانقسام يتجاوب بشكل تقريبى إلى مجرى نهر لوار. وكان ريتشارد قلب الأسد بما له من خلفية بواتيفينية نتاج نموذجى للجنوب الرومنسى؛ أما فيليب أغسطس حاكم الشمال والسيد الأسمى على الجنوب، فكان نموذجا لشعبه الأكثر برودة وصلابة وقسوة. وكانت الفروق بين الإقليمين تتمثل في لغتيهما: فكلمة نعم في الشمال كانت أويب؛ أما في الجنوب فكانت أول، وكانت سيطرة الشمال مع الوقت هي التي دعمت الكلمة الفرنسية الحديثة وي؛ غير أن لغة أوك، لا تزال تحدد الجنوب.

ولم يكونا يختلفان في اللغة فحسب وإنما أيضا في الدين، وقد فرض أنوسينت الإيمان على فيليب، غير أن هذا الإيمان لم يسد في الجنوب، وفي إحدى المرات شكى القديس بيرنار من أن الكنائس هناك خاوية ومهدمة، وسبب ذلك هو أن أهل الجنوب كانوا قد وجدوا ديانة أكثر إرضاء لهم من الكثوليكية الرومانية – هي ديانة الكتاريين، أو كما أصبحوا يعرفون من مركزهم الروحي الفرنسي، الإلبيجينزيين.

وكانت الكتارية أكثر من مجرد طائفة من الكنيسة الكاثوليكية. فمع أنها قائمة على الديانة المسيحية، فإنها كانت ديانة أخرى، لديها مفهوم للمسيح ينكر على الكنيسة الكاثوليكية الحق حتى في الوجود. وكان الكتاريون يزعمون، عن حق، أن قداديسهم أقرب جدا إلى المسيحيين الأوائل من أي قداديس في الكنيسة الرومانية. كما أنهم تبعوا تمييز القديس بولس بين الجسد والنفس والروح، معتقدين أن النفس البشرية ملاك ساقط محبوس في جسد بشرى، وأن جسده الروحي بقي في السماء، ولا يمكن توحيد النفس والروح إلا عن طريق المعرفة؟ – الفنوصية، وهي لا تعنى المعرفة العقلية، لكنها معرفة خاصة يوحي بها وفهم للأسرار الروحية؛ ودون هذه الفنوصية، يحكم على النفس بأن تتناسخ إلى جسد آخر فإن، بشرى أو حيواني، حين يموت جسدها الأول. كما ميز الكتاريون بين أجزاء الثالوث، التي لم يعتقدوا أنها جوانب ثلاثة لكبان واحد:

المسيح كان ملاكا، رسولا سماويًا، علم المعرفة التي تحرر بها النفوس من أجسادها. ولم يأت للتكفير عن خطايا البشر؛ ومع أنهم يعتقدون بأن رجلاً قد دق بمسمار في صليب، فإنهم أنكروا أن هذا الرجل هو المسيح، وبذلك أنكروا البعث والتجسد، وهما المذهبان المركزيان في العقيدة المسيحية.

إذا بدا ذلك أمرا معقدًا، فما ذلك إلا لأنه غير مألوف. ففي جنوب فرنسا في القرنين الثاني والثالث عشر، كان هذا المذهب يتم الوعظ به في كل مكان، وكان مألوفا للجميع. ومع أن الكتاريين لم تكن لديهم مبان كنسية، كانت لديهم منظمة شاملة للمعلمين في بلاد اللانجويدوك، رجال يعلمون الناس مذهبا للسلام والبساطة، ويبدو أنهم عاشوا وفقا لما كانوا يعظون الناس به.

ومع ذلك، مهما كان الكتاريون مسالمين ومتسامحين فإنهم ينتهكون العقيدة الصلبة الكاثوليكية، بصراحة وبشكل جازم، ولم يستطع أنوسينت ليتحمل ذلك. قد يعيشون كما يجب أن يعيش المسيحيون، لكنهم مبتدعون؛ وفي ١٢٠٩ أمر البابا بتدمير من يؤمنون بمذهب الكتار. ومع وجود سابقة القسطنطينية، أعلى من شأن هذه العملية بأن أطلق عليها اسم حرب صليبية، وطلب من فرسان الهيكل تأييده. وفعلوا كما فعل الكثيرون غيرهم، وإغراهم بذلك صكوك الغفران التي منحت لجميع المؤمنين الحقيقيين. بالنسبة للفرنسيين، جاءت الحرب المقدسة إلى أعتابهم، فكان من الأيسر بكثير إحراق المبتدعين في الوطن عن مواجهة مشقة الرحلة الطويلة إلى فلسطين. ويكفي مثال واحد كي يبين التفكير الذي يكمن وراء حرب الإبينجينزيين، ففي ٢٢ يوليه ويكفي مثال واحد كي يبين التفكير الذي يكمن وراء حرب الإبينجينزيين، ففي ٢٢ يوليه ساحل البحر المتوسط "بجيش الإيمان" وتم الاسيلاء عليها بسرعة، وحين سئل المندوب البابوي بما يجب فعله مع مزيج الكتار والكثوليك رد ببساطة "اقتلوهم جميعا؛ والرب سيورف شعبه".

انضم فرسان الهيكل إلى أعمال الحرق، والشنق بإرادة، غير أن الأمر استغرق وقتا أطول من الأيام الأربعين التي توقعها أنوسينت لإحراق العقيدة الكاترية. وبمساعدة النظر إلى الوراء، يمكن النظر إلى هذه الفترة في بداية القرن الثالث عشر كوقت لنذير كبير لفرسان الهيكل، كبروفة أو تدريب شيطاني بالملابس لنهايتهم المؤلمة؛ ذلك أنه من لهيب البي وتواوز نشأت الشرارة التي سوف تشتعل وتغمرهم جميعا.

فى رماد الكتاريين والقسطنطينية كتب فرسان الهيكل مصيرهم بغباء. وبعيدا عن تقديم أى عون لبلاد ما وراء البحر، دمرت الحرب الصليبية الرابعة وما تلاها فى بلاد لأنجويدوك الملكة تدميرا حقيقيا. وساعد وقد من فرسان الهيكل فى تتويج أول إمبراطور لاتينى، وقد قدم وعودا متفاخرة بالوعد العسكرى الوشيك، وهى وعود لا يمكن أبدا الوفاء بها! وحين رأى الكثيرون من الفرسان من غير رجال الدين الغنائم التى يمكن الحصول عليها فى فرنسا وبيزنطة، تركوا ما فى الأراضى المقدسة من أخطار وفقر إلى الأبد. وبعد عام ١٧٠٤ كان الفرسان الغربيون الوحيدون الذين ذهبوا إلى هناك هم أولئك الذين انضموا إلى الجماعات العسكرية.

من الناحية السطحية، بدا أن فرسان الهيكل لم يحققوا الكثير في مقابل أموالهم التي أنفقوها في الحرب الصليبية الرابعة، ولكن من المكن، وإن لم يثبت ذلك قط، وأثير حديثا فقط – أنه من بين دمار القسطنطينية، فازوا بجائزة أكبر من أي جائزة فاز بها غيرهم: جائزة لا يكادون يدركون طبيعتها، لكنهم قدروها وعظموها أكثر من أي شيء عداها، ذلك أن فرسان الهيكل مختفون خلف جدار لا يخترق من الصمت، ومحصنون من أعين الجميع سوى قلة مختارة، تمكنوا من أحد أكبر ألغاز العالم بما لهم من تكتم وسرية، وهذا شيء كانوا يعتقدون أنه مصدر قوتهم ومجدهم، لكن ما أشيع عن معتلكاتهم أدى إلى محوهم محواً ناماً.

الفصل العاشر

قلعة الحاج الأراضى المقدسية ١٢١٨– ١٢٤٤

هلم نين لأنفسنا مدينة ويرجا، رأسه بالسماء سفر التكوين، الإصحاح الحادى عشر، الآية ٤

من حيفا إلى عسقلان، ينساب ساحل إسرائيل (فلسطين المحتلة: المترجم) في انحناء رفيق لا ينقطم تقريبًا، متجها غرب الجنوب، وحيفا نفسها، حيفا القديمة تقع في ظل مشبك من الأرض، ولكن إذا ما ركبت قاربا وأبحرت نحو الغرب حول ذلك المشبك أو الخطاف، في البحر المتوسط الصافئ؛ ثم إذا ما غيرت الاتجاه، مع اتجاه الأرض إلى ميديان، جنوب جنوب غرب، وتبعت الساحل، لا يوجد شيء بينك وبين عسقلان، لا شيء سوى نتوء طويل يدعى عتليت.

حين تبحر في ذلك الساحل من الإسكندرونة في تركيا الحالية إلى دمياط في مصر، سوف تعر بجميع موانئ أيام الصليبيين – اللانقية، وجبلا، وطرطوس، وطرابلس؛ وبيروت وصيدة، وصور؛ وعكا، وحيفا، وقيسارية، ويافا وعسقلان. ولكن لا يوجد مكان واحد من هذه الأماكن، ومعظمها مدن كبيرة اليوم، يعيد للذكرى الحروب الصليبية وفرسان الهيكل على وجه الخصوص – كما تفعل عتليت. إن النتوء الذي يقع على بعد تسعة عشر ميلاً بحرياً جنوب حيفا – أي رحلة بحرية تستغرق بضع ساعات

يبرز ثلث ميل إلى البحر، ويغطى بأكمله بحطام أقوى قلعة شيدها فرسان الهيكل في أى وقت من الأوقات: إنها قلعة الحاج.

وقلعة الصاح التي بنيت عام ١٢١٨، بعد أن أسس جي دي بايان ومجموعته الصغيرة الجماعة بمائة عام بالضبط، تعد مثالاً كاملاً على كل ما كان فرسان الهيكل برمزون إليه. وكان الغرض المحدد لها هو "إحضار جمعية الهيكل من مدينة عكا الخائرة، إلى أن يتمكنوا من الانتقال إلى القدس المحصنة". وكان في إمكانها أن تتسم لأربعة الاف من البشر، وداخل أسوارها يمكن أن يجد المرء كل ما يحتاجه الناس من أجِل الصياة: فهناك المراعى، ويرك الأسلماك، ومناجم الملح، وينابيع المياه العلابة، والتسباتين، وحدائق الخضراوات، وجوش للسفن بجانب المرفأ الطبيعي. ويمكنك الرسو هناك عند جسر طوله مائتا قدم؛ وحتى اليوم لا زالت تثير الرهبة والجلال. وإذا ما سيرت بينها يمكنك تخيل الفرسان بعياءاتهم البيض، والخيول والحرس، باللون الأسود أو البني، الحجاج الذين شبيد عملهم القلعة والذين اشتقت اسمها منهم. وكانت هناك الكنيسية، وهي بناء مستعدد الأضيلاع شبيه دائري، بنيت على نموذج كنيسية الضريح؛ وكانت هناك الأبراج الكبيرة، كل منها يبلغ طوله مائة قدم، وعرضه أربع وسبعون قدمًا، تدافع عن الواجهة المتجهة إلى الأرض؛ وهناك القاعة المحدبة التي كان فرسان الهيكل يعقدون فيها اجتماعاتهم السرية. إن القلعة المتكبرة الرهيبة المكتفية بذاتها، أي قلعة الحاج، هي العالم المصغر لجماعة فرسان الهيكل بكاملها. لقد بدأ ويليام دى شارتر المعلم الرابع عشر في تشبيدها. ذلك أنه بتحريض من البابا أنوسينت الثالث الميال للحرب، رفض فيليب دي بلزيي، المعلم السابق تجديد الهدنة مع المسلمين، فمات في ميدان القتال في أواخر ١٢٠٩. ودامت مدته كمعلم ثماني سنوات ونصف، وهذه مدة متوسطة؛ ذلك أنه من بين المعلمين الثلاثة والعشرين جميعا، لم يدم أكثر من سبعة لمدة تزيد على عشر سنوات، لكنهم لا بد كانوا كثيرا ما يرحبون بالموت، إذ على الرغم من أن أنهم كانوا يلقون تكريم الأمراء، كان عليهم مزج مهارات رجل السبياسة، والقائد العسكري، ورئيس الدير، ورجل الاقتصاد. وقد تولى ويليام دي شاتر هذه المسئولية الجسيمة لتسم سنين عصيبة. على مدى ست من هذه السنوات، كان الفرنجة والمسلمون في حالة من السلام، ولكن دون ذلك ربما لم يكن لفرسان الهيكل في الشرق أن ينجو من أحداث تلك الفترة. إذ لم تعد بغراس إلى الجماعة حتى عام ١٢١٦؛ قبل ذلك قام ليو إمبراطور أرمينيا بتدمير دورهم، في أنطاكيا، وقلاعهم في أرمينيا، كما ضم هنرى، الإمبراطور الثاني اللاتيني لبيزنطة جميع قلاعهم في أرمينيا، كما ضم هنرى، الإمبراطور الثاني اللاتيني لبيزنطة جميع قلاعهم في اليونان، لم يتسبب أحد لفرسان الهيكل في الصعوبات أكثر ممن كانوا يشركونهم العقيدة.

ومن المؤكد أن قلعة الحاج كانت أكبر تراث خلفه وبليام دى شارتر لإخوانه. إذ شيدت كمكان للدفاع وملجأ ولكن أيضنا كقلعة قوية يسكنها بشر وبها مؤن ليست كشيء سلبي فقط؛ بل إن هذا الصرح في حد ذاته كان يمثل تهديدا فعليا. كان نشطا في حالة القلعة حتى يكفي لأن يهدم المسلمون إحدى قلاعهم، – وهي قلعة منيعة تقريبا على جبل تابو - خوفا من الحصن الجديد المتشامخ على عتليت. وما على المرء سوى أن يخمن المشاعر التي أحس بها الجواسيس المسلمون وهم يراقبون أول خندق يتم حفره ومجموعات الثيران وهي تجر المجارة الصغراء التي تكون الجدار إذ كان كل حجر من الكبر بحيث إن الثورين لم يمكنهما سوى جر حجر واحد في كل مرة. وقد استغرق الأمر سنة أسابيم من الحفر لمجرد وضم الأساسات؛ وبينما كان الحجاج وفرسان الهيكل يحفرون اكتشفوا أنهم لم يكونوا أول من اكتشف ما في النتوء من إمكانيات. ذلك أنه بعيدا في أعماق الأرض كان هناك جداران كبيران منسيان منذ فترة طويلة، هما بقايا بعض التحصينات القديمة. ولم يجنوا ذلك فحسب، وإنما وجنوا كنزا: وجدوا نقودا من نوع لم يره أحد من قبل. فتلقاها الإخوان بكل الابتهاج، ورأوا فيها هبة من إله عملي جدا، واستخدموها – على ما يفترض أنهم صهورها وأعادوا تشكيلها – لسد بعض من نفقاتهم. ثم جاء كنز من نوع آخر، كان أكثر قيمة من وجهة النظر العسكرية: إذ انبسق نبع من المياه العذبة حاملا معه البشري بالحياة، والطعام والوفرة داخل الأسوار. وبالمياء التي منحها الله، وأطنان الرمال المستخرجة، وقواقع البحر المسحوقة من الشاطئ، مزج الإخوة والعجاج الكادحين الأسمنت الذى من شأنه تثبيت تلك الأسوار. ذلك أن الله تبسم إذ رأى عملهم، ووضعت ١٠٠٠ من عملة البيزتة قربانا على حجر الأساس.

وحين انتهى المعمل فى الجدار الشرقى، كان ارتفاعه يبلغ نحوا من تسعين قدما، وسمكه ست عشرة قدما، ولا توجد به سوى بوابة واحدة صغيرة. ولم يكن فى وسع أحد ممن رأوا القلعة وهى تشيد، أن يفكر فى أنها يمكن أن تستسلم — وهى لم تستسلم. بل صمدت لثلاث وسبعين سنة، إلى أن سقطت جميع ممتلكات الفرنجة فى بلاد ما وراء البحر. غير أن أحد جوانب القلعة المثيرة، إذا ما مر المرء فى أثارها، هو الجدار الشرقى وهو خط الدفاع الوصيد، أما من الغرب والشمال والجنوب كانت قلعة الحاج تقريبا مفتوحة على البحر. وذلك الانفتاح والغرض من القلعة — إيواء مجموعة الهيكل إلى أن يستطيعوا الانتقال إلى القدس الحصينة — كلاهما تعبيرا عن ذلك الزمان. إذ كان الفرنجة لا يزالون يتحكمون فى البحر؛ وكان فرسان عن ذلك الزمان. إذ كان الفرنجة لا يزالون يتحكمون فى البحر؛ وكان فرسان الهيكل بصفة خاصة لديهم النية فى استعادة ممتلكاتهم القديمة، أى الهيكل فى قلب البلاد المسيحية.

حين زار لورانس العرب أثار القلعة وهو شاب، وصف البناء بأنه "حمق" قائلا إنه "قرب إلى السجن من كونه ملجاً للمدافعين عنه،" لكن هذا يمكن أن يقال عن أى حصن؛ وما دامت سفن فرسان الهيكل في إمكانها الإبحار بحريًا على طول ساحل الأراضى المقدسة، فإن قلعة الحاج – التي هي حصن وميناء في نفس الوقت – كانت أقل الأماكن سجنا، ربما باستثناء طرطوس، ذلك أنهم كانوا يمتلكون جزيرة محصنة هناك منذ عام ١٩٦٩، لكنها مثلها مثل قلعة الحاج كانت موقعا استراتجيا منذ وقت طويل: ذلك أن البقايا الفينيقية كانت هي الحجارة المشروع الجديد. إذ إن قنطرة تغطى القلعة فكل بوصة من بوصاتها كانت تربط بين الشاملي والجزيرة؛ وعلى الجزيرة، هناك أوجه شبه مع القلعة في عثليت. لم تكن أوجه الشبه تلك هي المناجم أو الحقول، لأن هذا تحصين، لا أكثر ولا أقل؛ هناك برجان مربعان يسيطران عليها، مع حصن

ذى شكل غير منتظم، أصغر جدار به يبلغ طوله مائة وعشرة من الأقدام. وتحت هذا الجزء، توجد حجرات كبيرة محدبة، وبوابة صغيرة جدا خلفية تتصل بالنحر – مدخل المؤن والتعزيزات، وفي حالة الطوارئ المطلقة، تعد مخرجا للإخوان. لا يمكن المرء أن ينسى أن هذا كان دارا المحاربين المقدسين: والكنيسة الخاصة تضاء عن طريق نوافذ صغيرة، وكأنما هذه أيضاً كانت موضع قوة ودفاع، وفي القاعة الكبيرة ذات الأعمدة، لا توجد من وسائل الزينة سوى الصليب وحمل الرب.

وإذا ما ساقرت برا من طرطوس، سوف تجد قلعتين لفرسان الهيكل، وهما بحق سجنان بقدر كونهما ملجأين وتعرفان بالقلعة البيضاء والقلعة الحمراء. والقلعة البيضاء، التي بنيت على جبل، مبهرة بشكل مسرحي: بها سوران دائريان الداخلي فوق الخارجي؛ بحيث يكون على المهاجمين أن يخترقوا كليهما، ويتقدموا في خطر على منحدراتها، وحتى حينئذ لن يبلغوا قلب أو مركز البناء. فهذا برج يبرز في عظمة وحيدا من الجدار الداخلي، وهو عبارة عن بناء من ثلاثة طوابق، تشكل أخر ملجأ للإخوان. الطابق الأول منه عبارة عن كنيسة خاصة، غرفة تثير الدهشة طولها مائة وخمسون قدما، وارتفاعها خمسة وخمسون قدما. والضوء الوحيد الذي يدخله يأتي من النوافذ الصغيرة المرتفعة عن الأرض؛ إنه مكان كثيب، غير أنه يوحى بإحساس من الأمن. وإن لم يكن آمنا بالقدر الكافي، يمكن الفرسان والحرس أن ينسحبوا أبعد من ذلك؛ في أعلى سلم مجنى داخل الجدار، ويجرز أو يصعد في جدارهم الكبير، وهو الطابق الثاني؛ وإذا لم يتمكنوا من ذلك، فهناك الطابق الثالث، أي الطابق العلوي، المفتوح على السماء. ومن هناك، يمكنهم من هذا الارتفاع الشاهق الذي يثير الدوار، صب الحمام والنيران فوق جماعات المسلمين؛ ويمكنهم مراقبة أية حركة من على بعد كاف؛ وبالدخان واللهيب يمكنهم إرسال إشارة تحذير أو استغاثة إلى إخوانهم في القلعة الممراء، والقلعة الحمراء مثلها مثل شقيقتها القلعة البيضاء بها سوران دائريان؛ وهي مثل طرطوس وعتليت، مكان محصن مرة ثم مرة عبر العصور، وحين وصل فرسان الهيكل إلى هناك، تمكنوا من استخدامها تقريباً على الفور، لأن أحدث تحصين، وهو بناء بيزنطى كان لا يزال فى حالة جيدة. كان الجدار الداخلى فقط فى حاجة إلى بعض الإصلاح، وكان المكان مهيأ القتال. مرة أخرى. وطالما بقيت مثل هذه التحصينات فى أيادى هؤلاء الرهبان المسيحيين المحاربين، كان هناك الأمل أيضا، أمل حقيقى بأن تسترد القدس.

لقد كان فريدريك المتمتع بحماية أنوسينت قد ترج إمبراطورا على ألمانيا، وكان يتم الدفع به في حرب صليبية؛ وكانت هناك سفن مشحونة بالمتطوعين من قبرص، والمجر، وإيطاليا، وفرنسا وإنجلترا وهولاندا والنمسا في طريقهم إلى بلاد ما وراء البحر. هناك بعض الاضطراب عن أي من الحملات يمكن أن تسمى بالحرب الصليبية الخامسة، أهي حملة فريدريك أم القوة متعددة الجنسيات، فحين تم تنظيم الأولى أي حملة فريدريك أخيرا، كانت جيدة التخطيط وناجحة، في حين كانت الثانية واضحة بما بها من تنظيم سيئ مهترئ وفشلها في النهاية. غير أن الحرب الصليبية الفاشلة متعددة الجنسيات كانت مشروعة؛ أما حملة فريدريك فلم تكن كذلك. ربما كان أبسط عنوان للاثنين هو "حرب فريدريك الصليبية" و "حرب دمياط الصليبية" لأن المشروع الغامرة متعددة الجنسيات هزمت أخيرا في أهوار دمياط الصليبية" لأن المشروع

من حيث الترتيب الزمنى كانت الصرب الصليبية على دمياط هي الأولى بزمن طويل. ذلك أن مجموعات مختلفة غادرت أوطانها في وقت مبكر يرجع إلى ربيع الآلام، وكان النمساويون أول من يصل إلى الأراضى المقدسة، في سبتمبر من عام ١٢١٧، وتبعهم مباشرة بعض المجريين، والقبارصة. ويقيادة ملوكهم الثلاثة غير الحكماء - هيو ملك قبرص، وأندرو ملك المجر، وجون ملك فلسطين - ومع الجماعتين العسكريتين، بقيادة معلميهما، لم يحقق هذا الجيش الخليط أي شيء على الإطلاق، باستثناء الاستيلاء على رأس يقال إنها رأس القديس ستيفين، وأبريق يقال إنه استخدم في مثبة الزواج في قانة. وارتحل المجريون مكتفون بذلك، ومات هيو ملك قبرص.

وحينما وصلت المجموعة التالية، في ربيع عام ١٢١٨، كان تشييد قلعة الحاج جاريا. وبعد العرض الأحمق الذي أداه الفرنجة في العام السابق، لم يقلق المسلمون

كثيرا من استعداداتهم من أجل الحرب؛ لكن القادمين الجدد كانوا من الهولندسن ولديهم أسطول كبير تحت تصرفهم. ففتح هذا إمكانية جديدة تماما، وفي ٢٤ مايو أبحرت القوة البحرية المشتركة من الهولنديين والنمساويين والفلسطيين من عكا. وجهتهم: دمياط، والنيل والقاهرة. وتوقفوا في عتليت، وأخلوا معهم الجيوش المتجمعة من فرسان الهيكل والصليبيين مع مؤن إضافية من القلعة الجديدة. وفي ٢٧ مايق رست السفن في دلتا النيل، على بعد ميلين أسفل مجرى النيل من دمياط. وفي ٢٩ وصل الأسطول الرئيسي، يحمل الملك جون ملك القدس، وفرسان الهيكل وويليام دي شارتر، وكانوا يعلمون أن مصر لا يمكن فتجها؛ ولكن إذا أمكن احتلال وادي النيل، وتم تنصيب نظام صديق في القاهرة، عندئذ يمكن استخدام الحبوب المصرية والرجال المصريين في فلسطين الإفرنجية. وقد كانوا بالفعل على بعد مائة ميل من القاهرة -وعلى مسافة قصيرة، كان مجرى النهر الملتوى يغطى حوالي ضعفي هذه المسافة، وكان مصبه يحرسه أحد الأبراج، به جسر من القوارب، وسلسلة حديدية هائلة، عبر القناة الوحيدة القابلة للملاحة. فعطلت هذه الأشياء الصليبيين لأسابيع؛ ولم يشقوا طريقهم حتى ٢٥ أغسطس. ثم بعد أن أنزلوا مراسيهم أمام أسوار دمياط، كان عليهم الانتظار. هذا التأخير هو ما أفسد وأفشل الحرب الصليبية. إذ كان من المكن أن تسقط دمياط فوراً بهجوم مباشر، وكان من المكن لاندفاعة أعلى النهر عبر الريف أن تنجح، غير أن التعزيزات كانت منتظرة في أي لحظة من إيطاليا. وبدا أن الانتظار لبضعة أيام لا ضرر منه؛ لكن الإيطاليين لم يصلوا حتى منتصف سبتمير، في ذلك الوقت كانت المبادرة قد ضاعت.

بالنسبة لقائد الإيطاليين، لم يبد ذلك أمرا مهمًا جدًا. لقد كان إسبانيًا يدعى بيلاجيوس، وكان رجلا غير مؤهل تقريبا القيادة. كان إداريا نشطا يتمتع بخبرة جيدة، لكنه كان يفتقد اللياقة بشكل فاضح، وكان لديه إحساس دقيق بالوضع الاجتماعى، فكان يعتبر وضعه، ككردينال ومندوب البابا، أمرا يضعه في مكانة سبامية بين الصليبين، وكان يبنى معالجته الحملة على تفسير البابا أنوسينت اسفر الرؤية. لقد

كان أنوسينت قد مات في عام ١٢١٦، لكنه كان قد وضع الصرب الصليبية على العلايق، واستمر فيها خلفه أونوريوس الثالث بحماس. وكان البابا والمعلم قد تراسلا مرارا بشئن هذا الأمر وغيره من الأمور؛ وربما تذكر دى شارتر أو يذكره أحد بمراسلات سلفيهما. ذلك أن أنوسينت الثالث كان قد كتب في إحدى المرات لجيلبيرت إيريل يقول:

"في الوقت الحاضر فتر حماس الناس، إذ سمعوا أنك تعقد هدنات مع المسلمين. أما عنا، فلا يجب أن نفتر على الإطلاق، بل نتمسك بهدفنا ذلك أنك إذا ما أربت من الغرب أن يساعدك، يجب أن تستأنف الحرب المقدسة مرة أخرى".

لقد بثت مدة دي شارتر كمعلم النشاط والقوة في الإضوان بشكل ببعث على الدهشة. وحررتهم استعادة بغراس في ١٢١٦ من هم شغلهم لمدة طويلة؛ وأنعشهم بناء قلعة الحاج بعد ذلك بعامين ويث الشجاعة في نفوسهم. وها هم مرة أخرى أصبحوا مستعدين للخروج عن واجباتهم الملة المتعلقة بالنورية والحماية؛ وكان أونوريوس راغبا في مساعدتهم. فأنشأ ضريبة واحد على عشرين على بضائم الكنيسة لدفع نفقات من أجل الحرب الصليبية، وعين أحد فرسان الهيكل، هو الأخ إيمار، أمانة الخزانة في باريس، لتلقى المال. حتى الآن كل شيء على ما يرام؛ لكن الرجل يمكن أن يكون معلما في الحرب الروحية، ومع ذلك لا يفقه شبيئا ذا قيمة عسكرية عادية. فلو أنهم تركوا إدارة حرب دمياط الصليبية لقادة مثل شارتر، يفهم الحرب من نظرية الاستراتيجية، والتكتيك إلى الأسور اللوجيستية (المؤن والإمداد)، نزولا إلى قطع الرءوس وأنت تركب حصبانياء لاختلف الأمر؛ ولكن أنوسينت وأونوريوس وبالجيوس عملوا جميعا من مقدمة منطقية هي أن النبي محمدًا لا بد أنه هو الوحش الذي ذكر في سغر الرؤية، وأن رقم الوحش ٦٦٦ - هو عدد السنوات المخصيصة قبل القضياء على الإسلام. ويما أن محمدًا ولد في عام ٥٧٠ م، ويدأ تعاليمه عام ٦١٠ وتوفي ٦٣٢، من الصنعب فيهم السبب الذي جعلهم يحسنون بهذا الأمل؛ على ذلك الأسناس، يكون أقرب تاريخ للحرب الصليبية التي تنهى جميع الحروب الصليبية يجب أن يكون مام

١٦٣٢، على الرغم من جميع منجزاته الأخرى، فإن أنوسينت الثالث لم يكن رياضيًا جيدا. ولم تكبح أية اعتبارات الكردينال بلاجيوس مطلقا. وكذلك الأعاصير، والفيضانات والمجاعات والأوبئة التي حدثت عام ١٢١٨؛ كذلك لم تفعل المناوشات الدائمة والمعارك البرية والبحرية. وفي إحدى هذه المعارك تم إغراق سفينة لفرسان الهيكل، وهي محملة بفرسان هيكل ومسلمين يقاتلون بعضهم بعضا قتالا يدا بيد؛ وغرق الجميع، ولقد ترك أحد المعاصرين وصفا بسيطا لكنه مؤلم لهذه المعركة. "أخنوا الشراع وأنزلوا المجداف، وهم في خضم الماء. وصعد المسلمون، إلى أن أصبح هناك الشراع وأنزلوا المجداف، وهم في خضم الماء. وصعد المسلمون، إلى أن أصبح هناك قرروا القضاء على أعدائهم وأن يموتوا فداء اسيدنا. لذا رفعوا الفئوس الصغيرة قروا القضاء على أعدائهم وأن يموتوا فداء اسيدنا. لذا رفعوا الفئوس الصغيرة وأجذوا يشقون جسم السفينة، فغاصت في الأعصاق؛ فغرق مائة وأربعون من المسيحيين، وأكثر من ألف وربع المائة من المسلمين".

ربما يكون هذا معدلا جيدا، غير أن هذا النوع من الانتصار الانتحارى يفتقر إلى الأسلوب الحقيقي لفرسان الهيكل، وأخذ صبر الفرسان ينفد، وفي يناير ١٢١٩ ارتحل أمين خزانة الهيكل، الأخ مارتين، والمرشال، الأخ جون عبر ألمانيا يجمعون المال كي يرسلوا به إلى زملائهم في دمياط – ما يكفى فقط للعمل المستقل. غير أن أونوريوس الذي يشك في أفيضل النوايا، رفض ذلك بحسم، وقال إن المال يجب أن ينفق على الفلايين، وغير ذلك من المعدات، أو الأجهزة - طبقا الرؤية المسبقة للمنوب بيلاجيوس." وهذا معناه أنه يقول إنه يجب ألا ينفق في أي غرض بناء على الإطلاق.

ومع مقدم صيف عام ١٢١٩ لم يكن الصليبيون قد تقدموا أية خطوة. ودمياط، التي كانت سهلة منذ عام، لم يتم الاستيلاء عليها بعد. وقضى المرض على الكثير من المسيحيين في المعسكر وعلى السفن المزدحمة القنرة المحشورة. وعلى الشاطئ، أخذت مجموعات المسلمين المغيرة تضايق الجيش وتزعجه بلا انقطاع؛ وكان ويليام دى شارتر أحد ضحاياهم. ذلك أنه حين كان يصد هجوما في ٣١ يولية أصيب بجرح بليغ

حتى أنه اضبطر إلى الاستنسلام بدلا من إعاقة إخوانه، ومات بعد ذلك بوقت قصير، بعد أن أصبيب بمرض مرعب – قد يكون الإسقربوط الذي ألان لثته وعظام ساقيه. إذ كان سببا شائعًا للوفاة هناك.

وفى حرارة شمال مصر الموبؤة فى أغسطس، تم انتخاب معلم جديد على عجل: هو بدرو دى مونتيجيو، من مواطنى أرجون، وكان سابقا معلم الهيكل فى بروفانس وإسبانيا؛ وعلى الرغم من أنه كان مسيحيا تقيا مثل مواطنه بيلاجيوس، فإنه كان محاربا محنكا حتى أنه ثم يكن ليتوقع تحقق نبوءة ضعيفة التفسير.

ومع ذلك، وفجاة، بدا أن النبوءة سوف تتحقق بالفعل، إذ تلقى الفرنجة زائرا غير متوقع: إنه فرنسيس من أسيسى. ذلك أن القديس الرقيق قام بزيارة لسلطان القاهرة، الذي أحسن استقباله؛ وبعد ذلك بوقت قصيير سلمت رسالة مدهشة للمسيحيين، لو أنهم تركوا بلاده، حسب قول السلطان، سيعيد لهم الصليب الحقيقي، والجليل، ونصف فلسطين بالكامل، والقدس أيضا. وسوف يحتفظ بقبلاع الكرك ومونتريال في أولترجوردين، – وقلعة رينوك دي شاتيون كموطئ قدم – لكنه سوف يدفع إتاوة لهم.

لقد كان رد فرسان الهيكل وغيرهم من المسيحيين أكثر إثارة للدهشة من عرض السلطان. إذ قدمت لهم المدينة المقدسة، والصليب، والناصرة، وبيت لحم وكل ما بينها من أراض لهم على طبق؛ وما عليهم إلا القبول، وبون المزيد من الصراع سوف يكونون مرة أخرى سادة على كل ما فقدوه تقريبًا. ولكنهم رفضوا العرض.

رفضه بلاجيوس لأنه اعتبر أنه يجب على كل مسيحى ألا يتعامل مع كافر. ومونتيجيو وغيره من القادة العسكريين الذين اعتادوا أن يفعلوا ذلك حين كان ضروريًا رفضوا هم أيضا، ولكن لأسباب أكثر عملية. إذ تم تفكيك تحصينات القدس، والمدينة مفتوحة. وحتى لو لم تكن كذلك، فإن القيمة الاستراتيجية للكرك ومونتريال جعلت العرض تقريبًا عديم القيمة. فجيوش المسلمين يمكنها أن تدخل في أي وقت

وتقوم بالهجوم؛ وفي واقع الأصر كان هذا ما السلطان ينتويه بالقعل. وحين خمن فرسان الهيكل تخمينا سليما مرة أخرى، قرروا أنه بما أن مثل هذا العرض قدم في الوقت الذي كان فيه تقدمهم صغيرا جدا، فمن المكن أن تكون مصر أكثر ضعفا مما بدا. وبدا أن هذا الإدراك قد بث فيهم طاقة جديدة، وفي هجوم مباغت تم الفوز بدمياط أخيرا، كان ذلك في ٥ نوفمبر ١٢١٩؛ استغرقت هذه المدينة الصغيرة الوحيدة اثنين وستين يوما للاستيلاء عليها.

داخل الأسوار وجدوا المكان يمتلئ بالجثث، إذ إن الطاعون كانت ضربته أقسى من ضربتهم. وكان مشهدا يثير التقرز:

"وجدنا جثثًا في البيوت، في غرف النوم وعلى الفراش؛ الابن بجانب الأب والجارية بجانب السيدة؛ لقد قتل الموتى الأحياء". ووجدوا ذهبا - وفضة، وحريرًا وكل صنف، أخر، - وجدوا كنوزا أوحت بالطمع، حتى أنهم هم الذين أفسدوا جهدهم. واستمرت الحرب الصليبية لعامين أخرين، واستغرق كل ذلك الوقت تقريبا في دمياط. ولم يتقدم الفرنجة أكثر من عشرين ميلا في النيل، وأبقتهم هناك مجرد إشاعات صغيرة، كل منها كانت أكثر ميلا الخيال من سابقتها. إذ قيل إن فريدريك الثاني في طريقه لمساعدتهم، ووصلت بالفعل قوة ألمانية كبيرة لكن فريدريك لم يصل. ولم يكن بيلاجيوس راغبا في التحرك دونه، وكان فرسان الهيكل مقيدين بقسمهم للباباء وأصغوا في صمت حين أبلغهم بيلاجيوس عن نبوءة عن وفاة السلطان، من الواضح أنها أحدثت فرحا، وعن بريستر جون جديد، يفترض أنه يقاتل الكفار بعيدا في الشرق، مع أنه لا بد أن يكون قد بلغ مائة سنة إذا كانت الأخبار الأصلية عنه صحيحة. وبذل الأخ إيمار في باريس أقصى جهده. وحصل على تعليمات من أونوريوس بإرسال ٦٠٠٠ مارك، من أموال الكنيسة، أو أكثر من ذلك إن كان هذا ضروريا، إلى إخوانه الغاضبين المحبطين، فأرسل ١٣٠٠ مارك ولم يتلق سوى الشكر على جهده. وتمكن بيلاجيوس من تبديد المال؛ فأبحر ملك القدس إلى الأراضي المقدسة وهو يشعر بالاشمئزاز، بدرو دي مونتاجيو بعد وقت قصير، إذ كانت قلعة

الحاج تحت الحصان. وفي تقارير دي مونتاجيو يمكن للمرء أن يستشعر ما أحس به من راحة لهذا العمل. ولكن حين عاد إلى دمياط في نوفمبر، صعد العصار بنجاح، تم صد العدو ووجد بيلاجيوس والأخرين حيث تركهم بالضبط. ولم يجد مونتاجيو في شخص بيلاجيو أيا من التبصر الذي اثني عليه أونوريوس. ولم يجد سوى الحمق. وكان الصيف في مصر في ذلك العام حاراً وجافاً بشكل استثنائي وجلب الجفاف المن للمصريين أكثر مما فعل الصليبيون. وكانت هذه آخر فرصة للقيام بهجوم منسق على القاهرة. غير أن مماطلة بيلاجيوس جعلت الصليبيين المحبطين ينحدرون إلى الشجار والقتال مع أنفسهم. ولاحت من السلطان مفاتحات جديدة من أجل السلام، وكانت هذه المرة أكثر كرما! بالإضافة إلى جميع الاقتراحات السابقة، تم عرض تعويض نقدى مقابل إعادة تحصين القدس، مع هدنة مدتها ثلاثون سنة. وبنفس السرعة السابقة "مندوب سيد معين" (كما أسماه دى مونتيجيو بسخرية ذابلة) رفض. وأخيرا قرر القيام بعمل ما، لأن التعزيزات الألمانية كانت قد وصلت، وكان لا بد من القيام بعمل لإعادة الهدف للجيش. ولكن لم يكن ثمة ما هو أسوأ من هذا التوقيت — القيام بعمل لاعادة الهدف للجيش. ولكن لم يكن ثمة ما هو أسوأ من هذا التوقيت — كان الوقت منتصف الصيف، وكان فيضان النيل متوقعا في أي يوم.

فى ١٧ يولية ١٣٢١، بدأ بيلاجيوس الزحف، وأخذ يقود رجاله باستخفاف إلى حتفهم، لقد أبحرت ستمائة وثلاثون سفينة ببطء فى النيل. وعلى الشاطئ ركب خمسة ألاف من الفرسان مع أربعة ألاف من الرماة وخلفهم أربعون ألفًا من المشاة. وتقدموا لمدة اثنى عشر يوما فى الضفة الشرقية للنيل، متجاهلين التجمع الإسلامي الذي كان يحيط بهم على الضفة الغربية ثم بدأ يجرهم، وفي يوم السبت ٢٤ يوليه وصل المسيحيون إلى البحر الصغير، أحد روافد النيل. وعلى الجانب المقابل تم جمع جيش من المسلمين؛ وحين قام المسيحيون بتقييم الموقف، أدركوا برعب بطيء رهيب أنهم مطوقون، وأنهم أقل عددا.

ولما لم يتوفر لديهم بديل أخر، حاولوا التقهقر؛ وعلى الفور تم فتح البوابات الصناعية على الضغة الشرقية فتدفق الفيضان. فمات الصليبيون فزعا وهم يغوصون في الوحل والماء، يلاحقهم المشاة من النوبيين والفرسان من الأتراك، في حين كان فرسان الهيكل يقاتلون في معركة لحماية المؤخرة.

وكتب دى مونتيجيو بعد ذلك لإخوانه فى إنجلترا: "فقدت مؤننا، واكتسع مجرى الماء الكثيرين من رجالنا، ولم نتمكن من إحراز أى تقدم، واستمر الماء فى الارتفاع، ففقدنا جيادنا وأسرجتنا وأمتعتنا وكل ما كان لدينا، ولم ندر إلى أين نفر، ولما كنا كناسمك فى المصيدة، لم يسعنا سوى المناداة بالسلام،" كان بيلاجيوس قد هرب، والآن كان عليه قبول السلام مع الكفار – سلام غير مشرف، ومع ذلك كانت شروط السلطان تتسم بالرحمة: سيتم تبادل جميع السجناء، وسيتسلم الفرنجة الصليب الحقيقى، وما عليهم سوى ترك مصر وقبول هدنة مدتها ثمانى سنوات، وإلى أن يتم بدء الصليبيين فى الرحيل، سلم بيلاجيوس ودى مونتيجيو مع اثنين وعشرين من القادة الروحيين فى الرحيل، سلم بيلاجيوس ودى مونتيجيو مع اثنين وعشرين من القادة الروحيين والعسكريين كرهائن؛ وفى ٨ سبتمبر أبحروا هم وغيرهم من الناجين بعيدا عن دمياط، مع دخول السلطان إليها مظفرا.

لقد أسهم الإيمان الدينى الساذج، والتصلب الذي يخلو من اللياقة، والقيادة غير الكفأة كلها في حدوث هذه النهاية البشعة المثيرة للشفقة، ومع هبوط الجثث المسيحية كالدوامات في النيل، عرف بيلاجيوس أنه لا يملك ما يبرر بذل كل هذه الجهود – حتى الصليب الحقيقي لم يكن معه. ذلك أن السلطان، في نهاية الأمر لم يكن قادرا على العثور عليه.

بعد حكاية حزينة كثيبة مثل هذه، قد يكون من المريح أن نلتفت إلى حرب فريدريك الصليبية. وقد لا تكون الفكاهة من بين صفات فريدريك الشخصية، غير أن ظروف وأحداث رحلته إلى القدس، وعلاقاته بفرسان الهيكل مليئة بالسخرية، حتى إننا حين نراها بمعابير اليوم، نجد أنها تقترب من المهزلة، ذلك أن فريدريك نفسه كان من أغرب الناس في ذلك الزمان، – بل ربما كان أغرب الرجال الذين التقى بهم فرسان الهيكل، إلى حد ما، (ربما أو بسبب) كونه كان تحت وصاية أحد البابوات وتلميذًا لبابا أخر، نشأ ولديه تقريبا عدم اعتبار تام للكنيسة الكاثواكية الرومانية. وكان بالمولد نصف

ألمانى ونصف نورماندى، لكنه، إذ ربى فى صنقلية مملكة أمه بما بها من ثقافة نصف إغريقية ونصف عربية، وورث إمبراطورية أبيه فى ألمانيا، فقد جمع عناصر من الإسلام والمسيحية، وتخطاها جميها. وكان يتكلم ست لغات، بطلاقة، ليس فقط الألمانية والفرنسية والإيطالية، وإنما أيضا كان يتكلم اللاتينية واليونانية والعربية. وكان فيلسوفا بجانب كونه مفكرا، يفكر بنفس الطلاقة التي كان يتكلم ويكتب بها. وكان يحيا حياة متحررة طليقة، كما كان نواقة للطعام والشراب، ولما كان يعيش فى زمن يمكن للمقل القوى فيه أن يحيط بجميع المعارف السائدة، فكان يفهم العلوم الطبيعية، والرياضيات، والفزياء، والهندسة، والفلك والطب. وكان اسم شهرته يعبر عن ذلك:

غير أن اسم الشهرة هذا يعبر عن محدودية أو قصور أوربا، إذ إن فريدريك كان يمكن أن يكون غير عادي في مصبر أو بيزنطة، لكنه لن يعد خارقا للعادة. في أوربا كان تقريبا غير مفهوم، لذا كان يثير المُوف ولم يكن جديرا بالثقة. إذ كان يفتقر إلى الفضائل البسبيطة: فلم تكن صداقته ثابتة، ولا يرجع عن عداواته؛ فكان قاسيا ماكرا، - ولا غرو في أنه كان أنانيا. وباعتباره إمبرطورا رومانيا مقدسا، فلم يكن من يغضله؛ حتى البابا نفسه، فيما أن الرب يباركه، فلم يكن يقبل أية عقيدة دينية جامدة -ما لم تتلام مم خطته السياسية. وكان ينتقد المسيحية بحرية وصراحة، ويستخدمها متى شاء كأداة للترسم ولا شيء عدا ذلك. وحين توج ملكا عام ١٢١٥، أعلن مباشرة عن رغبته في القيام بحرب صليبية في أقرب وقت ممكن؛ غير أن تبني الصليب لم يكن سوى طريقة للفوز بحماية البابا وهو يحكم قبضته على أجزاء من إيطاليا، وفي عام ١٢٢٠ توج إمبراطورا رومانيا مقدسا، ويشكل أو أخر، تمكن فريدريك القيصس الطموح من البدء الفعلي في حرب صليبية لمدة اثني عشر عاما. ذلك أن البابا أونوريوس الذي علم فريدريك حين كان طفلاء كان رجلا بسيطا ساذجا يقبل كل عذر على علاته؛ لكن أونوريوس مات عام ١٢٢٧، وكان خليفته جريجوري التاسم الذي كان بالمناسبة أبن عم أنوسينت الثالث، أقل صبراً. وكان يراقب من على الهامش، وسبَّم من

إضاعة الوقت الذي كان يمارسه فريدريك، وحين صار جريجوري بابا، لم يضع وقتا، وحرم الإمبراطور من الكنيسة.

فلما شعر فريدريك بالإهانة العميقة بدأ في حرب صليبية دون إبطاء، وبدأت المهزلة الكبرى؛ ذلك لأن الكنيسة لم تكن تسمح لشخص محروم من الكنيسة بالاشتراك في حرب صليبية ناهيك عن قيادتها. وفوق ذلك، فإن أي شخص يساعد شخصًا محروما من الكنيسة أو أية بلدة تأويه، تقع تلقائيا تحت العظر أيضا؛ وكان فرسان الهيكل يراقبون النذر مع اقتراب فريدريك. فهم أقسموا على أن يكونوا خدما للبابا ويلزمهم القسم على كل حاج وكل محارب صليبي - كما كانوا ملزمين بتجنب أي اتصال بالمحرومين من الكنيسة. وهذه للحنة تبدو كوميدية، في هذه الحالة، ومع ذلك، فإن حلها بالنسبة لفرسان الهيكل كان يعنى أكثر من الموت والحياة، لأن القرار الضاطئ يعنى اللعنة الأبدية. لقد وصلت حرب فريدريك الصليبية إلى عكا في أوائل سيتمبر عام ١٣٢٨، وكان أول ما علمه فريدريك تقريبا أنه محروم من الكنيسة بشكل مضاعف – المكم الثاني لأنه دخل في حرب مبليبية بشكل غير شرعي. لا بد أنه شعر بما يشعر به من حكم عليه بالإعدام مرتين: فالحكم الثاني لن يحدث فرقا كبيرا. غير أنه اكتشف أيضًا شيئًا آخر، اكتشف شيئًا يمكن أنْ يحدث فرقا: ذلك أنه غير مرحب به في الأراضي المقدسة، وغير مرغوب فيه وبلا دعم تقريباً. ولم يكن حرمانه مرتين من الكنيسة سوى جزء من السبب في ذلك؛ فعلى نفس الدرجة من الأهمية حقيقة أن بلاد ما وراء البحر قد صبارت أكثر قليلا من مجرد مجموعة من المدن والقرى والقلاع يعتمد استمرارها على السلام مم السلمين. وكان هذا السلام في ميزان حساس، يتوقف بدوره على الانقسامات المستمرة بين النول الإسلامية، بل أن فرسان الهيكل والإسبتاليين كانوا أقل ميلا للحرب مع المسلمين، وكانوا لعدة سنوات ينفسون عن عنوانهم ضد بعضهم بعضا؛ غير أنهم نسوا خلافاتهم مؤقتاً على الأقل حين اتضح أن فريدريك سوف بثابر في حربه الصليبية، مهما يكن. ذلك أن معارضتهم اللفظية لم تجعله يتراجع، وحين بدأ هو وجيشه الصغير يتجهون جنوبا، كان لا بد من اتخاذ قرار: هل يقاتلون معه أم لا؟

وكان الحل مبتكرا وسخيفا. فمع تقدم القوات الإمبراطورية، سار فرسان الهيكل في موازاتهم، مدعين أنهم ليست لديهم علاقة بفريدريك أو رجاله؛ وتصادف فقط أنهم يسيرون في نفس الطريق.

غير أن هذا العل لم ينجح لوقت طويل. ذلك أن القوات المنفصلة جعلت نفسها عرضة أكثر المغيرين المسلمين بدلا من أن تقلل منهم. لذا تم تبنى حل ثانٍ إذ ركب فرسان الهيكل مع الإمبراطور، وأطاعوا أوامره – بشرط أن يصدر الأوامر باسم الرب والمسيحية، وليس باسمه المحروم من الكنيسة.

لقد كان فرسان الهيكل مخضرمين في المغالطة والسفسطة. ذلك أنهم، منذ قرن، حين كان ميثاقهم يدون، كان هناك حظر على السير في أماكن معينة تبعته المادة التي تقول: "وحيث لا يسير أحد الإخوان، لا يمكنه أن يوجه حصانه أيضا". لكن الجهود التي بذلوها مع فريدريك كانت أكثر من سبل اليّ الميثاق؛ ذلك أنه قد بدا أن فريدريك، أقل الصليبيين احتمالا، قد يستعيد الأراضى المقدسة بالفعل، – ولم يكن فرسان الهيكل يرغبون في أن يتركوا خارج الموضوع. وكان فريدريك يستخدم الدبلوماسية بون وجود تعصب بيلاجيوس الذي كان من المكن أن يعيقه. لقد كانت القدس تتبع الكامل، سلطان القاهرة، الذي أوضح مرتين أنه مستعد لتسليم المدينة، إذا أمكن لهذه الحركة أن تساعد على تحقيق هدفه في حكم جميع بلاد المسلمين. وكان هدف فريدريك هو أن يحكم جميع بلاد المسلمين. وكان هدف فريدريك السيحية". من الواضع، إذن، أنه يمكنه التعامل مم السلطان.

وفى بضعة أشهر تم كل شىء. ذلك أن فريدريك وافق نيابة عن الفرنجة الفلسطينيين (وأن يكن دون موافقتهم)، على دعم الكامل. والسلطان بدوره، أعاد للفرنجة الناصرة والجليل الفربى؛ والأراضى الإسلامية حول صيدة؛ وبيت لحم، والقدس، ومصر برى من هناك إلى الساحل. وتم التوقيع على المعاهدة في ١٨ فبراير عام ١٨٢٩، – إنه نصر غير دموى حقق بقلم محروم من الكنيسة، أكثر مما فعلته أربعون عاما من الحرب الصليبية المشروعة.

دخل فريدريك الأراضى المقدسة يوم السبت ١٧ مارس، وفي يوم الأحد بحضور أبناء وطنه ضقط، توج نفسه ملكا على القدس؛ ويوم الإثنين، وصل رئيس أساقفة قيسارية وهو يلهث غضبا، لتنفيذ المنطق الصارم العقيدة الكثوليكية في ما يمكن أن يكون الحركة العبسية الأخيرة في الحرب الصليبية المتناقضة. وتم حرمان القدس أيضا من الكنيسة وهي بؤرة المسيحية، وذلك لوجود الإمبرطور المحكوم عليه بها،

حقيقة الأمر، هى أن أحدا لم يرد انتصارا من هذا النوع، كان نصرا غير سليم أو مناسب استراتيجيا، لن يمكن الدفاع عن القدس دون إحكام القبضة على الأراضى المحيطة بها؛ ولا فائدة ترجى من ممر ضيق بائس إلى الساحل. وروحيا، لم يكن مما يطاق أن يدخل رجل ممنوع من الذهاب إلى هناك رغم المنع؛ وأخلاقيا، لقد أساست هذه المعاهدة إلى جميع ما تم من تدريب عسكرى أن يتم الفوز بالمعركة بالكلمات. ذلك أن فرسان الهيكل، على وجه الخصوص، كانوا يغلون غضبا لأنه، حسب الماهدة بقيت منطقة الهيكل بأكملها مع المسلمين.

لفترة ما، تجاهل فريدريك جميع الانتقادات، وتفقد القدس، وعنف المؤذن المعلى على تقصيره في رفع الأذان المعتاد، احتراما لحاكم المدينة الجديد. وقال: "إن هدفى الرئيسي من قضاء الليلة في القدس هو سماع الأذان، وصيحات حمد الله في أثناء الليل". وزار قبة الصخرة، وأظهر معرفته باللغة العربية بتورية مسيئة؛ إذ كانت هناك شباك عند أبواب هذا المكان المقدس، قبل له إن الهدف منها صد العصافير، والكلمة باللغة العربية هي عصافير، وهناك كلمة خنازير. فقال فريدريك باللغة العربية: "أرسل الله الخنازير بدلا من ذلك!" لكن اتجاهه المعادى للمسيحية علنا لم يجعله محببا لدى السلمين، بسبب مظهره: إذ علق كاتب مسلم: "لديه جلد أحمر، وهو أصلع وقصير النظر، لو أنه عبد لن يساوى مائتي درهم. ومن الواضح مما قاله أنه مادى وأن النظر، لو أنه عبد لن يساوى مائتي درهم. ومن الواضح مما قاله أنه مادى وأن النظر، في أن الدين، بالنسبة لمعبة بالنسبة له". وعلى الرغم من ذكاء فريدريك الساخر، لكنه لم يفهم أن الدين، بالنسبة لمعظم الناس، في غاية الضطورة. فجعلته الأحداث بعد انقدس يعي ذلك بشكل حاد. وشن البابا حربا صليبية ضد فريدريك نفسه، انقلابه في القدس يعي ذلك بشكل حاد. وشن البابا حربا صليبية ضد فريدريك نفسه،

بالقتال على أرض ألمانية فى إيطاليا؛ وصاول فرسان الهيكل فى الأراضى المقدسة إغراء السلطان الكامل بقتله. وحين كان فريدريك عائدا من القدس بسرعة، وضع سياجا من الجنود حول دار فرسان الهيكل فى عكا، مهددا باختطاف المعلم، بدرو دى مونتيجيو وبهدم قلعة الحاج. غير أن القلعة كانت بها حامية شديدة لا تقدر على هزيمتها مثل هذه الأعمال النزقة، وكان دى مونتيجيو محاطا بحرس شخصى طوال فترة بقاء فريدريك فى الأراضى المقدسة.

لم يستطع الإمبراطور البقاء؛ إذ إن الأصداث في إيطاليا كانت أخذة في الخطورة. وعند فجر واحد مايو عام ١٢٢٩، أخذ السفينة من عكا، وأمطره المواطنون بالقاذورات والسباخ. وغادر الأراضي المقدسة أنجح الصليبيين جميعا، تغطيه القاذورات وتصحبه اللعنات.

وفي وقت متأخر من عام ١٣٤٠ وصل خطاب من فلسطين إلى الهيكل في لندن.

"أرمان دى بيجوراس، برحمة الرب المعلم المتواضع للفرسان الفقراء فى الهيكل إلى أخينا العزيز فى السبيح روبيرت دى سانفورد، مدرس هؤلاء الفرسان، فى إنجلترا، محييا باسم الرب!"

لقد كان عقد الثلاثينيات قاسيا بالنسبة لفرسان الهيكل في الشرق، ذلك أن بدرو دي مونتيجيو مات عام ١٣٣٧؛ وفي عام ١٣٣٧، قتل أكثر من مائة من الإخوان في معركة واحدة؛ ومات الكامل، السلطان المصرى المسالم في ١٢٣٨؛ وفي عام ١٢٣٩ ضاعت القدس مرة أخرى، لكن عقد الأربعينيات بدأ بداية جيدة، وبدا أنه مبشر؛ وقد شرحت الرسالة القادمة من بيراجورس سبب ذلك.

"نرغب في أن تعلم جماعتكم أنه ... ليس خوفا من الشعب المسيحي، وإنما من خلال فعل معجز من الرب، أعاد سلطان دمشق إلى السيطرة المسيحية جميع الأراضى حتى نهر الأردن دون أن تمس... فليبارك الجميع الله الذي فعل هذا كله".

لقد كان ضباع القدس أمرا نصف متوقع، ذلك أنه حسب شروط معاهدة فريدريك، لا يملك سوى إعادة تحصينها و – لعلمه أن أول المستفيدين سيكون فرسان الهيكل – كان يرفض باستمرار إعطاء الإذن. وما إن انتهى مفعول المعاهدة في عام ١٢٣٩، هاجم المدينة التي ليس لها دفاع أمير الكرك المسلم، واستولى عليها دون صعوبة كبيرة – تماما كما توقع فرسان الهيكل. ولكن هم أيضا استطاعوا أن يلعبوا كدبلوماسيين، كما بينوا ذلك كثيرا؛ وكان فصل الدمشقيين لغرب الجليل مدينا لدبلوماسية فرسان الهيكل أكثر من التدخل الإلهي. ذلك أنهم كانوا انتهازيين كالعهد بهم، فاقتربوا من سلطان دمشق مقترحين تحالفا ضد الخليفة الكامل في القاهرة؛ ومكافأة على دورهم في الفاوضات أعطوا قلعة صفد القوية.

وصفد الواقعة على بعد خمسة وسبعين ميلا شمال غرب قلعة الحاج، وما يقرب من خمسة عشر ميلا عن بحر الجليل، كانت مهدمة جزئيا، ولكن فرسان الهيكل عمروها بسرعة ووسعوها، واليوم، على الرغم من أنها صارت حطاما مرة أخرى، ما زالت تسود المنظر الطبيعى هناك؛ وحين كان فرسان الهيكل سادة صفد، وعتليت، كانوا يتحكمون في جميع مرتفعات الجليل. وأقد كانت الحامية في صفد تقريبا نصف حامية عتليت، إذ كانت أقل قليلا من ألفي رجل؛ ولكن بالمقاييس في البناء والسكان، كانت كل قلعة مدينة في حد ذاتها.

مع ذلك، فإن صفد، على الرغم من موقعها الاستراتيجي المهم، ربعا لم تكن ليعاد تحصينها مرة أخرى مطلقا لولا تشجيع رجل واحد، هو بينديديكت أسقف مارسيليا. ففي وقت الهدنة بين فرسان الهيكل والدمشقيين، كان في الأراضي المقدسة في رحلة حج بالصدفة. وابتهاجا منه بهذه الفرصة، قام بزيارة أماكن دمشق المقدسة، وكان منبهرا بخوف المسلمين الواضح من صفد كما كان منبهرا بدمشق نفسها. واكن عند العودة إلى الساحل عن طريق القلعة، وجد أنها مهجورة! إذ لم يكن يعسكر هناك سوى قليل من فرسان الهيكل. وفي عكا اكتشف سبب هذا النقص في النشاط، كان دى بيرجورس مريضاً وملازما الفراش، يشعر بالاكتئاب والإحباط. وحوارهما مسجل.

قال دى بيرجورس: "سيدى الأسقف، ليس من السهل بناء صفد، إن ملك نافار، وبوق بيرجاندى، وكونتات ويارونات الشرق، وعدوا جميعا بالحضور إلى صفد، حتى نعمل بسرعة ويشكل أكثر أمنا؛ وقالوا إنهم سوف يبقون لمدة شهرين، وسوف يقدمون ٧٠٠٠ مارك لنفقاتنا. لكنهم رحلوا جميعا؛ وأنت تقول لنا الآن أن نعيد بناء القلعة دون أية مساعدة." لكن بينيديكت اعتنق الفكرة، ولم يكن هناك ما يثنيه. فأصر وأخيرا – رغبة من دى بيرجورس لتهدئته – وافق على مناقشة الأمر مع إخوته، وأشار مرة أخرى إلى نفقات المشروع، فوعد بينيديكت، الذى كان دعمه لفرسان وأشيكل في ذلك الوقت استثناء بين رجال الدين، بأن يصلى ويعظ نيابة عن الإخوان.

"كان الفرح عظيما في دار الهيكل وأهل عكا، وكل أنحاء الأراضي المقدسة. وبون إبطاء اختار فرسان الهيكل لجنة من الفرسان والحراس، ورماة السهام، وغير ذلك من المسلحين؛ وجمعوا مجموعة من الدواب، وفتصوا أجرائهم، والقباء والخزن وكل ما لديهم لدفع النفقات هم أنفسهم؛ وأرسلوا مقدما فرقًا من بناة الحجارة والحدادين".

وبارك بينيديكت العمل، بوضع كأس من الذهب والفضة به نقود على حجر الأساس بوصفه قربانًا. وبعد ذلك بوقت قصير عرف عجوز مسلم الإخوان مكان بئر ماء عذب ثمنا لرداء؛ وحين عاد بينيديكت بعد ذلك بأربعة أعوام، وجد القلعة أوسع مما كانت، وبها سبعة أبراج واستحكامات للمجانيق لحمايتها. لقد كان العثور على البئر هو أرخص جزء في العملية بأكملها؛ ذلك أن الأرقام المقتبسة لبناء وصيانة صفد تدير الرءوس. التشييد: ١٠٠٠٠ بيزنتة. استكمال في زمن السلم: ألف وسبعمائة رجل، زمن الحرب: ألفان ومائتا رجل، مؤن سنوية: اثنا عشر حمل بغل من القمح والشعير، بالإضافة إلى جميع الأصناف الأخرى من الفاكهة، والخضروات واللحوم. العجز السنوى في مقابل دخل المقاطمات: ٢٠٠٠ بيزنتة. وحين يفكر المرء في أن ذلك كان السنوى في مقابل دخل المقاطمات: ٢٠٠٠ بيزنتة. وحين يفكر المرء في أن ذلك كان واحداً من ثلاثة عشر في الأراضي المقدسة، وايست أكبرها، يتبدى جشع فرسان

الهيكل الأسطورى، ويصبح عدم استعداد بيرجورس لتحمل المشروع الهائل شيئا مفهومًا. ذلك أنه وضع هو وإخوانه في دائرة مفرغة فظيعة: إذ أصبح المسيحيون في كل مكان يعتبرون حماية فرسان الهيكل للأراضى المقدسة أمرا مسلمًا به، ودون حض من واعظ ملهم مثل الأسقف بينيديكت صاروا غير راغبين في الإسهام في تكلفة الحماية - كانت ميزانية الدفاع خارج جيوبهم، ولكن حين جمع فرسان الهيكل النقود عن طريق التجارة والتمويل، وكان المسيحيون الطيبون مغلولي اليد هم أنفسهم أول من اشتكي واستنكر. ومما زاد من العوائق أمام فرسان الهيكل - مع أن المرء يمكن أن يخمن أنهم لم يفعلوا الكثير للإقلال منها - أن فرسان الإسبتاليين كانوا يراقبون ما يحققون من تقدم بعين الحسد والغيرة.

فمنذ عام ١٢٢٧ كان هناك تحالف غير مريح بين فرسان الهيكل والإسبتاليين، قائم على عدم ثقتهم المشتركة بالإمبراطور فريدريك الذي كان لا يزال يتدخل في حكم بلاد ما وراء البحر. غير أن الفوز بصفد كان أمرا من الجسامة بحيث لا يمكن أن يتحمله الإسبتاليون. وفجأة انفجرت المنافسة التقليدية بين الجماعتين إلى حرب مكشوفة. إذ عقد الإسبتاليون معاهدة مع سلطان القاهرة في تعارض مباشر مع غرسنان الهيكل، ووقفوا إلى جانب فريدريك في معارك الحكم. ولدة ثلاث سنوات، قاتلت الجماعتان كل منهما الأخرى بنفس الضبراوة التي كانوا يقاتلون بها المسلمين في الأوقات العادية إلى أن تمت تسوية هذه المعارك: كان القتال بينهما يجري في شوارع المَدنِ، وفي الريف، وحول قبلاع كل منهما - في أي مكان؛ وفي إحدي المرات، فرض فرسان الهيكل المصار على دار الإسبخاليين في عكا، مع جميع أنواع العظر المعهودة: إذ لم يسمح بدخول الطعام إلى المبني، بل ولم يسمح للمحاصرين بأن يخرجوا ليدفنوا موتاهم. وتصرف الجانبان بالضبط كجمهوريتين مستقلتين داخل المملكة، ولم يعد السلام بين الجماعتين إلا في عام ١٣٤٢ حين حسمت أخيرا الوصاية على العرش. وتُم إلغاء تتويج فريدريك لنفسه، وتم الإعلان عن ابنه كونراد ملكا شرعيا على القدس؛ لكن كونراد، الذي كان يعيش في إيطاليا، لم يرد أن يذهب إلى الشرق، اذا انتقات الوصاية على العرش إلى الوريث التالى ععة أبيه، ملكة قبرص الأرملة. وقد تم التوصل إلى هذا القرار غير المحتمل عن طريق الالتزام الحرفى بالقانون الفلسطينى وعلى الرغم من أن فرسان الهيكل كانوا يعتبرون أنفسهم فوق القانون، فإن هذا هو وعلى الرغم من أن فرسان الهيكل كانوا يعتبرون أنفسهم فوق القانون، فإن هذا هو القرار الذى دافعوا عنه. ذلك أنه من الناحية السياسية كان يعنى أن سياستهم الفارجية هي التي فازت وليست سياسة الإسبتاليين: أي أن الحليف هو دمشق وليس مصر. ومما يثير السخرية، أن ضباع القدس تم التعويض عنه قبل ذلك بعامين، عن طريق معاهدة الإسبتاليين مع المصريين. وهكذا، بدمج الاتفاقيتين، تضخمت فجأة مملكة القدس التشمل جميع أراضيها القديمة تقريبا؛ وبقليل من المناورة الدبلوماسية استعاد فرسان الهيكل مقرهم القديم – هيكل سليمان. وكتب أرمان دى بيرجورس بانتشاء إلى زملائه في إنجلترا: ".... وفوق ذلك، من أجل تحصين أراضينا والدفاع عنها إلى الأبد ضد الأعداء". وأضاف: "لكننا أن نحتفظ بسهولة بكل الأراضي وندافع عنها إلى الأبد ضد الأعداء". وأضاف: "لكننا أن نتمكن أبدا من الاحتفاظ بأراضينا والدفاع عنها إلى الأبد ضد السلطان (سلطان القاهرة)، فهو رجل قوى حاذق، دون الحماية القوية المتازة من المسيح والمؤمنين".

لقد كان هذا التحدير ببساطة عسكريًا وسياسيًا، لكنه الآن يبدو وكأنه نبوءة، ذلك أن الشائعات كانت لا زالت رائجة عن ذلك الحاكم القوى المسيحى الغامض بريبستر جرن؛ وكان لتلك الإشاعات في الواقع أساس واه في الحقيقة، ففي أقصى الشرق، في منفوليا، كان هناك رجل يدعى تغرل، رئيس عشيرة كيرات الماغولية. وقبل ذلك بمائة سنة، كانت عشيرة الكيرات قد اعتنقت المسيحية النسطورية، وكان تغرل مسيحيا من الناحية الاسمية، فتغير لقبه أونجخان عن طريق المبشرين المسيحيين إلى صبيغة أكثر قابلية للفهم: وترجمت خان (خطأ) إلى كاهن – بيتر (أب) بريستر، – وأونج أصبح الاسم الفرنسي جان، وكانت أنباء غامضة عن أفعال المغول تتغلل إلى أوربا، والأراضي المقدسة، ومع أنها لم تكن مبالغًا فيها، فإن ذلك الأنباء كانت تعقم بشكل ما عند روايتها، فأصبحت أعمال الذبح المتعطش للدماء هناك في الأراضي الجافة المعشبة

البعيدة انتصارات تحققت باسم المسيح؛ وحين قتل تغرل في عام ١٢٠٣ بواسطة الخان الأكبر – جنكيز – انتقات إلى جنكيز الفضائل المسيحية المفترضة إليه من أونجخان أو جون بريستر. وكان الناس في أوربا ويلاد ما وراء البحر يؤمنون إيمانا صادقا بأن المساعدة للأراضى المقدسة لن تأتى فقط من الغرب، وإنما من الشرق، من جنكيز، وعائلته مؤسسى الجماعة الذهبية؛ وفي عام ١٢٤٤ ظهر في فلسطين رجال من الشرق.

وكتب أحد المعاصرين من الغرب: "رجال! إنهم وحوش وليسوا بشرا، يفضل أن يسموا مردة وليسوا بشرا، أنهم يتعطشون لشرب الدماء، لذا يجزرون أجساد الكلاب، والبشر ويأكلونها، ويضعون قرون الثيران، ويتسلحون بالحديد؛ إنهم قصار القامة سمان الأجساد ولا يهزمون في الحروب، ويعد الدم بالنسبة لهم مشروبا لذيذا".

ثم يكونوا مسيحيى بريستر جون، ولا هم مغول جنكيز خان، بل هم رجال الأتراك الخوارزميين، وهم قبيلة نزحت نتيجة فتوحات المغول، وهم الآن محاربون جائلون يبحثون عن وطن، مستعدون لبيع قوتهم لمن يشترى؛ فاشتراهم سلطان القاهرة.

فى ٢ يولية ١٢٤٤، بعد أقل من سنة من تحنير دى بيرجورس التنبؤى، – اقتحم الخوارزميون القدس. ولم يتمكن من الهرب سوى ثلاثمائة من البشر. وفى أثناء فرارهم على الطريق إلى يافا، احترقت خلفهم المدينة المقدسة وكنيسة الضريح المقدس، وبتاثرت عظام ملوك القدس من قبورها. وإن تحتوى القدس أبدا بعد ذلك على جيش من فرسان الهيكل. لكن الفرسان أعادوا التجمع في عكا، كان هناك ما يزيد على ثلاث مائة، ومعهم ثلاثمائة من الإسبتاليين، وستمائة من الفرسان من غير الدينيين، وأعداد متناسبة من المشاة – وجيش من المسلمين أيضًا، استجلب من دمشق. ولم يكن الخوارزميون يعرفون إلهًا مسيحيا أو إسلاميًا. إذ لم يكن لديهم دين على الإطلاق، وأخيرا في هذه المرة كان المسلمين والمسيحيين عدو مشترك.

بدأ الحلفاء يزحفون جنوبا في ٤ أكتوبر، والخوارزميون، تركوا القدس تحترق، اكتسحوا البلاد كي يكونوا في موعدهم مع مستخدمهم، سلطان القاهرة، وانتظرت الجيوش المتحدة عند غزة. وفي ١٧ أكتوبر التقت القوتان – الفرنجة ومسلمو الشمال، والخورزميون ومسلمو الجنوب، عند سهل لا فوربي، على بعد بضعة أميال شمال شرق غزة. وانتهى كل شيء في بضع ساعات، إذ تحطم حلفاء الشمال، وسقط خمسة آلاف من الفرنجة والمسلمين موتى جنبا إلى جنب، وسلب ثمانمائة منهم كعبيد في مصر، ومن بين الثلاث مائة من فرسان الهيكل لم يفر سوى ثلاث وثلاثين كي يشقوا طريقهم عائدين إلى قلعة الحاج، ورقد معلمهم، أرمان دى بيرجورس فاقد البصر في رمال غزة.

لقد كانت المملكة فيما وراء البحر تموت موتا بطيئا مؤلما، غير أن فرسان الهيكل، في قالاعهم وبورهم وحقولهم ومزارعهم في صافد وعتليت وكل أنصاء أورباء كانوا عازمين على أن تبقى جماعتهم على الأقل.

الفصل الحادي عشر

مياه ميتة مصر والأراضى المقدسية ١٢٤٨–١٢٩١

انسحقت الأرض انسحاقا، تشققت الأرض تشققا، تزعزعت الأرض تزعزعا أشعياء، الإصحاح الرابع والعشرون. الآية ١٩

تقوم مدينة إيج - مورت بارزة من منظر طبيعى مسطح بلا ملامح، وعلى بعد بضعة أميال إلى الشرق يوجد سهل كإماراج الشهير، حيث الخيول البرية لا زالت تجرى بحرية في الأهوار المالحة. أما شمالا وغربا فإن الأرض خصبة، وفي الشتاء تكون خضراء بالكروم، وإذا ما نظرت جنوبا من جدران المدينة، يبدو وكأن البحر يبدأ فورا، ذلك أنه لا يوجد الكثير مما يرى سوى ميل بعد ميل من المياه المتلائة، وما هذه الفكرة إلا وهم: فعند أقرب نقطة منها، يكون البحر المتوسط على بعد أربعة أميال، ومع ذلك فإن البحيرات المتدة جهة الجنوب بحيرات مالحة، ولأن عمقها لا يزيد على قدم، فهي تقتل التربة، وتعطى المدينة اسمها ألبروفنسي أو البروفنسالي، ففي لغة أوك، "إيج مورت" تعنى "مياه مينة".

إنه مكان متكبر، وحزين، في أن، جميل ومهجور ومنعزل في أن، حتى عام ١٢٤٠ لم يكن هناك شيء هنا سوى قرية صيد؛ ولكن في عام ١٢٤٨، ومرة أخرى في عام ١٢٧٠، مست هذه البقعة المنعزلة أحلام البطولة المقدسة. في المدينة القديمة –

التي لم تتغير منذ زمن الرجل الذي أعطى هذه المدينة اسمها الفخم، يقف تمثال الويس كابي، أو من يعرف بالقديس لويس، أو لويس التاسع، ملك فرنسا. من هذه المياه الميتة، قاد لويس، الملك القديس أساطيل فرنسا مرتين في آخر الحروب الصليبية الكبرى، ولويس الذي ولد عام ١٣٧٤، كان طفالا جادا منطويا على نقسه. أما لويس الرجل، فكان طويلا وممتلئا قليلاً، أشقر البشرة، أشقر الشعر، جميل الوجه؛ شديد التمسك بالأخلاق، إن لم نقل إنه كان مستقيما على الدوام. ويحتفظ بشبه في العديد من اللوحات والتماثيل التي تبين وجها وسيما عادة غير ملتح، دائم الهدوء والصراحة. وتظل شخصيته وأفعاله في العديد من السير المعاصرة، التي إن لم تتفق مع أقوال أخرى توافقا جيدا، لشك المرء في أنها مجرد مدائح؛ لأن لويس بلغ بممارسة الفضائل المسيحية إلى سمت غير مسبوق تقريبا. إذ كان رجلا دائم الوعى: وكل ما كان يقوله أو يفعله كان تحت بصر الله، ومن أجل مجد الله؛ وكل ما كان يمر به يتلقاه بوصفه درساً من عند الله.

ويقدر ما يكون ذلك ممكنا، فقد كان المسيحى المثالى، وفي ذلك، كان يقارن بصلاح الدين، المسلم المثالي، وكان بشكل ما، خارج زمنه، فمثل هذا المرجل كان لا بد أن يفهم الحرب الصليبية بمعناها النقى، يفهمها على أنها واجب نحو ربه؛ وكان لا بد لمثل هذا الرجل أن يشن ويقود الحروب الصليبية. ذلك أنه منذ مائة وخمسين سنة، لم يكن ليوجد من هو أنسب لذلك الزمان؛ ولكن في منتصف القرن الثالث عشر، كان المزاج الشعبي في أوربا منحازا ضد الحروب الصليبية، إذ لم تنجح واحدة منها نجاح الحرب الأولى ومنذ ذلك الوقت، أزهقت الكثير من الأرواح وضاع الكثير من الأراضي المقدسة؛ ومع شن حروب صليبية ضد بيزنطة والإلبيجينزيين، وفريدريك، فإن الدعوة البابوية للقتال من أجل الصليب فقدت الكثير من صدقيتها. ومع ذلك تحمل لويس الصليب في عام ١٣٤٤، بعد أن شفى من مرض كاد يودى بحياته، وتمكن في خلال الصليب في عام ١٣٤٤، بعد أن شفى من مرض كاد يودى بحياته، وتمكن في يجعل بضعة سنوات من إحياء ما يكفى من روح الحرب الصليبية القديمة في رعيته كي يجعل من القيام بحملة صليبية جديدة أمرا قابلا للتنفيذ. ففي بداية القرن الثالث عشر، لم

يكن ملوك فرنسا يملكون أية أراض خاصة بهم على ساحل فرنسا الجنوبي؛ لكن لويس كان قد تلقى إيج – مورت كهبة من دير الترانيم، على مسافة قليلة من القرية. فقرر بسرعة أن يحول هذا الخراب المالح إلى ميناء. وتم بناء برج للدفاع عن المدينة الجديدة؛ وتم توسيع مجرى مائى كى يكون قناة صالحة الملاحة؛ وشيدت أرصيفة بحرية على طول حافة الماء. جميع تلك الأشياء ما زالت موجودة؛ وعدا ذلك، ثم يتبق صدى لكل ذلك الضجيج والعجيج الذي حدث حين كانت السغن الجينوية المستأجرة الثمان والثلاثون تحمل الأسلحة والطعام والخيول والرجال. لقد استؤجرت السفن، التي تسع كل منها سبعمائة رجل، أو مائة جواد، عن طريق رينو دى فيشيى، رائد الهيكل في فرنسا؛ وحين أبحر الأسطول في ٢٥ أغسطس عام ١٧٤٨، كان فيشيى ضيف شرف على الملك.

وسرعان ما انضم أسطول ثان إلى الأسطول الملكى من مارسيليا. وكان هناك مسافر بارز في هذه التجريدة هو جان دى جوانفيل الذي كتب بعد ذلك إحدى أهم السير المعاصرة للقديس لويس. ذلك أنه كان هو والملك صديقين، غير أن دى جوانفيل لم يكن راغبا في الاشتراك في مشروع الملك، وكثيرا ما كاد الذعر يخرجه عن صوابه من الناس والأحداث التي صادفها على مدى المشروع، ولم يكن في ذلك ما يضتلف كثيرا عن غالبية الصليبيين في الفترات الأخيرة؛ من حيث تعاسته بسبب مغادرة وطنه، وغرابته في الميناء واقتناعه، بمجرد وجوده في البحر، بأنه جن جنوبًا تاما بأن يكون هناك، وهذا يصدق على معظم الناس الأن كما يصدق على معظم الناس حينذاك.

لقد كتب: "في اليوم الذي غادرت فيه جوانفيل، أرسلت في طلب رئيس دير شيميون، الذي أعطاني عصاة حجي، والتصريح الخاص بي. وغادرت جوانفيل مباشرة بعد ذلك - على ألا أدخل قلعتي مرة أخرى حتى عودتي من الخارج - سائرا على قدمي، العاريتين وأرتدى قميصي، وذهبت وأنا هكذا، إلى بليكور وسان-أوربان، وغير ذلك من أماكن بها أثار مقدسة. وفي الطريق إلى بليكور وسان-أوربان، لم أدع

ناظرى قط يلتفتا إلى الوراء نحو جوانفيل خوفا من أن يرق قلبي من الحنين بالتفكير في قلعتي الجميلة والطفلين اللذين خلفتهما ورائي".

ولكن حين وصل إلى مارسيليا، بدت الرحلة أقرب إلى المغامرة، وخففت العملية المؤدية إلى الرحيل من قلبه المحزون،

"في اليوم الذي بدأنا فيه الرحيل، فتح باب دخول السفينة وتم شحن جميع الجياد التي كانت لدينا كي تأخذها إلى الخارج، ثم أغلق الباب وسحب إلى أسفل، بنفس الطريقة التي تغلق بها دورقًا، ذلك لأنه حين تكون السفينة في البحر، يكون الباب بأكمله تحت الماء.

"وحين وضعت الجياد على ظهر السفينة، نادى قائد سفينتنا على بحارته، الذين كانوا في مقدمة السفينة، "هل كل شيء ثابت" فأجابوا "أجل يا سيدى" "يمكن الكتبة والقسارسة أن يصعدوا"، وما إن فعلوا ذلك، صاح قائلا: "باسم الرب، انشدوا أغنية:" فغنوا جميعا معا هيا يا روح الرب!؛ فقال رئيس السفينة للبحارة "باسم الرب أبحروا!" وهكذا أطلقوا الأشرعة".

لقد كان ذلك هو نقطة الوداع لجوانفيل أكثر من تركه لقلعته.

"وسرعان ما ملأت الرياح الأشرعة ولم نعد نرى الأرض، بل لم نر شيئا سوى السماء، والماء؛ وفي كل يوم كانت السفن تأخذنا بعيدا عن الأوطان التي ولدنا فيها. إذن ما أحمق الرجل الذي يخوض مثل هذه المخاطرة! - لأنك حين تنام في الليل لا تدرى ما إذا كنت ستجد نفسك في الصباح في أعماق البحر".

لكنهم وصلوا إلى قبرص دونما مزيد من المنفصات سوى دوار البحر، وبعد أن قضوا الشتاء هناك في راحة، انطلقوا مبتهجين في أواخر مايو من عام ١٢٤٩، بأسطول أكبر كثيرا.

كان منظرا جميلا؛ قعلى مدى الرؤية، بدا البحر كله مغطى بمناشف؛ بسبب أشرعة السفن، التي كان عددها كبر أم صغر، ألفًا وثمانمائة سفينة.

ذلك أن الجيش كبر بشكل متناسب؛ إذ يوجد الآن ألفان وثمانمائة من الفرسان، ومشاة لا حصر لهم، وكذلك رماة. وكان الطريق الذي اختاروه هو الطريق نفسه الذي اختاره أباؤهم في عام ١٢١٨: دمياط، القاهرة، ثم الأراضي المقدسة. في هذه المرة كان هناك سبب إضافي لهذا الاختيار؛ عسقلان كانت قد سقطت في عام ١٧٤٧، وبعد فتح القاهرة، سيكون استردادها هو هدفهم الأول. لكن بين قبرص ودمياط كانت كارثتهم الأولى - إذ هبت عاصفة وبعثرت الأسطول الكبير، حتى أن بعض السفن أزيحت إلى مسافة بلغت عكا. ولم ينزل مع الملك دمياط سوى سبعمائة من الفرسان فقط، و ... هناك وجدنا جميع قوات السلطان على شاطئ البحر: يعجبك منظرهم، لأن جميع أسلحة السلطان من ذهب، والشمس أشرقت على الدروع الذهبية. والضوضياء التي أحدثوها بنوافيرهم ونوافير السلمين تبث الرعب في القلوب." وبعد أن قفن لريس في الماء بدرعه ورمحه، أخذ يشق طريقه إلى الشباطئ، واضطروا إلى منعه بالقوة من مهاجمة الجيش المصرى بمفرده، كان في الوطن حاكما قديرا حكيما؛ أما في الحرب، فهو بعد، قديس بريء. ومع ذلك، نال الصليبيون ضربة حظ: ذلك أن النزعة الحربية للجيش البراق، على الشاطئ لم تكن سوى مجرد استعراض. ذلك أن السلطان كان في القاهرة يعاني من مرض خطير. وحين اعتقد أهل دمياط أنه مات، أخلوا مدينتهم على عجل، ودخل الجيش المسيحي ببساطة سيرا، واستواوا على المدينة. فكانت بداية مبشرة.

ولكن بدا أن دمياط تبعث على الكسل والضمول في أوصال كل أوربي دخلها، إذ كان النيل في موسم الفيضان؛ وأجزاء الأسطول المتناثرة لم تكن قد انضمت إلى الملك بعد؛ وأصر لويس على البقاء في المدينة التي تم الاستيلاء عليها، وكان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يمكن عمله، إذا كانت القاهرة هي الهدف، لقد كانت هناك إمكانيات أخرى، من بينها الإسكندرية، التي أوصى بها بقوة بارونات فلسطين وفرسان الهيكل تحت قيادة معلمهم الجديد ويليام دي سوناك، لكن لويس شعر بصدمة عميقة حين اكتشف أن دي سوناك قد تقاوض على معاهدة سرية مع سلطان القاهرة، ذلك أن

الملك الذي يحمل مبادئ سامية أن يسمح بالتنازل بحيث يتعامل مع الكفار؛ وعنف دى سوناك علنا، وتبنى بدلا من ذلك نصيحة أخيه المفضل، كونت روبير دى ارتوا المحب للحرب ذلك الشخص الأرعن، وكانت القاهرة هى الاختيار، وبعد أشهر طويلة من الانتظار في حر الصيف اللافح، بدأ الملك والجيش يزحفون ببطء على ضفة النيل الشرقية. وأنهك التقدم السلحفائي – ثلاثة أميال فقط يوميا – فرسان الهيكل بشكل لا يحتمل. وكان المغيرون المسلمون يضايقونهم دائما، لكن لويس منعهم من أي انتقام؛ ثم أسقط أحد فرسان الهيكل من على صهوة جواده، في إحدى المناوشات، فصاح دى سوناك على النقيض من أوامر لويس: "هلموا، باسم الرب، إني لا أستطيع تحمل هذا الوضع أكثر من ذلك." فهجم فرسان الهيكل وقاتلوا بشراسة. وقتل ستمائة من المسلمين أو غرقوا، وتشجع الجيش بهذا النجاح غير المتوقع وتقدم على نحو أكثر سرعة، وفي ٢١ ديسمبر كانوا على ضفاف البحر الصغير، وعلى الجانب الآخر من القناة الواسعة استطاعوا أن يروا المنصورة، واسمها من معناها؛ إذ إن المدينة بنيت على هزيمة الفرنجة قبل ذلك بجيل.

من الناحية النفسية، لا شك في أن هذه كانت أهم نقطة في الحرب الصليبية، لكلا الجانبين. ذلك أن المرور بالموقع الذي مات فيه جيل آبائهم منح الفرنجة الشجاعة التي كانوا في حاجة إليها، مما هزم روح المصريين أكثر من أي شيء آخر.

لقد كان في مواجهة الفرنسيين، على رأس جيش المسلمين، اثنان من أعظم قادة المسلمين في ذلك الزمان: فخر الدين، وهو صديق شخصني لفريدريك الثاني منذ المفاوضات التي جرت بينهما منذ عشرين سنة مضت، والمملوك التركي، بيبرس، الذي قام جيشه المشترك من المصريين والخوارزميين بذبح فرسان الهيكل ومعلمهم في ذلك الوقت أرمان دي بيراجورس عند غزة.

لقد احتجز المسيحيون لمدة ستة أسابيع عند الخليج. لكنهم وضعوا معبرا عند القناة وعند الفجر في ٨ فبراير ١٢٥٠، ويتعليمات مشددة بأن ينتظروا لويس على الجانب الآخر، قاد ويليام دى سوناك وروبير دى أرتوا الطليعة المسيحية. وربير الذى

كان نافد الصبر، ويخشى من ضياع ميزة المفاجأة، تجاهل أوامر أخيه وحث رجاله على مواصلة التقدم.

وجادله دى سوناك لفترة وجيزة ثم استسلم أمام توبيخ روبير له بأنه جبان. واندفع الفرسان والفرنسيون معا إلى معسكر المسلمين الذى كان قد استيقظ توا، وفيما تلا ذلك من دمار سريع، وجد فرسان الهيكل فخر الدين، وقتلوه وهو يقفز عاريا من حمامه.

وحث الصليبيون خيولهم على مواصلة المسير، نحو المنصورة، فلو تم التغلب على هذا العائق، لن يوجد ما يمنعهم من دخول القاهرة، ولكن مع أن فخر الدين مات، فإن بيرس ما زال حيا. وأخفى جنوده فى المدينة، وترك بواباتها مفتوحة، فدخلها فرسان الهيكل والفرسان الفرنسيون كالرعد، وساروا مباشرة فى وسط المدينة، حتى وصلوا إلى أسوار القلعة ذاتها؛ ثم لم يجدوا مكانا كى يستديروا خارجين من الشوارع الضيقة، فوجدوا أنفسهم محصورين، تحيط بهم قوات المسلمين من كل جانب، ودارت المحركة فى المدينة حيث كان القناصة يمطرونهم من النوافذ والأسطح، فرجعت الخيول من الفزع، ملقية براكبيها ودهستهم فى وسط الفوضى والاضطراب. وهرب أحد الفرسان الجرحى كى يحذر لويس؛ وقفز قليل منهم فوق التحصينات، فكان مصيرهم الفرق فى النيل؛ ومن بين قوة فرسان الهيكل — مائة وتسعون فارسا — لم ينج سوى خمسة. وكان دى سوناك المعلم أحد هؤلاء الخمسة، غير أن سهما أصاب إحدى عينيه، فصار الآن نصف أعمى.

كان الأمر كله عبارة عن مقامرة، إنها مقامرة لم تكن جائزتها مجرد مدينة، بل كانت ذلك الشيء غير الملموس، ألا وهو الروح المعنوية. لقد قامر الجانبان، فخسر الفرنجة. وسحب لويس رجاله خارج أسوار المنصورة، وصد سلسلة من الهجمات المضادة. وفي إحداها فقد دي سوناك عينه الأخرى؛ وفي هذه المرة، مات متاثراً بجروحه. وصمد الصليبيون في مكانهم شهرين، وكان الأمل الأخير أن تنشب ثورة في القاهرة لأن السلطان توفي أخيرا بسبب مرض؛ غير أن ابنه استولى على السلطة دون معارضة ونظم أسطولا لمنع سفن المؤن الصليبية من دمياط، وفي أثناء الأسابيع الشمائية التي ظل فيها لويس خارج المنصورة، تم الاستيلاء أو إغراق مائة واثنتي عشرة من سفنه، وبدأت المجاعة في الجيش، ووقع ضحية الدوزنتاريا والتيفود، وأصيب لويس بالاثنين معا، لكنه أبي أن يترك رجاله، وأخيرا حاول التفاوض – تنازل عن المبادئ ولم يكن ليقبل ذلك في أية ظروف أخرى، ورفضت المفاتحة رفضا قاطعا، وفي تكرار كثيب لما حدث عام ١٩٢١، بدأ الانسحاب المسيحي، ونقل المرضى في سفن صغيرة في النيل؛ وسار أو ركب كل من كان قادرا على قعل ذلك. لكن الوضع كان ميئوساً منه بالكامل، ذلك أنه قبل دمياط بوقت طويل كان كل رجل في الجيش المسيحي ميئوساً منه بالكامل، ذلك أنه قبل دمياط بوقت طويل كان كل رجل في الجيش المسيحي بشكل ما، دبت الحياة في روحه في هذه الظروف، ذلك أن أسريه طلبوا منه تسليم ملكية قلاع الفرنجة في الأراضى المقدسة، فرفض قائلا إنها ليست ملكه حتى يتخلى علها؛ وهدده المسلمون بوضعه في المقشرة.

وقال دى جوانفيل: "إن المقشرة هي أقسى طرق التعذيب التي يمكن أن يعاني منها إنسان. وهي تتركب من قطعتين من الخشب الطيعتين بطولين مختلفين مسلحتين عند الطرف بأسنان. تضبطا معا ثم تربطان من الطرف بشرائط قوية من جلد العجول، حين يريدون وضع الناس فيها، يضعون الضحايا على جنوبهم ويحشرون الساقين بين الأسنان. ثم يجعلون رجلا يجلس على لوحى الخشب، وتكون النتيجة عدم وجود ولو قطعة عظام واحدة طولها ست بوصات غير مكسورة، ولزيادة التعذيب إلى أقصى حد ممكن، في نهاية ثلاثة أيام، حين تتورم الساقان، يضعونها في المقشرة مرة أخرى، ويكسرونهما من جديد"، مجرد الفكرة من شانه أن يجعل معظم الناس يستسلمون؛ لكن لويس لم يكن عاديا. "أجاب الملك على هذه التهديدات بأنه سجين لديهم، وأنهم يستطيعون أن يفعلوا به ما يشاون".

حين شعر المسلمون بالدهشة والإعجاب وريما الحيرة، قرروا إطلاق صبراح لويس وجنيشته – عند دفع فندية قندرها ٢٠٠٠٠٠ بينزنشة ذهبنية، وهو منا يعنادل أنذاك ٥٠٠٠٠ جنيه فرنسى، فوافق لويس، وحين استغرق السلطان الشاب في التفكير لأن
 لويس لم يساوم خفض خمس المبلغ، ومع ذلك، كان مبلغًا كبيرًا، وحين جمع كل ما
 لدى الفرنجة من نقود، كان المبلغ أقل من المطلوب ب ٣٠٠٠٠ جنيه.

"ثم قلت (جوانفيل) للملك إنه يحسن صنعا بأن يرسل إلى قائد ومرشال الهيكل، بما أن المعلم قد مات، ويطلب منهما إقراضه عبلغ ٣٠٠٠٠ جنيه".

من الصعب للغاية إعطاء معادل حديث لمثل هذا المبلغ. ذلك أن الاقتصادات الوطنية كما نعرفها لم تكن موجودة، لكن تلك الأيام كانت منكوبة كأيامنا بتنبذبات معدلات التبادل والتضخم وتغيرات أسعار السوق. ولكن كمرشد تقريبي جداء كان الجنيه الإنجليزي تقريبا؛ ومن المحتمل أن الجنيه الإنجليزي بمكنه شراء ثلاث بقرات وجدى.

وكان ادى فرسان الهيكل أكثر من الكفاية في سفينتهم غير أن القائد رفض تقديم القرض – على أساس أن الأموال المودعة ادى الجماعة لا يمكن أن ترد إلا إلى المودع. ومن حسن الطالع أن مرشال الهيكل كان رجلا يتمتع بقوة الخيال، كان هذا الرجل هو رينو دى فيشيى، الذى كان قد استأجر الأسطول الجنوى من أجل لويس، وقد رقاه إخوانه حديثا من منصب رائد أو مشرف على دار الهيكل في فرنسا.

فقال لجوانفيل: "يا سيدى، فلنكف عن هذا النزاع... كما يقول قائدنا لا يمكننا تسليم أية أموال دون أن نحنث بقسمنا. واكن، إذا كنا لا نريد إعطاعكم النقود، يجب أن تأخنوها ببساطة. وليس في هذا شيء غير معتاد؛ وإذا أخنتم أيا من نقودنا فلدينا ما يكفى من نقودكم في عكا، يمكن بها رد ألمال".

وكان هذا بالضبط ما فعله دى جوانفيل. إذ حمل بقارب إلى سفينة الجماعة، وحين صعد على ظهرها التقط فأسًا صغيرا وقال إنه سوف يستخدم هذا كمفتاح من أجل الملك، وعندئذ قدم له دى فيشيى مفاتيح الضزانة الوحيدة، وهذه وحدها تحتوى حرفيا على ما يكفى من المال لافتداء ملك، ودفع المال للمسلمين في موعده. هذه

الحادثة العجبية توضع عدة جوانب تعبر تعبيرا صادقا عن الجماعة، أولها وأوضحها شراؤهم الفاحش، كما تبين التزامهم المطلق المستمر بحرفية ميثاقهم، واستعدادهم لإيجاد ثغرات في الميثاق حين تستلزم ذلك السياسة البرجماتية، لكن ربما كان أهم ما تبينه هو مدى سهولة اتهامهم بالتكبير، ذلك أنه لا يوجد أي مودع من الممكن أن يعترض، حتى إذا ما فقدت نقوده في إنقاذ لويس؛ وإذا رجعنا بالأمر إلى ما حدث من هزيمة في المنصورة، فإن أسر الملك جزئيا مسئولية فرسان الهيكل.

لحسن الحظ، لم يكن لويس رجلا يحمل ضغائن لأحد سواء كان مسلما أو مسيحيا. وشكّل هو الهزيمة التامة لحربه الصليبية، وذبح المسلمين القاسى للمرضى الذين تركهم خلفه في دمياط، كدرس إلهي وإفراط في التقوي، شكر الله على ذلك .

سرعان ما حان الوقت كى ينقل هذا الملك شديد التواضع عبرته إلى فرسان الهيكل المتكبرين. حين وصل لويس إلى عكا في ١٧ مايو عام ١٧٥٠، أقام في الأراضى المقدسة لأربع سنوات. فكانت المكانة التي يكنها لفرسان الهيكل واضحة: فقد أقام في قلعتهم المنيعة قلعة العاج، وحين حملت مليكته طفلهما السابع هناك عام ١٢٥١، دعا رينو دى فيشيى كي يكون الأب العوجي. وبكل أسف رفض دى شيفيي هذا الشرف إطاعة للميثاق؛ لكنه نال شرفا مرة أخرى من إخوانه، لأنه أصبح الآن المعلم التاسع عشر للهيكل. إذ من الواضح أن الفرسان وافقوا على الحل الوسط الذي قدمه في مسألة الفدية.

وكان على لويس أن يتنازل هو أيضًا؛ وكان يعلم أن إرادة الله على الأرض يجب مساعدتها من أن لآخر، وفي عام ١٢٥٢ بدأ التفاوض كي يتحالف مع أعدائه القدامي في القاهرة. وكان التنافس القديم بين القاهرة ودمشق ما زال مشتعلا، وكل من الجانبين تقارب مع الفرنجة طلبًا للمساعدة ضد الجانب الآخر، وفضل لويس القاهرة، متذكرا الصليبيين الموجودين في السجن هناك؛ أما فرسان الهيكل، ففضلوا حليقهم التقليدي، دمشق، ومرة أخرى تفاوضوا على عقد معاهدة سرية. وحين قدم دى فيشيى

المعاهدة التى تم إنجازها إلى لويس، شعر الملك، الهادئ دائما والقادر على التحكم في نفسه في أصعب الأوقات، بالغضب الشديد. وطلب من فيشيى أن يستدعى جميع إخوانه لجلسة استماع عام، وأن يحضروا السفير الدمشقى معهم، فتجمع الفرسان حفاة الأقدام وجلسوا أمام الملك، وكان دى جوانفيل شاهد عيان على الإهانة الصريحة.

"قال الملك، بصوت مرتفع، للمعلم: "أيها المعلم، إنك سوف تقول للسفير إنك منزعج لأنك عقدت معاهدة معه دون أن تتحدث معى؛ ولأنك لم تتحدث معى، فإنك تعفيه من جميم الاتفاقيات، وتعيد إليه الأوراق الموقعة".

وقعل دى فيشيى ذلك، ثم، بأوامر من أويس، ركع هو وجميع القرسان أمام الملك، ورجوا منه الصفح. فعفا لويس عنهم جميعا فيما عدا الأخ الذى قام فعلا بكتابة المعاهدة، الذى كان من المقرر أن ينفى من الأراضى المقدسة. وتم تنفيذ الحكم؛ ومع ذلك، فإن مصير دى فيشيى بعد هذا العار الذي عرض الجماعة له، مصير غامض قليلاً. لقد عاش حتى عام ١٣٥٦؛ غير أن السجلات التى تتحدث عن السنوات الاخيرة من حياته متناقضة. البعض يشير إلى أنه ظل معلما حتى نهاية حياته؛ والبعض الآخر يوجى بأنه استقال، أو عزل من منصبه، مباشرة بعد اللقاء الذي جرى مع الملك لويس. ويعد الرأى الأخير ممكنًا تمامًا؛ ولكن جماعة الهيكل ما تزال تحتفظ بسريتها. ومع ويعد الرأى الأخير ممكنًا تمامًا؛ ولكن جماعة البيكل ما تزال تحتفظ بسريتها. ومع ومسئلة السبب الذي جعله يسمح للويس بأن يملى على الجماعة، وهي جماعة تعرف ومسئلة السبب الذي جعله يسمح للويس بأن يملى على الجماعة، وهي جماعة تعرف طابع الجماعة، الروحي والعسكري. لقد كانٌ لويس أعظم مثال حي على القيم طابع الجماعة، الروحي والعسكري. لقد كانٌ لويس أعظم مثال حي على القيم المسيحية؛ وبينما كان في الأراضي المقدسة، كانت جميع الفصائل الإفرنجية تقبل المسيحية؛ وبينما كان في الأراضي المقدسة، كانت جميع الفصائل الإفرنجية تقبل قيادته. واحتراما لتلك الصفات، انحني فرسان الهيكل أمامه.

غادر لويس عكا في إبريل ١٢٥٤، وكان المسلمون في دمياط، ذات مرة، قد قالوا له إنه او قبل عقيدتهم فقط، سوف يجعلونه سلطانهم القادم، وهو رفض بالطبع؛ لكنهم كانوا يمزحون تقريبا. ذلك أن السلطان الشاب الذي جوع أسطوله (صليبيي لويس)، قد مات، اغتاله بيربس، وكان أخر أسرة صلاح الدين الحاكمة. والآن حكم الماليك الأتراك في مصر، وهم رجال أقوياء يتمتعون بالطاقة ارتقوا من العبودية كي يصلوا إلى العظمة ويمتلكوا مقاليد الأمور، وكتب عنهم أحد مسلمي ذلك الزمان "إنهم فرسان الهيكل المسلمون" وكان ذلك أسمى ثناء يمكنه قوله؛ وقبل أن يمر وقت طويل أظهر الماليك نوع المعارضة الذي يقدرون عليه.

لقد كان المغول يتحركون. وكان أحفاد جنكيز خان غير راضين عن ميراثهم، ويبغون المزيد. والرجال الأربعة – إريكبوغا، ومونجكا، وهولاكو، وكوبلأى – جميعا حكموا بالفعل كل الأراضى من فارس حتى كوريا، ومن سيبيريا حتى المحيط الهندى. والآن، في حين بقي إريقبوغا ومونجكا، في منغوليا، يسيطران على المركز، تحرك نواب الملك وأبناء العم نحو الشمال والجنوب؛ فتحرك كوبلاى شرقا إلى الصين؛ وتحرك هولاكو غربا. وكانت نية الإخوة المعلنة هي فتح العالم؛ ولولا الماليك، لكان من الممكن أن يفعلوا ذلك. إن مسيرة كوبلأى في الصين معروفة تمام المعرفة، أما هولاكو، ففي تحركه نحو الغرب، قام بتصفية الحشاشين في فارس وسوريا، وأحرق بغداد، واستولى على حلب، ودمشق واحتل نباس وغزة. وبتأثير من زوجته المسيحية واستولى على حلب، ودمشق واحتل نباس وغزة. وبتأثير من زوجته المسيحية النسطورية، ترك الفرنجة وشأنهم؛ غير أن سقوط الإسلام في آسيا بدا وشيكا، ثم طلب هؤلاكو الاحترامات من الماليك؛ فكان ردهم هو ملاقاة جيشه في معركة حامية طلب هؤلاكو الاحترامات عن الماليك؛ فكان ردهم هو ملاقاة جيشه في معركة حامية عند برك جالوت؛ (عين جالوت) على بعد عشرة أميال جنوب شرق الناصرة.

لقد كانت هذه المعركة إحدى نقاط التحول في تاريخ العالم بالنسبة المغول، ذلك أن فاتحى العالم قد هزموا، وبيبرس الذي دخل المعركة كأحد القواد، عاد إلى مصر سلطانا.

وقد أعطت أحداث حرب المغول والمماليك فرسان الهيكل ملكية شيئين جديدين غير متوقعين هما مدينة صيدة وقلعة بوفورت التي توجد بها. وكانت هذه هي آخر التفاتة رحمة يستمتعون بها في بلاد ما وراء البحر. إذ إنه حين انتهت صلاحية هدنة لويس مع القاهرة، ضرب بيبرس ضربته، وكانت في الصميم.

فقى فبراير ومارس ١٢٢٦، تم الهجوم على قيسارية، وحيفا، وقلعة الحاج. وسقطت المدينتان؛ ونجت القلاع، وأخذت أرسوف واستعبد أهلها؛ وكتب شاعر من فرسان الهيكل يائسا، أن ألم المسيحيين بدأ لذيذا لدى المسيح، ذلك أن هزيمة لويس كانت قد نزعت الصدقية عن فكرة الغضب الإلهى الذي يجعله يعذب الخطائين؛ الآن أصبح يكتب ويقال بصوت مرتفع، إن الرب تخلى عن أبنائه، وأن الحروب المقدسة أغضبته، وأن بلاد ما وراء البحر مقدر لها الفناء.

لقد كتب فارس الهيكل الجهول: "يجسم الغضب والأسى فى قلبى بثبات حتى إنى لا أكاد أعيش، ويبدو أن الرب يرغب أن يدعم الأتراك حتى يهزمونا.... استمع يا إلهى وسيدى؛ واحسرتاه ... لقد فقدت معلكة الشرق قدرًا كبيرًا حتى أنها لن تستطيع النهوض مرة أخرى، وسوف يحيلون دير مريم المقدسة إلى مسجد، وبما أن السرقة تسر ابنها، من يجب أن يبكى لذلك، فنحن مجبرون على الخضوع أيضا. ... مجنون كل من يرغب فى قتال الأتراك، لأن يسوع المسيح لم يعد يقاتلهم. إنهم انتصروا، وسوف ينتصرون، إنهم يدحروننا فى كل يوم، فهم يعلمون أن الرب الذى كان يقطا، ينام الأن، ومحمد يزداد قوة".

لقد كانت بالفعل آخر جولة في الكفاح، ذلك أن بيبرس عاد في يولية ١٢٢٦ وهاجم صفد ثلاث مرات، وحين انهارت الأسوار ودخلها المماليك مندفعين، قطعت رأس كل فرد من فرسان الهيكل، ووضعت حطقة من رءوس المسيحيين حول القلعة. ومع الاستيلاء على راية فرسان الهيكل، كان بوسينت (علم فرسان الهيكل) مقبوض عليه أمام جيشه، وتقدم ببيرس إلى أسوار عكا نفسها قبل أن يتم التعرف عليه، لقد عاشت المدينة بعد هذه المجزرة؛ أما الحقول حولها كانت تتناثر فيها أجساد الموتى من المسيحيين. وثمة خطاب في عام ١٢٢٧ أرسل من الأراضي المقدسة إلى معلم الهيكل في فرنسا، وهذا الخطاب يكشف عن مقدار الحسرة واليأس الذي كان يشعر به

فرسان الهيكل في الشرق، بالإضافة إلى رغبتهم التي تثير العجب في مواصلة القتال، ولما كان الموت قد أنقص من صغوفهم، كان عليهم اجتذاب المزيد من المرتزقة؛ غير أن مواردهم المالية المحلية قد جفت،

"لا بد أن يكون لدينا ما يكفى من المال فى عكا، كى نطعم رماة السنهام؛ كما نحتاج إلى خمسين جنيهًا كى ندفع الفرسان الستين الذين جاءا مع كونت نيفرز، وسيدى ارار دى فاليرى؛ وفرسان جيفرى دى سيرج يكلفوننا ١٠٠٠٠ جنيه سنويا؛ كما يجب أن ترسلوا لنا ١٨٠٠ جنيه اقترضناها من التجار كى ندفع لخمسين فارسا فى عكا لخمسة أشهر؛ وحبا فى الله، اعقدوا سلامًا بين أهل جينوا وأهل فينيسيا، وعجلوا برحيل حرب صليبية جديدة".

وبين مارس ومايو من عام ١٢٢٨ استولى السلطان المملوكى على يافا، وبنياس وبوفورت، تلك الجائزة غير المتوقعة لفرسان الهيكل، وأخذ فرسان بوفورت عبيدا. ولم يبق جنوب عكا شيء من بلاد ما وراء البحر مطلقا عدا قلعة الحاج؛ وفي ١٨ مايو، ويعد مائة وواحد وسبعين سنة من امتلاك المسيحيين غير المنقطع انهارت أنطاكيا. وإلى جنوب تلك المدينة، كانت هناك قلعة بغراس - التي حدث حولها قتال مرير في السنوات الأولى في القرن - أصبح من الصعب الاحتفاظ بها؛ فأجبر فرسان الهيكل على التخلى عنها.

وكتب البابا كليمينت الرابع في يأس "انهارت تقريبا كل تلك الفروسية الشهيرة عن فرسان الهيكل" ولم تساعدهم سوى فرنسا وإنجلترا. في ذلك الوقت كان القديس لويس يبلغ من العمر أربعة وخمسين سبنة، وكان قد أنجب أحد عشر من الأبناء؛ وولد حفيده الأول عام ١٦٢٨، ولد اسمه فيليب، الذي سرعان ما لقب بالأشقر، إذ إنه قد ورث حسن منظر جده، - الأشقر الجميل، غير أن ضمير لويس لم يسمح بالبقاء أكثر من ذلك مع أسرته. ففي \ يولية ١٢٧٠، في السادسة والخمسين من عمره، غادر الأرض لليتة إيج - مورت في حربه الصليبية الثانية وأبحر إلى تونس، الذي يفترض أن علاقة ودية تربط حاكمها بالمسيحيين، ووصل لويس إلى قرطاج في ١٧ يولية، وعلى

الفور تقريبا أصيب بالنوزنتاريا التي نغصت عليه حياته في دمياط، ومما زاد من خطورة المرض أنه أصبيب بحمي، مصحوبة بالتقلصات المعتادة؛ وفي ٢٧ أغسطس مات لويس الملك القديس، وهو يهمس بأنفاسه الأخيرة، "القدس القدس".

وصلت التجريدة الإنجليزية بقيادة الأمير إدوارد إلى عكا في ٩ مايو عام ١٢٧١، وكان حصن الإسبتاليين الصغير المؤقت، كراك دى شيفاليي، وقلعة سافيتا التي كان ملكها فرسان الهيكل قد سقطتا ثوا. وكانت إقامة لويس في إفريقيا قد حوات انتمام بيبرس مؤقتًا عن الأراضي القدسة؛ وكان وجود إدوارد في فلسطين كافيًّا لحمل السلطان على أن يعرض هدنة مدتها عشر سنوات. وقبل العرض بامتنان – ومع ذلك لم يستفد الفرنجة تقريبا مطلقا بهذا الوقت. وتصفهم التقارير المعاصرة لهم بأنهم جنس ما زال قويا من الناحية الجسدية ووسيما؛ ولكن، شأنهم شأن الكثير من القوي الإمبريالية، الاستعمارية، لم يعد لقوتهم الجسدية وجمال منظرهم ما يدعمها من قوة أخلاقية. فانهمك الحكام المدنيون في حروب أهلية حول ألقاب فارغة لا معنى لها، وكانوا يسلون أنفسهم بحفلات كان يظهر فيها الفرسان والسيدات وهم يرتدون ملابس بعضهم بعضاً. ولم يحتفظ بإحساس الوحدة والانضباط سوى الجماعات العسكرية؛ وحتى هم، في بعض الأحيان كانوا يشتركون في المنازعات المدنية. ومع ذلك، وقفت الصدفة، وإو مرة في جانب الفرنجة. ذلك أن بيبرس مات عام ١٢٧٧، وشن المفول عام ١٢٨١ هجوما جديدا ضد الماليك. ولما كان السلطان الجديد قلاوون يعرف الإمكانية الخطرة التي يمكن أن تترتب على قيام حملة مشتركة من الفرنجة والمغول، فقد وقع معاهدة أخرى مع الفرنجة حتى قبل أن ينتهي أجل المعاهدة الأولى، فتم تمديد فترة التقاط الأنفاس؛ وممار من المكن توقع استمرار السلام على حدود بَلاد ما وراء البحر حتى عام ١٢٩١.

لكن الحرب الأهلية استمرت داخل قوقعة المملكة، وأشعلتها المشاجرات التجارية بين أهل بيزا وأهل جينوا. ولم تكن بلاد ما وراء البصر مستعدة تماما لأى هجوم خطير، وفي عام ١٣٨٩ عاد قلاوون. ومما لا يصدق، أن عودته كانت بناء على دعوة، ففي استعراض محزن لعدم قدرة الفرنجة على التعامل معا، طلبوا منه التدخل في متاعبهم المدنية؛ ويتدخله فقدوا طربلس.

لم تكن هذه الخسارة حتمية، لا ولم تكن ضرورية. ذلك أن جاسوسا قد حذر معلم الهيكل ويليام دى بوجى، من نية قانوون، وهو بدوره قام بتحذير سكان طربلس، لكنهم لم يصدقوه ثقة منهم فى الهدنة. ولم يتقبلوا الحقيقة إلا حين كان جيش قانوون أمام أسوارهم؛ وعندها كان الوقت قد تأخر. وقبل أن يمر وقت طويل كان كل بناء فى المدينة قد سوى بالأرض، وسقط سكان طربلس يتعفنون على الأرض.

وقال قانوون إن طريلس كانت استثناء، وإن المعاهدة ما زالت تحترم في أي مكان أخر. وهذا لا يكاد يصدق، لكن الفرنجة أخذوا بكلمته، أملين في أنهم إن لم يسبيئوا إليه، قد يتركون وشأنهم، واستئنفت التجارة بين المسيحيين والمسلمين، وكان الناس من العقيدتين يختلطون، في سوق عكا كي يبيعوا ويشتروا. وفي صيف عام ١٢٩٠ اكتشف مسيحي أن زوجته على علاقة مع أحد المسلمين. فثار قتال في السوق. وتطور القتال إلى شغب؛ وقتل العديد من المسلمين؛ فاستئنفت الحرب، مع بقاء عام على انتهاء المعاهدة. وبدأت الأيام الأخيرة. وبينما كان الجيش المصري يعبأ، قيل إن هدفه مكان الما في إفريقيا، ومرة أخرى، جاسوس فرسان الهيكل – أحد الأمراء في بلاط قلاوون أبلغ ويليام دي بوجي بوجهة الجيش الحقيقية، وهي عكا؛ ومرة أخرى لعب دي بوجي مو كساندرا. واستقبلت تحذيراته بالسخرية والاستهزاء. ويشكل خاص، قام بترتيبات مع قلاوون بأن تترك المدينة على أن تدفع قطعة ذهبية عن كل فرد من سكانها. وحين أعلن عن الاتفاقية، وصم خائنًا، وقال شاهد "إنه نجا بأعجوية من أيادي الناس"؛ من الاتفاقية، وصم خائنًا، وقال شاهد "إنه نجا بأعجوية من أيادي الناس"؛ وازداد اقتناع الناس بسلامتهم حين توفي قلاوون بعد أسابيع قليلة، لكن ابنه أقسم أن يفعل ما كان قلاوون سيفعل؛ وفي مارس عام ١٩٩٨ بدأ زحف المسلمين.

في أوصفه للأراضي المقدسة" كتب أحد الحجاج المعاصرين يدعى بورشار من جبل صهيون:

"إن مدينة عكا محصنة بحصون ومعاقل، وأبراج، وخنادق، ومتاريس قوية، وهى مثلثة الشكل كدرع، حيث يطل جانبان على البحر المتوسط، والجانب الثالث يطل على السهل الذي يحيط بها. وهذا السهل يبلغ عرضه أكثر من قصبتين في بعض الأجزاء؛ وهي شديدة الخصوية، سواء مروجها أو أرضها المحروثة، وبها كروم وحدائق، تنبت فيها مجموعة منوعة من الثمار. وبالمدينة الكثير من الأماكن القوية، والقلاع والحصون التي يملكها الفرسان الإسبتاليون، وفرسان الهيكل. وبها مرفأ جيد متسع على الجانب الجنوبي".

وكانت الدفاعات الرئيسية من الجانب المتجه إلى الأرض عبارة عن سورين ضخمين، تفصلهما خمسون ياردة، وكل منهما يبلغ طوله ما يربو على الميل. وكانت هناك أبراج تسند هذين السورين، وكانت المدينة من الداخل يقسمها سور ثالث، به قلعة وأربعة أبراج أخرى. وكانت قلعة فرسان الهيكل تحتل أفضل المواقع، الجانب الجنوبي الغربي، في أقصى مكان من السور ويحف بالبحر. وفي آ إبريل عام ١٢٩١ فجأة غطت الجياد والرجال ومعدات حصار جيش المسلمين السهل بأكمله خارج المدينة. وكان لا بد من وضع نهاية للعمى الإرادي لدى المواطنين، وحين نظروا من تحصيناتهم في رعب، قدروا أن ستين ألفا من الخيالة ومائة وستين ألفا عن المشاة يقفون أمامهم مسلحين ومتأهبين؛ فعرفوا أن مدينتهم قد لا تنجو،

حين كانت ما تزال هناك بقية من وقت، تم إجلاء من لا يستطيعون القتال، من مرضى وكبار السن والعجزة والنساء والأطفال إلى قبرص. وكذلك رحل أهل جينوا؛ ذلك أنهم كانوا قد تفاوضوا على معاهدة خاصة بهم مع السلطان، أما أهل بيزا وفينيسيا، فبقوا، مع الملك والبطريارك، وجميع الرجال القادرين في المدينة وفرسان الجماعتين العسكريتين؛ لكن عددهم الإجمالي جميعا ثم يكن كافيا لملاقاة المعركة القادمة. لا بد أنهم كانوا يدركون ذلك، لكنهم بقوا، وأخيرا نسوا مشاجراتهم، وهم يقفون معا كي يواجهوا النهاية المحتومة. ولم يكن ممكنًا القضاء عليهم جوعا، لأن الممارات البحرية كانت ما تزال مفتوحة على قبرص؛ غير أن أحدا لم يتمكن من أن

يرسل لهم ما يكفي من السلاح والرجال. وكانوا يعلمون أنهم وحدهم، وكانوا يعلمون أنه من المؤكد تقريبا أنهم سوف يموتون.

تولى فرسان الهيكل القسم الشمالى الأقصى من السور، وتم الالتحام على الفور، واستمر دون توقف، ليل نهار. من أسفل السهل، قصفت المجانيق الكبيرة المنتصرة الغاضبة الأبراج بلا توقف، وكانت القواذف التى تسمى "العجول السوداء" تلقى بالصخور والحديد على الأسوار وفوقها، وسقطت السهام كالمطر الميت الذي لا ينقطع؛ وحافظت النوافير والطبول والأجراس وصيحات الحرب على نشاز لا ينتهى؛ وفي أسفل، وفي صمت، كان هناك ألف من المهندسين الذين لم يرهم أحد يحفرون الحفر تحت كل برج.

في أثناء ليلة ١٤ إبريل، قامت مجموعة من فرسان الهيكل باختراق مباغت في ضرء القمر في قاب معسكر المسلمين؛ ولكن فيما يشبه الماسأة الملهاة البشعة -"بالنسبة لنا" عرقلتهم جميعا حبال الخيام، فسقطوا وقتلوا حيث سقطوا. وبعد ذاك، في جنع الظلام حاول بضعة من الفرسان من الإسبتاليين القيام بهجوم مشابه؛ وهزموا أيضاء لأن المسلمين أضاءوا المشاعل وأشعلوا النار إلى أن صبار معسكرهم ساطعا كضوء النهار، فلم تحدث المزيد من الهجمات من هذا النوع؛ إذ إن كلاً من المسيحيين كان ضائعا وضعيفا في حين بدأ المسلمون كالأفعوان الخرافي ذي الرءوس التسعة قادرين على الاستعاضة عن كل رجل يقتل برجلين. كان الوقت في جانب السلمين؛ وكانت المبادرة في يدهم وحدهم؛ ورُحف اليأس إلى قلوب المسيحيين وهم يدركون ببطء أنهم لا يستطيعون حتى القيام بالهجوم، وإنما يدافعون عن أنفسهم حتى الموت. وفي الأسبوع الشاني من مايو انهارت أربعة من الأبراج الخارجية وجزء من السور الضارجي، فتراجع الدفاع إلى الجدار الداخلي، وفي ١٨ مايو، شن هجوم عام على طول الجدار بأكمله. فقاتل فرسان الهيكل والإسبتاليون جنبا إلى جنب، وانمحت فجأة منافسات قرنين من الزمان. وجرح معلم الإسبتاليين وتم حمله إلى إحدى السفن؛ أما الملك الذي ليس من واجبه أن يموت وإنما يعيش من أجل مملكته، فهرب هو أيضًا.

وحشر البطريارك المسن في قارب، لكنه سمح الكثيرين بركوبه معه حتى أنهم أغرقوا القارب، وغرقوا جميعا، ومات الكثيرون في ذلك الفرار المذعور؛ وأصيب ويليام دي بوجى معلم الهيكل بسبهم وهو يدافع عن شرخ في الجدار، واتهم بالجبن حتى وهو يموت، حتى وهو الأرض قال: "لم يمكني فعل المزيد لأني مت، – انظروا إلى الجروح أن فأرقده اثنان من إخوانه على أحد الدروع، وحملوه إلى قلعتهم؛ وفي الخارج، اندفع المسلمون إلى السور الداخلي وغزوا شوارع المدينة، وقتلوا كل من وجدوه وحين أرخى الليل سدوله كانت المدينة كلها في أيادي المسلمين في اليوم الثامن عشر – فيما عدا قلعة فرسان الهيكل. واحتشد هناك المدنيون الذين تبقوا بما في ذلك النساء والأطفال مع جميع من بقى من فرسان الهيكل. وصمدوا لعدة أيام – حيث لم تكن القذارة والتعفن ومجرد الرعب مما يمكن أن يطاق.

ثم جاء العرض الذي كان الجميع يأملون فيه بما في ذلك فرسان الهيكل: ممر أمن إلى قبرص لجميع من في القلعة، ويما لديهم من ممتلكات، إذا سلمت القلعة سليمة. فقبل الشروط مرشال الهيكل، بيتر دي سيفري، وسمح لمائة من جنود المماليك وأمير واحد بدخول الهيكل كي يكونوا مشرفين على عملية الإجلاء، وتم رفع علم السلطان على المبني، غير أن المسلمين الذين انتشوا إلى حد الجنون بالنصر بدءوا يسيئون معاملة النساء، والصبية. وحين رأى فرسان الهيكل ذلك، قاموا بالهجوم، فقتل كل مسلم محتجز بين السلالم الضيقة، وممرات المبني وقاعاته، وأنزل العلم، ومرة أخرى رؤوف الصليب الأسود.

فى تلك الليلة أمر دى سيفرى قائد الهيكل، تيبالد جودان، بأن يبحر شمالا إلى صيدة. فأخذ جودان معه ما أمكن من غير المقاتلين، وكذلك خزانة الهيكل. ولا يذكر أى من السجلات بدقة ماذا كانت هذه الخزانة؛ ولكن بسفينة صغيرة ورحلة لبضعة ساعات، كان من السهل حملها، ومن المحتمل أنها كانت خفيفة الوزن. مما لا شك فيه أنه كانت هناك صناديق من الذهب، والمجوهرات، مما تبقى من ثروة فرسان الهيكل في

بلاد ما وراء البحر؛ وربما كان هناك أيضًا، كنز واحد وحيد أكثر قيمة من المال والأرواح - جائزة القسطنطينية الغامضة.

أيا كانت طبيعة هذا الكنز، فعند الفجر، كان في أمان في البحر مع جودان وعدد قليل من المدنيين المحظوظين. وما إن أشرقت الشمس على عكا، حتى أرسل السلطان إلى سيفرى مجددا العرض الذي قدمه في اليوم السابق. فأخذ دى سيفرى قليلا من إخوانه معه وذهب إلى معسكر المسلمين للتسليم، وفي اللحظة التي وقفوا فيها أمام خيمة السلطان، دوهمت المجموعة الصغيرة من فرسان الهيكل، وأحيط بهم وقطعت رءوسهم، أمام أعين إخوانهم.

فأقفات على الفور بوابات القلعة، واستمر الإضوان المتبقون في القتال من التجمينات وتحت الأرض أخذ المسلمون يحفرون أكثر فأكثر، وفي العاشر من مايو، بعد سقوط المدينة بعشرة أيام، بدأت جدران الهيكل الشرقية في التشقق والتهاوي مع سقوط أسسها، وفجأة انهار إلى باطن الأرض قسم من الجدار، فدهم الحفرة ألفان من المماليك. ولم تتحمل الأخشاب التي كانت تسند الحفرة فانهار هيكل عكا بأكمله بزئير مرعب، وسقط على من بداخله.

ويمر كل أثر من عكا التي كانت في وقت من الأوقات عاصمة بلاد ما وراء البحر، وبعد عكا، كل ما تبقى من الملكة فيما وراء البحر خمسة حصون [مدن] صيدة، وبيروت، وحيفا، وطرطوس وقلعة الحاج. ذلك أن صور كانت قد استسلمت في أثناء حصار عكا. وكانت كل من صيدة وطرطوس وقلعة الحاج جميعا معاقل المرسان الهيكل. فقى صيدة تم انتخاب تيبالد جودان المعلم الثاني والعشرين الجماعة، وتراجع جزء من حاميته إلى صخرة محصنة على بعد مائة يردة قبالة الشاطئ، هي قلعة البحر؛ واستمر هو نفسه في حراسة كنز الجماعة السرى، وهرب به ليلا مع فرسان صيدة الآخرين إلى قبرص، وسرعان ما احتل الماليك صيدة؛ وحين بدءوا في بناء معبر إلى الجزيرة الصغيرة، الصخرية أخذ آخر أعضاء الحامية سفينة إلى طرطوس، وفي ١٤ يولية تم محو جزيرة البحر.

أما حيفا وبيروت، آخر المواقع المدنية المتقدمة فاستسلمتا وتم احتلالهما في يوم ثلاثين ويوم واحد وثلاثين كل على حدة. ولم تبق سوى طرطوس وقلعة الحاج، ولم تتمكن أيهما من الصمود للحصار. وفي ٣ أغسطس تم إخلاء طرطوس، وفي اليوم الرابع عشر أخليت قلعة الحاج آخر معتلكات الفرنجة في البر، وماتت بلاد ما وراء البحر؛ غير أن فرسان الهيكل صمدوا حتى النهاية. واستمروا في الصمود. فعلى جزيرة رواد الخالية من الماء، على بعد ميلين من طرطوس، دافع آخر فرسان الهيكل عن أنفسهم في الأراضي المقدسة اثنتي عشرة سنة أخرى؛ وحين رحلوا أخيرًا، عام عن أنفسهم في الأراضي المقدسة اثنتي عشرة سنة أخرى؛ وحين رحلوا أخيرًا، عام أنه في أوربا انهال الهجوم على جماعتهم بأسرها.

الجزءالرابع

الهيكل في أوربا، ١١٥٣-١٣٠٣

الفصل الثانى عشر

ضباط الإمدادات لجيش الحروب الصليبية فرنسا، إنجلترا، إسبانيا، ١١٥٣ – ١٣٠٣

وماذا إذن، أيها الإخوة

رسائل إلى كورينثة، الإصحاح ١٤ الآية ٢٦

بالنسبة لمعظم الناجين من الملكة المنتهية، أصبحت الحياة صبورة ساخرة كئيبة بائسة للأيام الخوالى، ذلك أن كثيرين ممن هربوا إلى قبرص فقدوا جميع معتلكاتهم في أثناء الفرار؛ وباع البعض كل ما يملكون؛ بل أن البعض باعوا أنفسهم، فكانوا جميعا لاجئين ولم يكن أحد يرغب في وجودهم في أي مكان، ولكي يبقوا على قيد الحياة، أذل الكثيرون أنفسهم وأهانوها؛ وأصبح من كانوا أغنياء في وقت من الأوقات باعتبارهم مواطنين في بلاد ما وراء البحر خدما ومحظيات.

أما رجال الجماعتين العسكريتين فكانوا أسعد حظا. فكل بلد في أوربا كان به فرسان الهيكل الخاصون به، وحين يقسم أخ جديد القسم، يكون بالفعل قد اتخذ جنسية جديدة؛ ويصبح عضوا في دولة بلا حدود؛ وبذلك، حتى الإخوان الذين ولدوا في الأراضي المقدسة أمكنهم أن يجدوا مؤى وملجأ في مكان ما في الغرب، وأينما أرسلوا فسوف يرحب بهم فرسان هيكل أخرون، وسيجدون عادات مألوفة، وملابس مألوفة؛ وسوف تكون لهم مكانة مألوفة وكريمة.

ولكن حتى بالنسبة لهم، لم تكن المياة كما كانت من قبل، وكان عليهم أن ينضموا إلى طريقة المياة التي يمياها فرسان الهيكل الغربيون - إنه عالم به المحاربون أقلية، حيث لم تكن وظيفة الجماعة هي القتال، وإنما الزراعة وكسب المال. ومع أن بلاد ما وراء البحر لم تكن لتعيش كل هذه المدة دون فرسيان الهيكل، فإن فرسان الهيكل في الشرق لم يكن من المكن أن يوجدوا بأي حال دون إخوانهم في الغرب. فإذا كان الإخوة في الشرق هم رأس الحربة، فإن فرسان الهيكل في الغرب كانوا مقبض الحربة، يمدونهم بالسلاح والدروع والرجال والمال، والجياد والطعام. ومعظم هؤلاء الناس لم يغادروا قط مسقط رأسهم؛ لكن عملهم كان جوهريا في نجاح الحروب الصليبية. وبالنسبة لهم، فإن الشرقيين، المحاربين القدماء الذين لوحتهم الشمس في الخطوط الأمامية، والذين قاتلوا المسلمين يدا بيد، والذين ألفوا الصحراء أكثر من المروج - لا بد أنهم بدوا مثيرين للرهبة، وغير حقيقيين بشكل ما. ولا بد أن الأمر كان غريبا أيضا بالنسبة المحاربين العائدين؛ فعليهم أن يعتادوا السلام. بالنسبة للمجموعتين كان الاندماج أكثر سهولة بوجود عناصر مشابهة في كل دار يملكه الهيكل، سبواء كان في أيرلاندا أو إسبانيا أو فلسطين، ولكن على الرغم من أن فرسان الهيكل في كل مكان كانوا يلتزمون بميثاق واحد، ومعلم واحد في النهاية، ومع أنهم يرتدون الملابس نفسها ويصلون الصلوات نفسها ومع أن حقوقهم وامتيازاتهم كانت نظريا متطابقة، شرقا وغربا - مع ذلك، فإن الأفرع المختلفة للجماعة تطورت بطرق مختلفة، فعلى سبيل المثال، فإن فارس الهيكل العائد إلى إسبانيا، عليه أن يتكيف بشكل مختلف عن الأخ الذي يتم إرساله إلى إنجلترا أو فرنسا أو أيرلندا أو ألمانيا أو المجر أن إيطاليا،

لقد كانت إنجلترا وفرنسا وإسبانيا أهم بلدان غربية للجماعة ككل؛ إذ إنها كانت مخازن غلالهم ودروعهم، وفي كل منها كانت الجماعة مفضيلة منذ أيامها الأولى، إذ كانت تكسب الأراضيي والمباني، والأعضياء، والمؤيدين؛ ولكن في كل منها، في عام ١٢٩١، كانت للجماعة سمات مختلفة. ذلك أن المقاطعات الثلاث أدت وظائف مختلفة داخل الجماعة، وأهم من ذلك، كانت لها علاقات مختلفة مع ملوك الدول الأم.

كما حدث في الشرق، فإن فرسان الهيكل في الفرب كانت لهم ممتلكات شاسعة. ذلك أن خريطة بأراضيهم في إنجلترا تبدو وكأن حفنة من رمل نثرت فوقها؛ وكل حبة منها تمثل على الأقل مزرعة، وكثيرا ما يكون هناك منزل كبير أو قلعة. وخير توضيح لنطاق ملكهم في فرنسا هو أن المرء بعد قرون من حل الهيكل يمكنه اليوم أن يزور ما يقرب من مائة وخمسين من مواقع فرسان الهيكل؛ وفي إسبانيا في كورونا أرجون وحدها - هلال الأراضي المقابل جزر البلاريك - كان فرسان الهيكل يمتلكون ثماني وثلاثين مقاطعة لوردات كاملة وسبع مقاطعات جزئية، وحتى المقاطعة الجزئية يمكن أن تضم مائة وعشرين مدينة صغيرة.

لكن الجماعة في الغرب، على عكس الجماعة في الشرق، لم تكن جمعية فروسية بشكل رئيسي، أو حتى في المحل الأول. من المؤكد أن الإخوان في إسبانيا قد قاتلوا ضد المراكشيين في إعادة فتح أرجون، واستمروا يفعلون ذلك جنوبا إلى أن تم حل الجماعة. وفوق ذلك، منحوا، مكافأة على جهودهم ثلث مملكة أرجون. أما في الشرق فإن مثل هذه الهبة كان من المكن أن تقبل بكل سرور؛ ومع ذلك، فإن فرسان الهيكل الغربيين كانوا مزارعين ورجال أعمال وليسوا محاربين. ولم يكونوا يريدون تحمل مسئولية الاحتفاظ بمثل هذه المساحة وحكمها؛ لكنهم كانوا يعرفون كيف يساومون من أجل ما يريدون. وحين تخلوا عن حقهم في أن يحكموا، تلقوا بدلا من ذلك ست قلاع، وألف شلن سنويا، وعشر جميع العائدات الملكية، وخمس أي أرض يتم إعادة فتحها، والإعفاء من ضرائب معينة. فوائد دون واجبات – إنه تحرك بارع، يمثل فرسان الهيكل في أوربا.

وكان وصف أحد الإخوة وهو أيضاً قادم من إسبانيا، لنفسه، معبرا عن نفس النموذج - كان "بسيطا وجاهلا وعاش هو وزملاؤه حياة "مكرسة للأرض وتربية الحيوانات. كان فرسان الهيكل هؤلاء من المحدادين والعاملين بدباغة الجلود والحائكين وصناع الأحذية أو بستانيين، أو تجار خمور، أو رعاة بقر، أو رعاة عجول أو رعاة أغنام، - أو "رواد أو مدربي أغنام" كما أطلق اثنان على نفسيهما. وكان معظمهم

أميين؛ بل أن بعض قسارستهم كانوا في حاجة إلى ترجمة اللاتينية إلى لغاتهم المحلية. وكان الأخ الذي يستطيع الكتابة بعد حالة استثنائية حتى أنه يستحق التعليق، مثل جيمز من براجانز، الذي كان يستطيع أن يكتب "حروفًا ذات أشكال كتابة جيدة ويوضع بالذهب" أما بالنسبة للقراءة، فإن قيادة كولبينز - وهو مكان متوسط - كان يها مكتبة تحتوى على سنة عشر كتاباً. أثنًا عشر من هذه الكتب عن الخدمة المقدسة؛ واثنان منها عن حياة القديسين؛ واثنان عبارة عن مجلدات للمواعظ. فالرجال كانوا موضيوح وأمانة من الاتقياء؛ وكان نشاطهم اليومي كما هو المال في دير ينقسم بين العمل والصلاة، وكان ما يمارسونه من تسلية بريئًا بشكل مؤثَّر: إذ إن الشطرنج والورق، ممنوعان، لكنهم يستطيعون لعب ضغط الأيدي (الريست) أو الحجلة – طالما لا يكون ذلك برهان. وكانوا يعطون الصدقات بأنتظام الفقراء؛ ويبيعون خمورهم وكذلك، الصنوف واللحوم، والحبوب؛ ويؤدون خدمات للمجتمع، مثل بناء الأفران العامة، أو يقدمون القروض للتجار على نطاق أكبر، والملوك والنبلاء. لم يكن ذلك لأن خدماتهم كانت مجانية - فمن المخبر كان فرسان الهيكل يتلقون رغيفا من كل عشرين رغيفا يتم خبزها، وكانت ترتيبات سداد القروض دائما لفائدتهم. ذلك أنهم قد يكونون بسطاء، لكِنهم كانوا متصلبي الرأس ومفتوحي الأعين أيضاء وكانوا يعرفون واجبهم: المعافظة على تدفق المؤن إلى إخوانهم فيما وراء البحر.

فى جميع هذه الأمور، كان فرسان الهيكل الإسبان يمثلون الجماعة فى أنحاء الغرب؛ غير أن تنظيمهم الإقليمى كان به جانبان فريدان – وهى جوانب تبدو ظاهريا غير مهمة، بل شاذة وحيوية فى نهاية الأمر. أولا، جميع الأعضاء فى إسبانيا هم إسبان بالمولد، ونادرا ما كانوا يرسلون إلى بلاد أخرى. ثانيا، على الرغم من جميع الحريات المنصوص عليها فى الميثاق الأعلى فإن كل فرد من الإخوان الإسبان أقسم يمين الولاء لمليكه. وسبب هذا الجانب الأخير غير واضع؛ ربما كان شرطا التأكيد الملكى على الهبات. أما الجانب الأول فكان نتيجة الوجود الإسلامى فى شبه الجزيرة: فيما أن فرسان الهيكل الإسبان لديهم عدو جاهز أمام أعتابهم كما يجب القول، فمن

الاقتصاد والتعقل العسكرى بالنسبة لهم أن يساعدوا في الدفاع عن عقيدتهم في وطنهم، بدلا من أن يتم شحنهم إلى الخارج،

فى إنجلترا، لم يقسم أحد فرسان الهيكل يمين الولاء للملك. هناك جميع امتيازات الميثاق الأعلى، تحققت، بل أكثر من ذلك، كان كل ملك تلو الأخر يعطى فرسان الهيكل حقوقا خاصة. ولما لم يكن هناك مسلمون في إنجلترا، فإن فرسان الهيكل الإنجليز يمكن أن يذهبوا تلقائيا إلى الخارج، وليس في وسع أحد أن يحدد كم عدد الذين أرسلوا إلى الأراضى المقدسة (على الرغم من أن أحد معلمي الهيكل، توماس بيرار، المعلم من ١٥٦ حتى ١٢٨٦ كان إنجليزيا)، غير أن إنجلترا تمثل تمثيلا كاملا، الفاصية غير الفروسية للهيكل في الغرب، وحين تم حل الجماعة – بتعبير آخر، حين أصبح عدد أكبر من فرسان الهيكل في بلادهم عن المعتاد – لم يكن هناك سوى مائة وخمسة وثلاثين من فرسان الهيكل في إنجلترا بأسرها، ومن هؤلاء كان هناك إحدى عشر قسيسا، وسنة فقط هم الذين كانوا فرسانا.

كما تبين هذه الأرقام مدى عدم تناسب قرة الهيكل الكبيرة بالمقارنة بالإخوان به. ذلك أن الفرسان الإنجليز المائة والخمسة والثلاثين نظموا فيما بينهم التحكم في الممتلكات في كل أنحاء البلاد. وما زال الكثير منها يتذكره الناس؛ وما زالت الأماكن والأسماء موجودة.

فى أوكسفوردشير هناك هيكل كولى، الأكثر شهرة الأن بصناعة السيارات؛ وفى ورويكشير، هناك هيكل بالسول، وهى قرية صغيرة وادعة ساحرة. وبجانب الكنيسة هناك ما زالت الدار قائمة وبها من يسكنون فيها؛ وقد غطيت الجدران الأصلية بالطوب ولكن المدخنة الكبيرة التى يدفئ السكان بها أنفسهم فى أمسية شتوية باردة ما زالت تشير بالراحة للعابر الذى يشعر بشدة البرد. وفى كينت هناك هيكل وواشام وهيكل أويل؛ وفى ويلتشير هيكل ركلى؛ وفى لينكولنشير، هيكل بروشر؛ – وأبسطها جميعا – فى كورنوول، هيكل بى، لم تكن جميع مستوطنات الجماعة بها مقطع هيكل غير أن نظرة إلى غريطة حديثة ما زالت تكشف العشرات من هذه الأسماء التى يسهل التعرف نظرة إلى غريطة حديثة ما زالت تكشف العشرات من هذه الأسماء التى يسهل التعرف

عليها، في حين تكشف التواريخ المحلية عن الوجود المستمر لمنات، بالمعنى الحرفى، لمواقع فرسان الهيكل الأكثر وضوحا. والسبب في أن مثل هذه القلة من الناس تحكموا في هذه القطع الهائلة من الأراضى يمكن قوله في كلمة واحدة: المال.

لقد كانت أكبر قيمة لإنجلترا لدى جماعة الهيكل هى أنها مصدر دخل. ذلك أن فرسان الهيكل الإنجليز ساهموا فى تطوير لندن كسوق نقدى دولى، وفى تطوير الاقتصاد الإنجليزى بصفة عامة، ولقد نما وتشعب نجاح الأولى فى البلاد حين جلس الملك ستيفن على العرش – وهذا بالطبع، لأن ستيفن هو ابن الملك ستيفن من بلوا، ذلك المشارك المرغم فى الحرب الصليبية الأولى، والملكة متيلدا ابنة جودفرى دى بويون، ملك القدس غير المتوج. ومما قوى اهتمام ستيفن ومتيلدا وجود صلة أخرى غير مباشرة: ذلك أن عائلة ستيفن كانت تتحكم فى المنطقة التى جاء منها هيو دى بيان، وكانت عائلة متيلدا تتحكم فى سينت أومر، فى فلاندر، حيث ولد جودفرى أحد المؤسسين. وفى متيلدا تتحكم فى سينت أومر، فى فلاندر، حيث الد جودفرى أحد المؤسسين. وفى المانبين، على ما يبدو أنهم كانوا يتلاعبون بالطرفين بحيث يكونان ضد بعضهم بعضه المانبين، على ما يبدو أنهم كانوا يتلاعبون بالطرفين بحيث يكونان ضد بعضهم بعضه بعضا، وفى عام ١٩٥٤ ثبت أقدامهم فى كل أنحاء البلاد.

ومع ذلك، كان من المكن أن تكون فائدتهم من الأراضى أقل بكثير أو أنهم اضطروا إلى دفع جميع الضرائب المعتادة. فنظام الضرائب غير الكفء في إنجلترا ليس ظاهرة حديثة؛ إذ إن الاقتصاد الإقطاعي كان أيضا خانقا، يفرض أموالاً، وعائدات، وغرامات على كل شيء يمكن إدراكه. وإليك القليل منها بشكل عشوائي أخذت من قائمة الضرائب، أراضي على أية أرض تدفع الملك، وضريبة على الأرض المحروثة، ضريبة دفاع، ضريبة جندية، ضريبة بيع، ضريبة مبان، ضريبة خدمة المستأجر، ضريبة حراسة، قد تكون هذه ألفاظ لطيفة الوقع على الإذن، لكنها كانت تمس كل جانب من جوانب الحياة اليومية. وكانت معظمها ضرائب على الأراضي، أو في مقابل خدمات مختلفة، مثل حمل السلاح، أو تقديم النواب. كانت هناك ضريبة على كل شيء يشترى أو يباع، يصدر أو يستورد. وفي حالة وجود أي شيء خارج على كل شيء يشترى أو يباع، يصدر أو يستورد. وفي حالة وجود أي شيء خارج

القائمة، فكانت هناك ضريبة نعسفية تفرض متى رأى الملك أن ذلك ضرورى. ومع ذلك، كان فرسان الهيكل معفيين منها جميعا، كما كانوا معفيين من ضريبة تربية الحيوانات المنزلية كالأرانب، وضريبة النظافة – أى أنهم يستطيعون أن يحجزوا أرضًا يسوروها لتربية الحيوانات دون دفع المصروفات المعتادة، ولا يقوم الموظفون الملكيون بالتفتفتيش عليهم. ولديه حق تحويل الغابات إلى أراض زراعية، دون دفع أية ضرائب. كما يمكنهم تجاهل المسئولية المتبادلة عن السلم، وحقوق محاكم المقاطعة.

لم يكن فرسان الهيكل في إنجلترا قضاة أنفسهم فحسب، وإنما كانوا يحكمون على أي شخص يعيش في أراضيهم؛ ويمكنهم، إذا شاءوا أن يوقعوا أية عقوية، ابتداء بالتقييد في الخشب والغرامات إلى عقبوبة الإعدام شنقًا أو غرقًا، لكن هذا الحق لم يكن غير عادى كما يبدق لأن القضاء الخاص كان ما يزال معتادا في تلك الأيام؛ وكل لورد في إمكانه تطبيق العدالة، بأي شكل يفهمه، على أتباعه ومستأجريه. ومم ذلك، فإن امتيازات فرسان الهيكل خطت خطة أبعد؛ ذلك أن عدم الالتزام بأوامر محاكم المقاطعات كانت تعنى أنه لو كانت لأحد شكري ضيد الجماعة، لا يمكن أن تعرض إلا على كبير قضاة المنطقة أو الملك نفسه. وكانت هناك شكاوي ضدهم، من التجار الذين يخفضون أسعارهم، ومن رجال لدين الذين كانوا حانقين على امتيازاتهم الكنسية، ومن السلطات المحلية التي فقدت أراضي تجلب الضرائب، والمستأجرين الذين يدفعون الضرائب في مواجهة المنازل الريفية المتوسعة لفرسان الهيكل. ومع ذلك، لن يكون من الدقة النظر إلى هذه الانتقادات على أنها أدلة على العداء المنتشر للجماعة؛ ذلك أن نفس المشاجرات لنفس الأسباب كانت تحدث بين الجماعات المختلفة من اللوردات من غير رجال الدين مرارًا، واللوردات الكنسيين والسكَّان العاديين، ومن الوهم أيضنا أن نعتقد أن فرسان الهيكل، بعد أن فازوا بحقوقهم أمسكوا بها بسهولة، لقد منح ريتشارد قلب الأسد الجماعة ميثاقا، شاملا من الإعفاءات والامتيازات عام ١١٨٩، وجدد هذا الميثاق الملك جون بعد ذلك يعشر سنوات، وجدده مرة أخرى هنرى الثالث عنام ١٢٢٧ وعنام ١٢٥٣، وإدوارد الأول عنام ١٢٨٠، وعلى الرغم من هذه الموافقة

الملكية، كثيرا ما كان الإخوان يضطرون إلى مناشدة الملك لدعم حقوقهم؛ ولم يكن دعمه رخيص الثمن، ذلك أن ملوك إنجلترا أدركوا بسرعة أن فرسان الهيكل قليلو العدد، والأغنياء بالأراضى والممتلكات يمكن استغلالهم؛ ويجب شراء تأكيد الامتيازات أو توسيعها، وتحت حكم الملك جون أصبح النظام "حماية نظامية". فوجدت مبالغ ضخمة — ٤٠٠ مارك في إحدى السنين، و ٤٠٠٠ مرة أخرى، وألف جنيه في مناسبة أخرى – كلها وجدت طريقها من خزانة الهيكل إلى وزير خزانة جون، في حين كانت أفضل خيول فرسان الهيكل تطلب من أجل الإسطبلات الملكية.

وقام الإخوان بالدفع؛ وكانوا قادرين على ذلك، وكان الأصر يستحق ذلك، وتكشف أعمال الجرد في دورهم عن بساطة الصياة التي كانوا يحيونها وتؤكد على حقيقة فقرهم كأفراد. إذ لم يكن لديهم أية أشياء ذات قيمة على الإطلاق باستثناء معداتهم الزراعية – ربما مسوح أحد القساوسة بعشرة أو عشرين شلنًا، ولكن لا توجد أية بضائع تدل على الرفاهية من أي نوع، وكان الأثاث الموجود لديهم لمجرد أداء الوظيفة وعادة ما يكون من صنعهم، ولا يتميز بأية جودة؛ وكان طعامهم هو الأكل الأساسي في المزرعة المعاصرة – الضائن الملح، ولحم الخنزير (صرتدلة) والسمك المملح أو المجفف، والجبن، والقليل من لحم البقر، وعلى فترات متباعدة، قليل جدا من النبيذ، ولكن في إنجلترا القرن الثالث عشر، حين كان طعام الشخص يكلف يوميا بنسنًا أو بنسين وكان الجنيه يساوى ٢٤٠ بنسنًا، كان دخل الجماعة السنوى هو يوميا بنسنًا

وكانت النقود تأتى من الإجارات والتجارة والتعاملات البنكية. وكانت التجارة والبنوك هي المصادر الرئيسية؛ فبالإضافة إلى البيع والشراء المعتادين للمواد الغذائية والحيونات والطيور في الأسواق، المحلية والعامة، كان فرسان الهيكل لديهم أعمال مزدهرة في تصدير الصوف، والحبوب، والأسماك، ومنتجات الألبان، وكان الصوف مربحا بشكل خاص؛ لقد كان أكبر تركيز لمتلكات فرسان الهيكل في يوركشير، ولينكولنشير، وذلك لأن المنطقتين كانتا تنتجان صوفا عالى الجودة. وهنا كانت الفائدة

من الإعفاء من جمارك التصدير والقيود؛ ذلك أن الجمارك على جوال واحد من الصوف يمكن أن يكون سبعة شلنات وستة بنسات، ولكن بالنسبة لفرسان الهيكل كان الربح الإجمالي والربح الصافي متطابقين. وكانت يوركشير ولينكولنشير معا تعطيان الإخوان نصف الدخل تقريبا، ما يساوي تقريبا كل ما تقدمه المقاطعات الإنجليزية والوازية التي كانوا يمتلكون أراضي فيها.

ومع ذلك في يوركشير كلها لا يوجد سوى أثر واحد الجماعة - بضعة أحجار من قرية هيكل هيرست. هذه كل ما تبقى من المقر هناك، وهو كان مكانًا شهيرًا في أيامه! تأسس عام ٢٩١١ وهو ثاني ممتلكات الجماعة في البلاد، وفي القرن التاسع عشر كانت ذكراه من القوة حتى أن سير وولتر سكوت وصفه في أحد أعماله - مع أن وصفه يجافي الحقيقة، أما اليوم، فإن الأثر الإنجليزي الرئيسي للقرسان الفقراء يوجد في لندن: ألا وهو كنيسة الهيكل.

كانت لندن هي مركز العمليات. ولا يعرف تأسيس أول دار هناك، ولكن من المحتمل أن يكون هيو دى بيان قد تلقاه في أثناء رحلته الافتتاحية عام ١١٢٨، وكانت بالدار الأولى حديقة ويستان، ومقبرة وكنيسة من الحجارة، ومبانٍ خارجية يحميها خندق. كان بالقرب من نهاية تشانسرى لين الحالية؛ ولكن سرعان ما أصبح صغيرا جدا، وفي عام ١١٦١ انتقل فرسان الهيكل إلى موقع أكثر اتساعا، على ضفة التيمز الشمالية. وهناك بنوا كنيستهم، وطوبها هيراكليوس في عام ١١٨٥ إنه بطريارك القدس المنحل، وكان ذلك في أثناء بعثته غير المجدية في أوربا.

من الناصية الفنية، فإن هيكل لندن لم يكن في لندن وهو ليس في لندن بالفعل. ذلك أن حدود المدينة كانت تعتد من البرج في الشرق، إلى خط يبعد عدة مئات من البردات غرب كتدرائية القديس بول؛ لقد كانت مساحة المدينة أكثر قليلا من نصف ميل مربع، وداخل تلك المساحة الصغير، على جانبي شوارعها الضيقة المتعرجة الموحلة تزاحمت مائة كنيسة. وكانت كنيسة الهيكل غرب حدود المدينة، فهي بالفعل في مدينة ويستمينيستر. وحين بنيت غطت على الشوارع المحيطة؛ أما الآن فهي مختفية بين

صدوح نزلين، وتعد الكنيسة الخاصة بالمحامين، وفي حياة الكنيسة ما زالت باقية اثنان من الاستيازات القديمة التي تم توارثها منذ أيام الجماعة القديمة: لا تدين الكنيسة بأي ولاء لأسقف لندن أكثر مما كانت تدين للبابا، وحكمها مباشرة للملك؛ واللقب الرسمي لكاهنها هو معلم الهيكل. ويتكون المبني كما كان يعرفه غرسان الهيكل في القرن الثالث عشر من مكان للمترنمين عرضه خمس وستون قدمًا، وطوله نحو مائة قدم، مع وجود بناء مستدير مهيب في الطرف الغربي قطره خمس و ترن قدمًا. كان هذا البناء في الواقع هو الكنيسة الأصلية في القرن الثاني عشر؛ وبه تماثيل صغيرة لفرسان لكنهم ليسوا من فرسان الهيكل.

وكان من النادر وجود كنيسة مستديرة؛ إذ لا يعرف سوى عشر منها بنيت في إنجلترا في أثناء القرن الثاني عشر، ست منها كانت لفرسان الهيكل. وكانت على غرار كنيسة الضريح المقدس في دار فرسان الهيكل الأم في القدس. ومنذ حل الجماعة، كان هناك اعتقاد شائع لكنه زائف بأن جميع كنائس فرسان الهيكل كانت مستديرة؛ وما هذا الاعتقاد سوى جزء من الأسطورة الشعبية الشائعة التي لا أساس لها التي أوحت بها السرية التي أحاطت بها الجماعة نفسها.

لكن أنشطة فرسان الهيكل البنكية كانت حقيقية، ولعبت دورا كبيرا في وظيفة هيكل لندن. ومن المبانى المحيطة بكنيستهم الدائرية، أداروا نظاما لتمويل والائتمان الدولى والوطنى. وكان الملوك والتجار والنبلاء يودعون الذهب والفضة والحلى، لديهم من أجل القروض، أو كي يدفعوا المال لأناس في الضارج، ولم يكن النقد السبائل دائمنا هو وسبيلة العمل؛ ذلك أن فرسان الهيكل استخدموا، وربما اخترعوا شكلا بدائيا من الصكوك لتحولات الائتمان، على هيئة ورقة يكتب عليها اسم مرسل الائتمان وعنوانه وتاريخ الإرسال، ووجهة الائتمان والمتلقى المعين. وكان الهيكل يعمل بمعنيين، باعتباره الخزانة الملكية؛ أي أنه كان مخزن النقود الملكية والأشياء الثمينة، والوكالة التي تجمع بها هذه النقود، وتراجع، وهكذا كان فرسان الهيكل يجمعون من الأخرين الضرائب التي كانوا هم أنفسهم يعفون من فرسان الهيكل يجمعون من الأخرين الضرائب التي كانوا هم أنفسهم يعفون من

دفعها، ويحفظونها في لندن نيابة عن الملك. وهذه يمكن أن تكون مبالغ كبيرة حقا من المال – في ١٢٣٨ على سبيل المثال، بلغت ضريبة الثلاثين لنوتينجهام وبربستول معا (واحد على ثلاثين من منقولات المواطنين) ٤٢٨٨ جنيهًا. وبالمثل، فإن فرسان الهمكل بما لديهم من قوافل جاهزة مسلحة في النقل البري والبحري عادة ما يعهد إليهم بالأموال الملكية التي ترسل إلى الخارج. ليست الأموال الملكية فحسب، وإنما الرسبائل الملكية أيضنا! إذ تحدثت السجلات الإنجليزية مرارا عن فرسنان هيكل يقوم بدور المبعوثين أو سفراء الملك، كما كانوا سياسيين عاملين: إذ كان معلم الهيكل في إنجلترا يشترك في البرلمان، ويعمل كمستشار للملك – وفي إحدى أشهر المناسبات وأقلها نجاحا، حاول ريتشارد من هيستينز المعلم في إنجلترا، في (١٢٦٧) أن يعقد صلحا بين هنري الثاني وذلك الأسقف المثير للاضبطراب توماس بكت، وكانت جلسات البرلمان بالفعل تنعقد في الهيكل الجديد، كما كانت تسمى الكنيسة الدائرية ومبنيها الملحقين. كما انعقدت هناك مجالس الكنيسة، بالإضافة إلى اجتماعات سياسية أقل رسمية؛ ففي ١٢٦٠ التقى هناك سيمون دي مرت وكبار بارونات المعلك لمناقشة الإجراءات التي يجِبِ اتخاذها مُبِد سِوء حكم هنريّ الثالث. وكما حدث في أثناء حكم ستيفن، ساعد فرسان الهيكل الإنجليز الجانبين،

امتدت ممتلكات الجماعة في أوربا من تيمبلينو، على شواطئ لسان كينمار في جنوب غرب أيرلاندا، إلى إقطاعية تسمى سينت مارتين في مكان ما أما في كرواتيا أو سلوفينيا. وفي المجر، حين انبهر بيلا الثالث بأنشطة فرسان الهيكل في أثناء حجه إلى الأراضى المقدسة، وضع أساس فروعهم في شرق أوربا؛ وأعطى هو وبيلا الرابع التبرعات القياسية من الأراضي والمباني في جيجنا ودوبيتشا وباناب، باستثناء الأسماء لم يبق سوى القليل من السجلات. وفي الولايات التي تضم ألمانيا الآن، من الطبيعي أن يكون الفرسان التيوتونيك (الجيرمانيون) وهي جماعة عسكرية تأسست عام ١٩٩٨ محاكاة لفرسان الهيكل، أكثر شعبية؛ ومع ذلك، كان لفرسان الهيكل ممتلكات واسعة هناك أيضا، على الأخص في مينز، وويرمن، وترير، وبرلين، حيث ممتلكات واسعة هناك أيضا، على الأخص في مينز، وويرمن، وترير، وبرلين، حيث

كانت هناك كنيسة على موقعهم فى تيمبلهوف حتى عام ١٩٤٤، وبعض الممتلكات الألمانية تم اكتسابه قبل ذلك: مثل سوبلينجبورج، شرق هنوفر، فى ١١٣٠، وميتز (التى، لم تكن حينئذ تابعة لقرنسا، مع أنها تقع على بعد مائة وعشرين ميلاً شمال تروا) يقال إنه قد تم التبرع بها عام ١١٣٣ – قبل الاعتراف بالجماعة بخمس سنوات.

وإذا ما انتقلنا جنوبا، سوف ندهش حين نجد أن وجود فرسان الهيكل كان أكثر ضعفا من وجودهم في إنجلترا البعيدة. من المؤكد أن روما كان بها إقطاعيات وكروم، وكذلك أنيا ونبولي، واتشاء وبينيفينتو، وباري، وتارانتو، وبيتري، وبيروجيا، وفيرونا وميلانو، وبواونيا؛ ولكن كان هناك أيضًا عدد كبير من الأساقفة المترددين في الإقلال من صلاحيتهم، فكانت سيطرة فرسان الهيكل النسبية في شبه الجزيرة التي أسماها البابوات الوطن كانت أقل مما يمكن أن نتوقعه. بل أن دار فرسان الهيكل والحديقة في أناجني لم يتم التبرع بهما حتى ٢٠ يولية عام ١٣٩٦، حين وهبهما البابا بونيفاس الثامن؛ وكان السبب الذي ذكره تبريرا لذلك هو أن الجماعة لم تكن لديها أراض في الجزء المتجه إلى البحر في كامبائيا على الإطلاق.

وعلى بعد ما يقرب من أربعين ميلا شمال غرب روما، بالقرب من مدينة توسكانيا الصغيرة، توجد بقايا اثنين من المقار الصغيرة: سان سافينو، وكاستيلارالدو. وفي الحالتين، لم يكن أي من المبنيين يزيد طوله على مائة قدم تقريبا – لا يكاد يكون شيئا في بلاد تعج بالسكان – وكان مستواهما طبق الأصل للكثير من قواعد فرسان الهيكل في إيطاليا. وترك لصقلية أمر تقديم التركز الحقيقي للممتلكات للجماعة في هذا الجزء من العالم: فعلى الرغم من حجم الجزيرة الصغير، امتلكوا أجزاء في ميسينا وتراباني، وسيراكيوز، وبوتيرا، ولينتيني، وبليرمو، بالإضافة إلى مجمعات كبيرة من الإقطاعيات حول سفح أتنا.

لقد كانت مكانة الجماعة الاقتصادية والقانونية مشابهة في كل بلد، مع وجود ميثاق عام مشترك في كل بلد، مع وجود ميثاق عام مشترك في كل مكان. ولم تسر الحياة على أسس أكثر تعقيدا وعالمية سوى في العواصم الكبري، مثل لندن، وباريس، وروما؛ ففي هذه المدن كانت الأسبقية

التعاملات المالية، حيث كان الإخوان يقبلون الحسابات الجارية، وحسابات الإيداع، وإيداع المجوهرات، والأشياء القيمة، ووثائق اللقب، وتقديم القروض، والمقدمات، والعمل كوكلاء النقل الأمن لهذه الأشياء. وقد اقترض البابا إلكسندر الثالث ٥٠٠ جنيهًا من الجماعة، وطلب منه أن يرد ١٥٨، وحسب مصطلح فرسان الهيكل لا يعد هذا الفرق فوائد؛ ذلك أن تقاضى فوائد على قرض من شأنه أن يجعل منهم مذنبين بارتكاب خطيئة الربا، وبدلا من ذلك مثل هذه المبالغ كانت تحسب كمصاريف الوقت، والجهد والمخاطرة التي ينطوى عليها ذلك – وهي مخالطة مما يميزهم وهي شديدة الدقة على فهم وتقبل معظم الناس، وهي التي أكسبت الجماعة الكثير من المال والكثير من المال والكثير

أما خارج العواصم، بما يتمتعون به من تعاملاتهم الحاذقة الناجحة المجربة في أسواق المال الناشئة، كان كل رائد أو قائد يستغل الأراضى المخصصة له بالطريقة المناسبة، من فلاجة، وصلاة، وصنع الخمور، والخبز، والغزل، والحفظ في الأوعية؛ في الحياة في المقار الريفية مشابهة في كل مكان، فالمستأجر المعتدل كانت تحكمه مقتضيات الموسم وتقويم الكنيسة، مع فروق جوهرية قليلة في اسكتلندا، وأيرلاندا، ودالماتيا، أو إنجلترا الريفية.

لكن اسكتلندا لها وضع محير، مربك ذلك أنه في الأيام الرهيبة الأخيرة لم يتم القبض إلا على اثنين من فرسان الهيكل هناك، كانت البلاد تحتوى على قدر كبير من ممتلكات فرسان الهيكل. إذ إنه حول إبردين وحدها، كان صليبهم على دور وكنائس في توريف، وتوليتش، وميريكوتلر، وأبوين، وكينكوزي، وفي إبردين نفسها كانت لهم كنيسة خاصة، سجلت عام ١٩٠٧ على أفها "تقع بين دانسينج ماستر بيكوك كلوز وجاردينرز لين"؛ وجنوب المدينة عند كتار، كانت لهم إقطاعية لا تقل عن ثمانية الاف من الإيكرات.

من الواضح أنه كان هناك أكثر من رجلين لإدارة هذا كله؛ لكنَّ أحدا لا يدري ماذا جرى لهؤلاء الرجال. هناك أقوال عن فرسان هيكل فارين ومقار سرية في

الجزر الخارجية؛ غير أن هذه خيالات ولدت بعد قمع الجماعة بقرون؛ ولا توجد حقائق تقوم عليها.

وتاريخ فرسان الهيكل في أيرلاندا مشابه، من حيث كونه مزيجًا مختلطًا من التراث في الأقاويل نمت فيها أفعال وأماكن نسبت إلى الجماعة في أثناء الحكي، مظوطة بذكريات مضطربة للإسبتاليين، ومخلوطة بطائفة من الأساطير والحكايات الشعبية. إذ لا يبدو أن الجماعة كان لها أى وجود هناك حتى بعد أن فتح هنرى الثاني شرق أيرلندا وهو الذي منح الجماعة أراضي جزئيا للتعويض عن عدم ظهوره في الأراضى المقدسة. وأعطاهم طواحين في ويكسفورد، وبالقرب من ووترفورد، بالإضافة إلى كنيسة وعشر قطع أراض مصروثة عند كلونتارف؛ ومن هذه البدايات، توالت الهبات والمستروات المعتادة، حتى أنه في وقت القمع الذي حدث لهم، كانت الجماعة تمتك أراضي في مقاطعات كارلو، ودبلين، وكيلدير، وكيكيني، وليمريك، ولوث، وميث، وسليجو، وتيباري، وويكلي أيضًا، وكانت معظمها من الأراضي الزراعية الضعيفة التي توجد في أنحاء بريطانيا. (الأرض المحروثة عبارة عن أرض يمكن أن يحرثها مصراك واحد وثمان من الثيران في عام، أي القدر الكافي لإعاشة فلاح وزوجته وأسرته. من الواضح أن هذا يمكن أن يكون قدرًا متغيرًا اعتمادا على جودة الأرض، والثيران، والحارث، لكنها يمكن أن تكون دائما قطعة كبيرة من الأرض).

على الرغم من أن إخوان الهيكل في أيراندا جميعا أصلا من عائلات ساكسونية نورمندية، فإن الإخوان الرقباء كانوا من أصل أيرلاندى – أناس أمثال تاثوج أودفجير، وجيمز بانبيكر، وكينيدى أوكيناج، وويليام بوى أوموليران. هؤلاء الرجال جميعا يظهرون في قائمة الجمعية الأيرلندية، وأمثال هؤلاء الرجال من المكن أنهم كانوا بين من ماتوا من أجل المسيح في الأراضى المقدسة.

وفى أيرلندا، أولئك الذين لم يكونوا أعضاء فى الجماعة كثيرا ما كانوا يفعلون ما يفعله نظراؤهم فى إنجلترا، ويضعون صليب فرسان الهيكل بشكل غير شرعى على بيوتهم كى يتهربوا من الضرائب والجمارك، وقد بلغ انتشار هذه الطريقة على جانبى البحر الأيراندى حدا جعل هنرى الثالث يضطر بالتحديد إلى منعها، ولكن ربما كان أكثر الأجزاء لفتا للانتباه في العلاقة مع أيرلندا هي: النقود الأيراندية التي ذهبت لبناء الهيكل الجديد في لندن، والمعلم الأيرلندي الذي مات هناك.

في عام ١٣٤٣، أصر هنري الشالث وزير خزانته الأبرلندي أن يدفع ٥٠٠ مارك لروجر لي وأليس، معلم الهيكل في إيرلاندا، للمساعدة في تشييد الهيكل الجديد. وتم تسلم المال وتسليمه، وأقيم البناء. وإحدى الصجرات هناك هي عبارة عن زنزانة صغيرة موحشة قدمان ونصف في أربعة ونصف قدم – أصغر من أن يرقد المرء فيها - وهي تطل على جسم الكنيسة. ويمكنك أن ترى من نوافذها الضيقة الضئيلة وتسمع جماعة المصلين – وهم، بالطبع، يمكنهم أن يستمعوك وبروك، – ولكن ما إن تحبس في تلك الحجرة، فبلا مجال للخروج. لقد كانت زنزانة للندم، لعقاب الإخوان العصاة. ولا بد أنها كانت فريدة الأثر، لأن الأخ المدان كان يعزل، وإكن لا يصد، عن مركز دينه أي المناولة التي حجب عنها تحدث بشكل مثير الرغبة لشدة قربها -ويمكن المتناولين المميزين أن يشعروا بما يعاني من عذاب. وفي هذه الزنزانة في عام ١٣٠١ معلم أيرلندا أنذاك وولتر لي باتشار، مات جوعاً، وهو قادر حتى أخر لحظة أن يستمم إلى المزامير التي كان يترنم بها إخوانه في أسفل. وكانت جريمته التي مات بسبيها وهو محروم من الكنيسة هي نقل ملكية أرض، إذ لا أحد يمكنه انتهاك الميثاق وينجو من المقاب للهيكل دون تمسريح. وكانت دور الهيكل في كل مكان يستخدمها المسافرون كنزل يجذبهم إليها ما تتسم به من أمان لا مثيل له؛ فكان إخوان الهيكل الجديد في لندن مضيفين لعلية الناس. إذ كان يقيم هناك الملوك والأساقفة وممثل البابا والدبلوماسيون جميعا أحيانا استوات متصلة. ولكن على الرغم من مكانة فرسان الهيكل في البلاد، فإنهم كانوا ينظرون إلى إنجلترا على أنها مصنع كبير، ومصدر وفير الربح، لكنه في مكان غير ملائم مطلقا لتقود الجماعة في الغرب. وكانوا يحتفظون بهذا الشرف لقرنسا،

وعلى السائط الشرقي لفرنساء في وسط خليج بيسكي، يقم ميناء لأروشيل القديم. وهناك طريقان للاقتراب من الميناء من البحر؛ الطريق الشمالي، من وإلى بريتاني، ويسمى مضيق بريتون. والطريق الجنوبي بين هيدر وليديرون، واسمه أقل وضوحا: هو مضيق أنطاكيا. ومثله مثل إيج – مورت، (المياه الميتة) على الساحل الفرنسي في البحر المتوسط، يعد مضيق أنطاكيا صدى لأفخر الأيام وأكثرها أملا في الحروب الصليبية؛ ذلك أنه تحت قيادة فرسان الهيكل، أصبحت لأروشيل نقطة رئيسية للبدء في الحروب الصليبية، واعتادت السفن الإنجليزية في طريقها إلى الشرق، أن تحضير إلى هناك للتزود بالطعام والمياه العذبة؛ وتسافر السفن الفرنسية إلى البرتفال وإسبانيا وإفريقيا وقبرص وفلسطين. وكانت أولى ممتلكات فرسان الهيكل هناك دارا في الميناء، وطاحونة خارجه، كل منهما تم الحصول عليه في عام ١١٣٩ كهبة من لويس الشاب وزوجته أليانور. وفي خلال بضعة عقود استقرت الجماعة بقوة في الإقليم، إذ كانت أراضيها تشكل هلالين مركزين على الميناء، الذي زاده نفوذا بدوره. ذلك أن قيادة لأروشيل سيطرت عليه بأكمله؛ أما اليوم، فباستثناء بضعة شوارع تحمل أسماء: لفرسان الهيكل، لا توجد سوى ثلاثة أشياء تبين أن فرسان الهيكل كانوا موجودين، فتحت الفندق الذي نشأ من حطام القيادة يقم قبو بسيط، حيث كان فرسان الهيكل يخزنون الحبوب، أو ربما الأسلحة. ولكي يدخل المرء الفندق، يمر بطريق مستقوف بانحناء؛ وتحت ذلك الانحناء نفسه، منذ سبعمائة أو ثمانمائة سنة، كان الفرسان الذين يرتدون العباءات البيضياء، والرقباء بأرديتهم البنية يدخلون فناعهم. وفي الفناء، في أحد الأركان هناك درع منصوت في الصجار، إنه درع به صليب به ثمان زوايا: إنه بوسيئت، علم فرسان الهيكل.

وهو شاهد قبر صغير حاد، فحتى في باريس، حيث توجد الدار الرئيسية الجماعة في أوربا وحيث يمكن المرء أن يدرس اليوم مئات من الوثائق الأصلية المتعلقة بفرسان الهيكل – حتى في باريس، لا يكاد يعشر على أي أثر، ولكي يرى المرء الآثار الأكشر استدعاء، أي الأماكن التي تستحضر الحياة اليومية للإخوان في أوربا، كأوضع ما يكون، عليه أن يغادر المراكز الرئيسية ويبحث في أماكن أخرى، ومع ذلك، حتى يفعل

ذلك، فهناك حاجة إلى بعض العناية، وتوجد في جنوب فرنسا بعض أفضل منازل فرسان الهيكل الريفية الكبرى التسعة ذائعة السيط. فحين يتجه المرء في ذلك الطريق من باريس، يمكن أن يمر بدول، وهناك يتعثر في مطعم يبدو جدا أنه ينتمي للعصور الوسطى يسمى باسم الجماعة، وهو يقع في قبو حجرى مثير للمهابة، بسقفه المنحنى المدعم بأعمدة كبيرة، ويرجع تاريخه إلى فترة فرسان الهيكل، والطعام هناك جيد؛ وللأسف، فإن الاسم زائف تماما، ومع ذلك، فإن المنطقة ذات مغزى في تاريخ الهيكل: فعلى بعد بضعة كيلومترات جنوب شرق المدينة يوجد نجع تيمبلدبلفاننس، حيث ما زالت توجد إحدى أقدم القيادات، وهي بها سكان، ويرجع تاريخها إلى مولى، وهن جنوب غرب المدينة، على ضفاف نهر دوب، يوجد نجع أخر صغير يسمى مولى، وهناك، حوالى عام ١٩٤٤، ولد صبى هو جاك دى مولى، الذي أصبح آخر معلمي فرسان الهيكل.

وفى أعماق الجنوب، يوجد كنز اليوم الخاص بفرسان الهيكل، فهناك لابارجمون، على الطريق من أفينيون إلى إيكس، الذى كان ذات يوم قيادة كانت وظيفتها زراعة العنب، والتي ما تزال تنتج نبيذا أحمر لذيذ الطعم، يتم تسويقه بحس تجارى سليم غال، تحت علامة صليب فرسان الهيكل. وتوجد جرو وريشوفان، وسانت أولالي، ولا كوفرتفواراد؛ كل منها مختلف وكل منها يضيء جانبا مختلفا من حياة فرسان الهيكل.

وسانت أولالى وكورتفواراد شقيقتان، تم تأسيسهما في ١٩٥١ و ١١٨١ كل على حدة. وتقعان في قلب لانجدوك، إلى الشرق من مدينة روكفور الأكثر شهرة، ولا يفصل الحصنان سوى عشرين كيلومترا، ولكن من الصعب أن يكون هناك أى اختلاف آخر في موقعيهما: تقع سانت أولالي في أعماق واد طويلا عريض خصيب، في حين تقوم كورتواراد في صحراء من المحضور والعشب الصغير الجاف. الأولى تحيط بها الحقول، وجدول ماء، والمروج الخضراء؛ أما الثانية فليس بها سوى برك من الندى. لكن فرسان الهيكل كانوا قادرين على استخدام المكانين أفضل استخدام، ويزرعون الطعام للبشر والخيول حول سانت أولالي، ويربون الأغنام في كورتواراد؛ وكلا المكانين

تمامًا كما كانا أيام فرسان الهيكل. وكورتواراد تعد بصفة خاصة جوهرة، إنها مدينة من مدن العصور الوسطى احتفظ بها تماما، وهي عبارة عن خمسين أو ستين منزلا متلاصقة معا مع سلالم خارجية تؤدى إلى طوابقها العليا؛ وأزقة لا تصل إلى التساع الشوارع؛ وسور به خمسة أبراج، تحيط بها وتحميها؛ وبالقرب منها، هناك الكنيسة والقلعة.

بعد الدهشة الأولى التى تشعر بها عند وجود مكان قام كاملا من العصور الرسطى، فإن أول ما يصدمك فى لاكوفرتواراد هو مدى صغر حجمها. فهى بالكاد تسمى قرية اليوم. وفى ذلك الحين، كانت مدينة. والقلعة – وهذه الكلمة تستحضر صورة بناء ضخم فخم؛ ولكن مع أن جدرانها سميكة بالتأكيد، فإن قلعة فرسان الهيكل فى كوفرتواراد ليست أكبر كثيرا من أى منزل حديث. إن العظمة، بالطبع، شىء نسبى، فإذا ما قورنت القلعة بالمساكن الصغيرة التى تكون المدينة الصغيرة، فهى تعد فخمة. غير أن المرء يفهم فجاة ويوضوح، كم هو عدد الأفكار الحديثة عن قوة العصور الوسطى فى حاجة إلى مراجعة نحو التواضع. ذلك أن كل ما كان مطلوبا كى يغطى بضعة مئات من الرعاة هو بناء حجرى متوسط الحجم؛ ولكن فى تلك الأيام، كان يغطى بضعة مئات من الرعاة هو بناء حجرى متوسط الحجم؛ ولكن فى تلك الأيام، كان ذلك قوة.

وسانت أولالي مشابهة، فهي عبارة عن مجموعة من المنازل الصغيرة داخل أربعة أسوار قوية، تحصنها الأبراج ومن خلفها كنيسة الهيكل والقيادة. وهي مرة أخرى تبدو صبورة مستوطنة مصغرة. ويصدق الشيء نفسه على ريشفانش، التي تقع على بعد خمسة وستين كيلومتراً من أفينيون؛ ولكن بينما توحى لا كورفتواراد ولا سانت أولالي شعورا معينا بالخفة والرقة – أي جو رعوى على الرغم من التحصينات – فإن ريشيرانش قوية صلبة عبارة عن بناء مربع الشكل في سهل كئيب، يتسم بالغبار والقذارة والقذارة والقدر.

ربما كان أغرب ما في هذه الأماكن المحتفظ بها هو أن الانطباع الذي تعطيه بقيق من الناحية التاريخية؛ كانت ريشيران أولى الثلاثة، تم اكتسابها وتحصينها عام

١١٣٦ فشيدت بوصفها بيانًا عن النية المتعمدة، قصد منها التأثير بقوة فرسان الهيكل العسكرية في السكان المحليين، في حين تظل أساسًا بؤرة لمجتمع زراعي. أما لاسانت ولاكورتواراد التي جاعاً بعد ذلك بجيل وجيلين، للترويج للجماعة، فلم تكونا في حاجة إلى تحصينات في البداية. إذ كانتا مراكز زراعة بالمعنى البسيط النقي، وبنيتا كما يمكن أن تبنى الأديرة، بكنيسة، وقاعة طعام، وعنبر للنوم، وإسطبلات وما إلى ذلك. فكانتا مسالمتين، لا تهددان ولا تتعرضان للتهديد. والأسوار والأبراج حول المدينتين لم تكن موجودة قط أيام فرسان الهيكل؛ إذ لم تكن لهما ضرورة. ولكن بعد تدمير الجماعة، استولى الإسبتاليون على دورها، وبنوا الأسوار كما يشرح أهل لاسانت "لكي يحموا أنفسهم من فرسان الهيكل".

على النقيض من هذه القيادات، تقف قلعة جرى بذاتها، من جميع النواحى. أما الثلاثة الأخريات، فكانت نواة إدارية محلية، مدن منخفضة مرتبطة ارتباطا حميما بحياة الشعب العادى. تقف على قمة جبل على بعد خمسين كيلومتراً شمال شرق بروفانس. وهي أكبر قلاع فرسان الهيكل التي توجد في أوربا، وهي تبين مباشرة دون موارية جوانب الجماعة الأكثر ندرة في الفرب منها في الشرق: القوة العسكرية البحتة – والوحدة العميقة. ذلك أن الكثير من آلاف المنازل الأخرى الأقل، لا يديرها سوى الرقباء الذين يرتدون الملابس البنية.

أما قلعة جرو، تلك المتكبرة البعيدة القوية المعزولة، فهى المكان الذي يرى فيه دائما الفرسان بالعباءات البيضاء، ويقولون في صلاتهم: "حتى نهاية حياتنا، وحتى نهاية جماعتنا، ما شاء الله لها أن تكون".

الجزءالخامس

مؤامرة واعتقال ١٣٠٣-١٣٠٧

الفصل الثالث عشر

فيليب الأشقر فرنسيا وإسبانيا ١٣٠٣–١٣٠٩

دعني، فأبيدهم.

سفر التسمية، الإصحاح التاسع الآية ١٤

انتهى عصر الحروب الصليبية الكبرى. وأن يكون هناك أبداً "ممر عام" للأوربيين ألى الأراضى المقدسة، حيث يقاتلون من أجل المسيح. ذلك أن هزائم المسيحيين في عام ١٣٩١ كانت حاسمة - ليس في حد ذاتها وإنما بوصفها جزءًا من نمط التغيير. وكانت أوربا في بداية القرن الرابع عشر شديدة الاختلاف عن أوربا البابا إيربان والقديس بيرنار، منذ مائتي عام. وكان الإقطاع يفسح ببطء وعلى مضض الطريق النزعة القومية، وكانت العصور الوسطى تفسح الطريق النزعة الإنسانية، وكانت الحروب الصليبية تناقش، لكنها لم تكن تتم؛ إذ كانت المسيحية المتشددة ما زالت على الحروب الناس، ولكن - مع بعض الاستثناءات المهمة - لم تعد في قلوبهم، وفي هذا العالم المتغير، كان وجود الجماعات العسكرية في طريقه إلى أن تكون شيئا شاذا، فيما أنها لم تعد تفي بوظيفتها الأولى، "الدفاع عن الأراضى المقدسة" فقد بدا الكثيرين أن فرسان الهيكل لم يعوبوا يمتلكون السبب أو الحق في الوجود.

وكانت مملكة فرنسا في مقدمة التغيرات، وكان على رأس المملكة رجل واحد يمكن اعتباره شعار التغيير. ففي عام ١٣٠٣، كان فيليب الرابع الملقب بـ "الأشقر" يبلغ

خمساً وثلاثين سنة - فهو ما يزال شابا، في ذروة الحياة، لكنه مع ذلك قديم في المساء وثلاثين سنة - فهو ما يزال شابا، في الملك، لأنه كان قد توج الملك الحادي عشر من أسرة كابيت الفرنسية وهو بعد في السابعة عشرة.

وفي عام ١٣٠٣، كان قد حكم بوصفه ملكًا لاكثر من نصف عمره، وأصبح ينظر إلى مملكته بنوع من الرضى الصارم، ذلك أنه، إن لم يكن محبوبا، فقد كان عرهوب الصانب، – ليس فقط في مملكته، وإنما فيما وراء حدودها، في جيين وفلاندر، وإنجانبا، وإيطاليا. وكان يحكم مساحة أوسع وأكثر تجانسًا من تلك التي حكمها أي من أجداده من أسرة كابيت، ذلك أنه بالنسبة لمعظمهم، كان الحكم المباشر قاصرا على جزء من فرنسا، – باريس ومحيطها المباشر. وهذه لا تكاد تكون مملكة بأي حال؛ ولكن بعد ثلاثة قرون وأكثر من حكم هذه الأسرة، نمت المملكة كي تضم نورماندي، وأنجو، ومين، وتورين، وبرى، وبواتيى، واوفيرن، وتولوز، وشامباني، وناغار. وكان فيليب يعد نفسه مستحقا للوراثة: فقبض على الحكم بيد من حديد.

وكان الملوك من أسرة كابيت على مدى ثلاثمائة سنة ينمون بعناية الاعتقاد بأن ملكهم بأمر إلهى. وكانت حفلات تتويجهم تتبع المراسم اتباعا دقيقا، أى أنها كانت مناسبات شبه دينية، تبارك فيها الكنيسة الحاكم الجديد ويدهن بالزيت المقدس، — وهو زيت تحكى الأساطير أنه جلب من السماء بواسطة حمامة، ولا ينقص أبدا. وحين يتوج الملك، يصبح نصف إله، أى كائن مستثناء من الأخلاقيات العادية؛ ويشاع أن لمستة منه من شأنها علاج الأمراض. وكان لويس التاسع، قد ذهب بهذا الاعتقاد إلى أقصى حد، إذ جمع بين السلطة والتقوى، وبذلك وضع الأساس للحكم الديني السياسي، في أمة يسود فيها قانون الله، ولا يفسره وينفذه سوى الملك وحده. فكلمة الملك، هي أيضا كلمة الرب، وهي مطلقة من الناحية الروحية والدنيوية.

وقبل فيليب دوره قبولا تامًا - سواء عن اعتقاد صادق، أو منفعة سياسية، أو كليهما معا، من المستحيل القول بأنه يفترض أنه كان يعلم؛ لكن هذا الرجل كان أعظم لغز في تاريخ فرشان الهيكل. إذ إنه لم يكشف قط عن أفكاره أو مشاعره أو

دوافعه العمل لأى مخلوق. ذلك أنه إذا فعل ذلك فسيكون هذا غير متسق، سياسيًا وروحيا، وفيليب كان متسقا بشكل قاس، فشيد حول نفسه دائرة من البرود والصمت، لم يتغلفل منها أى أحد ممن يعرفونه؛ وكتب عنه أحد معاصريه "هو ليس بإنسان ولا بحيوان؛ إنه تمثال"، ويصعب تحسين هذا الوصف؛ حتى اليوم تظل شخصيته بعيدة، يصعب الوصول إليها، أفعاله فقط هى الشيء الواضح الذي لا لبس فيه، ومن هذه الأفعال، ومن القليل من التعليقات المعاصرة له والتي ليست بالمدائح ولا هي بالهجاء، يمكن للمرء تكوين صورة عن فيليب الإنسان، والتمثال الجميل.

من المؤكد أنه كان جميلا، بل كان جماله استثنائيا؛ كان الجميع متفقين على ذلك. ومن الواضح أنه كان رجلاً ذكيا يتمتع بالعزيمة، ولا بد أنه كان مخلصا في معتقداته، لأن أفعاله باعتباره نصف إله، وملكًا بالكامل، كان وراءها منطق رهيب، وكان يملك، فوق ذلك، فهما غريزيًا لعلم النفس، ومنذ بداية حكمه أحاط نفسه بمجموعة من أكثر الناس مكرًا في فرنسا، ومن خلال هؤلاء أي وزرائه، حكم مملكته كعنكبوت في وسط نسيجه.

لم يكن الحكم المطلق ممكنا بالنسبة له: ذلك أن الناس العاديين والنبلاء والذين لم تكن لهم ألقاب، ما يزالون يفكرون بالمنطق الإقطاعي، ولم يكن جهاز الحكم المطلق قد أنشئ بعد! لكن فيليب كان ينشئه، وكان حاكمًا مطلقًا صرفا بقدر ما كان ذلك ممكنا، يطور طريقة في الحكم على النقيض من الاتفاق الإقطاعي. ذلك أن إخفاءه لذاته وافتقاره الظاهر للإنسانية، ربما كانت حيلة متعمدة. إذ إن فيليب كان يؤكد على الجانب الكهنوتي للملك، عن طريق عدم الكشف عن الرضا أو الحنق الشخصيي، وكلما كان مظهره صلبا، كلما سهل عليه خداع مناصريه وأعدائه على حد سواء، وكلما قل فهمهم لأفكاره، كلما زاد خوفهم! وكلما ذاد خوفهم سهل حكمهم.

ِ لكن ميراث فيليب لم يكن فقط من صنع الحكم الدينى السياسي، فإذا كان الرب يحكم من خلال ملك فرنسا، فذلك في هذا العالم وليس في العالم الآخر؛ وفي هذا العالم يجب دائما تذكر الثراء المادي غير النظيف، وكان ميراث فيليب الدنيوي يتنالف من الحروب والديون - الحروب ضد إنجلترا في البحر وفي جيين، التي كان الإنجليز يستحوزون عليها، وضد فلاندر التي كان يشتهيها ملوك أسرة كابيت؛ والدين لكل من يقرض. وكان فرسان الهيكل في مقدمة قائمة دائني الملك، لكنهم لم يكونوا وحدهم؛ فاليهود واللمبارديون، والمهرة أيضنا في أمور المال، كانوا يضمنون فواتير الملك.

وكانت الصاحة إلى المال جزءًا من الدافع للحرب، ذلك أن القروض، وهي عادة مقوائد بشكل أو آخر، كان لا يد من دفعها أحيانا؛ والنظام الإقطاعي الذي لا يوجد به مادة عن ضريبة الدخل والعائد الذي يمكن التنبق به تنبؤًا تقريبيًّا، كان يعتمد إلى حد كبير على الضرائب المتقطعة، لأغراض محددة، كانت الحرب أوضحها وأيسرها على الفهم. لكن القتال كان يكلف دائمًا أكثر من المتوقع، ليس فالأموال فحسب وإنما في الأرواح، فكانت الاستبدانة تزداد بدلا من أن تنقص، بكل سبهولة، حتى مع الحملة الناجحة. وكنان من الفظاظة أن تضطر أن تقاتل الأخرين كي تسبحب الأموال من شعبك، كما كان شيئًا غير مؤكد وغير كفء، وفيليب كان يكره انعدام الكفاءة. وكانت لدى فرنسنا نفس أنواع الضرائب التي كانت موجودة في إنجلترا في ذلك الوقت، والتي كان معظم الناس يعتبرونها غير عادلة أو متكافئة أصبلا، وفيليب الذي كان يتطلع حوله بحثًا عن المال، أحيى بعض الأفكار القديمة، وأدخل بعض الأفكار الجديدة: القروض الإجبارية، وبيم حقوق النبلاء، ورخص التمندير، وضيرائب على الأعمال الضامية، وضريبة مبيعات عامة على كل ما يباع أو يشتري. وهذه الضريبة الأخيرة كانت هي الأسوأ بالنسبة للناس العاديين لكونها غير مرتبطة بضريبة الدخل؛ ولكن لم تكن هي ولا غيرها من وسائل جمع المال الموجودة أصلا، أكثر من مجرد سد مؤقت للاحتياجات. وفي السنوات الأولى من حكمه، التسعينات من القرن الثالث عشر، وجد فيليب حلين جديدين حاسمين: تخفيض قيمة العملة، والضغط على المجموعات الغنية غير القوية. فتم تخفيض قيمة عملة الملكة مرة تلو مرة، مما جعلها تفقد ثلث قيمتها في عشر سنوات، وضربت ضرائب خاصة على اليهود، واللمبارديين - والكنيسة، وكان رجال الدين المعفون تقليديا من ضريبة الدنيويين أو العلمانيين، يدفعون ضرائب البابوية للمساعدة في دفع نفقات الحروب الصليبية، وكانت السلطات الدنيوية هي التي تجمعها.

وما حدث ببساطة هو أن فيليب استمر في جمع هذه الضرائب، ولكن دون إذن بابوي. وكانت أراضى الكنيسة تشكل نصو ثلث المملكة، وكل عامين أو نحو ذلك، كان فيليب يحول عشر إيجارات رجال الدين، ودخولهم إلى خزائنه، وكان يريد: مصدرا لعائد منتظم كبير بقدر معقول. ونجحت خططه لفترة ما، وكان من المكن أن تستمر في النجاح. إذ لا أحد سوى الأشخاص الذين يعنيهم الأمر يمكن أن يعترض على تجريد المرابين من ممتلكاتها أمر مختلف، لكن فيليب الذي كان يعتقد أنه ملك كاهن، ويطمع في البابوية كان له معارض لا يتزحزح: هو البابا بونيغاس الذي كانت إرادته صلبة مثل إرادة فيليب، وكان حلمه مطابقًا لعلمه، وهو توحيد السلطة الروحية والزمنية في شخص واحد.

لم تكن أوربا اتتسع لمثل هذين الرجلين؛ فتحاربا لمدة تسع سنوات، "أكثر الملوك مسيحية" وكاهن المسيح، من الناحية الاسمية كان الصراع بينهما حول إساءة ملكية دخل الكنيسة؛ أما من الناحية الفعلية فكانت حربا - حتى الموت إذا ما اقتضت الحاجة من أجل السيادة في أوربا. في عام ١٣٩٦ صدر مرسوم بابوى يحظر فرض الضرائب على رجال الدين؛ فرد فيليب بفرض حظر على تصدير سبائك الذهب أو الفضة من فرنسا، ومنع بذلك وصول الصدقات الفرنسية إلى روما. وفي عام ١٣٠٠، عام اليوبيل البابوي، قام بونيفاس باستعراض في روما كإمبراطور، وقد حمل سيفين أمامه، يشيران إلى ادعائه بالسلطة على جميع الناس، الأحياء منهم والأموات. ولم يبد فيليب أي رد فعل، بالنظر أو اللفظ؛ ولكن في عام ١٠٠٠ قبض رجاله على أسقف باميي، للنوب البابوي في فرنسا، واتهم بالخيانة، والابتداع، وبيع المناصب الدينية، والسحر وممارسة الجنس، وكانت جرائم الأسقف المقيقية هي صداقته الشخصية لبونيفاس وممارسة الجنس، وكانت جرائم الأسقف المقيقية هي صداقته الشخصية لبونيفاس وبشبيه فيليب بالبومة. إذ ينقل عنه قوله: "ملك فرنسا أكثر وسامة من أي إنسان،

في الدنيا، ولا يعرف سوى الحملقة في الرجال". وهذه ملحوظة غير موفقة، لأن تلك النظرة المتحجرة تخفي عقلا لا يرحم.

فثار بونيفاس بإصدر مرسومين، أحدهما يستنكر عملية إلقاء القبض، والثانى يلغى جميع امتيازات وحقوق فيليب في السنوات الخمس السابقة. فكان تحرك فيليب التالى غير مسبوق: في إبريل عام ١٣٠٧ دعا إلى اجتماع للطبقات الثلاث، النبلاء ورجال الدين، والعوام. ولم يكن العوام يدعون أبدا المشاركة؛ ولكن لم تكن أي من هذه الطبقات الثلاث موجودة لإبداء النصيحة. لقد كان هدف فيليب هو أن يضمن أن فرنسا كلها تتحدث بصوت واحد – هو صوته، ولم يكن أمام الاجتماع بديل حقيقي، وتم إحراق مرسوم الاستنكار علنًا، ورفضت الأمة الفرنسية، كرجل واحد، جميع ادعاءات البابا – واعترضت على حق بونيفاس في أن يكون هو البابا، "مقدس واحد" أعلن بونيفاس – لم توجد ولا يمكن أن توجد سوى كنيسة واحدة مقدسة لا يمكن انتهاكها، وللكنيسة رأس واحد؛ فهي ليست وحشنًا برأسين؛ رأسها هو المسيح، وحاكمها هو كالكنيسة رأس واحد؛ فهي ليست وحشنًا برأسين؛ رأسها هو المسيح، وحاكمها هو

إنها كلمات، كلمات؛ في إمكان فيليب الرد عليها بيسر، ويهدو، ويرود وثقة في حقه الإلهي في العرش، واستخدمت الطريقة التي استخدمت ضد أسقف باميي مرة أخرى، وفي مارس ١٣٠٣ وجهت طبقات فرنسا الثلاث تسما وعشرين اتهامًا ضد بونيفاس تتهمه، بين أشياء أخرى، باللواط، والسحر، والابتداع، والمتاجرة في المناصب الدينية والتجديف.

ويون المزيد من الجلبة، استخدم بونيفاس سائحه الأخير، وحرم فيليب من الكنيسة – وهي حركة لا معنى لها، إذ يمكنه أن يثق في أن فيليب سوف يتجاهلها، وعلى أي حال، فإن البابا كان قد أعلن في إحدى المرات أن الرجل الفرنسي ليست لديه روح. والفرنسيون، بالطبع، يرون غير ذلك، وحين سمعوا في صيف ١٣٠٣ أن البابا يعد لحرمان الأمة الفرنسية برمتها من الكنيسة بالإضافة إلى الملك، حدث فرع وحنق.

وكان من المقرر أن ينشر المرسوم في ٨ سبتمبر، فعجل هذا النبأ بأن يتصرف فيليب بسرعة؛ إذ كان عليه أن يتصرف بسرعة وحسم كي يمنع قيام ثورة.

المسافة من باريس إلى روما هي نصو ثمانمائة من الأميال. وعلى بعد سمعة وتُلاثين ميلاً جنوب شرق روما تقع مدينة إنيى. وفي بداية سبتمبر ١٣٠٣، كان البايا بونيفاس يقيم هناك؛ ومن هناك في ٨ سبتمبر كان يعتزم نشر مرسومه التاريخي ضد فرنسا. وحسب عادته، استيقظ مبكرا في الصباح في يوم سبعة وذهب كي يصلي في كنيسته الخاصة قبل طلوع الفجر – وبينما كان يصلى داهمته قوة من الجنور الفرنسيين، وأسرته، لم يكن من المتصور أو المتخيل أو المعقول، اختطاف بابا وفوق ذلك، عمل هذا باسم الدفاع عن البابوية. لكن فيليب الذي كان يعتقد أن العرش الفرنسي أكثر قداسة من الكرسي البابوي أمكنه أن يفكر في ذلك، ويضبعه موضم التنفيذ. فلا البعد ولا القداسة أمكنهما حماية البابا بونيفاس؛ وبسبب إيمانه العميق بالسلطة البابوية لم يعرف إلا بعد فوات الأوان القوة الكاملة لقناعة فيليب الشخصيية. ففيليب الذي استثنى عن الناس العاديين، والذي يحكم برحمة الرب، باعتباره تجسيد القانون على الأرض، والمفسر الوحيد للقانون السماري، لم تكن به حاجة إلى مبادئ أو ضمير. وكانت نيته هي إحضار بونيفاس إلى فرنسا بالقوة، ومحاكمته هناك على جرائمه. هذا الجزء من الخطة فشل، لأن أهل إنبي أنقذوا البابا؛ لكن السن كان إلى جانب فيليب بالإضافة إلى الخيال غير المقيد. ذلك أن بونيفاس كان يبلغ من العمر ستًّا وثمانين سنة، لذا كانت صدمة سجنه المثيرة أكبر مما يجب؛ فمات بعد ذلك بشهر، لقد كانت هذه العملية نموذجًا لشخصية فيليب – كانت عملية سرية، وجسورة، وجيدة التخطيط، وتم تنفيذها . وكانت تتسم بالكفاءة، وغير متوقعة ومرعبة، مثل هذا الرجل يمكنه فعل أي شيء، على ما يبدو؛ ولكن حتى فيليب، نصف الإله الملكي، لم يكن يستطيم أن يفعل شبيئا بونما دعم من رجال من طراز مشابه – رجال لا شك في ولائهم ويتبمتعون بأقصى درجات الجسارة؛ رجال يتنفسون التأمر، والعنف المقان، وتَصْفِيمِ الذاتِ. لقد كان هؤلاء هم وزراء الملك، ووكلاؤه وألفاؤه؛ وعلى رأسهم قائد الهجوم في إنبي، وهو شرير لامم الذكاء، يدعي ويليام دي نوجاري.

لقد شكل فيليب ودى نوجارى شراكة كاملة تقريبا من السلطة والتفكير، وكان دى نوجارى يكبر الملك بسنوات قليلة، وقد عملا معا على مدى عشرين سنة؛ لكن لا يمكن أن يكون هناك اختلاف فى الأصول كما كان بينهما. فقد انحدر دى نوجارى من أصول تنتمى للطبقة المترسطة؛ إذ كان، والده تاجرا فى تولوز، وأخذت العائلة اسمها أو أعطته لقطعة أرض صغيرة كانوا يملكونها جنوب شرق المدينة. وما زالت قرية نوجارى موجودة مع أن العائلة فنيت فى نهاية القرن الرابع عشر.

لقد كان صعود ويليام دي نوجاري للسلطة وسوء الصيت جزءًا أخر من التغيرات التي تكتسح أوربا في ذلك الوقت. إذ كان لا بد من تحويل التغييرات في العادات القديمة إلى قانون؛ والمحامون باعتبارهم الوحيدين الذين يمكنهم أن يزعموا الأنهم يفهمون التطورات الجديدة المقدة، صباروا طبقة قوية؛ وكان دى نوجاري محاميًا يتمتع بقدرات بارزة. وفي الثمانينيات من القرن الثالث عشر كان مستشارا قانونيا للك مايوركا، وأستاذا القانون في جامعة مونيليي؛ وفي أوائل التسعينيات من القرن الثالث عشر، انضم إلى الخدمة القانونية لدى فيليب؛ وفي عام ١٢٩٩ صبار من النبلاء، وفي عنام ١٣٠٢ نصب "منصامي المملكة الأول". وهو الذي أصندر الاتهاميات الأولى العائبية ضد بونيفاس؛ وهو الذي قاد الحملة الوطنية لتلطيخ السمعة، وأشرف على الاختطاف. ذلك أنه لم يكن يستاوم في الولاء أو الكراهية. ولاقي ولاؤه للملك خيس الجزاء – ففي نهاية حياته، امثلك، ذلك الذي كان ابنا لتاجر بسيط، أربعمائة ميل مربع من فرنسا، وكانت لديه السلطة المباشرة على حياة وموت ما يزيد على عشرة آلاف من الأشخاص؛ وكانت كراهيته للبابوية وكل منا تمثله على أسس قوية، لأن والديه مثل معظم أهل تواوز من الكتاريين، وتم إحراقهم أحياء تحت إشراف فرسان الهيكل، باعتبارهم مبتدعين.

هذا المصير البشم، الذي واجهه والدا نوجاري قد يكون ببساطة تعساً. وثمة كثير من الأدلة التي تبين أن فرسان الهيكل عملوا مع النومينيكان، الذين كانوا مسئولين عن اجتثاث الابتداع. لذا لا بد أن فرسان الهيكل كانوا على ألفة بإدارة خشب شبح

الأجساد، وقطع أصابع الإبهام، والدفن في الحفر بالإضافة إلى التعليق والتقييد وربعا مارسوها؛ وقد كافأ الدومينيكان تعاونهم عن طريق تشجيع المسيحيين الطيبين على ترك الأموال والممثلكات للجماعة حين يكتبون وصبياتهم، ولكن هناك أيضا أدلة ثابتة أيضاً توحى بأن فرسان الهيكل كانوا يتعاونون فقط حين يكون الثمن صحيحاً، لأنهم من كثيرا ما كانوا يعيقون ويعرقلون محاكم تفتيش المبتدعين الذين يتصادف أنهم من مستأجريهم. (كانت هذه الإعاقة مصدرا كافيا للإزعاج من وجهة النظر الرسمية، بالنسبة لإيجاد جماعة جديدة تماما: هي فروسية عقيدة يسوع المسيح. كان هدفها الوحيد هو اجتثاث الابتداع – وهي نوع من شرطة الفكر الديني – وتتعدى على حقوق فرسان الهيكل، وتضايق الأخرين، لذا كانت مجموعة موضع كراهية شديدة من الناس حتى أنها حلت بعد إنشائها بأقل من أربعين سنة).

ولكن لا يوجد ما يشير إلى أن آل نوجارى كانوا مستأجرين لدى فرسان الهيكل. فلو أنهم كانوا كذلك، لحماهم الإخوان؛ حينئذ كان من المكن أن يتغير مصمير الجماعة نفسها.

فى تلك الأثناء لم تنته المؤامرة ضد البابوية بموت بونيفاس – بل ازدادت قوة. ذلك أن البابا الجديد، البابا بينيديكت الحادى عشر الذى وضع فى نفس القالب الذى وضع فيه بونيفاس، رجل صارم، وعازم على العفاظ على كرسيه البابوى، ومما زاد النار اشتعالا أن فيليب أمر بمحاكمة لبونيفاس بعد وفاته. لو أن مثل هذا الشيء قد حدث لتسبب فى سابقة مرعبة، وبينيديكت، الذى أرغم على الدخول فى محنة، حاول الوصول إلى حل وسط عن طريق إلغاء حرمان فيليب من الكنيسة. فى أثناء ذلك أظهر دى نوجارى ولاءه للملك بطريقة ملفتة وذلك بئن قبل المسئولية الكاملة عن الهجوم فى أنانيى، فانسحب انتباه بينيديكت عن الملك، وأصدر تنديدا شديدا بدى نوجارى وشركائه فى الجريمة، وتم حرمان دى نوجارى من الكنيسة؛ ودون تعقل أذاع بينيديكت أن ذى نوجارى لن تكون لديه فرصة للاستثناف قبل الإعلان الرسمى بعد ذلك ببضعة أسابيع، ولم يئت إعلان أبدا؛ لأن البابا بينيديكت مات فجأة جراء مرض مجهول

مصحوبا بالام داخلية ممضة. فأصدر دى نوجارى نشرات دعائية تعبر عن الفرحة للعدالة التى حكم بها الله أعلى الأحبار الخبثاء؛ ولم يتم إثبات الاشتباه فى السم. لقد مات البابا بينيديكت فى ٧ يولية ١٣٠٤، بالضبط بعد شهر من تنديده بدى نوجارى. ولم تدم بابويته أكثر من ثمانية أشهر ونصف؛ ومر سنة عشر شهرا قبل تنصيب بابا جديد، ولم يكن التأخير من صنع فيليب، لكنه لاحمه خير ما تكون الملاحمة؛ وفى النهاية لم يعمل إلا لصالحه، وفى تلك الأثناء كانت لديه أمور أخرى ليفكر فيها.

فزوجته البالغة من العمر إحدى وعشرين سنة، جان ملكة فرنسا ونافار ترفيت عام ١٣٠٥، وكان فيليب أنذاك يبلغ السابعة والثلاثين وكان رد فعله لهذه الخسارة هو رد الفعل نفسه الذي كان يصدر عن الكثير من الأرامل في زمنه والقرن وثلاثة أرباع القرن الماضي: إذ قدم طلبا العضوية إخوان الهيكل، وليس هذا فحسب، ولكنه اقترح التنازل عن العرش لصنالح ابنه، كنان من المكن أن يبندو من الطبيعي أن يقبل فرسان الهيكل مثل هذا الرجل القوى بين منفوفهم؛ لكنهم رفضوه. وكانت سرية الجماعة ما تزال سائدة، فلم يعرف السبب أحد حتى فيليب نفسه. ربما رأى فرسان الهيكل طلبه على أنه مجرد انحراف ثلا وفاة زوجته؛ أو ربما أحسوا أن هذا الرجل القوى كان يريد من خلالهم ليس التواضع وإنما قوة أكبر. ذلك أنه، على الرغم من أن فيليب قد يكون قد أحب جان حبا كبيرا فإنه ليس بالرجل الذي يتصرف طبقا لانفعاله؛ بل كان دائمًا لديه سبب، وكثيرًا ما تكون لديه عدة أسباب لكل فعل؛ وبما أنه كان يتخطى مجرد المعارك المحلية والدخول في خصومات مع البابوات فلا بد أن لديه خطة يعد تعاون فرسان الهيكل فيها جوهريا. فقبل ذلك بثمانية عشر عاما، في ١٢٨٧، جاء إسبائي اسمه رامون اول إلى باريس وأتيم له لقاء خاص بالملك الشاب، وكان اول في منتصف الخمسينيات من عمره، ويشتهر كصوفي في بلاته مايوركا، وفي بر أرجون، وفي أوائل حياته كان جنديا، وأحد رجال البلاط وشاعرًا وموسيقيًا – رجلاً دنيويًا بمعنى الكلمة، وهو شباعري وعباطفي ومندفع، هو مشرّوج، ولكن لا حصير لعشيقاته، وهو محب، ويقبل على كل ما تهب العياة له. لقد نشأ في مايوركا - أكثر الجزر المسيحية إسلامًا – فكان مسيحيا بالاسم حتى الثلاثين من عمره، حين حواته تجربة دينية عميقة إلى أن صار أحد أنشط المسيحيين في زمانه. وبعد ذلك يبدو تصرفه غريبا على شخص متحول – إذ أنفق تسع سنوات في تعلم اللغة العربية. لكن ذلك كان من أجل هدف عظيم؛ ذلك أنه إذا ما قدر أن حدثت حرب صليبية أخرى كان أول يعتقد أنها يجب أن تكون حربًا صليبيًا تبشيرية. لم تكن هذه فكرة جديدة، لكنها لم تلق قط استقبالا متحمسا. وكان لول يأمل أنه في باريس ومع فيليب في أن يجد الدعم الذي كان يريده.

على الرغم من أن هذه الفترة، أى الانتقال من القرن الثالث عشر إلى القرن الرابع عشر يمكن النظر إليها بوضوح الآن باعتبارها نهاية الحروب الصليبية الكبرى لم يكن هذا واضحا بالنسبة للناس الذين كانوا يعيشون في ذاك الزمان. إذ لم تتغير الاتجاهات بين ليلة وضحاها؛ فبعد قرنين من الوجود الغربي في الأراضي المقدسة، كان مثل هذا الوجود يبدو سليمًا وطبيعيًا. وكان من افتراضات الحياة الأساسية أن الأراضي المقدسة سوف تسترد يوما ما؛ ولم يكن السؤال متى يتم ذاك، وإنما كيف. وبما أن الطريقة العسكرية البحتة فشلت، بدأ أنه من المحتمل أن مبدأ الحرب المقدسة كان خطأ، ولم ينل سوى عدم رضى الرب؛ لذا يجب أن تكون الحرب الصليبية النهائية إغراء الروح، حرب صليبية تبشيرية، وفي حالة عدم نجاح التبشير يساندها فرسان الجماعتين العسكريتين. لكن التنافس بين فرسان الهيكل والإسبتاليين كان فاضحاء الجماعتين العسكريتين. لكن التنافس بين فرسان الهيكل والإسبتاليين كان فاضحاء وأوجه الشبه بين التنظيمين أوحت بأنه يمكن تحقيق اقتصاد كبير في الوقت والمال إذا

عند هذه النقطة بدأ فيليب يهتم اهتمامًا حقيقيًا. وليس هناك ما يدعو الشك في تقواه؛ فإقامة مملكة الله على الأرض كانت أمله الثابت الأكيد، وكان فهمه الكيفية التي يتحقق بها هذا هو سبب معظم صراعاته - ذلك أن كل شيء في وراثته وتربيته حمله على أن يعتقد أنه هو - وهو وحده - يمكنه حكم "السماء على الأرض"، وخطة أول

المطورة التي نشرت عام ١٣٠٥ شرحت الإطار الذي يمكن تحقيق هذا من خلاله،

لقد كانت النقاط الرئيسية التي جذبت فيليب هي: أولا، يجب أن تصبيح الجماعتان العسكريتان جماعة واحدة؛ ثانيا، يجب أن يكون معلم الجماعة الجديدة المشتركة ملكا أو ابن ملك؛ ثالثا، يجب أن يكون منصب المعلم وراثيا؛ رابعًا، يجب أن يتخذ المعلم سكنا في القدس في أسرع وقت ممكن، وأن يتوج ملكا على القدس، وأخيرا، – ثمة نقطة بسيطة، لكنها نقطة جاذبة ملموسة – يجب أن يحمل الملك المعلم لقب الملك المحارب.

بدت الفطة مفصلة على مقاس فيليب، على الرغم من أن لول قد يكون قد وضعها مع ملكه، ملك أرجون جيمز الثانى، وفى ذهنه، حرب صليبية إسبانية بهدف أكثر تحديدا. غير أن فيليب تولى الفكرة، واعتبرها فكرته؛ فإذا نجحت سوف تعطيه كل ما كان يريد – الوصول إلى مدد منتظم للمال منتظم غير محدود نسبيا؛ والحكم المباشر على أراضٍ فى كل جزء من أجزاء أوربا، وما وراءها؛ ومجد دائم لآل كابى، والرعاية والراحة الروحية والزمنية لكل البلاد المسيحية. وأضاف فيليب إلى ذلك اللمعان الزاهى الفخم، فى هذه الفكرة، نقطتين تضمنان تحكمه الشخصى التام: جميع الدخول الكنسية يجب تثبيتها، وأى هائض يجب أن يذهب ومباشرة إلى "الملك المحارب"، المساعدة فى إعادة غزو الأراضى المقدسة؛ وفى الانتخابات البابوية يجب أن يكون "للملك المحارب" أربعة أصوات.

كانت الخطوة الأولى فى تحقيق هذا التخطيط غير العادى هى توحيد الجماعتين، ولهذا حاول فيليب أن ينضم إلى فرسان الهيكل؛ وكان ينوى أن يكون معلما بالطريق المعهود، ومن هذا الموقع يقوم بتنظيم الاتحاد، وكل ما يلى ذلك. وربما اعتقد أن قبوله في الجماعة سيكون مسألة شكلية، ولا بد أنه صدم وغضب لرفض الجماعة المختصر لمفاتحته. ولم يبد ما يدل على ما أحس به، كالعهد به. إذ كان هناك طريق آخر مفتوح أمامه ~ أنه طريق طويل معقد منحرف، لكنه طريق لا يمكن أن يرفضه حتى فرسان الهيكل العنيدون المتصلبون. اقد كان سيدهم الوحيد على الأرض هو البابا؛ فإذا

أمرهم بتغيير رأيهم، فسوف يضطرون إلى ذلك، ولكن حتى الآن، لم يكن هناك خليفة لبينيديكت، لذا أصبح فيليب فجأة مهتما بالصراعات الانتخابية في روما.

كانت الكردينالية منقسعة إلى قسمين، جانب يؤيد ذكرى بونيفاس، والآخر المتأثر بالنفوذ الفرنسى - يستمر في اقتراح مرشحين يحاكمون بونيفاس بعد الوفاة. ولم ينته هذا الطريق المسبود إلى أن قدم أنصار بونيفاس رئيس أساقفة بوردو، بيرتران دى جو، ولم يكن لينتخب، لولا دعم الكرادلة الذين تتحكم فيهم فرنسا، وبدا اقتراح اسمه بلا جدوى، لأنه كان إلى جانب بونيفاس قبل يوم الاختطاف. ولكن حين سأل الفصيل الفرنسي فيليب عن رأيه، أعلن تحبيذه له مما أثار دهشتهم، وأخذ الانتخاب مسارة؛ وفي ١٤ نوفمبر ١٢٠٥، في ليون، أصبح بيرتران البابا كليمينت الخامس.

لقد كان الملك فيليب يعرف بالضبط ما كان يفعل بتأييده لترشيح دى جو؛ ذلك أنه كان يعرف الرجل معرفة جيدة. فرئيس الأساقفة كان رجلا ضعيفا جشعًا، مغرما بالتشريف، ويكره تحمل المسئولية؛ وقد فاز برئاسة الأسقفية عن طريق نفوذ العائلة لأن عمه كان أسقفا، وأخوه رئيسا للأساقفة. فإذا ما سلمنا أنه كان مقبولا من جانب أنصار بوذيفاس، فإن انتخابه كان بيد فيليب، وبعد أن تم ببعض السنوات، ظهرت حكاية عن وجود اتفاق سرى بين الملك ورئيس الأساقفة.

كانت القصة، أنه في المكان السرى الملائم لما يمكن أن يقع، في دير مهدم في وسط إحدى الغابات، التقى الملك مع كليمينت الخامس القادم وحدهم ذات ليلة مظلمة. ووعد الملك بأن يجعل من دى جو بابا بناء على سنة شروط، ذكر له منها خمسة أخذاك، مبقيا الشرط السادس حتى بعد الانتخاب. فإذا قبل رئيس الأساقفة، عليه أن يقسم بالصدق على خبز التناول، وأن يقدم ثلاثة من أقاربه باعتبارهم رهائن. كانت الشروط الخمسة الأولى أن يتم التصالح بين التاج الفرنسي والبابوية؛ ويجب فك المختطفين في أنانيي؛ ويجب السماح لقبليب بفرض ضرائب على رجال الدين

الفرنسيين؛ ويجب عودة الكرادلة الذين عزلهم بونيفاس؛ ويجب محو مراسيم بونيفاس، ويجب التنديد به. وحسب القصة قبل دى جو جميع الشروط الخمسة في التو واللحظة. أما الشرط السادس الذي لم يعلمه إلا بعد حين، فهو وجوب حل جماعة الهيكل.

مما يثير الحزن أن القصة ليست سوى قصة. ذلك أن فيليب وكليمينت لم يلتقيا قبل انتخاب البابا، وأن بعض الشروط ومنها شرط المصالحة قد تمت بالفعل. ومع ذلك، من المحتمل أن يكون اتفاق من هذا النوع قد عقد، لكنه ليس بين الرجلين شخصنيا ولكن من خلال قنواتهما الدبلوماسية؛ وفي كل الحالات، في إمكان فيليب أن يثق مع رجل مثل بيرتران دى جو في منصب البابا، من أن سلطة البابوية سوف تتناقص حتى تصير لا شيء. وبعد أن انتهى تتويج كليمينت بعد الظهيرة ١٤ نوفمبر ١٢٠٥، ركب البابا الجديد في موكب في شوارع ليون، يقود جواده النوق جون من بريتاني، وأخو اللك، الأمير شارل من قالوا. وكان الملك فيليب يركب خلفه مباشرة، وفي اللحظة التي يلجم فيها جواده، رأى الجدران بجانبه تتشقق وتنهار. وتحت المجارة المتساقطة جرح جون جرحا معيتًا؛ وأصيب الأمير شارل إصابة بليغة، وسقط كليمينت من فوق جواده، أما الملك فلم يصبه أذى، وكما فعل الكثيرون، قد يكون قد رأى الحادثة على أنها نذير شؤم بعهد البابا. وكانت تخطيطه الكبير يبدأ بداية جيدة.

فى أثناء ذلك، على أى حال استمرت مشكلة المال اليومية تنفص حياته. ذلك أن تكرار تخفيض قيمة العملة أفاد التاج كدائن، لكنه عمل ضد التاج كجامع للضرائب. وفى يونيه ١٢٠٦، أعلن فيليب ببرود أنه قرر الرجوع إلى القيمة الفعلية للعملة وأن يسرى مفعول ذلك القرار من ٨ سبتمبر. بمعنى عملى، بالنسبة للناس العاديين، كان معنى هذا أن الأسعار سوف تصبح ثلاثة أضعاف بين ليلة وضحاها. أما بالنسبة لفيليب، فكان معنى هذا أن يفر فجأة فيليب إنقاذا لحياته من الدهماء الذين يقومون بأعمال الشغب في كل أنحاء باريس؛ ولأول مرة، يخطئ في حسباب سلطة الكهنوت المكنى، ويدفع بالناس أكثر مما ينبغي وأسرع مما ينبغي، ولدة ثلاثة أيام وبينما كان

المواطنون يعدمون دون محاكمة، وأعمال الشغب يتم قمعها بالقوة، التجأ فيليب إلى هيكل باريس، وهناك توفر لديه الوقت كى يدرس الرجال الذين رفضوا انضمامه إلى جماعتهم. كثيرا ما كان يقيم هناك هو ويلاطه من قبل، لكن هذا لم يحدث قط فى مثل هذه الظروف المذلة. كان المجمع يغطى خمسة عشر فدانا وكان محاطا بالكامل بسور يبلغ ارتفاعه ثمانى عشرة قدما؛ ولم يكن للسور سوى بوابة واحدة، كان يحميها جسر جرار فوق خندق دائرى جاف. وكان "البرج العظيم" الذي يبلغ ارتفاعه مائة وستين قدما، يلقى بظله على باريس؛ وكانت المبانى تكفى لإسكان ثلاثمائة من الفرسان مع خدمهم وجيادهم. وبينما كانت أعمال الشغب تشتعل فى الخارج، كانت الحياة فى داخل الجدران من المكن أن تستمر نسبيا بلا إزعاج، وحين أعيد السلام أمكن لفيليب أن يعود من أمنه المستعار، ولا بد أنه فكر كثيرا فى هذه القلعة الحصن وجميع شقيقاتها الآتى تعد بالمئات فى أنحاء المملكة، التى لم يكن فى وسع أحد أن يدخلها،

تخفيض العملة، رفع قيمة العملة، قروض إجبارية، وفرض الضرائب - لا شيء من هذا بدا أنه ينجح لفترة طويلة. فكان من الضروري القيام بإجراء جديد مؤقت. وفي ٢١ يونيه ٢٠٠٦ أعطى الملك تفويضًا سريًا ملكيًا لمحاميه، ويليام دى نوجاري، المحارب القديم في أنانيي، وتم إرسال نسخ من هذا الأمر إلى جميع الأساقفة، والبارونات، والمسئولين الملكيين في المملكة، تناشدهم الطاعة المطلقة والصمت التام. وبعد ذلك بشهر تماما، وفي ٢١ يولية، تم القبض على كل يهودي في فرنسا، وتمت مصادرت جميع أموالهم وبضائعهم من أجل التاج. لقد كانت هذه العملية سريعة وكفأة وغير متوقعة وناجعة بالكامل في طول البلاد وعرضها - كان الملك والمحامي يعملين بطريقتهما إلى حد الكمال، تقريبا في نفس الوقت الذي كان فيليب يعملي نوجاري تفويضه، كتب البابا كليمينت رسالة إلى معلم الإسبتاليين وإلى جاك دى مولى، معلم الهيكل. ذلك أن الحبر متبلد الذهن كتب لهما باعتباره سيدهم الأعلى، يأمرهم بالحضور إلى أوربا لأننا "نرغب في استشارتكما بخصوص حرب صليبية

بالتعاون مع ملكى أرمينيا وقبرص، باعتباركما في أفضل وضع يمكنكما من أن تقدما لذا أفضل نصيحة في هذا الموضوع، فأنتما أكثر من غيركما، بعد بلاط روما، لا بد أنكما مهتمان بالمشروع.

ويعد هذه الأحداث بوقت قصير، تم قبول اثنى عشر أخًا جديدًا فى جماعة الهيكل، واحد فى كل مقر، من المقار الاثنى عشر المتناثرة عبر فرنسا. كان كل منهم وكيلا للملك فيليب. وفى الوقت المناسب، رد معلما الجماعتين على سيدهما، البابا، فعبر معلم الإسبتاليين عن أسفه لعدم قدرته على إطاعة الأمر بالحضور إلى أوربا؛ إذ إن جماعته بصدد الانتقال إلى رودس، وهو لا يمكنه أن يبرح مكانه، أما جاك دى مولى، فلم يكن لديه ما يضغط عليه فيمنعه؛ واعتزم أن يصل فى وقت مبكر فى العام الجديد.

وبدأ كليمينت، وفيليب، ونوجارى استعداداتهم لاستقباله – البابا الضعيف الهزيل، والملك الذى لا يرحم، والمحامى الذى لا يعرف المبادئ، وبين ذكرياته حرائق المبتدعين، انتظر الثالوث غير المقدس ضيفهم.

الفصل الرابع عشر احتفال الغدر فرنسا ۱۳۰۷

أما أنتم فملفقو كذب

سفر أيوب، الإصحاح الثالث عشر، الآية ؛

ولد جاك دى مولى، المعلم الثالث والعشرون والأخير لجماعة فرسان هيكل سليمان، قرابة عام ١٣٤٤ في فرانش – كونت، الجزء الشرقي من فرنسا. وقُبِلَ في جماعة الهيكل عام ١٣٤٥، ولما كان فارسا مدربًا، فقد تم إرساله، بسرعة إلى الأراضى المقدسة. وما إن وصل إلى هناك، حتى وجد الكثير مما يستوجب انتقاده في الطريقة التى تدار بها الجماعة؛ ذلك أنه كان شابا مستقيما نشطا، وكان يقهم دور فرسان الهيكل على أبسط المستويات: كان يشعر أن مهمتهم هي مقاتلة المسلمين، ولم يكن ليقبل بأقل من ذلك، شأنه شأن الكثيرين من القادمين الجدد إلى الشرق. فبدا له ليما المؤتب ويليام دى بوجي، بسياساته المسالة، جبانا في أفضل الحالات وبدا له في أسوأ الحالات خائنا لمبدأ الإخوان. ولما كان دى مولى متصلب العقيدة وصارم الشخصية، فقد عبر عن معارضته بصراحة، وحرية، وكرر ذلك كثيرا. ذلك أن سلبية دى بوجي أصابته بالاشمئزان، وجعل الناس يعلمون أنه إذا كان في وضع يسمح له بذلك، – فسوف يصلح الجماعة، ولو من أجل سلامتها. ولقد قضى عشرين عاما في بلاد ما وراء البحر، وهي العشرون سنة الأخيرة في حياة الملكة. وفي عاما عاما في بلاد ما وراء البحر، وهي العشرون سنة الأخيرة في حياة الملكة. وفي عاما عاما في بلاد ما وراء البحر، وهي العشرون سنة الأخيرة في حياة الملكة. وفي عاما

٨٢٨٥، كان في عكا، ومن المحتمل أن يكون قد شارك في الدفاع الأخير غير المجدى وإن كان بطوليا عن المدينة عام ١٣٩١؛ وقد يكون من بين من اتهموا دي بوجي بالجبن في اللحظات الأشيرة من حياته، على الرغم من هزيمة المسيحيين. ولا بد أن تلك الفترة الأخيرة كانت شديدة الإرضاء بالنسبة لدى مولى؛ إذ كان بها عمل أكثر مما يكفي، وموت معلم كان يزدريه، ويذلك ذهبت عشرون سنة من الإحباط إلى غياهب النسيان. ويرجع جزء من الإحباط إلى أنه، تحت قيادة دي بوجي، لم يتهل أي منصب قيادي في الجماعة – ربما بسبب تعليقاته الصريحة. غير أنه كان لديه طموح كامن بين حديثه عن الإصلاح؛ وبعد وقت قصير من وفاة خليفة دي بوجي، تيبالد جودان، في ١٦ إبريل عام ١٢٩٣، انتصرت شخصيته القوية أخيرًا. فبعد عكا، جاء الترقي سريعًا إلى ذي المُبرة. في ذلك الوقت، كان مولى قد قضى ثماني ومشرين سنة كأحد فرسان الهيكل؛ وكان يتكلم بقناعة وبإقناع للإخوان. في ذلك العام اختاروه معلما لهم. وصبار من المكن أن تتحول الإصلاحات إلى واقع. وبعد أن تم انتخابه في قبرص، بدأ عمله كمعلم برحلة فورا إلى الغرب، باحثًا من جديد عن دعم عملي من البابا، وملوك أورباً. فزار إسبانيا، وفرنسنا وإيطاليا، وإنجلترا؛ واستغرقت رحلته ثلاث سنوات. في أثناء ذلك الوقت دعى إلى ثلاثة اجتماعات عامة. - في مونبليي في خريف عنام ١٢٩٣. وفي باريس، في شبقناء (١٢٩٠ - يف؛ وفي أرييس، في خبريف ١٢٩٦، والتقى بجيمز الثالث، ملك أرجون، وشارل الثاني، ملك نابولي، وإدوارد الأول، ملك إنجلترا؛ وفي ديسمبر عام ١٢٩٤ ساعد في انتخاب بونيفاس الثامن كبابا، لكن هذه الاتصبالات والجهود لم تستقر عن شيء. إذ لم يكن جيمز مهتما إلا بصرب صليبية إسبانية؛ وكان شارل منكبا على فتح صقلية؛ وكان إدوارد في حرب ضد فيليب ملك فرنسنا؛ أما بونيفاس، فبدلا من أن يقدم المال للجماعة، طلب إتاوة كي تساعده على مكائده في إيطاليا.

وحين عاد دى مولى إلى قبرص خائب الرجاء، وجد إخوانه يعانون المتاعب هناك؛ ذلك أن الأراضي التي كانوا يستواون عليها والتي امتلكوها في وقت من الأوقات ملكية تامة، لم تعد تكفي احتياجاتهم – لكن الملك هنري، وهو من نسل جي دى لوزينيان – منعهم من امتلاك المزيد، سواء على سبيل الهبة أو عن طريق الشراء. فالجزيرة لا يمكنها أن تكون أبدا قاعدة كافية لجماعة عسكرية وللك جنبا إلى جنب. ولقد أدرك الإسبتاليون هذه الحقيقة بسرعة، وبدءوا في فتح رودس؛ لكن دي مولى كان ما يزال يعتقد أن مستقبل جماعته يكمن في الأراضى المقدسة. وقرر أن يبقى فرسان الهيكل في قبرص إلى أن يستعيدوا جزءًا ما من الأرض الأصلية.

وتم وضع خطوط علاقة عمل مع هنرى، واحتفل هو وفرسان الهيكل في قبرص بعام ١٣٠٠ بشن غارات على الخطوط الساحلية السورية والمصرية. وحسب تقدير دى مولى، لم تكن هذه الغارات أكثر من الواجب الذى يجب أن يقوم به فرسان الهيكل؛ غير أن الغارات كانت فاشلة بشكل هزلى، ففرسان الهيكل ليسوا بشرا متفوقين على سائر البشر. وبون مساعدة من الغرب، أصبح مذهب الحرب بلا هوادة مذهبا عبثيا؛ ومع ذلك استمر المعلم الجديد في سياسته العدوانية. لكنها كانت موجهة فقط ضد المسلمين في الأراضي المقدسة. ذلك أنه في أواخر عام ١٣٠٢، قاتلت حامية رواد صغيرة معركة بحرية ضد أسطول من أساطيل المسلمين، وهزم فرسان الهيكل هزيمة ساحقة. وبعد ذلك فر الناجون بسرعة إلى قبرص؛ وكانت هذه المعركة هي آخر عمل حربي يقوم به فرسان الهيكل.

فى أثناء ذلك بحث فرسان الهيكل دون جدوى عن الإصلاحات التى توقعوها. أما الإسبتاليون، الذين كانت منظمتهم صعبة الإدارة بسبب حجمها مثلهم مثل فرسان الهيكل، فقد عرفوا الطريق إلى البقاء: كل ما كانوا يحتاجونه هو تغيير فى التركيب أو الهيكل، مصحوبا باستمرارية فى الوظيفة. ذلك أنه بعد ضبياع الأراضى المقدسة، كان على الجماعتين العسكريتين كى يدعوا الحق فى الوجود، أن يبرروا أطرهم الداخلية المريكة، وأن يستمروا فى نفس الوقت فى القيام بدورهم التقليدى الذى أقسموا على القيام بدورهم التقليدى الذى أقسموا على القيام به وهو قتال الكفار، لم يكونوا ليفكروا فى الأمر بهذه الطريقة، غير أن الإسبتاليين فهموا المسار الضرورى وعملوا بناء عليه؛ كانت جماعتهم منقسمة إلى ثادت أمم أو لغات، كل منها كانت لها مسئوليات محددة، وبعد فتح رودس، جزيرتهم

الجديدة ومركزهم، أصبحوا نوعًا من الشرطة البحرية الجديدة، إذ إنهم حافظوا على ممرات البحر المتوسط البحرية خالية من القراصنة المسلمين، وجعلت التقسيمات الهيكلية جماعتهم ككل أكثر مرونة، وأقل ثقلا؛ وكانت بؤرة العمل هي الاحتفاظ بالماضي والحاضر.

قصارى القول إن الإسبتاليين حدثوا جماعتهم؛ وتغيروا كي يغوا باحتياجات عالم متغير. أما فرسان الهيكل فلم يفعلوا ذلك. وكانت "الإصلاحات" الوحيدة التي أدخلها دى مولى هي أن يذكر إخوانه في كل اجتماع عام بما أقسموه من إيمان بالطاعة التامة له وأن يحضهم على الاقتصاد كلما كان ذلك ممكنا. وتحت قيادته، اتبع فرسان الهيكل طريقة مغايرة تماما لما اتبعه الإسبتاليون: وأصبح تركيب أو بنية أكثر صرامة وأكثر ارتباكا من أي وقت مضي، ومع ازدهار عملياتهم البنكية، بدا أنهم ينسون مهنتهم الأصلية.

إن الفرق المثير بين كلمات دى مولى كفارس عادى وأفعاله كمعلم يرجع إلى سبب بسيط وإنسانى: هو أنه لم يكن يتمتع بذكاء خاص، وقد نبعت الانتقادات التى كان يوجهها فى شبابه وحين كان فى منتصف العمر من الافتقار إلى الخيال، وضيق فى الشخصية منعه من تفهم المشكلات التى كان يواجهها معلمه، وحين أصبح هو نفسه معلما، اكتشف بعد فوات الأوان كيف أنه من الأسهل توجيه النقد عن التصرف بشكل بناء، والآن بدأ يقول علنا إن دى بوجى الذى كان يمقت سلوكه، لم يكن فى وسعه أن يفعل أفضيل مما فعل فى ظل هذه الظروف، لكن فهمه لخمس عشرة أو عشرين أو ثلاثين سنة سبقت، لم يساعده على تناول المشكلات الجدية تناولا أو عشرين أو ثلاثين سنة سبقت، لم يساعده على تناول المشكلات الجدية تناولا فعالا، بل أنه فعل العكس، ذلك أن قدرته على التفهم التخيلي تناقصت بدلا من أن محافظة وتعصب.

كان هذا إذن، هو الرجل الذي استدعاه البابا كليمينت الخامس إلى أوربا عام ١٣٠٦: رجل مسن قديم الطراز، قضى كل حياته كإنسان بالغ في الخدمة

العسكرية؛ رجل يملك أفكارا بسيطة، وضيق الأفق، يعجز تقريبا عن التفكير المعقد الراقي؛ رجل لم ير حاجة كبيرة إلى تغيير التنظيم الذي يقوده، وإصلاحاته محدودة عند اقتصادات الطعام، والطلب الانضباطي للطاعة. وحين وصل جاك دي مولى إلى أوربا في أواخر ١٣٠٦ أو أوائل ١٣٠٧ لم يكن بالتأكيد بعتبر أن ثمة شبئا ما خطأ في الجماعة التي يتحكم فيها أن في الطريقة التي يتحكم بها، وكان ذهنه منشخلا بالمشكلات التي كان إخوانه يواجهونها في وسط وشرق البحر المتوسط - ووضعهم غير المرضى في قبرص، والصعوبات التي يواجهونها مع الفينيسيين والجنوبين المحاربين، والاستحالة الظاهرة في استعادة أي جزء من الأراضي المقدسة. ولم يستطع إيجاد أي طريقة للالتفاف على هذه المتاعب، ولكن كانت لديه عدة معتقدات ثابتة - وهي، أن أي شيء تفعله الجماعة ككل صحيح؛ وأنه، بشكل ما، إن عاجلا أو أجلاء سوف يعودون إلى الأراضى المقدسة، وأنه حتى ذلك الحين يجب أن يستمروا كما هم. ولم يدر في خلده أن من هم خارج الجماعة ربما يعتقبون أن فرسان الهيكل فقنوا الاتجاه. ومن الممكن أن يرفض بشدة أن جماعته قد نسبت فن الحرب، ولا تتكون إلا من ماليين طفيليين؛ وإذا ما نكره أحد بموعظة المسيح على الجبل – لا تجعل لنفسك كنورًا على الأرض حيث يفسدها السوس والصدأ، وحيث بسرقها اللصوص، لم يكن ليرى أي مغزى شخصي في النص على الإطلاق.

كانت التعليمات لدى مولى هى أن يحضر إلى أوربا دون إعلان شخصيته وبحاشية تتكون من أقل عدد ممكن ولم يعط سببا لذلك؛ ربما اعتقد كليمينت أنه لو علم أحد جيوش المسلمين أن معلم الهيكل غائب، عن قبرص قد يتجرؤ بالهجوم على الجزيرة. أما دى مولى فكان يفكر على نحو مغاير. لذا حين وصل إلى فرنسا، أحضر معه ستين فارسا وكمية هائلة من الذهب والحلى. فأصبح موكب المحاربين الملتحين، ودروعهم مغطاة بالعباءة البيضاء والصليب الأحمر على الفور معروفا للجميع، وبدا أن وضوحه كان مقصودا، وهو استعراض واع لقرة الجماعة المعروفة،

لقد كان كليمينت في بواتيي، ودي مولى الذي كان واثقا من أن يستقبله البابا استقبالا جيدا، ذهب إلى باريس أولاء علما منه بأن دعم الملك سيكون جوهريا إذا كان الحرب الصليبية المقترحة أن تحدث. وبعد أن أمن الفرسان والكنوز في هيكل باريس، تقدم نحو البلاط الملكي، ومن المحتمل أن تكون هذه هي أول مرة يلتقي فيها المعلم والملك، ولكن كانت لدي كل من الرجلين فكرة واضحة عن الآخر. ذلك أنه منذ سنوات، من المحتمل أن يكون دي مولى قد التقي بالقديس لويس جد الملك، الذي لم يعرفه فيليب نفسه. والأن في ربيع ١٣٠٧ حين كان دي مولى يجلس أمام الملك الشاب الوسيم، لا بد أنه ذهل من أوجه الشبه العائلية الظاهرة، من حيث جمال وورع آل كابي من الملوك؛ وربما يكون قد غرق في بعض الذكريات، وهو يتحدث بمعرفة وفيرة عن عصره ومكانته وخبرته عن الأيام الخوالي – ربما مع مقارنة غير حكيمة مع الحاضر.

وكان يعرف افتقار الملك المستمر المال وعلى الرغم من ذلك، يحتفظ بهذا الصجم من البلاط؛ لا بد أنه تذكر كيف أشام فيليب وحاشيته في هيكل باريس منذ خمس سنوات، واستهلكوا في تسعة أيام ثمانمائة وستة أرطال من الخبز وألفين وسبع وسبعين لمراً من النبيذ – بالنسبة المعلم المقتر، مثل هذا الاستهلاك وحين لا يمكن ضبط الدفاتر، يبدو شديد الإسراف. وكان من المكن أيضنًا أن يعرف مدى الكفاءة القاسية التي يمكن أن يكون فيليب عليها – ذلك أن اليهود كانوا قد طردوا قبل ذلك ببضعة أشهر – واكن لا يبدو أن هذا الجانب الأساسي من شخصية فيليب كان يعنيه على الإطلاق.

وقد استقبل فيليب بدوره الفارس المسن بالتكريم اللائق بأمير ذى سيادة، ذلك أنه يعلم أن دى مولى من حيث المولد ومن حيث عضبويته للهيكل، ليس تابعا له. كما كان يعلم أن دى مولى يقف فى طريق تنفيذ جميع خططه، ولا توجد طريقة قانونية لكبح الرجل العجوز. كما كان على وعى بالدور الذى لعبه دى مولى فى انتخاب البابا بونيفاس الثامن، وأن أموال الهيكل ساعدت الإنجليز والقلمنكيين تماما كما ساعدت الفرنسيين. ولا بد أنه أدرك بسرعة أنه رجل شديد السذاجة على الرغم من سنه

وخبرته، يقبل كل شيء على ظاهره، وحين استفسر عن أحوال الجماعة في الوقت الحاضر، سأل عما إذا كان كل شيء كما يجب أن يكون؛ وأقر دي مولى بهدوء أنها ليست كذلك، وقال في اعترافه إن عدة إخوان كشفوا عن أخطاء في السلوك، وعن لحظات قصروا فيها في اتباع الميثاق، ولم يكن هذا الاعتراف أكثر من التعليق الأسيف لرجل منضبط قديم يتناول انضباط يقصر عن الكمال؛ غير أن فيليب وجد أن هذا الاعتراف له أهمية كبيرة.

وكان لدى دى مولى وفيليب معرفة مشتركة تجلت في رامون لول، الصوفي الإسباني. ذلك أنه كان قد زار قبرص عام ١٣٠٢، ومنذ ذلك الوقِّت نشر كتابه الذي تحدث فيه عن خطط لحرب صليبية للتبشير تحت قيادة "الملك المحارب". ومن المكن أنه في هذا اللقاء الأول، أن يكون الملك والمعلم تحدثًا عن هذه المقترحات؛ وربما عُرضَ على دى مولى كتاب جديد، عنوانه 'بخصوص استرداد الأراضي المقدسة". كتبه بيير دي بواً، وهو عضو غير رسمي في فريق المحامين العاملين لدي فيليب، وزميل اويليام دي نوجاري. وقد اتخذ من اقتراح لول نقطة انطلاق، وتوسع في التفاصيل، وبعضها واقعى والبعض الآخر طويائي مثالي من أجل حرب صليبية، لكن القصد الحقيقي منه كان يكمن تحت هذا القطاء، وهو ليس أقل من هيمنة لآل كبي على العالم. كان من المكن أن يكون ذلك واضحها حتى لدى مولى؛ ومع ذلك، إذا رأى الكتاب في ذلك الوقت، فلم يحمله على محمل الجد مطلقاً . وانتهت المقابلة على نصق مرض لكلا الرجلين. ذلك أن فيليب علم معظم ما كان يريد معرفته، وانتقل دي مولى جنوبا إلى بواتيي، وهو يعتقد أنه لا يوجد ما يعكر صفو العلاقة الطيبة بين الهيكل والملك، وأن هذه العلاقات كانت طيبة لأكثر من قرن - من ١١٩٠ إلى ١٢٩٦ - إذ إن الخزانة الملكية الفرنسية كانت تقبم في هيكل باريس، وحين نقل فيليب خزانة الدولة إلى قصر اللوفر الخاص به، ترك أموال بيته في أيدي فرسان الهيكل. وتمتع الإخوان بالإعفاء تقريباً مِن كل قيد قانوني، وحتى عام ١٣٠٤ كان فيليب قد ثبت جميع حقوقهم، وأضاف إلى هذا التثبيت الوعد بأن "القضاء الدنيوي العلماني لن يحتجن منقولات الجماعة وإن تبدد ممتلكاتهم غير المنقولة أو تدمر".

وثمة رجل وأحد له دور مركزى فى الحفاظ على هذه العلاقات الجيدة: هو الأخ هيو دى بيرو، الذى كان فى عام ١٣٠٧ أمين خزانة الهيكل، والذى عينه فيليب متلقيًا ووصيبًا على العوائد الملكية. ودى بيرو هذا الذى كان يتمتع بعلاقة حميمة مع البلاط الفرنسى، كان فى وقت من الأوقات يصبو إلى أن يكون معلما للهيكل. وحين تم تخطيه لصالح دى مولى، اعتقد أن دى مولى لم يفز بالانتخاب إلا عن طريق الدسائس. وكان الرجلان من نفس السن تقريبا، وكانا متصلبين كل على طريقته. ومنذ خيبة الرجاء التى لحقت بيرو، كان فى الظاهر يطيع دى مولى؛ لكنه سرا كان يمثل القانون بالنسبة له. وفى ١٠ أغسطس ١٣٠٣ وقع على اتفاقية خاصة مع فيليب، اتفاقية تتعلق بالدفاع المتبادل والتأييد فى جميع الأوقات، على الأخص فى المعركة ضد البايا بونيفاس الثامن – البابا الذى ساعد دى مولى على انتخابه، والذى كان فيليب يلاحقه

وبون أن يعلم بذلك، وصل دى مولى إلى بواتيى فى نهاية مايو، وبدأ البابا الجديد خليفة غير ملهم وغير مرض بعد بونيغاس وبينيديكت اللذين كانا ينفثان النار. لقد تدرب كليمينت فى القانون الكنسى والقانون الرومانى وقبل انتخابه لتولى البابوية كان دبلوماسيا بابويا. ذلك أنه رجل اعتاد على الحلول الوسط، وهذا بالنسبة لدى مولى يعد علامة على الضعف، والتنبذب؛ وحين التقى المعلم بسيده الجديد لأول مرة، كان كليمينت رجلا قلقا خائفا. فعلى مدى تسعة عشر شهرا من بابويته كان قد خضع مرة تلو مرة لضغوط فيليب. فلقد برأ الملك من خطيئة ابتزاز المال من الكنييسة؛ وأعاد الكرادلة الذين فصلهم بونيفاس؛ ونصب عشرة كرادلة جدد، تسعة منهم فرنسيين؛ ومنع الفلمنكيين من التمرد ضد فيليب؛ ووافق على ألا يلزم فيليب أو أى من نسله بقسم لحرب صليبية إذا ما تطلبت سلامة المملكة ذلك. ولم يكن هناك سوى أمرين قاوم فيهما فيليب: تبرئة دى نوجارى، ومحاكمة بونيفاس بعد وفاته.

وإذا كان فيليب لم يصر على هاتين النقطتين، فما ذاك إلا لأنه كان يركز طاقاته في أمر آخر. قبل ذلك بيضعة أسابيع حدث لقاء عاصف بين كليمينت وفيليب، أبلغ فيه الملك البابا الذي عقدت الدهشة لسانه عن سلسلة طويلة من الاتهامات البشعة في حق جماعة الهيكل - وهي اتهامات زعم فيليب أنها مقدمة من شهود يعتمد عليهم، والتي، إذا صحت، تكون تهديدا الأوربا كلها، وتهديدا الوجود الكنيسة ذاته. وحتى إن لم تكن صحيحة، فهي شديدة الخطورة حتى أن فيليب يعتقد أنها تستحق تحقيقا كاملا. ومثل هذا التحقيق لا يمكن أن يجرى إلا براعية بابوية، بما أن فرسان الهيكل مسئولون أمام البابا فقط، وفيليب طلب أن يأذن كليمينت بتحقيق أو استقصاء كامل. أما كليمينت فلم يكن راغبا في أن يذعن، جزئيا لأنه لم يستطع أن يحمل نفسه على تصديق مزاعم فيليب. ذلك أنها كانت شديدة الخيال حتى أنه لم يبد أمامه سوى تفسيرين ممكنين: أما أن فرسان الهيكل كانوا جزءًا من الخيانة الكبرى للمسيح منذ قبلة يهوذا، أو أن فيليب المهووس بعرشه "الذي منحه الرب" على وشك الجنون. وفي كلتا الحالتين، إذا ما استسلم كليمينت للملك الظالم، ستكون العواقب مرعبة. وإذا ثبتت التهم، سوف يوضع الخاتم على سلطة فيليب باعتباره "أكثر الملوك مسيحية" والمدافع عن الكنيسة. ولكن إذا برئ الفرسان المقدسون، فماذا بعد؟ سيكون هذا الانتصار انتصارا لهم وليس الكنيسة؛ ويجيوشهم المدربة ومعاقلهم الموجودة في كل مكان، يمكنهم بسهولة شن حرب انتقامية والسخرية من الملك الفرنسي: ويعلم كليمينت أن فيليب إذا ما وضع في الزاوية، يمكنه أن يقاتل بشراسة الفار ومكر الثعلب.

لم ير كليمينت سبيلا لتحاشى وقوع الكارثة؛ وبالنسبة له شخصيا، فإن المحنة أكثر شدة وبترا. فمهما بلغ من كراهيته حاليا لفيليب، فهو مدين للملك بعرشه البابوى؛ وإذا ما خذل فيليب أو انهزم، وإذا ما رفض كليمينت هذه المزاعم باعتبارها هراء، فيمكن إفراغ هذا العرش بنفس المهارة التي تم ملؤه بجها. الخطف، السم؛ كانت ذكريات سلفيه تسبطر على عقله.

ورفض أن يعطى الملك إجابة محددة على الفور، واحتاج ذلك منه قدرًا كبيراً من الشجاعة، وقرر الانتظار إلى أن يتشاور مع معلم الهيكل بشكل شخصي، ومن الممكن

أن فيليب لم يتوقع أكثر من ذلك في هذه المرحلة؛ فهو يعرف حجم كليمينت، وكان أديه هو ومحاموه عمل يجب إتمامه، أذا عاد إلى باريس، واستقبل جاك دى مولى بالفضامة والمراسم دون أية إيماءة تنم عن الشك.

حین رأی کلیمینت دی مولی فی بواتیی، لا بد أنه کان مهتزا أکثر من ذی قبل، لأن المعلم بدا راضيا وسعيدا بوجوده في فرنسا، على عكس تذمره المعتاد، فقد جاء مستعدا بأجوية عن الأسئلة المتعلقة بتوهيد الجماعتين، وشن حرب صليبية ذات أهداف محدودة؛ غير أن كليمينت لم يكن في حالة مزاجية تسمح له بأن يستمم إليها في ذلك المين. وأشبر المعلم بكل ما حدث، فشعر دي مولى بالفضب والإهانة. حتى أقل الأشياء التي زعمها فيليب لم تكن حقيقية، وهي أن نقل الكنز من قبرص يشير إلى أن الجماعة على وشك التخلي عن الشيرق كلية والعمل في أوربا فقط. ومع ذلك، فإن حنق دي مولى لم تكن له فائدة للبابا مع أنه أمر يلقى الترجيب. وما لم يسحب فيليب ادعاءاته، سيكون لا بد من فعل شيء ما؛ لذا عزم كليمينت على الانتظار مرة أخرى، وهو لديه أمل واهن في أن التأخير ودعمه الصريح للجماعة قد يقنعا فيليب بتغيير رأيه. وعاد دي مولى إلى باريس دون أن يقدم أجوبته وهو يشعر بالسيرة أكثر من شعوره بالخوف، وهناك عقد اجتماعًا عامًا. عقد هذا الاجتماع في ٢٤ بولية؛ وكان سرياء كالمعتاد، ولا يوجد تقرير عما قبل أثناءه، ولكن بعد ذلك بوقت قصير، تم إرسال منشور إلى جميم المقار في فرنساء تتكرر فيه القطعة الموجودة في ميثاق فرسان الهيكل التي تمنع أي أخ من التحدث عن طقوس وممارسات الجماعة مع أي شخص خارجها؛ وفي قرابة نفس التوقيت، سمع الأخ هيو دي بيرو، ذلك الشخص الزميل للبلاط الملكي يقول إن أي قارس من فرسان الهيكل لديه سبب يدفعه إلى ترك الجماعة، عليه أن يفعل ذلك بسرعة، لأن مصيبة مخيفة على وشك الوقوع.

عاد دى مولى من باريس إلى بواتيى مرة أخرى، وبدا عليه أنه متأكد من أن إنكاره غير الحاذق المباشر كان كافيا لتبديد أية شكوك. وفي هذه المرة قدم للبابا مذكرتين، كانت الأولى رفضًا مقتضبًا لفكرة دخول حرب صليبية مع القبارمية والأرمن – إذ ليس في وسع القبارصة سوى تقديم جيش صغير، والأرمن لا يعول عليهم، وفوق ذلك، فبعد محاولاته الشخصية في الحروب المحلية، يرى أن الحرب الصليبية المحدودة لن تكون لها فرصة في النجاح الدائم؛ وأن الاندفاعة الكبيرة هي الطريقة الوحيدة لاسترداد الأراضي المقدسة، وفي المناخ الحاضر السياسة في الرأى الأوربي، من غير المحتمل أن يتحقق ذلك في المستقبل القريب.

أما المذكرة الثانية، فقد تناولت مسالة توحيد الجماعتين، وكان يشعر بأن هذا غير مرغوب فيه تماما مثل القيام بهجوم محدود، واستفاض في شرح أسبابه. وتذكر أول مرة قدم فيها هذا الاقتراح، في عام ١٧٤٧، وذكر كيف أن رفضه كان حينئذ يرجع إلى معارضة ملك إسبانيا. وقال إنه، الآن، لا يرى سوى نقطتين في صالحه: من المُؤكد أنه يمكن تفعيل الاقتصادات ذات الوزن، وأن الجماعة المندسجة يمكن أن تكون قوية جدا حتى أنها تستطيع مقاومة أي تدخل علماني أيا كان. ومع ذلك، فإن النقاط التي لا تحبيد الاتحاد عديدة جدا. كان هناك جانب روحي؛ إذ لا يكون من الصواب إجبار رجل اختار طريقة معينة في المياة أن يتخلى عنها من أجل طريقة أخرى. وهناك الجانب الإنساني؛ وقال من المعروف أن فرسان الهيكل أكثر شجاعة، من الإسبتاليين، وإذا أجبرت الجماعتان على الاتحاد، من السهل أن يبدأ في قتال بعضهما بعضاء غيرة منهما على سمعتهما. وهناك الجانب الإداري؛ لأن الاتحاد سوف يعني ملء المناصب الرسمية مرتين، وسئال كيف يقرر أي الرجلين سوف يبقي، وأيهما تخفض برجته؟ وكان مضمون ما يقوله أنه، شخصيًا، من المؤكد أنه أن يتخلى عن منصبه عن طيب خاطر. ثم هناك مشكلة ازبواج الملكية؛ لأنه إذا كانت الجماعتين بور في مدينة واحدة، سيكون على شخص ما أن يقرر إن كان أحد الدور أو دار آخر سوف يتم إغلاقه، أو إذا كان سيتم الاحتفاظ بالاثنين. لقدَّ كانت مثل هذه التغييرات البالغة القوة بعيدة عن فهم الرجل المجوز. ومن الواضح والطبيعي أنه كان ضدها منذ البداية، ولا يبدو أنه فكر مليا في صبياغة مذكرته؛ ذلك إننا إذا سلمنا بأن جميع تعليقاته كانت دقيقة في حدودها، فليس من الحكمة الإقرار بأن جند المسيح

يمكن أن يكونوا من التفاهة بحيث يقتل بعضهم بعضا غيرة منهم على إمارات الشرف الدنيوى، أو أنه هو نفسه متكبر الغاية حتى أنه لا يقبل التخلى عن مكانته الشخص أخر. لكن الجواب قد أعطى، وقبله كليمينت؛ وبعد ذلك بقليل، تم إرسال نسخ من الذكرة إلى الملك فيليب.

كان كل شيء هادئًا لبضعة أسابيع. وكان كليمينت يصد مطالبات فيليب المستمرة من أجل إجراء تحقيق؛ وفي ٢ أغسطس، وردا على طلب من فرسان الهيكل الإنجلين، أرسل مرسوما بابويا إلى إدوارد الأول، يعفيهم فيه من عشور فرضها الملك الإنجليزي. وليس هذا فحسب، بل أن كليمينت أشار إلى فرسان الهيكل بإنهم 'أبناؤه الأعز" ووصفهم بأنهم فرسان المسيح الشجعان، إنهم رجال اعتادوا على تحمل كل خطر دفاعًا عن الأماكن المقدسة في البلاد المسيحية.

كان رأيه واضحًا، وكان يمكنه الاستمرار في استراتيجية المقاومة السلبية، إلى أن يجبر فيليب على التغير بطريقة أو أخرى – وكان ذلك ممكنا لولا أن دى مولى قام بالتحرك التالى.

إن إحساس الشخص بأنه يقع تحت شك خفى، فى حين لم يقل أو يفعل أى شىء صريح، كان أكثر من تجمل المعلم. فقام بزيارة أخرى البابا، وفى ٢٤ أغسطس كتب كليمينت رسالة تعسة إلى الملك فيليب. إذ إن جاك دى مولى قد نال ما يكفيه من الأكاذيب المهموسة والافتراءات؛ وإذا كانت هناك اتهامات ضد جماعته، فيجب أن تقال في العلن. وهذا السلوك السرى الضفى لا يطاق. ذلك أن دى مولى كان على ثقة من أن أية اتهامات لا أساس لها، ويمكن إثبات خطئها، وتتم تبرئة الجماعة؛ فطلب تحقيقا رسميا. إذ قال كليمينت للملك "هناك الكثير مما يبدى مستحيلا، حتى إننا لا نصدقه".

وبعد ذلك بثلاثة أسابيع بالضبط، في ١٤ سبتمبر، كان فيليب في دير موپويسوين بالقرب من بونتواز، على بعد بضعة كيلومترات شمال باريس، ومن هناك أصدر تقويضا إلى جميع نظار الأراضى التابعين له، وحكام الأقاليم، والمندوبين وغيرهم من المسئولين، في أنحاء المملكة. وتم وضع الخاتم على التقويض، وحمل تعليمات بألا يتم فتحه حتى ليلة ١٢ أكتوبر. وفي ٢٣ سبتمبر، بعد صدور التقويض بتسعة أيام، أعطى فيليب لدى نوجارى منصبا جديدا. كان ما يزال محامى المملكة الأول؛ لكنه كان ما يزال محروما من الكنيسة، والآن أصبح أيضا مستشار فرنسا؛ وحارس خاتم الملك إنه شخص مبعد عن الكنيسة يحتل أعلى منصب في المملكة، يلى الملك من حيث السلطة. وفي أوائل أكتوبر، توفيت زوجة أخ الملك فيليب، كترين دى فالوا، وتمت جنازتها، وهي مناسبة تخص الدولة، في ١٢ أكتوبر، منح معلم الهيكل الشرف الرمزي بئن يكون أحد حاملي كفنها؛ وعند الفجر في اليوم التالي – الجمعة ١٣ أكتوبر – قام رجال الملك بالقبض عليه وجميع فرسان الهيكل الأخرين [الخمسة آلاف] في طول فرنسا وعرضها.

الجزءالسادس

المحاكمات ١٣١٧-١٣١٤

الفصل الخامس عشر

ابتداع البراءة فرنسيا. ١٤ أكتوبر ١٣٠٧. ٧ أبريل ١٣١٠

نسانك يخترع المفاسد؛ كموسى مسنونة يعمل بالغش.

مزمور ۲۵، ۲

في بداية القرن الرابع عشر كانت جامعة باريس شهيرة في أنحاء أوربا بوصفها مركزاً للعلم والجدال العميق، وكانت مكانا يتم فيه تحليل مسائل اللاهوت والسياسة والقانون والإجابة عنها – ولم يكن ذلك بطريقة نظرية، وإنما بتطبيقات عملية في حياة الناس اليومية.

وكان الملوك ورجال الدولة والكنيسة يذهبون إلى هناك لطلب المشورة في أمور بالغة الأهمية. وكان الأكاديميون يعطون تفسيراتهم لكلمات الكتاب المقدس، وأراهم في مشكلات الدولة أو الدبلوماسية، ودعمهم للقوانين الجديدة إذا رأوا أنها صحيحة، ودون هذا الدعم لم تكن لتشريعات الدولة أو الكنيسة أي فرصة في القبول أو البقاء، ولهذا السبب، ففي يوم السبت ١٤ أكتوبر ١٣٠٧، استدعي ويليام دى نوجارى كبار أعضاء الجامعة إلى اجتماع في حجرة الاجتماعات في كتدرائية نوتر دام. تم اختيار الموقع اختيارا جيدا، بحيث يعطى تأكيدا على الطبيعة المقدسة للحديث الذي أعده؛ لأن غرض دى نوجارى أمام هؤلاء العلماء والمختصين في الشئون الدينية والدنيوية، هو غرض دى نوجارى أمام هؤلاء العلماء والمختصين في الشئون الدينية والدنيوية، هو

الإعلان عن أن جماعة فرسان الهيكل جميعا من المبتدعين، والفاسدين. ذلك أن القبض على فرسان الهيكل في الليلة السابقة أحدث صدمة ودهشة لدى الجميع في فرنسا، وصارت العملية كلها تقريبًا دون خدش؛ ومن بين خمسة آلاف من فرسان الهيكل، لم يتمكن سوى عشرين تقريبا من تجنب الاعتقال، ووضع كل من ألقى القبض عليه في حجز انفرادى؛ ولم يكونوا قادرين على الاتصال بإخوانهم أو أصدقائهم أو أقاربهم أو أي شخص من ذلك العالم الذي انتشلوا منه. إذ إن السرية كانت تامة؛ وجرى العمل في نفس الوقت في أنحاء الملكة. ولا بد أن دى نوجارى كان يشعر بالاعتزان والرضا عن كفاءة قدرته التنظيمية. أما بالنسبة لغيره فقد كانت مبهرة على نحو يثير الرعب. إذ يصعب تحدى مثل هذا العمل الكبير الرهيب من حيث مهارته، خاصة كحقيقة مؤكدة؛ ولكن ما لم يتم فعل شيء أخر، فإن دى نوجارى والملك فيليب كانا يعلمان أن الانتقاد سرعان ما يحدث حين ينوى أثر الصدمة، سيما وأن فرسان يعلمان أن الانتقاد سرعان ما يحدث حين ينوى أثر الصدمة، سيما وأن فرسان عقرق الحصانة الكنسية، فكانت مهمة دى نوجارى هي إثبات أنهم لا يستحقون هذا الحق أو أي حق غيره.

حين كان يقف أمام تجمع الأكاديميين، لم تكن لديه أية توجسات؛ فبعد أن أثار الفزع في قلوبهم، كان على ثقة من أنه سوف يستطيع التغرير بعقولهم، لأنه كان بارعا في استخدام اللغة. وهو الذي كتب تغريض موبويسون، مع أن فيليب هو من وقعه؛ وكل كلمة في هذا التفويض قصد منها وضع فرسان الهيكل في وضع لا يستحقون معه أي تعاطف إنساني من الناحبة الروجية أو الأخلاقية.

كانت بداية التفويض تقول: "بفضل تقارير عدة أشخاص جديرين بالثقة وصل إلى أسماعنا، شيء بشيء بشيء يثير الأسي، شيء يثير الرعب عند التفكير فيه، والرهبة عند سماعه إنها جريمة مقيتة، وشر شنيع، وعمل بشع، وعار يثير الاشمئزاز، شيء لا يكاد أن يكون إنسانيًا، بل هو غريب عن البشرية جميعا، دهمنا بعنف، وجعلنا نرتعد رعبا". بالنسبة للبسطاء، من أمثال حكام الأقاليم، ونظار الزراعة، في الملكة، وهم يقرون مثل هذا النص في الساعات المظلمة من صباح اليوم الثالث عشر لا بد أن ذلك بدا نذيرا بقضاء إلهي، وكشف رهيب لخطايا خفية. ولم يتناول الأمر أشباحا أو عفاريت، أو كوابيس تخيف الأطفال، بل تناول أناسا يعرفونهم، أناسا في قريتهم أو مدينتهم؛ لذا حين شجعهم ضوء النهار، انطلقوا في الفجر بشجاعة وإحساس بالحق كي يلقوا القبض على جيرانهم، فرسان وخدم الهيكل، وهم مسلحون بعلمهم بأن هؤلاء الرجال قد اقترفوا أبشع الأعمال التي يمكن تخيلها في حق المسيح والرب، ولدي دخولهم الهيكل، كان كل فرد في الإخوان قد أنكر المسيح ويصق على صورته. وأخنوا يقبل بعضهم بعضا، في الغم، والسرة والأست، وانخرطوا بعد ذلك في مجون من يقبل بعضهم بعضا، في الغم، والسرة والأست، وانخرطوا بعد ذلك في مجون من الجنسية المثلية؛ وأخيرا انحنوا جميعا أمام صنم معبود على هيئة رأس إنسان، وعبدوه كما يعيد الإله.

لم تقع أية مقاومة حين تم القبض على فرسان الهيكل؛ كما لم تكن هناك أية مقاومة في كتدرائية نوتر دام حين كرر دى نوجارى فحوى التفويض على سامعيه من العلماء. إذ لم يكن في وسم رجال الجامعة سوى الإذعان وقبول النبأ في صمت حين أذهلتهم بشاعة الاتهامات؛ وقد أعلن دى نوجارى أن كل شيء سوف يدعم حالا بالاعترافات المعربحة والتلقائية التي يتلقاها رجاله في هذه اللحظة من أكبر المسئولين في الهيكل.

ومر أحد عشر يوما. وفي ٢٥ أكتوبر اجتمع الأكاديميون مرة أخرى، هذه المرة في القاعة الكبرى في هيكل باريس. وتم إحضار خمسة رجال من السجون في أسفل أربعة من فرسان الهيكل، والمعلم جاك دى مولى. وتكلم دى مولى باسم الرب، نيابة عن جميع إخوانه، مستخدمًا اللغة الأم (يقصد الفرنسية وليس اللاتينية: المترجم) حتى يفهم الجميع بوضوح ما يقوله، معترفا بأن جماعته، على الرغم من أنها كانت في وقت من الأوقات نبيلة ومقدسة إلا أن دهاء عدو البشر، الذي يبحث دائما عن ما يستطيع أن يلتهمه، أدت به إلى أن يسقط في الضياع، حتى أنه منذ وقت طويل أنكر

من استقبلوا في الجماعة سيدنا يسوع المسيح، فأدينا، لدى استقبالهم، دون أن يحزنوا على فقد نفوسهم وبصغوا على الصليب مع تمثال صغير ليسوع المسيح ... ازدراء له، وارتكبوا في الاستقبال السابق ذكره فظائع أخرى بنفس الطريقة".

وأضاف "برحمة الله، قد ظهرت هذه الأشياء في العلن، عن طريق أكثر الملوك مسيحية الملك فيليب، وكيل النور، الذي لا يخفى عليه شيء". ورجا سامعيه بأن يتوسطوا لدى الملك والبابا كي يتم العفو عنه هو ورجاله الأشرار النادمون، من خطاياهم ويتحملوا عدالة الكنيسة.

وأحس العلماء الموجودون في الهيكل، ثم بعد ذلك جميع الناس في أنحاء فرنسا بالاشمئزاز والخوف، والاختناق النفسي بمجرد التفكير في التحول الذي يجرى حولهم حين استمعوا للاعترافات وهم في حالة من الدهشة.

وكتب دى مولى خطابا مفتوحا إلى إخوانه، وأصدر إليهم التعليمات بأن يعترفوا بجميع ممارساتهم الشريرة كما فعل هو؛ وتدفقت الاعترافات. وفي خلال أيام قليلة تم الإدلاء بشمان وثلاثين اعترافًا في باريس وحدها، وما يربو على المائة في الأسابيع القليلة التالية. وتكرر هذا النمط في كل مكان، مع إقرار الفرسان، والرقباء والإخوة الخدم والكهنة بالفساد والذنب. وقام هيو دى بيرو، أمين خزانة الهيكل بالإدلاء بأكثر الاعترافات جميعًا شمولا، لأنه لم يمر فقط بالاستقبال الدنس، ولكنه هو نفسه استقبل الكثرين في الجماعة بالطريقة نفسها؛ وأنه "رأى وأمسك وعبد وثنا" على هيئة رأس، إنه وثن جلب على فرسان الهيكل كل ما تمتعوا به من قوة دنيوية، وثراء مما جعل الأشجار تزهر وأن تكون الأرض خصبة، وتجلب الموت لأعدائهم. فكتب الملك فيليب سلسلة من الرسائل إلى ملوك البلاان المجاورة "كي يستيقظوا من أجل العقيدة" سلسلة من الرسائل إلى ملوك البلاان المجاورة "كي يستيقظوا من أجل العقيدة" وأخطرهم بسير الأحداث، أن كل ما قبل عن فرسان الهيكل حقيقي؛ ولا بد أن يكون وأخطرهم بسير الأحداث، أن كل ما قبل عن فرسان الهيكل حقيقي؛ ولا بد أن يكون كذلك، لأن الناس لن يعترفوا بأشياء لم يفعلوها، ولا شك في أنه في نحو الشهر التالي سيتم إكمال العملية غير المستساغة وإن كانت ضرورية، ويتم التنديد بالجماعة وحلها، معا يربح جميع الأطراف المعنية – بما في ذلك فرسان الهيكل أنفسهم، لأنهم لعنوا مما يربح جميع الأطراف المعنية – بما في ذلك فرسان الهيكل أنفسهم، لأنهم لعنوا

أنفسهم، وهم الآن بكل تواضع يسعون إلى الندم، والعفو والصلح مع الكنيسة. ومن سوء طالع فيليب أن جيرانه من الملوك لم يصدقوا أنه يقول الحقيقة. إذ إنه قد يكون حفيد أحد القديسين، ولكن الجميع كانوا يعلمون الطريقة التي حكم بها حتى الأن -فقد حكم عن طريق الحرب، والضرائب الخشنة، وكثرة تخفيض قيمة العملة؛ وكان الاختطاف الذي وقع في أنانبي معروفا للجميع وكذلك نفوذ فيليب في انتخاب البابا كليمينت. باستثناء تلك العوامل، كان سبب اعتراف فرسان الهيكل المذهل واضحا؛ ذلك أن كل شخص في البلاد المسيحية كان يعرف محاكم التفتيش، وتصادف أن كاهن الاعتراف لدى فيليب قاضي التفتيش العام في فرنسا. ومحاكم التفتيش – أو لنذكر اسمها ولقبها الأكثر رسمية وتشخيصنا، المكتب المقدس - كانت محكمة في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية من أجل الكشف عن الابتداع وقمعه وعقابه، وعدم الإيمان وغير ذلك من المخالفات التي ترتكب في حق الدين. وتم إنشاؤها كمحكمة دائمة عام ١٣٤٨ بواسطة البابا أنوسينت الرابع، وكان النومينيكان يقومون دائما بإدارتها، وسرعان ما أعطاهم تطبيقهم القاسي لطرقها المقررة رسميا اسمًا جديدًا يلعب على اسمهم القديم؛ فأصبحوا يسمون "كلاب الرب" (بالترجمة اللاتنية للاسم الذي به التورية: المترجم).

لا يوجد الكثير من الابتكارات البشرية مما ينافس المأزق المزدوج التي ابتكرتها محاكم التفتيش. ذلك أن مقدمتها الأساسية هي لم يتهم أحد قط بلا ابتداع دون سبب وجيه، وكل شخص يمكنه أن يتهم كل شخص آخر بالابتداع ما عدا المبتدع المتهم، الذي لا يمكن الثقة به، سواء ثبت ابتداعه أم لم يثبت. فالمتهم مذنب حتى تثبت براءته بدلا من أن يكون بريئا حتى تثبت إدانته؛ لذا كان من النادر جدا أن تثبت براءة شخص يتهم بالابتداع، وأفضل ما يمكن أن يأمل فيه المتهم هو أن يمر بعملية الاعتراف والندم – حتى لو لم يكن لديه ما يعترف به – ويثمل في التصالح تحت تأثير الندم. وقد يكون الندم مجرد دفع غرامة، وقد يذهب إلى حد السجن مع الالتزام بنظام غذائي عبارة عن الماء والخبز. أما المتهمون الذين يرفضون الاعتراف أو يعترفون ثم

يتراجعون في اعترافهم، فإن الكنيسة تحرمهم، ويقدمون للسلطة الدنيوية من أجل توقيع العقاب الزمني الدنيوي، وهذا معناه أن تصادر الدولة ممتلكاتهم؛ ويتم منع ورثتهم لجيلين من تولى المناصب العامة؛ أما هم أنفسهم فيتم إحراقهم، وإذا وأتاهم الحظ، فيتم خنقهم على العمود الخشبي؛ أو يحرقون وهم أحياء.

ومن المستحيل على أي شخص يتهم بالابتداع أن يدافع عن نفسه دفاعًا قانونيًا؛ بسبب افتراض ارتكاب الذنب؛ ذلك أن أي شخص يرتبط به أو بها يصبح تلقائيا محل شك هو أيضنًا. ويكاد الدفاع الوحيد المتاح أمام المتهم هو أن يقدم قائمة بأسماء أعدائه المعروفين، أملا في أن يتفق أحد الأسماء في هذه القائمة مم اسم متهمه. وحتى إذا حدث ذلك، عليه مم ذلك أن يثبت براحه - أي عليه أن يعترف ويتم التصالح؛ وإن لم يعترف لأي سبب، فإن المكتب المقدس يملك السلطة في استخدام طرق عدة لإقناعه بخطئه الذي قد لا يكون له وجود، والطرق الأكثر فظاظة كانت مختلفة. ذلك أن المتهم قد يقيد ببساطة، وتحشر قطعة من القماش في فمه. ثم يصب الماء أما في قطعة القماش، مما يجعلها تنتفخ، أو تصب في فتحات أنفه. قليلا قليلا، وسوف يفرق على أرض جافة. أو يوضع في حفرة لا تتسم إلا له بالعرض، ويترك ليجوع حتى يفهم ويقر بما ارتكب من ابتداع. وثمة طريقة أكثر تكلفة، وهي أن يوضع في خشبة الشبح ويتم شده وشبحه إلى أن يخرج فخذاه وكتفاه من أماكنها . وقد يوضع ببساطة في حديد، وحول رسفيه وكاحليه ورقبته القيود؛ وقد تلطخ قدماه بالدهن وبتعرض لنار متوهجة؛ أو، إذا كان يتسم بالعناد، يتم وضعه في آلة الإسقاط. كان هذا الاختراع القبيح بيساطة عبارة عن حيل وبكرة سير، وكان ذراعا الضمية ترضع خلف ظهره ويقيد معصماه معا. وفي هذا الوضع، يتم رفعه إلى أعلى ارتفاع ممكن في الهواء. ثم يتم إرخاء الحبل بحيث يسقط مندفعا نحو الأرض؛ لكن يتم إيقاف السقوط قبل أن يضرب الأرض، بحيث يقم أكبر قدر من الضغط على كتفيه وذراعيه. ويوجد تعديل الهتياري على هذا بتعليق أثقال من كاحلى المبتدع المفترض أو سرته، أو من أعضائه التناسلية إذا كان رجلا. كانت جميع هذه الطرق وغيرها تستخدم لانتزاع اعترافات من فرسيان المبكل المسجونين في فرنسا. ولكن لم تكن جميع أنواع التعذيب بمثل هذه الفظاظة؛ ذلك أن دى نوجاري ومعاونيه طوروا المزيد من الطرق الأكثر تعقيدا، أقرب إلى طرق التصفيق "المديث." إذ يتعرض الضحية إلى أسئلة لا تتوقف عن طريق تتابع من الرجال المدربين على القيام بأداء هذا الفن؛ ويتم تشويه الأجوية، ويمنم الضحية من النوم، أو التبول أو إفراغ أمعائه؛ ويتم احتجازه انفراديا ويبِلِّغ بأن أي أصدقاء له تم اعتقالهم بنفس الاتهامات قد اعترفوا؛ وحين يبدى علامات على الانهيار يدخل محقق جديد، بأسلوب متعاطف ودي، ويغرى السجين بالاعتراف لمصلحته. وعن طريق التطبيق الحكيم لهذه الطرق الفنية، يمكن جعل أي شخص تقريبا يعترف بأي شيء؛ أما من يتحمل هذه الصنوف من التعذيب حتى الموت، الذي سيكون خرجه الوحيد، فهذا يندر وجوده حقا، وكانت الاعترافات يتم المصول عليها عن طريق الإرهاب فحسب، وذلك يتم عن طريق عرض آلات التعذيب على المتهم. وقد يجبر على مشاهدة تعذيب منهم أخر؛ وإذا لم يكن ذلك كافياء يمكن تحقيق النتيجة المرغوبة عن طريق تعذيبه تعذيبا مؤلمًا. وفي بعض الحالات، يعتقد أنه من غير الملائم سياسيًا أن تظهر على المسجونين جروح بادية العيان؛ عندئذ، يتم استخدام الطرق الأكثر دهاء، فيقر الضحية، بسبب ما يتعرض إليه من ألم ويحرم من احتياجاته كمخلوق، بأي ذنب ينسب إليه، – ويصدق أنه مذنب.

إن كلمة غسيل المخ تعد من ألفاظ عصرتا؛ غير أن طرقها الفنية، والظاهرة في حد ذاتها قديمة، وهي ابن السفاح الذي أنجبه المكتب المقدس. وهنا يكمن الفزع الأعمق من محاكم التفتيش؛ لأن من أمروا بعمل هذه الأشياء، إن لم نقل من نفذوها، قد أمروا بها باسم المسيح، وحبا في الله، وإيمانا منهم بكل إخلاص أنهم، وحدهم، على صدواب وأن أفعالهم مسيحية، وكانت من أجل صالح نفوس ضحاياهم، لقد أعلن أحد فرسان الهيكل بعد أن اعترف أن من عذبوه كانوا في حالة من السكر التام؛ وربما يكون في حالة من السكر التام؛

انسانية على الإطلاق. كما تعد كلمات أخ آخر، في قرابة الخمسين من عمره، مثالا على الهزيمة الروحية التامة، والذل الذي تسببه هذه التجارب في أي شخص عادي؛ ذلك أنه قال: "آه، إن الأخطاء التي نسبت للجماعة حقيقية، وأنه (يمكن أن يعترف بذلك)، قبتل الرب، إذا طلب منه ذلك". أي شيء - فقط توقيفوا، ودعوني أعيش، من الجائز أن تكون الطرق التي استخدمت مع دي مولى لإقناعه بأن يدلى باعترافه الأولى من النوع الأكثر دهاء وعمقًا، لكن اعترافه لم يكن ناقصا بأي حال، وعلى ما يبدو ليس أقل إخلاصًا، بسبب هذه الطريقة. غير أن الدعم والتقبل السهل الذي توقعه فيليب من الملوك الآخرين لم يظهر. ذلك أن إجابات جيمز ملك أرجون، وإدوارد ملك إنجلترا على الرسائل التي بعث بها فيليب محفوظة؛ وكلا الملكين - وعلى الأخص جيمز، الذي تمت في بلاده أعمال إحراق الناس وهم أحياء أو قانون العقيدة، وهو أبلغ مظهر لقسوة محاكم التفتيش - هذا الملك كان يعرف المكتب المقدس معرفة جيدة ولم يكن أي منهما يميل إلى تصديق الافتراءات التي قيات عن فرسان الهيكل، حتى حين دعمت ظاهريا بلا اعترافات. إذ كتب إدوارد ببساطة أنه يجد أن هذه الاتهامات "أكثر مما يمكنه تصديقه" أما جيمز فبعد أن عبر عن "ليس فقط الدهشة والقلق" أضاف "أن هؤلاء الرهبان كثيرا ما قدموا خدمات عظيمة ومطلوبة لأجدادنا في رفعة العقيدة وقمع أعداء الصليب، ولم يخشوا نزيف الدماء أو الموت، ومات منهم كشيرون ... ولأن الكنيسة لم تطلب منا ذلك، ولم بالاحظ أشباء أخرى في هذا الشأن، فلم وإن نستطيم التمرك ضدهم".

ومع ذلك، كان فيليب لديه أمل في خريف عام ١٣٠٧ في إنهاء الاضطراب الذي أطلقه من عقاله. ذلك أن وزن اعترافات فرسان الهيكل أيا كانت الطريقة التي تم الحصول بها عليها، وسيل الدعاية المتدفق من قلم دي نوجاري الفصيح، كان أكبر من أن يسمح بعدم التصديق، على الأقل بالنسبة لغالبية الفرنسيين. وكل ما كان مطلوبا هو موافقة البابا وحل الجماعة رسميا. وكان من المكن الوصول إلى نوع ما من الحل غير القائم على المبادئ لهذا الموضوع الأثم كله؛ ولكن على غير توقع مطلقا – ويكل

شجاعة – أكد فجأة البابا كليمينت على حقوقه، في هذا الشأن. وكان رد فعله المسحل الأول هو كتابة رسالة، بتاريخ ٢٧ أكتوبر، موجهة إلى فيليب، كانت تمتلئ حنقا وبتسم بالمنواب حتى أن فيليب نفسه، اضطر إلى أن يأخذها على محمل الجد. وقد بدأها كليمينت بالتأكيد على حق البابوية الأصيل في قيادة الكنيسة والحكم عليها، وندر بتحدى فيليب المجترئ في القبض على فرسان الهيكل. وقال، "إن هذه الأعمال مثار دهشة وألم وحزن لنا، لأنكم دائما ما وجدتم فينا إحسانًا وصالاحًا إذا ما قورنا بغيرنا من الأحبار الرومان الذين رأسوا الكنيسة الرومانية في زمانكم". حتى فيليب نفسه اضبطر إلى الاعتراف بما في هذه الملحوظة من عدالة، ومع ذلك، "ارتكبت هذه الأفعال في حق أشخاص وممتلكات أناس يخضعون مباشرة اكتيسة روما" وأسوأ ما في الأمر، "بفعلك هذا، الذي لم يكن له أي داع، يرى الجميع، إهانة لنا ولكنيسة روما". ومس كليمينت الموضوع في الصميم، بطريقة لا يمكن لأحد غيره، كبابا أن يفعلها؛ فقد فيضح عدم قانونية عملية الاعتقال، وبين أنه لم ير في تصرف فيليب هجوما على فرستان الهيكل فقط وإنما هو أيضنًا على الكرسي المقدس. واتبع رستالته بمرسوم بابوى في ٢٢ نوفمبر أمر فيه جميع ملوك البلاد المسيحية بأن يحذوا حنو فيليب ويلقوا القبض على فرسيان الهيكل في بالادهم؛ لكن هذا يتم باسم البابوية، غير أن هذا لا يعني أن كليمينت مستعد لقبول ذنب فرسان الهيكل على أنه نتيجة مفروغ منها، لأنه إذا ما اتضح أن المقدمات ليست حقيقية، وتم اكتشاف ذلك، سيعم الفرح؛ ولهذا السبب نقترح التحقيق في الأمر دون إبطاء".

لقد شكل هذا التدخل تحولا تامًا في إجراءات المحاكمات. ذلك أن كليمينت وضع نفسه في وسط القضية؛ وأي شيء يقع بعد ذلك لا بد أن يتم بالرجوع إليه. وعن طريق تحمل مسئولية المحاكمات نفسها، تمكن من تثبيت تفويضه في التقصي، بنية جمع أدلة جوهرية – أي أدلة تقوم على مقابلات تخلو من التعذيب. "

وفى ذيسمبر عام ١٣٠٧ أرسل كليمينت اثنين من الكرادلة إلى باريس كي يبدآ التحقيق - وكانت بداية غير موفقة إلى حد ما، لأن الرجلين سألا قضاة التفتيش ومستشارى الملك عن الحقيقة كما رأوها، فكانت الإجابة التى عادا بها إلى كليمينت هى أن جميع الاعترافات مقبولة وصحيحة، وعلى الفور أرسل كليمينت الكردينالين مرة أخرى إلى باريس بتعليمات محددة وهى مقابلة فرسان الهيكل أنفسهم، وفعلوا ذلك؛ ولا يمكن لتقريرهم الجديد أن يكون أكثر إثارة، ذلك أن جاك دى مولى وهيو دى بى، وستين فارسًا غيرهم سحبوا ما أدلوا به من اعترافات.

فاحتدمت المعركة بين البابا والملك، وكان فيليب قد قطع شوطا بعيدا لا يسمح له بالانسحاب. ولم يكن ليقبل سوى النصر التام: وهو أن يعلن أن الجماعة مذنبة؛ وأن يتم حلها؛ وأن تأول إليه أراضيها وأموالها، وأى شيء أقل من ذلك أن يكون كافيا، ذلك أنه إذا ما ثبتت براءة فرسان الهيكل، سوف يسهل عليهم الانتقام، بل حتى إذا ثبت أن فرسان بعينهم مذنبون، ولكن الجماعة ككل لا غبار عليها، فهذا أن يكون كافيا؛ إذ أنه أو نجا أى فرع، عندئذ، سيكون فيليب عرضة للخطر، دائمًا وأينما حل. عموما، كانت هذه هى الطريقة التي رأى بها الأمر؛ وفي هذه المرحلة، لم تكن النقود، والأراضي والحياة عرضة للخطر – بل كانت هناك المكانة أيضمًا، فالكشف عن ابتداع بولى واجتثاثه سوف يضع فيليب على رأس البلدان المسيحية؛ وأى شيء آخر سوف يظهره على أنه قاطع طرق متصعب مجنون بالعظمة.

عند هذه النقطة يدخل زاحفا أحد أغرب جوانب المحاكمة. فقدرة الإنسان على خداع النفس هائلة، بل ربما تكون بلا حدود، ومن الممكن أن يكون فيليب حين أحس بأن الاقتناع الشخصى التام قد يكون الطريقة الوحيدة للتغلب على تحدى كليمينت، بدأ يقتنع بالفعل بأن فرسان الهيكل مذنبون. لقد قال إنهم مبتدعون، إذن فهم مبتدعون، إن مثل هذه الحركات البهلوانية العقلية ليست إلا شيئا عاديًا حين يتسم بها أحد قضاة محاكم التفتيش، لكنها حين تظهر بسلطة شبه دكتاتورية واعتقاد بالألوهية الشخصية فإن مزيجًا متفجرًا قاتلاً مميتا يتشكل. ومن الصعوبة بمكان تنقية عقل فيليب؛ ومع ذلك، فإن أفعاله، بعد أن تراجع دى مولى عن اعترافاته، بها اتساق لا ينبع سوى عن ضمير هادئ واقتناع عاطفى قوى بأن جميع البشر كاذبون وخبساء.

في فبراير من عام ١٣٠٨ أوقف كليمينت أعمال محاكم التفتيش في فرنسا، مصمما على أن يتم جمع كل الأدلة، وأن تقدم وتقيم بأمانة وأنصاف. فبدأ فيليب بمساعدة عبقرية من دى موجارى مباشرة في شن حملة دعائية ضد البابا، وفي الشهر نقسه، هرب أحد فرسان الهيكل القليلين الذين كانوا في عهدة كليمينت من الدار التي كان محتجزا بها، معطيا عن غير قصد لرجال الدعاية فرصة مثالية. وبدأت توزع منشورات سوقية اللغة والمضمون مجهولة الأصل في أتحاء فرنسا وتشير إلى الهرب باعتباره إقرارًا إضافيًا بالذنب، معلقة بأنه، إذا كان كليمينت لم يتمكن من الاحتفاظ على آلاف الاحتفاظ على آلاف المرين (كما فعل)، وأخذت المنشورات توجي بأن البابا الذي يقف إلى جانب المبتدعين المعترفين ليس هو نفسه أفضل من المبتدعين. واختلط الانتقاد اللازع لمصوبية كليمينت المعروفة بتلميحات بأنه كان قد تلقى الرشى من فرسان الهيكل؛ وقد أعطت تعليقات حقيقية حادة قشرة من الصدق للأقوال الخيالية، وكانت كل هذه الأمور توضع بأمثلة من اقتباسات مختارة بعناية من الكتاب المقدس تؤكد على صدلاح فيليب وانمطاط كليمينت.

لقد كان كليمينت عديم الحيلة في مواجهة هذه الهجمات الخفية؛ إذ إنه كان مدربا على أن يكون محاميا، وليس كاذبا — وفي الدبلوماسية وليس في الازدواجية، ومع ذلك فقد ثابر، مقرا عقيدته الدنيوية في الشرعية وإيمانه الروحي بالسلطة. فواجه فيليب ذلك عن طريق تقديم سلسلة من سبعة أسئلة إلى محامي ورجال اللاهوت بجامعة باريس الذين كانوا يقعون تحت ضغط شديد، وهي أسئلة مصممة لتضخيم صحة أفعاله في المجالين، واستغرق الأكاديميون شهرا كي يعدوا ويصيغوا ردهم؛ وحين جاء الرد لا بد أنه كان مصدر راحة فاترة لفيليب، ذلك أنه، على الرغم مما اتسم به من نبرة خانعة فإن "وكلاء الملك غير المهمين" كما أسموا أنفسهم، أخبري بكل تواضع ولياقة (وربما خوفا على أرواحهم) بأنه لا يملك أساساً قانونياً أو دينياً يستند إليه مطلقاً. بل ما هو أكثر سوءاً من ذلك، أنهم أحسوا بأنه إذا ما تم حل الجماعة فلا توجد طريقة مشروعة أمام فيليب حتى يطالب بممتلكات الجماعة من سلع ومال وأراض.

لم يكن ثمة شيء يجعل فيليب يلين، فاستدعى جمعية من كبار رجال الإقطاعيات. وكدأبه، لم يكن هذا هو البرلمان الديمقراطي كما يوحى اسمه، وإنما هو تنفيذ آخر الحكم الفردى المطلق، ففي أوائل مايو ١٣٠٨، تجمع نحو من ألفي ممثل عن النبلاء ورجال الدين والناس العاديين في تور، كبي يصفوا على مدى أسبوع أو أكثر، إلى الخطب الحاذقة الرنانة التي كان يلقيها دي نوجاري ورهطه؛ وفي نهاية المحنة سجل المثلون بكل آيات الطاعة موافقتهم القلبية ودعمهم لرأى فيليب بأن يموت فرسان الهيكل عقابا لهم على خطاياهم.

وحين أصبح فيليب واثقا من دعم رعاياه وهو يعلم أن كليمينت عمليًا سجين في فرنسا شأنه شأن فرسان الهيكل، كما يعلم أن المشاعر نحو كليمينت عدائية، فقد سافر إلى بواتيى في نهاية مايو كي يلتقى بالبابا وجها لوجه. ولم يسافر وحده؛ بل صحبه أخوه، وأبناؤه وعدة بارونات وأساقفة وأناس عاديين بالإضافة إلى جيش صغير من الجنود، والرماة - وهذا استعراض للقوة على النقيض الواضح لعجز كليمينت أمام السلطة الزمنية. والتقى العاهل والحبر في عرض أجوف جلى الوضوح من التقدير المتبادل، وفي يوم ٢٩ جلسا معا في مجلس كنسي عام. كان هذا مجلسا من الكرادلة اجتمعوا معا للتداول في شئون الكنيسة؛ وعلى الرغم من أن كليمينت كان رئيس هذا المجلس، فإن هذا الاجتماع بالتحديد أصبح مجرد وسيلة يتم من خلالها الهجوم عليه صراحة من جانب الملك.

وكان المتحدث الرئيسى هو ويليام دى بليزان، وهو محام آخر من أتباع الملك. وسبقت حديثه صبيحة المسيح يغزو، المسيح يسود، المسيح يحكم! وكانت هذه أعلى درجات استعراض القوة الإقناعية للغة الانفعالية، بادئا من أساس حقيقى غير محكم، ثم تقدم إلى وصف للانزعاج الذى أحس به الملك مما انكشف له من غدر، وتحليل للعمل الذى أجبر على القيام به على الرغم منه، ثم انتهى فى خطابه إلى تهديد مباشر للبابا. لا يمكن لكاثوليكي صادق أن يأمل فى أن يحبذ الابتداع عن طريق الشك فى كلمة الملك؛ "ولهذا، يا أبانا المقدس، حين يطلب ملك هذه الملكة، وكبار رجال الدين بها

وباروناتها وجميع سكانها الانتهاء سريعا من هذا الموضوع، سوف يسوك القيام بذلك على وجه السرعة؛ وإلا سوف نضطر إلى التحدث بلغة أخرى إليك".

مما يثير العجب، أن كليمينت أصغى دون أى تأثر. لقد وجد هذا الرجل الخانع دائما فى مكان ما نبعا مهما من الشجاعة؛ فكان الجزء الرئيسى من رده هو أنه سوف يتخذ إجراءات ضد فرسان الهيكل "ولكن بأمانة ونضج، وليس باندفاع." فرفع دى بليزان النبابيت مرة أخرى، مشيرا إلى كليمينت على أنه متعاطف مع الهيكل، قائلا إن إبطاء يلقى بظلال الشك على استقامة فيليب، ومرة أخرى مستعينا بأمثلة من الكتاب المقدس بين أن الملك يستطيع أن يتصرف باسمه إذا دعت الصاجة. بل أنه ألم إلى إمكان خلع كليمينت إذا استمر في عرقلة العدالة؛ غير أن كليمينت الذي حوله إمكان خلع كليمينت إلى رجل جديد، هن كتفيه بفتور وكرر قوله بأن القانون سوف يأخذ مجراه.

وفيليب، الملك، نصف الإله، كان يخشى القانون. وكان دائمًا يسعى حثيثًا إلى إيجاد أساس قانونى نظرى يبرر به أفعاله. وعرف الأن أنه لا يملك هذا الأساس، ولم يكن هناك أى تأثير الترهيب؛ لذا حاول التوفيق. وبعد أن تنازل مسلمًا فبأن الإخوان يجب أن يكونوا تحت إشراف البابا، أشار إلى أن كليمينت ليست لديه الوسائل كى يحرسهم بشكل أمن، وافق على أن يتيح لمثلى البابا سهولة الوصول إلى فرسان الهيكل، في حين يحتفظ هو بهم في السجن، وهذا يعني من الناحية العملية أن سيطرته عليهم ان تكون أقل إحكامًا مما كانت حين ألقى القبض عليهم؛ لكن كليمينت ببيطرته عليهم من الرجال المنتقين بعناية ويمكن الاعتماد عليهم في أن يكرروا ما بواتيي – جميعهم من الرجال المنتقين بعناية ويمكن الاعتماد عليهم في أن يكرروا ما في جرائمهم من جسامة بالكامل أمام البابا نفسه. وحين صمع كليمينت الاعترافات، بدا أنه يصدقها. ربما يكون فيليب قد فكر أن كل شيء على ما يرام حتى الآن؛ ذلك أنه وقر للبابا وسيلة لحفظ ماء الوجه، وللتصرف دون أن يبدو واقعا تحت أي ضغط، لكن استجابة البابا لم تكن بأي حال استجابة رجل مقتنع ومعاد للابتداع: فبالإضافة إلى استجابة البابا لم تكن بأي حال استجابة رجل مقتنع ومعاد للابتداع: فبالإضافة إلى

تقصياته الأسقفية ضد فرسان الهيكل كأفراد، شكل لجنة من ثمانية للبحث في قضية الصباعة ككل وأعلن أن قرارا سبوف يصندر في منجلس عام في فيين في ١ أكتوبر ١٣١٠ أي بعد عامين. في أثناء ذلك كانت وتيرة المعاكمات بطيئة في إنجلترا وأرجون. وبعد عدم تصديق جيمز البدئي، قام باحتياط آخر. أو أن أي شيء سوف يحدث للجماعة، فقد صمم على عدم تسليم ممتلكاتهم، وفي ديسمبر ١٣٠٧ أرسل بجيش كي بحثل قلعة فرسان الهيكل في بينيسكولا. وتم الاستيلاء على المبنى دون مقاومة، ولكن حينئذ كان الإخوان في الأماكن الأخرى على أهبة الاستعداد. فقد أمرهم المفتش العام التابع لأرجون بأن يظهروا كي يجيبوا عن الاتهامات الموجهة ضدهم، ومن الطبيعي أنهم لم يظهروا؛ وبدلا من ذلك أغلقوا على أنفسهم الحصون وأعلنوا أنهم مستعبون للدفاع عن شرقهم وسمعتهم بالقوة. فتمت محاصرة الحصون واحدا واحدا وسقطت واحد واحد، عن طريق الجوع، أو في إحدى المناسبات، عن طريق الخيانة؛ لكن أقلها صمد لمدة ثمانية أشهر، وأقواها صمد لمدة سبعة عشر شهرا، ولم يستسلم إلا في مايو عام ١٣٠٩، حتى ذلك الوقت لم يكن تحقيق البابا قد بدأ حتى يناير ١٣١٠ ذلك أن الأسقف المسئول كان في إنجلترا فلم يتم عمل شيء حتى ديسمبر ١٣٠٧، حين وصبل المرسوم البابوي، أولويات رعوية، والذي أمر فيه إدوارد بأن يتصرف فورا. فرد إدوارد على مضض بأنه سوف يفعل ذلك، "بأسرع وأفضل طريقة"؛ لكنه أخذ ما يكفيه من وقت، ولم يبد أنه يميل إلى التعامل مم المشكلة بجدية. وتم القبض على فرسان الهيكل الإنجليز في يناير ١٣٠٨، بعد شهر كامل تقريبا من وصول مرسوم البابا؛ والسلطات الإنجليزية، التي كان الشك ما زال يساورها، كما أنها متكاسلة وغير راغية في أن تقبل الأوامر من الأجانب فهمت كلمة "قبض" بطريقة متباطئة متساهلة. إذ كان من المكن ترتيب اعتقال فرسان الهيكل بكفاءة تشبه تلك التي تعامل بها فيلبب؛ لكن ما حدث أنه تم بتسامح وإلى حد ما بشكل اعتذاري. فلم يتم الاستيلاء على ممتلكات الهيكل، وسمح لمعظم الإخوان بأن يبقوا في مقارهم. أما إذا كانوا بالفعل في السجن، كما كان معلم الهيكل، فقد سمح لهم بالاحتفاظ بملابسهم المعتادة، وأوانيهم – وحتى أسلحتهم؛ وإن يصحبهم أخين أو ثلاثة وأن يتلقوا الأموال من أراضي الهيكل الأخرى لتساعدهم. وفي ١٣ سبتمبر وصل إلى لندن اثنان من قضاة التفتيش الفرنسيين، وكانا على استعداد لتولى الإجراءات.

واسبوء طالعهم، فأن القانون الإنجليزي يختلف عن القانون الفرنسي، الذي أصبحت فيه محاكم التفتيش مجرد ذراع للحكومة. أما في إنجلترا فكانت محاكم التفتيش تعد تدخلا غير مرحب به وغير مصرح به، والقانون العام ينص على أن الفكرة لا يصدقها سوى محاكم التفتيش! - وأن المتهم يجب أن يحاكمه محلفون يتكونون من رجال أحرار. فكان هذان الاثنان هما أول وآخر قضاة تفتيش في إنجلترا، وذهبا في حالة من الإحباط وخيبة الرجاء، وخلال أسبوعين في أكتوبر ونوفمبر ١٣٠٩ قام بالتحقيق مم ٤٣ من فرسان الهيكل في لندن مستخدمين طرق القانون العام، فلم يعترف أي من المتهمين بأي ذنب من أي نوع، وكان قصاري ما فعاره كي يساعبوا الفرنسيين هو الموافقة على أن قليلاً من الإخوان الأكثر بساطة كانوا يعتقدون أن المعلم من مسلاحياته التخليص من الخطايا، ولم يكن الصال كذلك، بالمقارنة بالأجوية التي أعطيت في المحاكم الفرنسية، يعد مثل هذا الاعتراف شيئًا تافها؛ وحين تلقف المفتشان مسألة الاجتماعات السرية، مجادلين بأن أي شيء سرى لا بد أن يكون شرا، قال أحد الإخوان بازدراء إن السرية نتجت عن العماقة فقط، وإن لا شيء حدث في الاجتماعات أو حفلات الاستقبال لا يليق بأن يراه أي شخص، وأن أية اعترافات قيلت في أي مكان أخر ما هي إلا أكاذيب. ولم تقد كثيرا تلك الشهادات التي طلبت من شهود من الخارج من مائة وخمسين شخصنًا في أنحاء الجزر البريطانية؛ ذلك أن أدلتهم كانت إما محض خيال أو تشير إلى أحداث مفترضة وقعت قبل عقود، أو إشاعة منقولة حتى الشخص الثالث أو الرابع. وفي منتصف مبيف ١٣١٠، لم يكن هناك أي تقدم على الإطلاق من وجهة نظر المفتشين. إذ إنهم قالوا في رسالة تعبر عن الشكوي إلى كبير أساقفة كنتيربري إنهم غير قادرين على القيام بالعمل بأسلوبهم المعهود، لقد بذلوا أقصى ما في وسعهم، لكنهم حتى لم يجنوا واحدا يمكنه إدارة عملية التعذيب؛ لذا سوف يعودون إلى بلادهم. وكان الاقتراح الوحيد الذي استطاعوا تقديمه هو أن

يتم شحن جميم فرسان الهيكل في إنجلترا عبر القنال إلى بونتيي، التي كانت أرضًا إنجليزية لكنها خاضعة للقانون الفرنسي. إذ من المؤكد أن الحقيقة سوف تخرج هناك، لأنه يمكن العثور على خبير في التعذيب دون صعوبة. إذا ما أخذت هذه الفكرة حسب ميزاتها، فهي فكرة منطقية، ولكن لم يتم متابعتها. أما في فرنسا فكان كليمينت يتزايد شعوره بالبلبلة. وفي منتصف أغسطس عام ١٣٠٨ تمكن من أن يخلص نفسه من بواتبي، وأعلن أنه سوف ينشئ محكمة بابوية جديدة دائمة في أفيون، حتى تسوي قضية فرسان الهيكل. كما احتفظ بحق الحكم على زعماء الجماعة بنفسه ولتحقيق هذا الهدف أرسل ثلاثة من الكرادلة إلى شينون، حيث يحتجز كبار المسئولين. وفي ما بين ١٧ و ٢٠ أغسطس التقي الكرادلة بمدير مقر قبرص؛ ومدير مقر نورماندي، ومدير مقر بواتيي واكيتان؛ وهيو دي بيرو، أمين خزنة الجماعة وزائرها؛ وجاك دي مولي. وقبل ذلك بتسعة أشهر، وبعد تدخل كليمينت الأول، كان جميم هؤلاء الرجال قد سحبوا اعترافاتهم السابقة. وقد لعب هذا التراجع دورا كبيرا في قرار كليمينت متابعة هذه المحاكمات من خيلال القنوات القانونية السليمة؛ لكن الإخوان عن طريق سبحب اعترافاتهم قد وضعوا أنفسهم في وضع غير مريح هو وضع المبتدعين المرتدين. فإذا ثبتت إدانتهم، من المؤكد أنهم سنوف يحرقون أحياء؛ لذا فنحين التقي الكرادلة، بالمسئولين الخمسة، عادوا جميعًا إلى اعترافاتهم الأصلية. على أحد المستويات، كان هذا موضع ترحيب، إذ إن معناه أن يتم مصالحتهم مم الكنيسة. وعلى مستوى أخر هذا أقلق كليمينت؛ إذ تم استباق شعوره الحي بالقانون، ويكون تناول فيليب الطائش للأمر بحرية قد انتصر. وعلى مستوى ثالث، أصاب هذا كليمينت بالحيرة، بكل بساطة. ربما كانت الاعترافات مسعيمة، في نهاية الأمر؛ وربما كان الرجوع عن الاعترافات مجرد توجيه إهانات شريرة للملك الفرنسي. كان من المكن أن تقل درجة ما أحس به من بلبلة لو أنه عرف أن اثنين من الكرادلة كانا مستعاطفين مم فيليب، وأن ثلاثة أشخاص أخرين كانوا حاضرين في أثناء المقابلات: هم سجان فرسان الهيكل، والمصاميان، دى نوجارى، ودى بليزيان. ذلك أن الثلاثة مما تمكنوا من تصريك ولى فرسان الهيكل كما شاءوا، بمجرد وجودهم، لأن كل منهم لعب دورا مميزا في عملية

التعذيب الجسدى والعقلى المنهك البطىء. ذلك أن السجان كان هو من يحقق معهم يوميا، ويجوعهم ويسىء معاملتهم كلما أمكن ذلك؛ وكانوا يعلمون أن دى نوجارى هو المسئول عن تلطيخ سمعتهم بانتظام؛ ودى بليزيان، ربما أكثرهم شرا يبدو أنه كان محامى الشيطان، إذ يعلن صداقته لهم، ويتوسل إليهم بأن يعترفوا من أجل خاطر الراحة الأبدية لنفوسهم.

على الرغم مما أحس به كليمينت من ارتباك فإنه كان قد حدد طريقه وسوف بلتزم به. ذلك أنه اكتشف أن تفويضه البيرقراطي جعله يتمكن من الاستمرار بلا نهاية في التذبذب والمراوغة، فعن طريق الإصعان في عدم الكفاءة تمكن بالفعل من أن يتحاشى القيام بأي شيء لمدة عام بعد تأكيد المسئولين على اعترافاتهم. فلم تخرج رسائل بابوية حتى ٨ أغسطس ١٣٠٩ تستدعي جميم الشهود للمثول أمام اللجنة؛ وإن تفتتح اللجنة جلساتها حتى ١٢ نوفمبر. بل أكثر من ذلك، بدا أنها ستكرن مجرد تمثيلية، إذ إنه من بين أعضائها الثمانية، كان هناك سنة تقريبا على صلة مباشرة بغيليب، ومع ذلك فقد قبل كليمينت ذلك؛ والسبب في هذا بسيط، ذلك أن اهتمامه بالشرعية لم يكن قائما على رغبة في تحقيق العدالة بقدر ما كان قائما على الرغبة في حماية الحقوق البابوية من أن يتعدى عليها التاج الفرنسي، وهذا تمييز لم يكن فرسان الهيكل أنفسهم على وعي به، ومن المكن أن يثبت أنه قائل بالنسبة لهم في النهاية. وحين افتتحت أعمال اللجنة في ١٢ نوفمبر، بدا أن التمثيلية الموعودة على وشك التحقق. فعلى مدى الأيام السبتة الأولى، لم يظهر شناهد واحد، سنواء للانهاء أن الدفاع. فاضطر أعضاء اللجنة إلى التأجيل؛ وحين اجتمعوا مرة أخرى في الثاني والعشرين، بدا أن أول شهود لفرسان الهيكل لم تكن لديهم أية فكرة عن سبب وجودهم هناك. وحين أبلغوا بالسبب كان في مقدورهم الدفاع عِن الجماعة إذا شاءا ذلك، ولكنهم غمغموا ببساطة بأنهم أناس بسطاء ولا يعرفون كيف يفعلون ذلك. واستمرت بقية الجلسة الأولى بهذه الطريقة المؤسفة نفستها. لقد تم إحضار إجمالي ثمانية وعشرين متهما، من بينهم هيو دي بيرو، وجاك دي مولي، الذي ظهر مرتين. وقال قليل

من هؤلاء إنهم لو أوتوا المهارة لدافعوا بحرية عن الجماعة؛ غير أن أحدا منهم لم يعرض القيام بذلك، وقال أحدهم إنه راض تمام الرضيي عن الدفاع الذي قدمه كليمينت وفيليب. أما الباقون فقد التمسوا العذر لأنفسهم على أساس أنهم 'غير نبلاء ومفمورين" أو "فقراء وجهلة" ورفض كل من دي بيرو، ودي مولى قول أي شيء إلا في حضرور البابا، مع أن الأخرين كانوا يتوقعون منهم أن يقودوهم. إذ بدا أن دي بيرو خائف ومضطرب، وكان "شديد الدهشة" حين قرئت عليه اعترافاته السابقة. كان المقصود أن تكون الجلسات سرية، لكن بعض الناس أمكنهم الدخول في أي مكان. فقد حبضير المصامي دي بلينزيان ظهور دي مولى الأول؛ وفي إحدى المراحل، طلب المعلم المساعدة من المحامي الذي قال إنه يكن احتراما كبيرا لدي مولى، "بما أنهما هما الاثنان فرسان" وحذره "بأن يحترس في حالة التعرض الوم أو أن يضيع نفسه يون سبب". وفي ظهـوره الثاني أعلن دي مولى عن إيمانه "باله واحد، وعقيدة واحدة، وتعميد واحد، وكنيسة كثولكية واحدة". ولكن في هذه المرة كان معه دي نوجاري، الذي كان حضوره غير قانوني تماما، والذي زعم مع ذلك، أن الجماعة عقدت معاهدات مع صلاح الدين وغيره من السلاطين وأن صلاح الدين أرجع هزيمتهم في حطين إلى ميلهم إلى "رذيسلة اللواط، ولأنهم انتهكوا عقيدتهم وقانونهم". لقد كانت هذه بداية سيئة للنفاع.

لقد بدأت جلسة اللجنة الثانية في ٣ فبراير من ١٣١٠، ومنذ البداية، بدت تكرارا للفشل الزريع الأول. ذلك أنه لمدة يومين لم يتم إحضار أي شهود؛ ثم مثل أمام اللجنة ستة عشر من فرسان الهيكل في ٥ فبراير، وعرض خمسة عشر منهم القيام بالدفاع. وفي أثناء الاستراحة وحين فهم الإخوان أخيرا طبيعة اللجنة وجنوا بعضًا من روحهم القديمة، وفي نهاية مارس تطوع خمسمائة وسبع وتسعين للدفاع عن الجماعة. حدث هذا على الرغم من المثل السيئ الذي ضربه دي مولى، لأنه، في ذلك الحين، قد رفض المرة الثالثة التحدث مع أي شخص عدا البابا. وعلى مدى الأسبوع التالي، تم اختيار أربعة من الإخوان لتمثيل الجماعة. كان منهم اثنان، هما بيير دي بولونيا، ورينو دي بووفنان من الكفئة؛ أما الأخران، ويليام دي شامبوني، وبيرتراند أوند سارتيج، من

الفرسان، وكانوا جميعا أذكياء ومتعلمين؛ وقد يكون دى بولونيا قد تلقى بعض التدريب في القانون في جامعة بولونيا، لأن أحاديثه أمام اللجنة كانت متأثرة بنفس أسلوب البلاغة الشديدة الذي يستخدمه دى نوجارى نفسه، وقد أبرز هو ودى برفانس قدرا كبيرًا من المعرفة والألفة مع أحوال أو طرق الإجراءات القانونية، لقد كانت الفصاحة والتعليم هما الشيئان اللذان يخشاهما فيليب ودى نوجاريى، ذلك أن ستار الدخان الذي شكلاه من الكلام الرنان، والخداع، والتآمر والأعمال الخفية، ومخالفة القانون، لم تكن لتصمد أمام التفحص المدقق، ويمكن فضحها جميعا إذا ما هوجمت بصراحة وبشكل قانوني وصحيح، وهذا بالتحديد ما كان ينوى فعله الأربعة الذين يمثلون الجماعة؛ وفي يوم الثلاثاء لا إبريل ١٣١٠، بدء وا عملهم.

الفصل السادس عشر

التضحية الجهنمية فرنسا. ٧ إبريل ١٣١٠– ٢٩ نوفمبر ١٣١٤

سأحكم عليك ... وأجعلك دم السخط والغيرة سفر حزقيال، الإصحاح ١٦ آية ٣٨

لقد تليت الاتهامات بالتفصيل، وكانت الاتهامات الأصلية في تفويض موبويسون هي أن فرسان الهيكل أنكروا المسيح ويصدقوا على صدورته، وأنهم كانوا يتبادلون القبلات المجافية للأدب وانهمكوا في علاقات من الجنسية المثابة؛ وأنهم عبدوا صنماً. حين وقف بيير دى بولونيا وإخوانه الثلاثة للدفاع عن أنفسهم وعن جماعتهم، لم يواجهوا ثلاث مجموعات من الاتهامات بل سبعًا، وضعت في مائة وسبع وعشرين مادة. وكانت المجموعات السبع هي، أولاهم، والأكثر أهمية، هي إنكار المسيح، ذلك أن فارس الهيكل الجديد لدى استقباله يجبر على إنكار إيمانه بقدسية المسيح، وأن يقبل أن المسيح ليس هو المخلص، ولكنه نبى زائف صلب بسبب خطاياه. وكان على الأخ الجميع الاتهامات الأخرى من هذا؛ وكانت المجموعة الثانية هي أن فرسان الهيكل جميع الاتهامات الأخرى من هذا؛ وكانت المجموعة الثانية هي أن فرسان الهيكل وثنيون. وكان وثنهم عبارة عن قطة، أو رأس ذات قوى سحرية. ويمكن الرأس أن تجيب عن الأسئلة؛ وهي التي زودت فرسان الهيكل بالثروة ودمرت أعداءهم؛ وكان على كل أخ أن يرتدى حبلاً حول وسطه، قد وضع حول أو في مواجهة هذا المعبود. وهكذا

يكون كل أخ مرتبطاً سحريا بالصنم يشارك في قوته ويخضع لها. وغطت المجموعة الثالثة من الاتهامات جوانب مختلفة من عدم إيمان فرسان الهيكل، فبما أن المسيح المنتظر، فإن التناول في الكنيسة لا يعني شيئا لدى فرسان الهيكل، ليس هو المسيح المنتظر، فإن التناول، (القربان) عند إقامة القداس؛ ولم يكن قداس فرسان ولم يقدس كهنتهم خبز التناول، (القربان) عند إقامة القداس؛ ولم يكن قداس فرسان الهيكل سوى احتفال سخيف، وتناولت المجموعة الرابعة التخليص من الذنوب؛ كان المعلم وغيره من الزعماء يستمعون إلى الاعترافات من الإخوان ويحلونهم منها، حتى دون التأهيل الكهنوتي كي يفعلوا ذلك. ثم تأتي أعمال الفسق داخل الجماعة، مثل القبلات على الأفواه، والسرة، والمعدة، والاست، والأرداف، والجنسية المثلية التي أمر الإخوان الأول في جميع الأوقات، هو الإثراء المادي للجماعة، بالطرق القانونية وغير الإخوان الأول في جميع الأوقات، هو الإثراء المادي للجماعة، بالطرق القانونية وغير القانونية. أما المجموعة السابعة والأخيرة، فهي أن سرية الجماعة اعتبرت إجرامية ذلك أنه ليس فقط الاستقبالات والاجتماعات هي التي كانت تعقد في حجرات محصنة، مع إغلاق وتغطية جميع الأبواب والنوافذ، ولكن أي أخ يكشف عن أسرار الهيكل كان بسجن أو يقتل.

وحين تليت هذه الاتهامات، مفصلة في مائة وثمان وعشرين مادة، على بيير دى بولونيا كان قد قضى في السجن سنتين ونصف، وهو يعذب ويستجوب ويجبر على الاعتراف بكل شيء. لكنه أمام أعضاء اللجنة البابوية، تكلم بتحد وعنف نيابة عن نفسه وعن جميم ألاف الإخوان من جماعته.

وقال: "كل واحد منا، يعلن أن جميع هذه الاتهامات دون أى أساس، ومن غير المعقول أن يحمل الجد، صحيح أن المعقول أن يحمل الجد، صحيح أن بعض فرسان الهيكل أقروا بها، لكن ذلك كان فقط تحت التعذيب والمعاناة... وليس مما يشير العجب أن هناك من كذبوا، بل أن الأكثر إثارة العجب هو أن من التزموا بالمعدق، كانوا يعلمون ما يعانيه من يقولون الصدق من عند وأخطار وتهديدات يوميا وباستمرار".

لقد كانت بداية قوية، واستمر بواونها بنفس القوة، مازجًا البلاغة والدقة القانونية المباشرة في مزيج واضح قدير وناجح. وأشار إلى أن كل ما يسمى اعتر إفات قد انتزعت بالتعذيب، وأضاف بشكل لاذع بأنه "خارج مملكة فرنسا، لن يوجد أحد فرسان الهيكل في أنحاء العالم يقول أو ينطق بهذه الأكاذيب، ومن هنا يتضح لمن قبلت في فرنسا: إن من تكلموا قد شهدوا حين أفسدهم الخوف، أو الصلوات، أو المال." لذا لا يجب قبول هذه الاعترافات كأدلة؛ 'وحين يتم التحقيق مم أي إخوة، لا يجب أن يحضر ويسمعهم أي أحد من غير رجال الدين، أو أي شخص تكون استقامته موضم شك". بمعنى أنه لا يجب السماح للسجان ومضاميي الملك بحضور اللجنة، بما أن مجرد حضورهم يرهب الإخوان. ثم رد على النار بالنار حين هاجم من اتهموا الهيكل قائلا إنهم "مسيحيون زائفون وهم جميعا مبتدعون ومتراجعون، ومفسدون الكنيسة المقدسة والعقيدة المسيحية بأسرها"، هؤلاء الناس كان دافعهم الطمع "وهم أشد ناشري الفضائح من حيث عدم التقوي" وقد عثروا على فرسان هيكل مرتدين كفار، ودبروا وأعدوا معهم مجموعة من الأكاذيب خدعت حتى أكثر الملوك مسيحية، الملك فيليب، إذ لم يكن الأخ الجديد يقسم إلا أربعة أيمان كما قال دي بواونيا، أيمان، بالطاعة، والعفة، والفقر، والدعم المستمر للأراضي المقدسة؛ والقبلة الوحيدة التي كان يتم تبادلها "هي قبلة السلام الصادقة" - وليس أكثر من القبلة المعتادة التي يتم تبادلها بين أي سيد وتابعه. ويجب أن تحاكم اللجنة أيضًا من اتهموا الجماعة بالانحرافات الروحية والأخلاقية، ويطلب منهم تحديد أسس إتهاماتهم؛ وأثناء ذلك، يجب إعطاء ضمانات لجميع الإخوان الذين يرغبون في الدفاع عن الجماعة بالأمان، لأنه حتى الآن فإن رجال الملك يهددونهم بالتعذيب والموت إذا ما جرءوا على إنكار ننبهم،

يبدو أن أعضاء اللجنة قد تأثروا بما يتمتع به بيان دى بواونيا من قوة ووضوح؛ لكنهم كانوا مصرين على سماع جميع جوانب القضية قبل أن يصلوا إلى قرار، بناء على ذلك، فإن الشهود الأوائل الذين سمع لهم بالمثول أمامهم كانوا شهود الادعاء: وكانوا أربعة وعشرين رجلاً، أربعة منهم ليسوا من فرسان الهيكل، ولم يطلق على أحد

من هؤلاء الأربعة وعشرين شاهدا أنه من شهود الادعاء، لكن خمسة عشر من الفرسان العشرين كانوا من بين مجموعة الاثنين وسبعين الذين اعترفوا أمام كليمينت؛ أما الضمسة الأخرون فلم يعبروا عن أى رغبة في الدفاع عن الجماعة؛ وكان الأربعة من غير فرسان الهيكل مرتبطين بالملك. وكان أولهم وأبرزهم بالفعل أحد محاميي الملك، وهو رجل يسمى رؤول دى بريسل؛ وهو فوق كل شيء كان يتوقع منه أن بيرز حججا دامغة تندد بفرسان الهيكل. ولكن على الرغم من أنه ألقي خطابا طويلا يقصد منه إقناع اللجنة بذنب الجماعة، فإنه لم يشتمل على أية أدلة ملموسة على الاطلاق. إذ لم يكن هناك سوى الإشاعة والتقولات؛ واعترف بأنه قبل الاعتقال لم يكن قد سمع أي شيء يسيء بوضوح إلى سمعة الجماعة. والشاهد التالي الذي دققت اللجنة في التحقيق معه، لم يقل في نهاية المطاف إلا أنه كان يشك في أن الجماعة لم تكن جيدة؛ واكتفى شهود فرسان الهيكل بمجرد تكرار الاعترافات التي أدلوا بها اكليمينت، والتي رفضت اللجنة قبولها كأدلة.

بدت الأمور سيئة بالنسبة للادعاء الملكى، إذ لم يتمكن محام واحد من محاميى الملك من إظهار دليل واحد حقيقى؛ ببساطة لم يكن هناك دليل يمكن إظهاره، وأصبح من الواضح أكثر فأكثر أن قضية الملك قائمة على الرعب والبلبلة، وقد استمر فضح بيير دى بولونيا لهذا الحال بشكل مخيف لا هوادة فيه. ذلك أنه قال في رده على شهود الادعاء، إن الاعتقالات والمحاكمة حتى الآن، كانت "متعجلة وعنيفة بلا تفحص، وعدائية، وغير عادلة، وغير قانونية بالكامل، وشديدة الإيذاء، ومليئة بالخطأ الذي لا يطاق وأقصى درجات الضبس". وحين تعمق في وصف طرق غسيل المخ قال، إن صنوف التعنيب التي مورست على فرسان الهيكل حرمتهم من "حرية التفكير أو الرأى التي يجب أن يتمتع بها كل إنسان طيب"، إذ دونها يفقد الشخص كل "معرفة وذاكرة وفهم". وأراد أن يعرف كيف يمكن لأي أخ أن يرغب في الانضمام في الجماعة ويبقي فيها إذا كان بذلك يعرض نفسه للخطر الأبدى؛ وطلب نسخا مكتوبة بجميع المواد فيها إذا كان بذلك يعرض نفسه للخطر الأبدى؛ وطلب نسخا مكتوبة بجميع المواد عين سوية، وأن يتم عزل الشهود الذين تكلموا عمن سوف بأتون.

وبينما كان دى بواونيا وإخوته ينسقون الدفاع، أعلن أعضاء اللجنة أنهم على استعداد للاستماع لكل من لديه شيء مفيد يود قوله، سواء لصالح الجماعة أو ضدها. فقال ما يقرب من ستمائة من فرسان الهيكل إنهم يرغبون في التحدث، ولما ازدادت ثقتهم اتباعًا للمثال الذي ضربه دى بولونيا، فقد اتضع أن جلسات الاستماع سوف تستمر لوقت طويل، لقد كان كليمينت قد حدد موعد مجلس فيين، الذي سيصدر فيه حكمه، في أكتوبر؛ والآن قد حل إبريل، لذا اضطر إلى تأجيل المجلس إلى عام آخر: وهكذا، ففي نهاية إبريل عام ١٣٠٠، كان وضع فرسان الهيكل أفضل مما كان في أي وقت منذ أن بدأت الاعتقالات عام ١٣٠٠، فأبلغ دى بولونيا إخوانه المسجونين أن إطلاق صراحهم وتبرئتهم التامة بمكن أن تكون مسألة وقت.

هذا ما كان يجب أن يكون. غير أن المدافعين عن الهيكل في غمرة تفاؤلهم المفاجئ، بدأوا يقللون من شأن الملك فيليب. فبينما وأصلت اللجنة البابوية تحقيقاتها في الجماعة ككل، استمرت لجان أسقفية في التحقيق في الاتهامات الموجهة ضد كل فرد من فرسان الهيكل على حدة. من المفهوم ضمنا أن اللجنة البابوية أعلى من اللجان الأسقفية لكن هذا لم يذكر بوضوح؛ وما إن تعرف محامو فيليب على هذه الثغرة من الناحية القانونية، حتى تلقفوها.

وعلى بعد خمسين ميالاً جنوب شرق باريس كانت تقع بلدة أرودوسيز سان. وكانت لبعض الوقت دون رئيس للأساقفة، وكان الملك فيليب قد تمكن من أن ينتزع من كليمينت الحق في تسمية رئيس أساقفة جديد. وقد أخذ وقتاً طويلاً في تعيين رئيس أساقفة جديد وثبت بالنسبة له أن الانتظار كان مفيداً. وفي إبريل ١٣١٠، تم تنصيب شاب في الثانية والعشرين من عمره رئيساً لأساقفة سان، وهو رجل يدعى فيليب دي مارينيي، الذي كان أخوه وزير مالية الملك. وكانت ارئاسة أسعة فية سان سلطة على أسقفية باريس، حيث كانت تحتجز متهمى الهيكل؛ وكان رئيس الأساقفة الجديد من رجال الملك على طول الخط. اذا ففي خلال شهر من تعيينه، قام فيليب دى مارينيي بتنفيذ تعليمات الملك، ليستغل حقه القانوني في الحكم على أفراد فرسان الهيكل، وعقد

مجلس إقليمى فى باريس بتاريخ الاثنين \ مايو. ويشكل ما، فى آخر لحظة، سمع بهذا بيير دى بولونيا، وفى يوم الأحد \ مايو، وعلى الرغم من أن اللجنة البابوية لم تكن منعقدة، بعث برجاء يائس لأعضاء اللجنة، وتوسل إليهم أن يمنعوا المجلس الإقليمى. إذ كان يخشى من صدور أسوأ حكم ممكن، فإذا ما حدث هذا، "فسوف يكون ضد الله والعدالة وسوف يقلب التحقيق بالكامل"؛ إذ إنه سوف يجعل اللجنة ونشاط أعضاء اللجنة ذلك، لكن لم يكن ثمة ما يمكن أن يفعلوه؛ فقالوا لدى بولونيا "نحن نحس بحزن عميق من أجلك، لكن بما أن يمكن أن يفعلوه؛ فقالوا لدى بولونيا "نحن نحس بحزن عميق من أجلك، لكن بما أن البابا كان قد وافق على الإجراءات أمام المجالس الإقليمية، فنحن عاجزون عن التدخل بأية طريقة".

وفى صباح الاثنين، استأنفت اللجنة جلسات الاستماع ائتى تعقدها، وفى الوقت نفسه، وعلى بعد أميال قليلة، افتتع رئيس الأساقفة فيليب مجلسه، وفى وقت مبكر من اليوم التالى، قوطعت اللجنة فجأة وهى تتباطأ فى طريقها المتعقل: لقد أصدر رئيس الأساقفة حكمه، وتقرر إحراق أربعة وخمسين من متهمى فرسان الهيكل وهم أحياء بعد ظهيرة ذلك اليوم. وبذل أعضاء اللجنة أقصى ما يستطيعون من جهد، ولكن دون سلطة قانونية لم يكن فى مقدورهم سوى أن يطلبوا من رئيس الأساقفة الشاب بأن يستبق حقه ويأخر القيام بأى فعل، وتم تجاهل الطلب.

ويعد ظهيرة يوم الثلاثاء شق باريس موكب من عربات نقل المحكوم عليهم بالإعدام حاملا الأربعة وخمسين من فرسان الهيكل – من فرسان، وكهنة، ورقباء، وإخوة من الخدم، جميعهم يرتدون الزي المميز لهم – ونقلوا إلى أحد الحقول خارج المدينة. وكان في انتظارهم آلات إحراق مكدسة بالقش وأوراق الشجر والخشب، وتجمع عدد كبير من الناس للفرجة؛ إذ كانت أية عملية إعدام تشكل تسلية جيدة، وكان الجميع يعلمون أن هذا القتل الجماعي له أهمية خاصة، وحين انتهى كل شيء، كتب أحد المتجمهرين، "أنهم جميعا دون استثناء، رفضوا الاعتراف بأي من جرائمهم المزعومة، وأصروا على القول إنهم يموتون ظلما، ... مما تسبب في إعجاب كبير واندهاش عظيم" وطق متفرج

أخر باقتضاب قائلا إن مثل هذا الإصرار القاطع من شأنه أن يجعل الناس يعتقدون أن فرسان الهيكل يقولون الحق. عمومًا، بالنسبة المتبقين من فرسان الهيكل كان أثر الإعدام فوريًا وحاسمًا. ذلك أن أملهم انهار ومعه دفاعهم، ولا يمكن إنقاذ أرواحهم إلا على حساب شرفهم؛ ولا يمكن إنقاذ شرفهم إلا على حساب أرواحهم. إذ لم يعد القانون يوفر الأمان. لذا ففي يوم عمليات الإحراق، رفض ثمان وثلاثون من الإخوان الاستمرار في الدفاع عن الجماعة، قائلين إنهم يفضلون الاعتراف بأي ابتداع ويعيشون عيشة منحطة على أن يموتوا في اللهب. وفي باريس تواصلت عمليات الإحراق؛ وقبل أن يمر وقت طويل ما يقرب من مائة وعشرين من فرسان الهيكل كانوا وقودا النار. وحتى الموتى لم يكونوا في مأمن – إذ استخرجت عظام الموتى من فرسان الهيكل وأحرقت علنا مع الإخوان الأحياء. ومحاكاة لرئيس الأساقفة فيليب، عقد رؤساء أساقفة ريم وروان مجالس إقليمية وأرسلوا أعدادا غير معروفة من الإخوان إلى حتفهم، ذلك أن رئيس أساقفة روان كان شابًا آخر – إذ لم يزد عمره عن الرابعة والعشرين، وكان عمه هو البابا كليمينت.

بعد تنفيذ عمليات الإعدام الأولى بستة أيام، استبق رئيس الأساقفة فيليب اللجنة البابوية مرة أخرى، ذلك أن رينو دى بروفان، القس الثانى من معثلى الدفاع، جاء من سان، مقر رئيس الأساقفة؛ وحسب الحق المتاح لفيليب، فقد دعا دى برفان كى يحقق معه المجلس الإقليمي، وحين أصبح حتى رجال الإدارة المعينون غير آمنين أصبحت اللجنة هزلية تماما. إذ أرسل أعضاء اللجنة برسالة لبقة لفيليب، مشيرين إلى هذا الوضع، فتجالها كما فعل من قبل، وتم تكرار الرسالة، بشكل أكثر قوة، فتمت استعادة دى بروفان؛ ولكن في نفس الوقت، اختفت أثار بيير دى بولونيا، فطلب أعضاء اللجنة أن يسمح له هو أيضًا بمعاودة الظهور؛ ولكن بدلا من ذلك، تم إرسال مجموعة من أربعة وأربعين من الإخوان إليهم، وقالوا جميعا إنهم لم يعودوا يرغبون في الدفاع عن أنفسهم أو عن الجماعة. وفقد أعضاء اللجنة أي سيطرة على الإجراءات. فاستسلموا، وفي يوم السبت ٣٠ مايو، أجلوا أعمالهم لمدة خمسة أشهر.

فماذا حدث لفرسان الهيكل في السجون، أو غرف التعذيب، في باريس، في أثناء الأشهر الضمسة تلك، هذا ما لا يعرفه أحد؛ ولكن في يوم الثلاثاء ٣ نوفجبر، حين اجتمع أعضاء اللجنة مرة أخرى، اكتشفوا انقلابا دراميًا شبه كامل لجميع تجاربهم السابقة. إذ لم يكن موجودا سوى اثنين من ممثلي الجماعة الأربعة – هما الفارسان، ذلك أن كلا الكاهنين دي بولونيا، ودي بروفان، قد اعترفوا بذنبهم في أثناء الصيف، وحكم عليهم بالسجن الدائم. لقد سجن دي بروفان حقا في مكان ما في باريس، أما دي بولونيا فيقال إنه هرب. والمرء يأمل في أن يكون ذلك صحيحًا، وأن أشجع المدافعين عن فرسان الهيكل نال حريته أخيرًا؛ ولكن هناك شك في أن سجانيه قتلوه.

ودون أخويهما المتعلمين، فقد الفارسان المدافعان الثقة وطلبا الإعفاء من مسئوليتهما التي يتعذر التعامل معها، فلم ييق أحد لتمثيل الجماعة؛ ولم يستمم أعضاء اللجنة البابوية إلى أي شيء تقريباً في انعقاد جلستهم الشتوية ١٣١٠-١، سنوي صرخات مؤلة تثير الشفقة تدلى بالاعترافات، من أناس أذلهم الإرهاب وشدة الألم فحولهم إلى مخلوقات غير قادرة على مقاومة أو فهم الوحشية البشعة التي مارسها القائمون على الإسباءة لسمعتهم ومعذبيهم، ولم يقر واحد منهم بأي اتهام، وحاول الكثيرون نقل اللوم على زعماء الجماعة؛ ولكن فيما بينهم اعترفوا بكل شيء: إنكار المسيح – نعم، لقد أعلنوا أن أمه لم تكن عشراء، وأنه نبي زائف، وليس ابن الله؛ أما تدنيس المبليب – أجل، كان عليهم أن يبصقوا عليه، ويتبولوا عليه، ويدوسوه تحت أقدامهم؛ أما عن اللواط، فذلك كان شائعًا في الجماعة، خاصة في الأماكن التي لا توجد بها نساء؛ والوثنية أمر مؤكد. لقد كانت الاعترافات متسقة فقط بأكثر الأشكال عمومية، وكانوا يتباينون في التفاصيل بقدر ما كانوا يتباينون في الأعدار؛ لكن هذه الاعترافات حين كانت تأتى مرة تلو أخرى من أناس يركعون وهم يبكون ويرتعنون، كي يقسموا بكل ما هو مقدس أن كلماتهم صادقة، لم يكن في وسع أعضاء اللجنة سوى تصديقهم. وفي ٢٦ مايو ١٣١١، تم الاستماع لآخر الشهود: في ذلك الوقت، كان مائتان وواحد وثلاثون رجلا قد قدموا أدلتهم، من فرسان الهيكل وغير فرسان الهيكل، وندد الجميع بالجماعة سوى القليلين منهم، على نحو لا رجعة فيه. ومع ذلك، ففى ه يونية، أعطى أعضاء اللجنة حكمهم الرسمى للملك فيليب بأنه لم يتم إثبات القضية ضد فرسان الهيكل، لكنهم يعتقدون بالفعل بأن الجماعة كانت تضم بعض المارسات غير المحافظة، التى يجب معاقبتها؛ وكان هذا يكفى تماما بالنسبة لفيليب.

ومع ذلك فإن هذه الموافقة مع التحفظ كانت غائبة في البلدان الأخرى. ففي البرتغال ومايوركا وارجون أعلنت براءة فرسان الهيكل؛ وحين أبلغ أحد فرسان الهيكل من مايوركا أن دى مولى قدم اعترافا كاملا قال: إن المعلم "كذب مل طقه"، على النقيض من ذلك، زعم أحد القساوسة من فرسان الهيكل الإنجليز أن دى مولى أجبره على إنكار المسيح عند استقباله؛ ولكن عدا هذا، واثنان أو ثلاثة اعترافات منددة أخرى، لم يظهر أي شيء أخر أكثر قوة ضد الجماعة في إنجلترا من اكتشاف أن يعض فرسان الهيكل الأكثر بساطة خلطوا بين العقو عن خروقات الانضباط والعقو عن الخطيئة. والشيء نفسه يصدق على اسكتلاندا وأيرلندا، وكان الرأى السائد في الجزر البريطانية هو أن فرسان الهيكل أبرياء؛ ولكن من أجل جعل البابا سعيدًا، تم التوصل إلى حل وسط، إذ أعلن فرسان الهيكل أن سمعة الهيكل أسيئ إليها في مواد الرسوم البابوي حتى أنهم لم يتمكنوا من تطهير أنفسهم". وبناء على ذلك، عفا عنهم المرسوم البابوي حتى أنهم لم يتمكنوا من تطهير أنفسهم". وبناء على ذلك، عفا عنهم كبار رجال الدين في إنجلترا وتمت مصالحتهم مع الكنيسة.

أما في ألمانيا وقبرص، حيث كان يوجد المقر الرئيسي الجماعة، كانت السلطات أقل دبلوماسية وبرأت الإخوان بالكامل على الفور. وقد جاءت التبرئة الألمانية بعد حادثتين مثيرتين: ففي مايو ١٣١٠، شقت مجموعة من واحد وعشرين من فرسان الهيكل طريقها إلى غرف مجلس رئيس أساقفة مينز، وكانوا مسلحين بالدروع الكاملة، ومسلحين بمعلومات بأن براءة الجماعة قد ظهرت بمعجزة في باريس، إذ قيل إن ملابس الإخوة الذين أحرقوا هناك والصلبان الحمر لم تعسمها النار المضطرمة، وشوهدت وهي تلمع وسط اللهب بضياء خارق الطبيعة. فبلغ التأثر برئيس الأساقفة وشعه يؤجل عقد مجلسه؛ وحين أعيد افتتاحه بعد ذلك بشهرين، دافع تسع

وأربعون شاهدا (بينهم اثنا عشر ليسوا من فرسان الهيكل) عن الجماعة بصفة عامة وعن دى مولى بصفة خاصة، قائلين إنه "كان مسيحيًا طيبا كما يمكن أن يكون أي مسيحيٍّ، غير أن التبرئة التي تلت ذلك ضبايقت البابا كليمينت، ذلك أن موضوع المحاكمات كله كان قد بدأ يزحف حتى على روحه المتنبذبة. وبدأ يتمنى لو ينتهى هذا الأمر كلية، وكان يريد لهذه النهاية أن تعبر عن أكبر قدر ممكن من الاحترام اسلطته. بناء على ذلك، ألغى الحكم الألماني مدعيا أن القرار من حقه هو وحده؛ وفي قبرص، وجد حاكم الجزيرة، الذي كان ودودا مع الجماعة ورأى أنها بريئة، قد طعن حتى الموت ذات صباح – كانت جريمة مناسبة، لأن كليمينت تمكن من إعداد إعادة المحاكمة تغير فيها الحكم الأصلي. لم يثبت الاتهام على الجماعة بشكل فورى إلا في نافار، ونابولي، اللتين يحكمهما تابعون يدوران في فلك فيليب، وفي ولايات إيطاليا البابوية؛ ولم يستخدم التعذيب منذ البداية إلا في هذه البلدان. حتى في أغسطس ١٣١١، حيث لم يتبق على مجلس فيين سوى شهرين، كان البابا كليمينت ما زال يبعث بالأوامر إلى الأماكن التي برئ فيها فرسان الهيكل تبرئة لا جدال فيها، وكان يقول في هذه الأوامر إن هذه التبرئة قد لا تكون صحيحة، ويجب استخدام التعذيب في كل مكان للعرفة الحقيقة،

لقد افتتح المجلس المسكوني في فيين يوم السبت ١٦ أكتوبر. وكان يقصد منه تمثيل جميع البلاد المسيحية الغربية؛ وتمت دعوة أكثر من اثني عشر ملكا وعدة مئات من كبار رجال الكنيسة، من مناطق بعيدة تضم أيراندا، وقبرص، والمجر، والبرتغال وروسيا، والسويد. غير أنه لم يكن يتمتع بالشعبية منذ البداية، لأن الموضوعات الثلاثة التي كانت على جدول أعماله كانت مناقشة تقديم المساعدة للأراضي المقدسة، وإصلاح الكنيسة، ومحاكمات فرسان الهيكل. وكانت جميع هذه الموضوعات الثلاثة غير مستساغة وغير جذابة بالنسبة لمعظم من قدمت لهم الدعوة، لذا في ١٦ أكتوبر لم يحضر أي ملوك، مطلقا في فيين، وحضر أقل من ثلثي رجال الكنيسة الذين كان ينتظر حضورهم، ووجد من حضروا أن فيين مدينة صغيرة قذرة، وباردة ومزدحمة،

وفاحشة الغلاء. كما وجدوا أن كليمينت أكثر اهتماما بكثير بالتخلص من فرسان الهيكل من اهتمامه بإصلاح الكنيسة أو شن حرب صليبية. ذلك أن الموضوعين الأخيرين تم تناولهما على عجل؛ ولكن حين وصلوا إلى مشكلة فرسان الهيكل، توقف سير الجلسات تقريبا، إذ إن كليمينت كان قد استعار فكرة من الملك فيليب ملك فرنسا: بنفس الطريقة التي كانت بها الطبقات العامة أو قادتها مجرد وسيلة للحكم المطلق وليس للديمقراطية، كذلك لم يدع مجلس فيين لتقديم النصح لكليمينت بخصوص فرسان الهيكل، وإنما لقبول القرارات التي توصل إليها والموافقة عليها. لو كان كليمينت يتمتع بما تمتم به دي نوجاري من قدرة بالاغية وما تمتم به فيليب من قوة عسكرية، من المحتمل أنهم كانوا سوف يمنحونه هذا القبول وهذه الموافقة غير أن كليمينت كانت لديه خبرة في أن يجبره غيره وليس في أن يجبر هو أحداً ولم يكن شخصية رهيبة بالنسبة لغالبية المجلس، بل إنه هو نفسه كان قد قرر في ذلك الوقت، أن يتم حل الجماعة، وأن تحتجز ممتلكاتها الكرسي المقدس والإخوة بها أما تتم مصالحتهم كمبتدعين نادمين ويرسلون إلى الأديرة أو يسلموا للسلطات العلمانية الدنيوية كأشخاص غير نادمين، فيسجنون أو يقتلون. إذ إن أمنيته الوهيدة القاهرة عبر السنوات الأربع السابقة كانت هي المفاظ على السلطة البابوية، وحين جاء عام ١٣١١ كان قد تعدى مسألة الاهتمام بالتفاصيل الفنية المتعلقة بالعدالة والقانون. وكان قد جمع كميات غزيرة من "الأدلة" ضد الجماعة، وكان إلى جانبه في المجلس عدة متحدثين أقوياء، لكن الأدلة كانت مضحكة ومنجازة، ولا تشبتمل إلا على الإشاعات والثرثرة والنميمية، مع أن مؤيديه انتقنوا أي ذكر القبيام بمناقشية سليمية باعتبارها "تافهة وتصيب المرء بالفيظ" ، فإن غالبية أعضاء المجلس لم تكن مستعدة لإستلاع مسالة حل الجماعة بالوداعة التي كان ألبابا كليمينت يأمل فيها -خاصة وأنها قد جات من بلدان كان فرسان الهيكل قد برئوا فيها، كما هو الحال في الكثير من الأمثلة. بما أن المجلس يتعلق بهم بشكل مباشر، فقد دعى الإخوان للحضور، ولم يكن من المتوقع أن يفعل أحد منهم ذلك؛ ولم تكن الدعوة سوى إجراء لاستيفاء الشكل، ومع ذلك، فإن المقاومة داخل المجلس قويت فجأة بشكل غير متوقع فى أواخر أكتوبر - لأن مجموعة من سبعة من فرسان الهيكل ظهرت، كى تلحق بها مجموعتان فوراً. وقدم التسعة أنفسهم كمتهمين، وقالوا إن ما يقرب من ألفين من الإخوة الآخرين مطلقو الصراح، وهم على وشك الوصول. فى الواقع لا يمكن أن يكون ذلك حقيقيا؛ غير أن مجرد ظهور هؤلاء التسعة، كأشباح من الأيام الخوالي، كان شوكة فى ضمير المجلس، يذكر أعضاء المجلس بأن أى حكم يتم التوصل إليه سيؤثر فى أناس حقيقيين. لقد كانت خطايا فرسان الهيكل أكثر قليلا من مجرد أقاويل؛ وموت فرسان الهيكل، فى السجون، أو حرقا فى باريس، وغيرها كان حقيقة مؤكدة.

لقد كان رد فعل كليمينت لدى الشهد المثير المتمثل في رؤية تسعة من فرسان الهيكل أحياء طلقاء، هو حشرهم جميعا في السجن، ثم قام بعملية تقسيم كي يسهل التحكم، وأمر أعضاء المجلس بأن يختاروا لجنة منهم إذ إن عددهم أكبر من أن يسهل التحامل معه واجتمعت اللجنة والبابا معا، للاستماع إلى تفريغ مكتوب للمحاكمات؛ ثم تم اختيار مجموعة أصغر من بين أعضاء اللجنة كي تقوم بتقييم ما استمعوا إليه. وعلى الرغم من هذا التصغير المطرد، كان كليمينت غير قادر بعد على كسب رجال الكنيسة إلى جانبه؛ إذ لم يوافق سوى أربعة على وجوب حل الجماعة دون مزيد من الإبطاء، من هؤلاء الأربعة، كان هناك واحد إيطالي، وثلاثة فرنسيون. وحل عيد الميلاد لعام ١٣٦١، وولى، وجاء العام الجديد دون التوصل لأي حسم الموقف، وكتب رجل إنجليزي ملحق بديوان البابا إلى أسقف نورويتش، قائلا إن "الجزء الأكبر من رجال الدين، بل جميعهم، ما عدا خمسة أو ستة من مجلس ملك فرنسا، يقفون من درسان الهيكل) ... وملك فرنسا قادم في حالة من الغضب مع الكثير من النباء ونحن خائفون من هذا، و... يؤمل أن ينقل البابا نفسه إلى مكان آخر. وكل شيء متوقف".

كان فيليب قد حزم أمره بأن القليل من الإقناع من السلطة الزمنية ضرورى، وكان يتقدم بجيش نحو فيين. وخابت الآمال في أن ينقل البابا المجلس إلى موقع خارج مجال أو نطاق النفوذ الفرنسي، وفي ١٧ فبراير ١٣١٧، وصلت سفارة ملكية إلى فيين – سفارة تضم المحاميين، دى نوجارى ودى بليزيان، ورئيس موظفى القصر الملكى انجيران دى مارينيى، أخو رئيس أساقفة سان العنيف المقاتل.

واجتمع السفراء والبابا سيرا لعدة أيام، وكان يحضر المجلس عدة ممثلين علمانيين من بلدان مختلفة، وكان الأرجونيون على وجه الخصوص متشككين بشدة في هذه الاجتماعات السرية. وخمنوا أن السفراء الفرنسيين يجبرون كليمينت على أن يوافق على أن يتسلم الملك فيليب ممتلكات فرسان الهيكل لذا، فبعد أن غادر السفراء، بدءوا هم بدورهم الضغط من أجل مطالبات الملك جيمز. لقد استطاع كليمينت أن يضم نفسه وسط مثلث غير مريح على الإطلاق – فيليب، وجيمز، والمجلس غير المتعاون - وفي صباح ٢٠ مارس، قال إنه ما يزال غير قادر على تحديد ما إذا كانت الجماعة تبقى أو تحل، ولكن في هذا اليوم نفسه، في بارقة من الفهم، استضاء طريقه؛ لأن فيليب "جلاب النور" دخل فيين بجيشه. وبعد ذلك بيومين عقد البابا اجتماعا خاصاً مع أعضاء لجنة مستشاريه، وفي ٣ إبريل اجتمع المجلس المسكوني بالكامل في حالة من التجهم والصرامة. وكانت ثلاثة عروش موجودة أمام أعضاء المجلس. على العرش الموجود في الوسط جلس البابا، وعلى جانبيه، وفي مستوى منخفض قليلا، جلس فيليب ملك فرنسا، واويس ملك نافار، ابن فيليب الأكبر. وكانت موعظة كليمينت جاهزة؛ ولكن قبل أن يبدأ، وقف أحد القساوسة وحذر المستمعين من رجال الكنيسة من أن أية مقاطعة سوف تعاقب بحرمان أعظم من الكنيسة، لو لم يسمح بها البابا أو يطلبها، ثم تكلم كليمينت، واستمم أعضاء المجلس المكممون إلى صوت في الأعالي، وهم مهدون من البابا وحضور الملكين. وبدأ كليمينت كلامه، "بالنظر إلى الشك وسوء السمعة، والتلميحات العالية وغير ذلك من أشياء، نسبت للجماعة، وكذلك الاستقبال السرى والخفى للإخوة في هذه الجماعة؛ بل فوق ذلك، بالنظر إلى الفضيحة الخطيرة التي نتجت عن هذه الأشياء، والتى لم يبد من المعكن إيقافها ما بقيت الجماعة، والخطر الذي تتعرض له العقيدة والنفوس، والأشياء البشعة الكثيرة التى فعلها كثيرون جدا من الإخوة في هذه الجماعة الذين انحدروا إلى خطيئة الارتداد الشريرة، وجريمة الوثنية المقيتة، وشناعة اللوطيين، ... فنحن بكل المرارة والحسرة في القلوب، نلغي جماعة الهيكل المذكورة، ودستورها وزيها واسمها، بمرسوم دائم الصلاحية لا رجعة فيه؛ ونخضعها للحظر الدائم بموافقة المجلس المقدس، ونحظر على أي شخص حظراً جازمًا أن يدخل الجماعة المذكورة في المستقبل أو يتلقى أو يرتدى زيها أو يتصرف كواحد من فرسان الهيكل".

تَمِنَ اللهمة، واكتشف كليمينت أنها بسيطة، في نهاية الأمر. لقد نجح بالقليل من الجمل في القليل من الدقائق حيث أخفقت جميع جيوش المسلمين، وانمحي بكلمة قرنان من الإيمان والمشاق والمعارك والشرف والغيرة والمنافسة والأمل والجهد والاعتقاد. في صمت استمع أعضباء المجلس، وفي صمت غادروا المكان، وكما علق أحد الإنجليز، "لم يوافقوا، ولم يعترضوا بوضوح". وبعد ذلك بوقت قصير، حكم كليمينت بشأن التخلص من ممتلكات فرسان الهيكل. وقرر إنه، فيما عدا الأراضي الواقعة في شجه جزيرة سجبجريا، التي احتجزها لنفسه، كل شيء يأول إلى الإسبتاليين، من دور وحيوانات وأسلحة. لكن هذا القرار على الرغم من أنه اتخذ بسهولة كما صدر مرسوم الحل غير أنه طبق بقدر أقل من السهولة. ذلك أن جيمز ملك أرجون، وفيليب ملك فرنسا، والمنحدرين عن فيليب، جميعا وضعوا أعينهم على الأراضي والأموال، ومرت سنوات قبل أن يتم التوزيم أخيراً. ويقيت مم ذلك مشكلة مصير فرسان الهيكل أنفسهم. ويما أنهم كانوا إلى حد كبير أقل قيمة بكثير من ممتلكاتهم بالنسبة الجميم عداهم، فلم تكن هذه مشكلة معقدة. إذ إن كليمينت احتفظ لنفسه بحق المكم على الزعماء، ولكن جميم الإشوان الآشرين سيتم المكم عليهم في مجالس أسقفية إقليمية. وسوف يتلقى من اعترفوا أو من ثبتت براعتهم معاشا من ممتلكات سابقة لفرسان الهيكل، وسوف يسمح لهم بالمعيشة في أديرة أخرى، أو في دور كانت مملوكة للجماعة، ولكن بأعداد صغيرة فقط؛ أما من تراجعوا في اعترافاتهم، أو رفضوا الاعتراف على الإطلاق، سوف يعلن عن أنهم مبتدعون، وسوف يلقون المعاملة التي يستحقونها.

عند هذه النقطة، حين تكون الاختيارات واضحة لا لبس فيها، فمن المثير الدهشة، أنه، في حين اتضد الكثيرون من فرسان الهيكل المخرج السهل، واختاروا الاعتراف، والمصالحة والمعاش المذل، فإن الكثيرين وجدوا روحهم مرة أخرى، وقبلوا الموت حرقا. وحسب ما تروى الحكايات، فقد أدى أحد هذه الإعدامات الرهبية مباشرة إلى موت ذلك المحامى الشرير، العبقرى الخبيث، ويليام دى نوجارى إذ إنه مات في منتصف إبريل عام ١٣١٣؛ وقيل إنه، قبل ذلك بثمانية أيام، التقى صدفة بمجموعة من فرسان الهيكل الذين كانوا في طريقهم كي يحرقوا. وعندما تعرفوا عليه، مناح أحدهم:

"أيها الوزير الشرير، تدبر آثار أكاذيبك وظلمك! لا يمكننا أن نشكوك إلى سيدك، لأنه مع البابا ألد أعدائنا؛ لكننا نطلب منك أن تظهر بعد ثمانية أيام من اليوم أمام محكمة قاضى الأحياء والأموات".

وأضاف الرواة الذين حكوا هذه الحكاية، ربما كى يضيفوا إليها مصداقية، أن دى نوجارى مات "دون أن يهاجمه أو يضربه أحد". ولكن سواء كانت هذه القصة صحيحة أم لم تكن كذلك، فهى تعكس نسبة لا يستهان بها من الرأى العام المعاصر. لقد شعر وولتر من هيمينبورو، الرجل الإنجليزى الذى وصف مراسم الحل، أن المجلس المسكونى "لم يكن يستحق أن يسمى مجلسًا، بما أن البابا فعل كل شىء بسلطته". وقد عبر أحد أساتذة اللاهوت بجامعة باريس عن رأيه بصراحة وعلنا عن شكوكه فى ذنب الجماعة، فى حين أن لاهوتيا فرنسيا آخر – من جماعة الدومينيكان، التى لم تهتم أبدًا بفرسان الهيكل – علق بعد مشاهدة الكثير من محاكمات الأفراد، بأن "المزيد من الإيمان يجب أن يلحق من أنكروا عن أولئك الذين اعترفوا" وفى فلورنسا قال جيوفانى فيلانى مباشرة إن المساة كلها نشئت عن جشم الملك فيليب.

من الواضع أن فيليب قد حقق نصرا من نوع ما، لكنه عاد عليه بالقليل من الفائدة. فتنفيصه المكشوف للبابا واستبداده المتعصب أساء إلى اسمه في أنحاء أوربا؛ وأما عن حلمه في حكم إمبراطورية مسيحية باعتباره "الملك المحارب" فإن قرار كليمينت بنقل ممتلكات فرسان الهيكل للإسبتاليين قد عرقل ذلك بشكل أكثر فاعلية مما كان من المكن أن يفعله دى مولى.

ولكن يمكن القول إن سنوات فيليب التي اتسمت بالطغيان والتعذيب أتت أكلها في النهاية. فجاك دي مولى، المعلم نفسه، كان لا يزال على قيد الحياة في أحد سجون باريس، في انتظار حكم كليمينت. وكم من مرة أخر فيها البابا اتفاذ قرار، وحين كان يتصرف في النهاية، كان يتحايل اتحاشي المسئولية الشخصية بإرسال لجنة من الكرادلة بدلا منه. وفي ١٨ مبارس ١٣١٤، استندعي الكرادلة دي منولي كي يمثل أمامهم، مع ثلاثة زعماء كبار أخرين رئيس مقر أكيتان، جيفري دي جونفيل؛ ورئيس مقر نورماندي، جيفري دي شارني؛ وأمين خزانة وزراء الهيكل في فرنسا، هيو دي بيرو. وكاندي مولى يبلغ من العمر سبعين سنة، أو أكثر في ذلك الوقت؛ وكان دي بيرو أكبر قليلا؛ وكان الرجال الأربعة جميعا قد قضوا في السجن ست سنوات ونصف. وكان دي بيرو قد قال في الوقت الذي تمت فيه الاعتقالات إنه على استعداد لأن بفعل أي شيء ينفد بجلده. والآن واتته الفرمية، فاغتنمها. إذ أكد على اعتراف بالذب المطلق، وتمت مصالحته مم الكثيسة يوصفه مبتدعًا نادمًا، وأخذ يعيدا لقضاء السجن الدائم. وحذا جيفري دي جونفيل حذوه، وقاسمه مصيره؛ عندئذ، فهم جاك دي مولى وجيفري دي شارني أخيرا خيانة البابا الذي وثقا فيه، فتراجعا عن اعترافاتهما وأكدا أخيرا على براحتهما إلى الأبد، وكذاك براءة الجماعة، فسحبوا في الأصفاد كي يلقيا موتهما الأليم البطيء. وهكذا تم تدمير جماعة الهيكل التي ماتت كما ولدت وعاشت في الدم والغضب والتقوى. ومع ذلك لم ينته الأمر تمامًا: ذلك أن جائزة فيليب كانت ما تزال في الطريق، حين مات دي مولى، كانت أسرة كابي قد حكمت فرنسا على مدي تُلاثة قرون وربع، أما بعد وفاته، فلم تدم أكثر من أربع عشرة سنة، وأصبح فيليب الأشقر ونسله يعرفون "بالملوك الملاعين". ويقال إن صوت دى مولى سمع من داخل اللهب الذى قتله، وهو يلعن البابا كليمينت والملك فيليب وعائلته، ويتوسل إلى المسيح نفسه أن يثبت براءة الجماعة. إذا كان فرسان الهيكل قد أدينوا ظلما، فإن كليمينت يستدعى في خلال أربعين يوما، وفيليب خلال سنة، أمام قضاء الله.

لقد مات كليمينت في العشرين من إبريل، بعد موت دى مولى بثلاثة وثلاثين يوما؛ وتبعه فيليب في ٢٩ نوفمبر. ووضعهما دانتي بكل ثبات في كوميديا الإلهية.

وسواء قبلنا أو لم نقبل حكاية لعنة دي مولى، تبقى مسألة موتهما؛ وعلى مدى الأربعة عشر عاما التالية، مم ترنح أسرة كابي نحر نهايتها، أصبح كل من أبناء فيليب الثلاثة ملكا ومنات. ثم قسمت فرنسنا صيراعات طاحنة؛ ويتسلسل واضح ومياشير وضيوح تسلسل أسيرة كابي، أدن التشنجات التي وقعت بالملكة إلى حرب الأعوام المائة مم إنجلترا. ويمكن المرء أن يستنتج من ذاك ما يشاء. ويجب على من يقبلون فكرة أن البابا كليمينت معصوم، أن يقبلوا أيضا أن فرسان الهيكل مبتدعون، وأنهم أدينوا عن حق؛ واكن عندئذ يجب على المرء أن ينسى ظروف انتهاب كليسينت وشخصيته وتأثير فيليب عليه. وينظرة مشابهة منعكسة، يمكن للمرء أن ينظر إلى فيليب باعتباره مؤسس فرنسياء وباعتباره الملك الذي وحد ألامه وشجم على تطبيق حكم القانون؛ ولكن لكي يفعل المرء ذاك عليه أن ينسي الطريقة التي لوي بها القانون، وما اتسم به حكمه من همجية. ويُمكِّن المرء أن ينظر إلى فرسان الهيكل باعتبارهم أبرياء هاجمهم ملك جشع، وحبر ضعيف بشكل مقيت، وأن ينظر إلى موت فيليب وكليمينت على أنه قصاص إلهي على خطاياهم؛ ولكن من الواضح أن حقيقة القصاص لهم غير. قابلة للإثبات، أما بالنسبة لمسألة براءة فرسان الهيكل، أو ذنيهم، فليس في وسع المرء إلا أن يقول بأنه يجب التحفظ مع أي من الحكمين،

وفى غياب الدليل فى هذا الاتجاه أو ذاك – وفى القرن الذى نعيش فيه، والذى شهد ستالين وهيئلر، لا يمكن أن تعد اعترافات فرسان الهيكل أدلة – فإن أى تقييم للاتهامات التى سيقت ضد الجماعة يمكن أن تصبح مجرد قائمة من الأمور المكنة والمجتملة. فإذا ما أخذناها تحت العناوين العريضة من جنسية مثلية وابتداع ووثنية، يمكن أن يقال إن الاتهام الأول من المحتمل جدا أن يكون حقيقيا. فغي مجتمع مغلق، كله من الذكور، من المحتم تقريبا أن تظهر الجنسية المثلية، حتى إذا كانت لتظهر في الظروف العادية. وسوف يكون من قبيل إقحام المبداقية أن نزعم، أنه في فقرة ما يقرب من قرنين وبين عشرات الآلاف من الرجال الذين أقسموا قسم فرسان الهيكل، لا يوجد من مارسوا الجنس معا، ومم ذلك، وفي مواجهة هذا، من غير المعقول أيضا أن نزعم أن اللواط كان شائعا عامًا، أو حتى واسم الانتشار، داخل الجماعة. ذلك أن مادة في الميثاق حددت عقوبته؛ وبِما أن هذه المادة تعد إضافة حديثة، وليست جزءًا من الميثاق الأصلى، فإن هذا يوحى بأن اللواط قد ظهر وأن المعلم ومجاس الإخوة الاستشاري كان رد فعلهم قويا من حيث عدم الموافقة. ولم تنبع عدم الموافقة من كراهية الجنسية الغيرية للجنسية المثلية فحسب، وإنما من الفكر العام المعاصير، وعلى مدى الزمن الذي وجد فيه فرسيان الهيكل، كان اللواط يرتبط في الأذهان الأوربية بالابتداع، حتى أن البلغار (الذين جعلهم ارتباطهم بالكنيسة اليونانية مبتدعين) وجدوا أن اسمهم تحول إلى لوطيين. (الكلمة باللغة الإنجليزية بها شبه في النطق: المترجم)

لقد حدث تداخل بين الابتداع والجنسية المثلية في الاستقبال غير القانوني المزعوم للإخوة الجدد – من تبادل لقبلات بذيئة، وإنكار المسيح، وتدنيس الصليب. وهذا لا يمكن اعتباره محتملا، ولكن ينبئ السماح بإمكان حدوثه. وحتى مع ذلك، لا يمكن تفسيره بشكل قاطع على أنه تصرف معاد للمسيحية. إذ إنه في أي شيء يتعلق بفرسان الهيكل، فإن الطبيعة الغريبة لجماعتهم المكونة كلية من الذكور والنصف روحية والنصف عسكرية يجب أن نتذكر، وكما أوحى في ذلك الوقت، أن القبلات (إن كانت قد حدثت) قد لا تزيد على مزحة خشنة، في حين أن الإنكار والتدنيس (لو حدثا) قد يكونا اختبارا فظا للطاعة.

وبعد الاحتمال والإمكانية يأتي الافتراض - رد يمكن العمل به على الاتهام بالوثنية. ذلك أن أكثر الجوانب إثارة في اعترافاتهم بالوثنية هو ما أحسو) به من اضطراب تام. إذ لم يوافق واحد منهم بالتفصيل الدقيق، ولكن باستثناء واحد – هو اعتراف أخ إيطالي قال إنه يعتقد أن الجماعة في وقت من الأوقات كانت تعبد قطة غامضة - وهم يتفقون بصفة عامة على أن الوثن المفترض كان عبارة عن رأس. وإكن بعد ذلك، من الصعب العثور على أية وحدة. فالبعض قالوا إن الرأس كانت نجاسعة اللون؛ وقال البعض إنها كانت عبارة عن رأس صغيرة من الذهب، شيئا أشبه بامرأة. وقال أخرون إنها كانت ذات لحية؛ وقال أخرون إن لها وجهين؛ وأخرون قالوا إن لها قدمين، إما اثنتين، أو اثنتين أمام الاثنتين الخلفيتين، وقد أعطى أحد الفرسان وصفا دقيقا للجنة البابوية حتى أن أعضاء اللجنة أمروا بعمل بحث دقيق في هيكل باريس. فلم يتم العثور سوى على وعاء فضي للآثار الدينية على شكل رأس امرأة، تضتلف اختلافا تاما عن وصف الفارس، ومن نوع يمكن أن تمتلكه أية مجموعة بينية لا شك في استقامتها. ولا يتضع الاضطراب في الأوصاف فحسب؛ فالكثير من الإخوان الذين قالوا إنهم يعلمون عن عبادة رأس، أو أقروا بأنهم هم أنفسهم عبدوا رأسا، بدوا في البداية غير واثقين من أن هذه العبادة كانت ابتداعا أو ليست كذلك.

ومنذ ذلك الوقت، أعطيت لهذا السؤال إجابات لا حصر لها بدرجات متفاوتة تتسم بالرومنسية الزائفة. من بينها تلك الأفكار التي تقول بأن الرأس هي الرأس المحنطة لمؤسس الجماعة هيو دي بيان؛ أو أنها تعثيل الشيطان؛ أو رأس شيطان يدعى بافومي؛ أو رأس النبي محمد. وحتى دون هذا العبث الإضافي، فإن بافوميت هذا عبارة عن تشويه الفظ محمد، وهذا الافتراض الأخير هو أضعف الافتراضات، بما أن تصوير النبي يعد غير مقدس بالنسبة اشخص مسلم كها بالنسبة اشخص مسيحي، وتجدر ملاحظة أن المصدر الأصلي للاتهامات القائلة بأن فرسان الهيكل أصبحوا أكثر إسلاما من كونهم مسيحيين هو فريدريك الثاني؛ ويصعب اعتباره مدافعا عن السحية.

لقد ظهر مع ذلك حديثًا، قول أكثر معقولية يتعلق "بمعبود" فرسان الهيكل. وهو مجرد افتراض، ولكن به ميزات تفتقر إليها جميع الافتراضات الأخرى - وهي أنه بسبط؛ ويأخذ في الحسبان جميع الحقائق المعروفة في هذا الأمر؛ ويفسر الاضطراب الموجود في الأوصباف والاضبطراب لدي فرسان الهيكل أنفسهم. لقد وضع هذه الفكرة باقتدار وبالتفصيل أيان ويلسون في كتابه كفن أو غطاء تورينو، وهي باختصار: كان فرسان الهيكل يمتلكون صورة رأس، وكانوا يعتقدون أن لها قوة سحرية، فاحتفظوا بها بأقصى درجات السرية والأمن. وقد ألت إليهم الصورة بعد دمار القسطنطينية وقد عرضت للعامة في فرنسا بعد حل الهيكل. ولم تكن هناك جاجة لإلصاق أدني ظل من الابتداع بعبادة هذه الصورة – لأنها كانت تصور رأس السيح. بهذه الطريقة يصبح اضطراب فرسان الهيكل مفهوما: فإذا كانوا يعيدون المسيح، فلا يمكن أن يكون ذلك ابتداعًا، وكذلك يتم توضيح الاضطراب في الوصف ببساطة، ذلك أن فرسان الهيكل حين امتلكوا مثل هذه الصورة، لا شك في أنهم صنعوا نسخا منها على القماش أن الخشب، ومن المؤكد أن هذه النسخ تفاوتت، حسب مهارة الفنانين، والمواد المستخدمة. ومما يضيف وزنا لهذا الرأى كله أن صورة المسيح تعرف "بالماندليون" قد اختفت في دمار القسطنطينية، ولم تر بعد ذلك؛ وأنه في إنجلترا في قرية تمبلكومب، في دورسيت، تم العثور على صورة مرسومة لرأس المسيح، يرجم تاريخها إلى زمن فرسان الهيكل، عام ١١٥١؛ والأهم من ذلك، أن القماش المعروف اليوم بغطاء تورينو ظهر في فرنسنا بعد حل الهيكل، في عائلة جيفري دي شارني، رئيس مقر الهيكل في نورماندي والذي مات حرقًا مع جاك دى مولى.

هذا الافتراض يستحق التفحص الدقيق، لأنه يترجم جوانب معقولة من الاتهامات التى كانت حتى الآن يصعب شرحها أو حملها أصلا على محمل الجد. ومع ذلك، فإن مسالة المصداقية الجادة لا نطبق فقط على الاتهام بالوثنية، وإنما تنطبق على الاتهام بالوثنية، وإنما تنطبق على الاتهامات ككل. ذلك أن الملك فيليب الأشقر لم يكن له أن يحتجز خمسة آلاف رجل في السجن، ومن المؤكد أنه لم يكن ليستطيع أن يحرق المئات منهم حتى الموت، لو لم تكن

غائبية رعاياه تصدق الحقيقة الأساسية للاتهامات، ولم توافق، على الأقل، في ذلك الوقت على ما تلا ذلك من إعدامات. أكى يحدث رد فعل كهذا اليوم، كان من الواجب إعداد مجموعة مختلفة تماما من الاتهامات، ولكن حين كتب ويليام دى نوجارى تفريض موبويسون، كتبه وهو يعلم تمام العلم النظرة المعاصرة للانقلاب، وهي نظرة لا شك في أنه يتفق معها. ففي بداية القرن الرابع عشر، لم يكن الانقلاب السياسي هو أسوأ أنواع الانقلاب، وإنما الانقلاب الديني. ذلك أن قبضة الكنيسة على فكر الناس كانت قوية جدا، لكن القوة العاطفية اللاشعورية للمسيحية كانت آخذة في الانزلاق منذ وقت طويل. ولهذا السبب نمت جماعة الهيكل بهذه السرعة: فهي كانت مقبولة على المستويات الاجتماعية والروحية والعاطفية في أن ووقت منعا، ولهذا السبب أمكن تدميرها بهذه القسوة؛ لأنه حين أُظهِر الفرسان المقدسون، بما لهم من قوة وثراء وكبرياء، على أنهم جهاز منظم من المسيحيين المرتدين، تم الكشف عن شيئين: تهديد لسبح البنية الاجتماعية، وكبش فداء يمكن لتدميره أن يحسم الصراع بين الإيمان السبح والردة غير الواعية.

وكان هناك سبب رئيسى إضافى على صدقية الاتهامات فى ذلك الوقت، وهو ببساطة ما اتسم به فرسان الهيكل من سرية. ذلك أن الشك والخوف هما وليدا الخيال والجهل؛ ومنذ البداية، أثارت نفس السبرية – تلك التى لا يمكن كشف سترها – عشرات من الظنون الخيالية، والأساطير، التى لا يمكن إثباتها أو تكنيبها باعتبارها قائمة على أحداث مجهولة، وهكذا، فإن بعض الناس يحبون أن يعتقدوا أن فريق فرسان الهيكل الأصلى بحثوا عن خزانة ألواح ميثاق العهد ووجودها؛ وأن كريستوفر كلومبوس كان من فرسان الهيكل البرتغاليين المتبقين تم استيعابهم في جماعة ملكية عسكرية جديدة؛ وأن المسيع نفسه كان هو المعلم الأول الجماعة؛ وأن الجماعة مستمرة سرا اليوم. وثمة معتقدان وهميان أخران، هما أن فرسان الهيكل قد أدخلوا الشطرنج والمعمار القوطى في أوربا؛ غير أن هذين الوهمين فرسان الهيكل قد أدخلوا الشطرنج والمعمار القوطى في أوربا؛ غير أن هذين الوهمين

يمكن إثبات خطئهما بيسر، لأن المعمار القوطى كان موجودا في إيطاليا قبل تأسيس جماعة الهيكل، أما لعب الشطرنج فكان محظورا بحكم ميثاقهم.

مما يثير الأسى أن هذه المجموعة من المخلصين الذين كافحوا كى يجمعوا بين فضيلتين متضادتين للراهب والمحارب، والذين منحوا أرواحهم عن طيب خاطر من أجل عقيدتهم، يتذكرهم الناس فى الأغلب الأعم بوصفهم مصدراً للخيال والأوهام وحكايات الجنيات، ومن الأفضل والأنسب تذكر الصورة الصادقة للفرسان، والرقباء، والإخوة الخدم المتواضعين، وهم يرتدون عباءاتهم البيضاء والبنية، وهم يحيون، ويزرعون ويتاجرون، ويقاتلون ويموتون وعلى صدورهم صليب الشهادة الأحمر، وعلى رءوسهم راية المعركة. في أرجون، في يناير ١٨-١٧، كتب أحد فرسان الهيكل، وهو رئيس أحد المقار الملك جيمز وقال، "يعلم الرب أنى أشفق عليك، أنت وملك فرنسا، وجميع الكاثوليك بسبب من الضرر الذي ينشأ عن هذا كله – أكثر من إشفاقي علينا، حيث إن علينا تحمل الشر".

لم يكن فرسان الهيكل ملائكة أو قديسين؛ لكنهم لم يكونوا أيضًا شياطين.



 ١- أعطت قلعة جبل مونتفورت، القابعة على جرف في منتصف الطريق بين مبياء صور وبحر الجلبل. فرسان الهيكل السيطرة على الجليل الأعلى.



۲- كانت تكوا، التي لا تبعد سوى بضعة أميال عن مدينة القدس الشريف، هي موقع أول
 اشتباك عسكرى مسجل لهم وكانت هزيمة تركت أرض المعركة وقد تناثرت بها جثث فرسان الهيكل
 إلى أبعد ما يمكن للعين أن ترى .



٣ - الدار الأم، إنه الهيكل في الفدس الذي بمت منه إمبراطورية الفرسان الفقراء ولم يحص
 أحد عدد الأرواح التي فقدت من أجل امتلاك هذه الحجارة.



 د مشجد جهل لهكل الذي لم يكن لاي بن فرسان الهكل لبراه ولكن عن على الأرض امكن لعرضا الهنكر مع دند أن تعرفوا قبة الصخرة، وقياء التدريب، والأسوار التي كانوا يصلون داخلها، والدال التي توجد خميه،



العالم المصغر للجماعة، فلغة الخاج، على سوء عسب على شبة الجريرة المحسن غدا،
 استطاع أربعة الأف رجل أن يعيشوا في أمان، وما رال النفاع البرى الرئيسي السور السرفي موجودا: ارتفاعه تسعون قدمًا وسمكه ست عشرة قدما.



 الأسوار والخندق المنقب عنها والخاصة بقيسارية القديمة، وهي إحدى الوصلات البحرية الرئيسية في شرايين الحياة للأراضي المقدسة. إنها الأن ميتة وجافة وخالية



اسوار عكا البحرية بالقرب من هذا المكان تحمل فرسان الهبكل هزيمتهم الأخيرة. على يد المسلمين، وهم يقاتلون حتى أخر رجل.



٨ - الكتدرانية الكبرى في فيزيلى لقد انطلق الملك ريتشارد ملك إنجلترا وفيليب اغسطس ملك فرنسا من هنا، لشن الحرب الصليبية الثالثة في ٤ يولية ١١٩٠ وحين كان القديس ببرنار يعظ هنا يوم الأحد في عيد القيامة عام ١١٤٦، اضطر إلى إلقاء موعظته في الخلاء لأن المكان لم يتسم لمستمعيه.



ق بعد محاكمات دامت سبع سنوات، من التعذيب والاعترافات، وسحب الاعترافات، تم إحراق اخر معلم للهيكل جاك دى مولى، حيا مع أخيه في الجماعة، جيفرى دى شارنى، وفيما بعد كشفت عابلة دى شارنى عن القماش التي تعرف بغطا ، أو كفن تورينو - وهي قطعة القماش التي قد تكين الكنز الحقيقي لفرسان الهيكل.



١٠ في هذا العام جميع فرسان الهبكل سجنوا بأمر من ملك فرنسا . . في ١٣٠٧، تم القاء القبض على خمسة الاف من فرسان الهبكل في ليلة واحدة.



الهبكل موجودة في أوربا وهي أكبر قلعة لفرسان الهبكل موجودة في أوربا وقد تمت اعمال تنقب هنا حديثًا بسبب الاعتقاد بأن كنز فرسان الهبكل برقد مختفيا داخل المبنى. ولم يتم العثور على أي شيء.



۱۲ قربة كورتواراد، التى لا يسهل الوصول إليها حتى فى هذه الأيام، تقع فى الصحراء القاحلة. وهى تعد مثالا رائعا على مدينة من العصور الوسطى محفوظة بالكامل تقريبا والمبنى الكبر إلى اليمين هناك توجد قلعة فرسان الهكيل، وبجانبها كنيستهم حين حكموا المدينة، كانت مكانا واعدا وقد بنى التحصينات جميعا الإسبتاليون، ورثة جماعة الهيكل المنحلة



۱۳ أسوار إيج مورت، غير المهادنة مثل مبدعها، القديس لويس، تبرز من مياه أهوار كامارانج المالحة وإلى اليسار يوجد النهر الذى أبحر منه الملك القديس مرتين من أجل الحروب المصليبية.



١٤ - صورة رسمها متعاطف من القرن التاسع عشر لبابا من القرن الرابع عشر، ضعبف
 وفاسد، إنه صاحب المقداسة، كليمينت الخامس، الذي دمر جماعة الهيكل.



١٠ القديس لويس، ملك فرنسا



١٦ فيليب الأشقر، حعيد الملك القديس، يعتقد أنه قتل مع البابا الدمية التابع له، عن صريق لعنة آخر المعلمين.



١٧ - الرأس المصفور في الحجارة لأحد فرسان الهيكل في جدران الكنيسة لهيكل لندن

ثبت المراجع

- Albon, Marquis d' Cartulaire Général de l'Ordre du Temple, 1119?-1150. Paris, 1913.
- Albon, Marquis d' Fascicule Complémentaire contenant la Table des Sommaires des Actes et l'Identification des Noms des Lieux. Paris, 1922.
- al-Qalanisi, Ibn The Damascus Chronicle of the Crusades. Tr. and ed. H. A. R. Gibb. London, 1932.
- Anglo-Saxon Chronicle Tr. and ed. D. Whitelock, C. Douglas and S. Tucker. London, 1961.
- Barber, M. The Trial of the Templars. Cambridge, 1978.
- Bloch, M. La France sous les derniers Capétiens 1223-1328. Paris, 1958.
- Boase, T. S. R. Kingdoms and Strongholds of the Crusaders. London, 1971.
- Boussard, J. M. Atlas historique et culturel de la France. Paris, 1957.
- Brooke, C. N. L. and Keir, G. London 800-1216: The Shaping of a City. London, 1975.
- Broughton, B. B. The Legends of King Richard I Coeur de Lion: A Study of Sources and Variations to the year 1600. The Hague and Paris, 1966.
- Brundage, J. A. The Crusades A Documentary Survey. Milwaukee and Wisconsin, 1962.
- Bulst-Thicle, M. L. Sacrae Domus Militiae Templi Hierosolymitani Magistri - Untersuchungen zur Geschichte des Templerordens, 1118/9-1314. Göttingen, 1974.
- Burchard of Mount Sion A Description of the Holy Land, 1280. Tr. A. Stewart. London, 1896.
- Burns, R. I. The Crusader Kingdom of Valencia. Cambridge, Mass., 1967.
- Campbell, G. A. The Knights Templars Their Rise and Fall. London, 1937.
- Carrière, V. Histoire et Cartulaire des Templiers de Provins, Paris, 1919.
- Clifford, E. R. A Knight of Great Renown: The Life and Times of Othon de Grandson. Chicago, 1961.
- Cohn, N. Europe's Inner Demons. London, 1975.
- Comnena, A. Alexiad. Tr. into French B. Leib. Paris, 1937 45.
- Coulton, G. G. (Tr. and ed.) Life in the Middle Ages. London, 1910.

- de Curzon, H. Lu Règlé du Temple, Paris, 1886.
- de Curson, H. La Maison du Temple de Paris, Paris, 1888.
- de Deuil, O. De Profectione Ludovici VII in Orientem. Tr. and ed. V. G. Berry. New York, 1948.
- de Paris, G. Chronique. (Ms., 1313) Tr. into French J. A. Buchon.
- Digard, G. Philippe le Bel et le Saint Siège de 1285 à 1304. Paris, 1936.
- Dubois, P. De Recuperatione Terrae Sanctae. Ed. C. V. Langlois. Paris, 1891.
- Duby, G. and Mandrou, R. Histoire de la Civilisation Française. Paris, 1918.
- Duby, G. The Chivalrous Society. Tr. C. Postan. London, 1977-
- Durrell, I.. Monsieur, or The Prince of Darkness. London, 1974-
- Ernoul Chronique. Tr. and ed. M. L. de Mas Latrie. Paris, 1871.
- Evergates, T. Feudal Society in the Bailliage of Troyes under the Counts of Champagne, 1132-1284. London and Baltimore, 1973.
- Farnell, I. The Lives of the Troubadours. London, 1896.
- Favier, J. Philippe le Bel. Paris, 1978.
- Finke, H. Papstium und Untergang des Templerordens. Munster, 1907-
- Porey, A. J. The Templars in the Corona de Aragón. London, 1973-
- Fuller, T. The History of the Holy War. London, 1840 (first published 1639).
- Gabrieli, F. Storici Arabi delle Crociate. Tr. E. J. Costello. Turin, 1957, London, 1969.
- Gregory IV Dgha Catholicus Elegy on the Fall of Jerusalem. Published in Recueil des Historiens des Croisades, Documents Arméniens. Paris, 1869-1906.
- Growsset, R. Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jirusalem. Paris, 1934-36.
- Hillgarth, J. N. A. Ramon Lull and Lullism in Fourteenth Century France. Oxford, 1971.
- Holtzmann, R. Wilhelm von Nogaret, Rat und Grosssiegelbewahrer Philipps des Schönen von Frankreich. Freiburg, 1898.
- Huxley, J. From an Antique Land. Bath, 1972 (1st edn. 1954).
- Jeune, R. P. M. Histoire Critique et Apologétique de l'Ordre des Chevaliers du Temple de Jérusalem, dits Templiers. Paris, 1789.
- Johnston, R. C. (Ed.) The Crusade and Death of Richard I. Oxford, 1961.
- Lacroix, P. Military and Religious Life in the Middle Ages and the Renaissance. New York, 1964 (1st edn. 1874).

Lameyre, A. Guide de la France Templière. Paris, 1975.

La Monte, J. L. Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem 1100-1291. Cambridge, Mass., 1932.

Lane-Poole, S. Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem. London and New York, 1898.

Lees, B. A. (Ed.) Records of the Templars in England in the Twelfth
Century - The Inquest of 1189 with illustrative Charters and Documents.
London, 1935.

LeFebvre, Y. Pierre l'Ermite et la Croisade. Amiens, 1946.

Lizerand, G. Clément V et Philippe le Bel. Paris, 1910.

Lizerand, G. Jacques de Molay. Paris, 1913.

Lizerand, G. (Tr. and ed.) Le Dossier de l'Affaire des Templiers. Paris, 1923.

Luttrell, A. Two Templar-Hospitaller Preseptories North of Tuscania. Rome, 1971.

Madaule, J. P. La Drame Albigeois et le Destin français. Paris, 1961. Tr. B. Wall as The Albigensian Crusade - An Historical Essay. London, 1967.

Martin, E. J. The Templars in Yorkshire. York, 1929-30.

Melville, M. La Vie des Templiers. Paris, 1951.

Michelet, J. Procès des Templiers. Paris, 1955.

Mountfort, G. Portrait of a Desert: The Story of an Expedition to Jordan. London, 1965.

Oldenbourg, Z. St Bernard. Paris, 1970.

Paris, M. Chronica Majora vol IV. Ed. H. R. Luard. London, 1877.

Parker, T. W: The Knights Templars in England. Tucson, 1963.

Pegues, F. J. The Lawyers of the Last Capetians. Princeton, 1962.

Perkins, C. The Knights Templars in the British Isles. London, 1910.

Pernoud, R. Les Templiers. Paris, 1974.

Prutz, H. Die Geistlichen Ritterorden: Ihre Stellung zur kirchlichen, politischen, gesellschaftlichen und wirtschaftlichen Entwicklung des Mittelalters. Berlin, 1908.

Pugh, R. B. Imprisonment in Medieval England. Cambridge, 1968.

Richard, J. Le Royanme Latin de Jérusalem. Paris, 1953.

Röhricht, R. (Ed.) Regesta Regni Hierosolymitani (MXCVII-MCCXCI). Innsbruck, 1893.

Runciman, S. A History of the Crusades. Cambridge, 1951-54.

Sandys, A. The Financial and Administrative Importance of the London Temple in the Thirteenth Century. Manchester, 1925. Saunders, J. J. Aspects of the Crusades. Canterbury, 1962.

Schlumberger, G. Renaud de Chatillon, Prince d'Antioch, Seigneur de la Terre d'Outre-Jourdain. Paris, 1898.

Scott, W. Ivanhoe. London, 1906 (1st edn. 1819).

Schnorhali, N., Catholicus Elegy on the Fall of Edessa. Published in Resueil des Historiens des Croisades, Documents Arméniens. Paris 1869-1906.

Simon, E. The Piebald Standard. London, 1959.

Smail, R. C. Crusading Warfare (1097-1193). Cambridge, 1956.

Thrupp, S. (Ed.) Change in Medieval Society: Europe North of the Alps 1050-1500. New York, 1964, London, 1965.

Thubron, C. Mirror to Damascus. London, 1967.

Thubron, C. Journey into Cyprus. London, 1975.

Treece, H. The Crusades. London, 1962.

Trevelyan, G. M. A History of England. New York, 1942.

Tritton, A. S. (Tr.) The First and Second Crusades from an Anonymous Syriac Chronicle. London, 1933.

Walker, A. The Knights Templar in and around Aberdeen. Aberdeen, 1887.

Wakefield, W. L. Heresy, Crusade and Inquisition in Southern France 1100-1250. London, 1974.

Williams, W. W. St Bernard of Clairvaux. Manchester, 1935.

Wilson, I. The Shroud of Turin. London, 1978.

Wood, H. The Templars in Ireland. Dublin, 1906-7.

Yusuf ibn Rafi ibn Tamin Saladin; or, What Befell Sultan Yusuf (Salah Ed-din) (1137-1193 A.D.). Tr. C. W. Wilson. London, 1897.

Various authors Le Siecle de Saint Louis. Paris, 1970.

اللؤلف في سطور :

ستيفين هوارث

هو مؤرخ محترف، ومؤلف لعدة كتب، وهو ينصدر عن أسرة من المعلمين والكتاب، وقد كان كتابه الأول عن تاريخ ماسة كو ياك نور، وهو زميل في الجمعية الملكية الجغرافية.

المترجم في سطور:

إبراهيم محمد إبراهيم

- من مواليد أكتوبر ١٩٤٤.
- عمل أمين مكتبة في دار الكتب القومية منذ (١٩٧٠-١٩٧١).
- عمل مترجمًا في عديد من الهيئات المختلفة وبور النشر منذ (١٩٧٤ وحتى الآن) .
 - عضو اتحاد كُتُاب مصر.

- من ترجماته:

- ♦ الصرخة الصامئة دار الهلال (١٩٩٥).
- الجمعيات السرية دار الشروق (١٩٩٩).
- حين تبكى الأفيال الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠٠).
- ♦ المجتمع المصرى تحت الحكم العثماني الهيئة المصرية العامة الكتاب (٢٠٠١) .
 - تاريخ مصر القديمة شركة نهضة مصر (٢٠٠٩).
 - تاريخ الإنكا القديمة شركة نهضة مصر (٢٠٠٩) .

التصميح اللفوى: محمود حنفي

الإشراف الفنى : حسن كامسل





يقدم هذا الكتاب تسجيلا كاملا لأغرب ظواهر تاريخ العصور الوسطى؛ ظاهرة "جنود المسيح الفقراء"، أو "فرسان هيكل سليمان"، المعروفة باسم "فرسان الهيكل" الذين أصبحوا كنيسة داخل الكنيسة، ودولة داخل الدولة، وكانوا رجال بنوك، وتجاراً ودبلوماسيين وجامعين للضرائب. وقادوا حروباً صليبية ضد الدول الإسلامية في الشرق.

لقد اتهم "فرسان الهيكل" بالابتداع، والخيانة، واللواط وعبادة الأوثان والتجديف.

يلتزم هذا الكتاب بالحقائق التاريخية عند صعود هذه الجماعة دون تحريف أو انحياز. مع عرض للأساطير التي رويت عنهم.